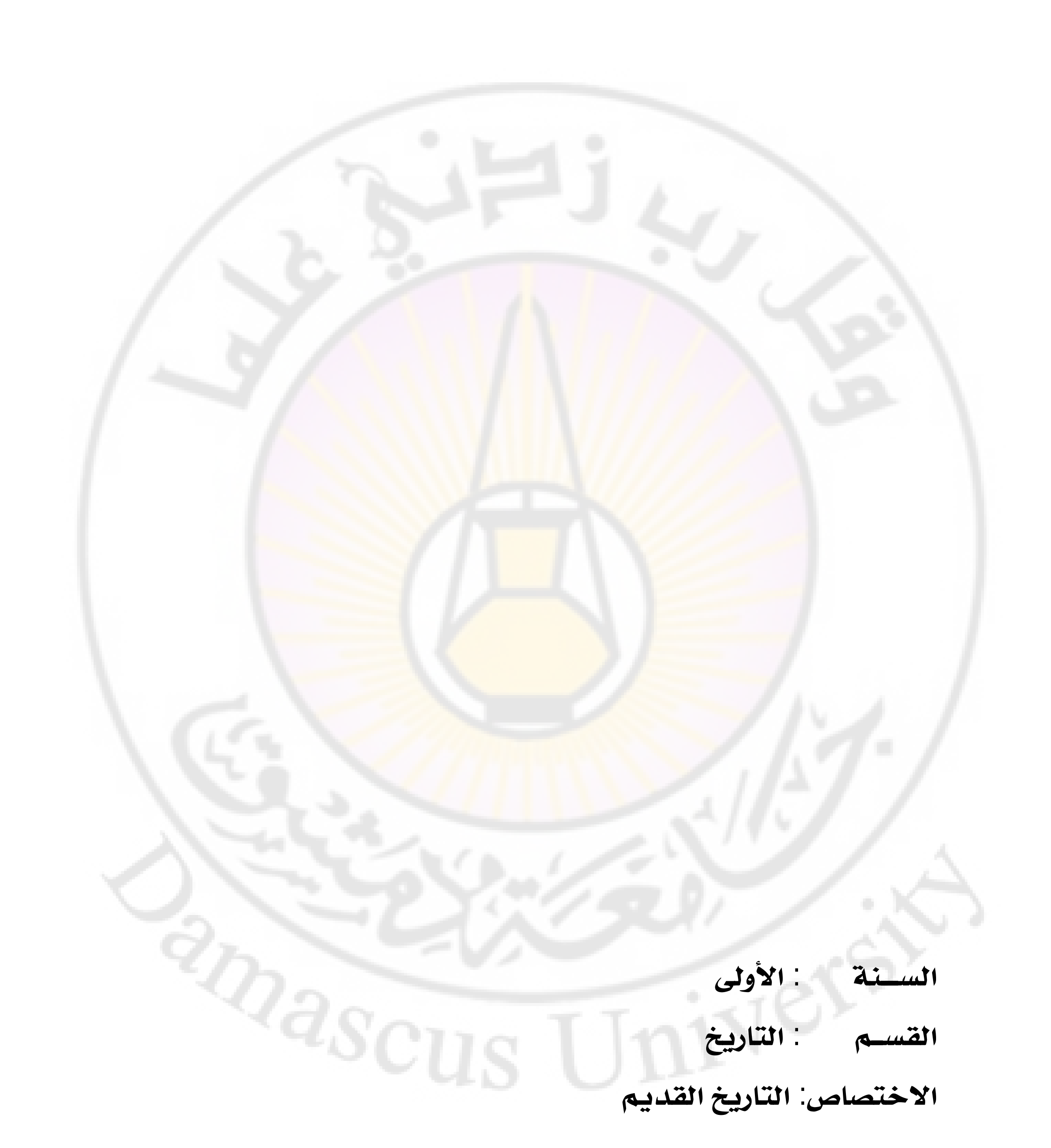


تاريخ الوطن العربي

في العصور الكلاسيكية



السـنة : الأولى

القسم : التاريخ

الاختصاص: التاريخ القديم



منشورات جامعــة دمشــق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الوطن العربـي
في العصور الكلاسيكية

الدكتـور
خليــل ســارة
أستاذ في قسم التاريخ القديم

جامعة دمشــق

١٤٢٩ - ١٤٣٠ هـ
٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م


Damascus University

N

الصفحة

الصفحة

الصفحة

القسـم الثالـث
التاريـخ الحضـاري لدولة البطالمة في مصر
(٣٢٣ - ٣١ ق.م)

الصفحة

الصفحة

القسم الخامس

الشرق الأدنى القديم في العصر الروماني

مصر - بلاد الشام (٣٠ ق.م - ٢٨٤ م)

الصفحة

تقديــم

بادرنا إلى تأليف هذا الكتاب استدراكاً لعاملين اثنين مهمّين :

أولهما: أن الكتاب السابق العائد لهذا المقرر، اقتصر على فترة عصر الإسكندر والفترة السلوقية في سورية. دون التعرض إلى أوجه النشاط السياسي والحضاري عند البطالمة في مصر والرومان في الشرق الأدنى القديم بشكل عام. ***وقد كانت من مهمتنا استدراك هذا النقص بأن أفردنا القسم الثالث من الكتاب لدراسة التاريخ الحضاري عند البطالمة في مصر، والقسم الرابع لدراسة تاريخ العصر الهيللينيستي في بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين.***

ثانيهما : لم يتطرق الكتاب السابق إلى الفكر الحضاري عند الإسكندر المقدوني (***أهدافه، نزعاته، مبادئه***) إلا بشكل عابر. إذ شكّل هذا النقص ثغرة أساسية ومهمّة في المادة العلمية الأساسية لهذا المقرر. واستدراكاً لهذا النقص فقد أفردنا فصلاً كاملاً تحت عنوان (***الفكر الحضاري عند الإسكندر المقدوني***) نظراً لأهمية هذا الفكر الذي شكّل القاعدة الأساسية لحضارة العصر الهيللينستي ارتكزت عليها كل مبادئ هذا العصر وأفكاره. إذ اعتبرت حياة الإسكندر الكبير مرحلة مهمّة جداً في التاريخ العالمي عسكرياً وحضارياً، لأنه دأب خلال عمره القصير لنشر لواء الحضارة اليونانية الإغريقية في العالم، عبر مشروعه الطموح الذي لم يستطع تحقيقه وهو فتح العالم وتوحيده تحت رايته في دولة عالمية كبرى. وإدراكه أنه من المستحيل إرساء قواعد دولته العالمية على أساس الاستعباد والتفاضل العرقي، وأنه لا مناص من صهر الفوارق ومزج الأجناس ودمج القارتين المتعاديتين لإنهاء البغضاء والكراهية التي طالت بينهما أكثر من قرن ونصف. ونتيجة لإعجابه بالحضارة اليونانية فقد جعلها القاسم المشترك لشعوب دولته العالمية، ***لتقليص الفوارق، وتسهيل التجانس، فاعتمدها مع وسائل أخرى ناجعة لتحقيق المزج والتوحيد.***

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام يمكن أن تُلحظ من خلال قراءة الكتاب، وهي اهتمامنا الكبير في التاريخ الحضاري للعصر الهيللينستي في ممالكه السلوقية والبطلمية، واستعراض مختلف الجوانب الحضارية لهذه الممالك الهيللينستية. إذ بدأ الاتجاه الجديد في دراسة التاريخ في عصرنا الحاضر يأخذ منحى دراسة الجانب الحضاري أكثر مما هو في الجانب السياسي الذي أشبع درساً وتمحيصاً. فلذلك اقتصرنا في الفصل الأول فقط لكل قسم على دراسة الجانب السياسي العائد لهذا القسم، وأفردنا الفصول المتبقية في كل قسم لدراسة الجوانب الحضارية.

وعلى الرغم من ذلك، فهذا لا يعني أننا أحطنا بهذا العصر من جميع جوانبه الحضارية. فدراسة العصر الهيللينستي معقدة وشائكة إلى درجة كبيرة لأنه ذو جوانب كثيرة ومتشابكة فيما بينها، ***ففيه الفلسفة، والإلهيات، والخرافات، والتصوف، والشطح، والعلم، والغنوص، والرصد الفلكي، والتنجيم، والفأل، والطالع***. فلذلك وباعتبار أن هذا المقرر يعود إلى طلاب السنة الأولى من المرحلة الجامعية الأولى في قسم التاريخ، اكتفينا ببعض اللمحات العامة الأساسية التي ارتكز عليها العصر الهيللينستي، دون الخوض في التفاصيل الدقيقة لهذا العصر. ويمكن لمن يود من أعزائنا الطلاب والقرّاء الأكارم الغوص في تاريخ هذا العصر الفريد في تاريخ الإنسانية، العودة إلى المراجع العامة والمصادر الأساسية التي أفردناها في مؤخرة الكتاب.

وأخيراً، فإننا لا ندعي صفة الكمال في هذه الدراسة، فما هي إلا معلومات عامة لطلابنا الأعزاء عن هذا العصر، آخذين بعين الاعتبار إدراكنا لكل الملاحظات التي تردنا حول منهج وأسلوب هذا الكتاب شكلاً وموضوعاً في التعديلات المستقبلية، بحيث تكون أكثر دقة وموضوعية بقدر ما نستطيع، وهذا هو هدفنا وقصدنا، فالكمال لله وحده.

دمشق في ١/٥/ ٢٠٠٨م

القسم الأول

(عصر الإسكندر)

(٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م)


Damascus University

البحث الأول

العصر الهيللينستي

تعريفه ـ حدوده ـ أعلامه

أولاً: تعريف العصر الهيللينستي:

يقسم المؤرخون عادة الحضارة اليونانية ***(أو الإغريقية)*** إلى قسمين، ويجعلون الحد الفاصل بينهما الفتح الإسكندري، ويسمون القسم الأول (***بالحضارة الهيللينية HELLENIC***) أي العصور أو الحضارة التي سبقت الإسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ق.م) أما القسم الثاني فيسمونه (***بالحضارة الهيللينستية HELLENISTIC***) للعصور التي تلت موت الإسكندر (٣٢٣ق.م) وامتدت طويلاً حتى العصر العباسي وإذا كانت الحضارة اليونانية (***الهيللينية***) التي سبقت ***الفاتح الكبير الإسكندر المقدوني حضارة عصر بركليس وسقراط وأفلاطون وأرسطو***، حضارة يونانية صرِفة، بسبب النزعة العقلانية التي تميزت بها، ***فالحضارة الهيللينستية***، بعد الفتح الإسكندري، ***كانت ذلك كان مزيجاً واختلاطاً إلى حد ما، بين ما هو يوناني وبين الحضارات الشرقية كالفارسية والمصرية والسورية والفينيقية حتى الهندية والصينية، وكانت الثقافة في هذه الحضارة مزيجاً من تراث معارف الأمم وتجاربها ودياناتها ومعتقداتها الخاصة ـ وهي بدورها مزيج من العلوم والأساطير كذلك.***

ويعتبر ***العصر الهيللينستي*** من أهم حقبات تاريخ الإنسانية، وقد كان للشرق دور كبير في هذا العصر، ويُعدّ أخصب حقبة على الإطلاق بما أعطاه من اتجاه جديد لا تزال آثاره باقية حتى يومنا هذا منذ عدة قرون، في ***العلوم والفلسفة والتصوف.***

ومن الغرابة بمكان أن الكتّاب في الشرق يهملون ـ إلى حد كبير ـ دراسة الفتح الإسكندري من زاويته الحضارية، وأثر هذا الحدث المهم في ***العصر الهيلليني*** وفي الشرق على العموم، إذا استثنينا الأبحاث القيمة التي ما فتئ الأستاذ عبد الرحمن بدوي يتحفنا بها منذ أكثر من أربعين عاماً، وبعضها معرّب عن كبار المستشرقين، وما يظهر بين الفينة والأخرى من دراسات جيدة ولكنها عامة ومقتضبة. وربما تعود هذه الظاهرة إلى صعوبة الإحاطة بهذا العصر من جميع جوانبه، فدراسة العصر الهيلليني صعبة المنال في الدراسة والبحث والاستقصاء إلى درجة كبيرة، إذ تتشعب جوانبه الكثيرة وتتشابك فيما بينها ففيه، ***الفلسفة، والإلهيات، والتفكير الرصين، والخرافات الصبيانية، والتصوف المتزن، والشطح الجامح، والعلم المتئد، وأشكال متنوعة من الرصد الفكي الجيد، والتنجيم والفأل والطالع***. وكذلك الأمر، فإن الأديان الموحدة والفلسفة والعلوم والفنون والبدع أخذت عن العصر الهيلليني الكثير من الصيغ والمصطلحات للتعبير عن ذاتها، واغترفوا منه الألفاظ والمفاهيم وأطر التفكير للتعبير عن معتقداتهم وتعاليمهم ونظرتهم في الأخلاق والمصير.

زد على ذلك أنه إذا كان لا بد لنا من فهم دقائق هذا العصر، يجب علينا معرفة كل من فلسفة ***أفلاطون وأرسطو*** التي سبقته، والإلمام بالمدارس الأخرى القديمة. ولكننا في هذه الدراسة سنكتفي بلمحة نذكر فيها بعض معالم هذا العصر الفريد في تاريخ الإنسانية، عسى أن تتطوع بعض المؤسسات العلمية بمثقفيها ودارسيها للتعاون على دراسة مختلف ظواهر هذا العصر الفريد.

ثانياً: حدود العصر الهيلليني:

يختلف المؤرخون في تعيين الامتداد الزمني للعصر الهيلليني باختلاف الزاوية التي ينظرون منها إليه. فمن *الوجهة السياسية العامة*، يعتبرون فترة الفتح المقدوني للشرق بداية للعصر الهيلليني، وفترة الفتح الروماني للشرق في عام (٣٠ق.م) نهاية له. أما من وجهة نظر الفلسفة الوثنية، فالعصر يمتد إلى عام (٥٣٩ ب.م)، ***أي عندما أصدر الإمبراطور جوستنيان (JUSTINIEN) أمراً بإغلاق المدارس الفلسفية في أثينة.***

ولكن في الحقيقة يجب القول، إن هذين التاريخين اللذين حددوا بهما بداية العصر الهيللينستي ونهايته، ليسا سوى اصطلاحين أشبه بالصوى على الطريق. فالتاريخ وحدة حية متداخلة لا تنقسم هذا التقسيم الآلي، كما أن معالم العصر الهيللينستي بدأت قبل الإسكندر المقدوني بكثير، واستمرت أيضاً إلى ما بعد الفتح الروماني للشرق، وهكذا فإن ظهور معالم الحضارة الهيللينستية، لم يكن حادثاً فجائياً، بل توّضعت أسسه منذ أن بدأت الصلات التجارية والثقافية القديمة بين السواحل الشرقية واليونانية، وظلت آثاره ماثلة في العصور الوسطى ولا تزال ملموسة في كثير من مظاهر الحضارات المعاصرة.

فاليونانيون اقتبسوا الكثير من أسس حضارتهم وعناصرها عن المصريين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من شعوب الشرق، ثم أسسوا المستعمرات اليونانية على شواطئ آسية الصغرى ومصر قبل أن يستولي الإسكندر المقدوني على بلدان الشرق الأدنى وتنتشر فيها معالم الحضارة اليونانية. وقد كتب السير ***(ليوناردو وولي)*** بهذا الصدد ما يلي: (***... لقد مضى الزمن الذي كانت ترجع فيه أصول جميع الفنون إلى بلاد اليونان، وأن حضارة اليونان قد انبعثت كاملة النضج من دماغ الإله الأولمبي زيوس. فلقد أصبحنا نعرف الآن، أن زهرة تلك العبقرية اجتذبت رحيقها من الليديين والحثيين والفينيقيين الكريتيين والبابليين والمصريين، ولكن جذور تلك الزهرة تمتد إلى أبعد من ذلك، إلى سومر التي هي أقدم جميع هذه الأمم***).

وتبين الوثائق التاريخية أن الكريتيين اقتبسوا بعض العناصر الحضارية عن المصريين ونقلوها بدورهم إلى الطرواديين والميكينيين وسائر سكان حوض بحر إيجة، وأن تلك العناصر أصبحت فيما بعد اللبنات الأولى في بناء صرح الحضارة اليونانية. وبالإضافة إلى هذه الصلات البعيدة الجذور **(الألف الثالثة والثانية ق.م)** أخذ اليونانيون اعتبارا من القرن الثامن ق.م، ينتشرون بكثرة في مصر كتجار أو جنود مرتزقة في الجيش المصري، وتجمعت الجالية اليونانية في مدينة *(نوكراتيس)* عند مصب النيل الغربي أي (مملكة البحر) التي بنيت فيها عدة معابد يونانية وبلغ عدد سكانها

نحو خمسين ألفاً. واقتبس بعض العلماء من الفلاسفة والفنانين اليونانيين الكثير من المعارف العلمية وغيرها من الأفكار عن المصريين مباشرة ويقول هيرودوت في هذا الصدد ما يلي :

(... فالإجماع قائم على أن المصريين اكتشفوا في دراستهم علم الفلك، السنة الشمسية وكانوا أول من قسمها إلى اثني عشر جزءاً، وأسلوبهم في الحساب هو في ظني أفضل مما بلغه الإغريق، ذلك أن الإغريق يكبسون شهراً بكامله كل سنتين حتى يستقيم لهم توزيع الفصول على النحو الملائم، بينما تتألف السنة عند المصريين من اثني عشر شهراً، كل شهر منها ثلاثون يوماً، ثم يكبسون خمسة أيام إضافية كل عام، فتكتمل بدلك حلقة الفصول، وأخبروني كذلك أن المصريين كانوا أول من سمى الآلهة الاثني عشر بأسمائهم، وعنهم أخذها الإغريق، ثم أنهم كانوا أول من ابتكر المذبح ونصب الأصنام وتشييد المعابد للآلهة ونحت التماثل من الحجارة، وقد أثبتوا لي صحة معظم هذه الروايات). *ويقول في مكان آخر :*

(كان المصريون أول من ابتدع الطقوس الجماعية والاحتفالات وتقديم القرابين والابتهالات للآلهة، وعنهم أخذ الإغريق هذه الأساليب، ويبدو لي سبق مصر في هذه الطقوس وقِدم عهدها بها، وحداثة الإغريق فيها دليل كاف على ذلك)[1].

نستنتج من كلام هيرودوت أن اليونانيين عرفوا من خلال هذا التمازج العظيم ومن خلال المقارنة مع المصريين، أنّ الفرق شاسع بين حداثة تاريخهم وحضارات الشرق القديم السحيقة في القدم، بعد أن بهرتهم الديانات الشرقية بشعائرها وطقوسها، ورأوا البون الشاسع بين جفاف عباداتهم المعتمدة التجريد، والعاطفة الجياشة التي رأوها تلف كل مظاهر تدين المصريين. وأيقنوا أن هذه العبادات والطقوس عند المصريين ما زالت تُمارس منذ قرون عديدة، وما زالت على حالها، على روعتها وجلالها. وإننا لنقرأ عند أفلاطون، قولاً ممتعاً يشير بوضوح إلى ذلك، إذ ورد في محاورته (طيماوس) وجهّه أحد شيوخ كهنة هيكل سايس في مصر إلى

---

(١) انظر: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد *الإله الملاّح*، مراجعة أحمد السقاف وحمد بن صراي، أبو ظبي، المجمع الثقافي ٢٠٠١م، الكتاب الثاني، ص١٣٤، ١٦٠.

صولون (٥٥٦ق.م) المشرّع الأثيني الكبير، بعد أن سمع منه حديثاً عن ماضي الأمة اليونانية فقال له: ***(صولون، صولون، أنتم اليونانيين لستم إلا أطفالاً ثرثارين ولن تشيخوا، لأنه ليس عندكم من آراء عتّقتها الأيام)***[٢].

وأدى الفينيقيون دور الوسيط في تمازج الحضارات وانتشارها، ونقلوا على سفنهم إلى بلاد اليونان الأواني الخزفية والزجاجية والأقمشة الأرجوانية والعبادات السماوية والحروف الأبجدية التي تشكل أهم مظهر حضاري من مظاهر الشرق القديم وأروع ما أعطته الحضارة السورية للعالم ويؤكد هيرودوت على ذلك بقوله:

(... وقد أدخل الفينيقيون الذين جاؤوا برفقة قدموس - ومن بينهم الجيفيراي - (وهم فرع من الفينيقيين) إلى بلاد الإغريق، بعد استقرارهم في تلك البلاد، عدداً من الفنون، أهمها الكتابة. وهي فن لم يكن على ما أظن معروفاً لدى الإغريق حتى ذلك الحين، وفي البداية استخدموا الأبجدية التي يأخذ بها سائر الفينيقيين، لكن بمرور الزمن تحولوا عن لغتهم، وعن الطريقة التي يرسمون بها شكل الحروف. وفي تلك الفترة كان معظم الإغريق الذين يسكنون في هذه المناطق أيونيين. وقد درسوا هذه الحروف على يد الفينيقيين وأخذوا يستخدمونها مع تعديلات طفيفة، وظلوا يشيرون إليها على أنها (الأبجدية الفينيقية). ولقد أصاب هؤلاء القوم بهذه التسمية، ذلك أن الفينيقيين هم من أدخل هذه الأبجدية)[٣].

وإذا انتقلنا إلى الصلات الحضارية بين بلاد ما بين النهرين وبلاد اليونان التي تمت بصورة رئيسية عن طريق آسية الصغرى على يد الحثيين والليديين، ***نرى أن الحضارة البابلية (السومرية)*** أسهمت إسهاماً واسعاً قي تقدم العلوم وعلى رأسها علم الرياضيات الذي كان أبهى هذه العلوم، حيث فُكت رموز مئات الألواح البابلية

---

(٢) Platon , timée, 22, a, et la collection Budé, p 132 ، ومحاورة (***طيماوس***) ملحمة رائعة تحاكي ملاحم نشأة الكون، والتي اعتبر فيها أفلاطون (العالم أجمل ما صُنع وصانعه أجمل صانع)، وأن الخير والجمال يتغلغلان في ثناياه، وأن النظام فيه يقود إلى الخير الأمثل (***طيماوس*** ٦٨ ،هـ ٥) والكون هو أرقى ما أتى به الكائن الأفضل (***طيماوس*** ٣٧، د)، ومن أجل ذلك كله كان العالم تحفة فنية (***طيماوس*** ٣٣ د، آ).

(٣) انظر: هيرودوت، الكتاب الخامس، ص ٣٩٦.

العائدة إلى مسائل حسابية تعود على الأقل إلى عام (٢٥٠٠ ق.م)، إذ عُثرت في تلك الرُقم على عمليات تمت بصلة إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى والثانية بل حتى السادسة. ويؤكد بيير روسو، على أن كلمتي ***(الجبر والمقابلة)*** المستعملتين في اللغة العربية ليستا سوى ترجمة للفظتين بابليتين هما ***(جابرو ـ ماهارو)***، وأن البابليين عرفوا نظرية مربع وتر المثلث القائم، التي نُسبت بعد ألف وخمسمائة عام إلى عالم الرياضيات اليوناني فيثاغورس[(٤)].

وعلى هذا الأساس الراسخ من الرياضيات المعتمدة النظام الستيني، رصد العلماء البابليون على الرغم من معرفتهم بالنسق العشري، الأجرام السماوية وأتقنوا معرفة جريان الكواكب وحركات النجوم وزمن ظهورها وأفولها، وعرفوا مسبقاً وبدقة مرضية زمن كسوف وخسوف الأجرام السماوية.

ومنذ الألف الرابع ق.م، عيّن البابليون أشهر السنة، وفي مستهل الألف الثاني جعلوا أيام السنة ٣٦٠ يوماً (٦٠ × ٦ = ٣٦٠) وأدخلوا عليها فيما بعد إضافة حسابية ليجعلوا الحول يتوافق مع فصول السنة، بسبب اعتمادهم الأشهر القمرية، وتمكنوا من رصد نجم عشتار ***(الزهرة)*** عام ١٦٥٠ ق.م، وقسّموا اليوم الفلكي (النهار مع الليل) إلى ١٢ ساعة، وجعلوا الأبراج اثني عشر برجاً، كما تعتمد اليوم في الفلكيات والكشف عن الطالع، وجعلوا لكل شهر رمزاً حيوانياً على أساس ما تصوّروه في المجموعات النجمية، وجعلوا لكل شهر اسماً تم نذره لأحد آلهتهم.

وانتشرت المدارس البابلية الفلكية، وكان أشهرها قائماً في مدن أوروك ***(الورقاء)***، وبقي عدد منها يعمل حتى بعد زوال الإمبراطورية السلوقية إبّان التسلط الروماني.

أما تأثير الفلكيات البابلية في اليونان فكان ضئيلاً، لأن هذا العلم كان يعتمد ***عند اليونان الأسلوب الهندسي، بينما كان يعتمد عند البابلين الأسلوب الحسابي.*** لكن لامناص من التسليم على الرغم من ذلك، بأن علم الفلك البابلي انتقل إلى

---

(٤) عن كل هذه النظريات راجع:

Pierre Rousseau , Histoir de la Science, Fayard , pp .20, 21.

اليونانيين على يد العالم اليوناني الكبير (***أودكس***) (٤٠٩ ـ ٣٥٦ ق.م) وهو أعظم رياضي وفلكي في عصره، مارس الرصد الفلكي ***أولاً***، قرب ***هليوبوليس*** (على الشاطئ الغربي للنيل قرب الدلتا) ***وثانياً***، في بلدته ***كنيدوس*** التي تقع قرب مدينة ***هاليكارناسوس*** على ساحل آسية الصغرى الغربي، الذي كانت تنتهي إليه أهم طرق القوافل الآتية من بلاد فارس قاصدة بحر إيجة. ومن المعروف أن الفرس سيطروا على كل آسية الصغرى منذ فتوحات ***قورش الكبير*** (٥٣٠ق.م) وسكنت جاليات فارسية في أكثر موانئ بحر إيجة لإدارة مصالحها التجارية، ونتج عن ذلك ***حوار واختلاط وتمازج***، وبواسطة هذه العناصر الحضارية الثلاثة استطاع (***أودكس***) التعرّف على الكثير من معارف الفلك عند البابليين وعقائد الفرس (***وخاصة ثنائية الفرس الخاصة بإله الشر وإله الخير وهما في صراع دائم***) حيث أشاع (***أودكس***) مثل هذه العقائد في أكاديمية أستاذه أفلاطون في أثينة. ويُعدّ (***أودكس***) أول من وفّق بين الأبراج الكلدانية وكبار آلهة اليونان الاثني عشر، مخصصاً إلهاً لكل شهر من أشهر السنة، ***وأنه أول من نقل الرصد البابلي من الأسلوب الرياضي إلى الأسلوب الهندسي اليوناني***، وأدخل تصحيحاً على التقويم طالباً إدراج يوم إضافي واحد كل ثماني سنوات لحفظ توافق الفصول مع حركة الشمس، وتعرّف على عدد ساعات النهار، ومجموعة أرصاد غطت عدة قرون، واحتوت عدداً كبيراً من مسائل الكسوف والخسوف، إضافة إلى نقله آفة التنجيم الكبرى وما يستلزمه من اعتقاد بالجبرية والسحر[٥].

ومن خلال ما سبق يمكننا القول، إن الصفات العامة لهذا الاتصال الحضاري بين الشرق والغرب قد تم أحياناً بصورة مباشرة، وأحياناً على الغالب بصورة غير مباشرة أي عفوية بواسطة بلد أو شعب وسيط. وكذلك حدث هذا الاتصال بصورة سلمية أحياناً، وعن طريق الحرب أحياناً أخرى. كما كان تأثير الشرق على الغرب

---

(٥) بقي الأمر على هذا المنوال حتى عهد يوليوس قيصر (٤٤ق.م) إلى الفلكي اليوناني سوزيجين الذي أعاد النظر في التقويم، فرأى أن يضاف يوم واحد كل أربع سنوات، وهذا ما يعرف بالإصلاح اليولياني. وحول هذا الموضوع راجع:

ED, Dhorme et R, Dussaud, les religions de Babylonie et d'Assyrie et les religions des Hittites. p 258. Festugiére, études de philosophie grecque, vrin, 1971, pp. 50, 55.

ملموساً في أكثر النواحي العملية من دين وكتابة وعلوم وصناعة وتجارة، بينما كان أضعف من ذلك في الأمور الأخرى. وبما أن الحضارة اليونانية بدأت الخطوة الأولى في سيرها الحضاري عندما كانت الحضارات الشرقية في قمة النضج، فقد كان تأثير الشرق عليها قوياً في بادئ الأمر، ثم أخذ بالتراخي والتضاؤل مع تقدم ورقي الحضارة اليونانية، ثم ما لبث مثل هذا الأمر أن أنقلب إلى العكس حين اندفعت الحضارة اليونانية نحو الشرق نفسه وفي عقر داره، أثناء حملة الإسكندر المقدوني وما بعدها.

ويرى بعض المؤرخين في ***الحضارة الهيللينستية***، إنها حضارة جديدة يونانية شرقية، ويقول البعض الآخر، إنها استمرار للحضارة اليونانية، وآخرون يرون، إنها حضارة شرقية متأغرقة. ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع القول،***إن الحضارات كالأفراد تنتقل من مكان إلى مكان فتأخذ وتعطي، وتتفاعل وتتطور، وتتأثر وتؤثر، بل إن صح القول قد يتزوج بعضها من بعض، فتنجب ذرية تحمل بعض صفات الزوجية إلى جانب صفات خاصة جديدة.***

ثالثاً: أثر الفتح المقدوني على التفاعل الحضاري:

لقد رأينا كيف أن جذور الحضارة الهيللينستية ***(أي التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب)*** تمتد إلى عصور موغلة في القدم. ولكن تلك الجذور كُتب لها أن تنمو وتورق وتثمر بسرعة كبيرة عندما تهيأ لها المناخ المناسب في ظل إمبراطورية ***عالمية واحدة*** رسم حدودها الأولية الإسكندر الكبير بسيوف مقدونية ويونانية ثم تابع العلماء والفلاسفة والفنانون والتراجمة وغيرهم العمل على بناء صرح حضارة جديدة في لونها أصيلة في عناصرها، فجاء المؤرخون المعاصرون ليعلنوا عن بدء حضارة جديدة في شكلها ومضمونها تسمى ***(الحضارة الهيللينستية)***.

نحو منتصف القرن الرابع ق.م، استطاع ملك مقدونية ***فيليب الثاني*** أن يُخضع تحت سلطته بلاد اليونان وراح يمد ببصره نحو الشرق قاصداً الفتح والتوسع وحالما بالتربع على عرش إمبراطورية كبرى تمتد حدودها من الأطلسي إلى الصين. ولكن المنية لم تمهله حتى يحقق الحلم العظيم، فغادر الحياة تاركاً ذلك العبء الثقيل إلى ابنه

الشاب ـ ***الإسكندر الكبير***ـ الذي قاد جيوش البلقان باتجاه الشرق، فتداعت تحت ضربات سيوفهم عروش فارس والهند وبابل ورفعوا رايات النصر فوق سورية ومصر، فاندفع المد المقدوني واليوناني يغمر تلك البلاد بعد أن فتح له الطريق ذلك القائد الشاب الذي جر وراءه خيوط الحضارة اليونانية لتكون سدى نسيج حضاري جديد لُحمته خيوط من الشرق. ولقد رغب الإسكندر أن ينسج الخيط الأول بيديه، فأصدر المراسيم والأوامر كي تتزوج الحضارات من بعض، واحتفل شخصياً بزفاف آسية على أوروبة فكان هو الزوج الأول بين ثمانين من كبار ضباطه حيث زُفت إليه ابنة ملك الفرس، كما زُفت إلى ضباطه أيضاً ثمانون فتاة من عذراوات الفرس الجميلات. ***وهكذا أراد الإسكندر أن يصهر في بوتقة واحدة، العناصر البشرية المتعددة في إمبراطوريته، وأراد أن يوحد القارتين المتعاديتين برباط زواج متبادل لعل تولد ذرية جديدة تكون أكثر انسجاما وتقارباً في أفكارها وعاداتها وتقاليدها.*** ولكن إلى أي مدى من النجاح بلغ مشروع الإسكندر يا ترى ؟ لقد انطبق على الإسكندر ومشروعه قول الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لقد امتدت يد المنون مبكرة على الإسكندر وهو لا يزال في العقد الثالث من العمر فشيع (سنة ٣٢٣ق.م) باحتفال مهيب قبل أن يجني ثمار مشروعه ويرى عياناً الأجيال الجديدة التي أراد لو كُتب له عمر طويل أن يربيها تربية خاصة تحمل أفكاراً عالمية موحدة. وجدير بالملاحظة أن محاولة الإسكندر كانت تبدو لبعض اليونانيين عملية مستحيلة ولم يصادف مشروعه هوى في نفوس كبار ضباطه فلاقى حتفه من تجرأ منهم على انتقاده بصراحة وعاد الآخرون يُؤْثرون فكرة قيام الدول الصغرى أكثر من إنشاء الإمبراطوريات الكبرى.

وبعد وفاة الإسكندر ذرت الفوضى قرنها في كل مكان، فدفعت أسرة الإسكندر الثمن غالياً واقتسم أشهر قادة الإسكندر الإمبراطورية فيما بينهم. فأسس ***سلوقس*** أسرة حاكمة في الشرق الذي شمل فارس وآسية الصغرى وبلاد الشام وأطلق عليه فيما بعد ***دولة السلوقيين***. أما مصر فكانت من حصة ***بطليموس*** الذي أسس سلالة حكمت مصر نحو ثلاثة قرون وعُرفت في التاريخ باسم ***دولة البطالمة***. ولكن الدولة

الثالثة التي أسسها ***أنتيجونوس*** في ***مقدونية*** وما تبعها من بلاد اليونان، لم تعّمر سوى سنوات معدودات إذ عمتها الفوضى والفتن وانقسمت إلى عدة دويلات بعد مقتل مؤسسها سنة ٣٠١ ق.م.

وقد ظلت الإمبراطورية التي رسم حدودها الإسكندر الكبير ممزقة على تلك الحال حتى أواخر القرن الأول ق.م، حين اندفعت عبر المتوسط موجة جديدة لتغمر بر الشرق. تلك الموجة هي جحافل الرومان، التي استطاعت بعد خوض المعارك هنا وهناك أن تسيطر على المسرح الذي سيطر الإسكندر عليه من قبل باستثناء بعض الزوايا الجانبية.

نعود بعد هذا العرض التاريخي الوجيز لنتلمس بعض الجوانب من مظاهر تلك الحضارة الجديدة التي خيمت على الشرق بين الفتحين المقدوني والروماني ونحدد ببحثنا هذا الحيز المكاني في بقعتين فقط هما مصر وسورية.

اهتم الإسكندر وخلفاؤه من بعده بالحركة العمرانية، فأمروا ببناء المدن الكثيرة في الشرق على الطراز اليوناني بغية تسويد الصبغة اليونانية في هذه الديار. وأقيمت الأبنية العامة في معظم هذه المدن من ***مسارح، وملاعب، ومعابد، وقصور، ومتاحف، وحمامات ومكتبات، وحدائق حيوانات ونباتات، وساحات عامة (آغورا)، وأسواق تجارية.***

على هذا النمط الآنف الذكر شيد الإسكندر المقدوني مدينة ***الإسكندرية*** بالإضافة إلى مدن أخرى تخلد اسم الفاتح العظيم. وكذلك حذا حذوه خليفته على سورية ***سلوقس الأول***، الذي كان أكثر خلفاء الإسكندر حماسة واندفاعاً لنشر الحضارة اليونانية، إذ شيد وحده قرابة ستين مدينة: ***منها ١٦ إنطاكية على اسم والده أنطيوخس وتسع سلوقيات على اسمه، وبضع لاذقيات على اسم والدته لاوديكي، وأفامية واحدة (قلعة المضيق اليوم) على اسم زوجته الفارسية أباما.***

وقد أهتم ***البطالمة والسلوقيون*** بتنشيط الحركة العلمية، فشهدت ***الإسكندرية وإنطاكية*** نهضة ثقافية كبرى وأصبحتا محط أنظار العلماء والفلاسفة والفنانين، الذين راحوا ينزحون عن المدينة العريقة أثينة وغيرها من المدن اليونانية حيث سادت الفوضى والاضطرابات بلاد اليونان بعد وفاة الإسكندر الكبير. ففي ***الإسكندرية*** وضع ***إقليدس*** أبحاثه الرياضية المشهورة، وفيها عاش المؤرخ والفيلسوف والجغرافي

ايراتوستنيز الذي وضع أول مخطط جغرافي للعالم وحدد قطر الكرة الأرضية برقم يقل ثمانين كيلو متراً عن الرقم الصحيح ، وفي هذه المدينة أيضاً وضع **هيباركوس** أول أطلس فلكي سجل فيه أكثر من ألف كوكب، وعلّم **جالينوس** فيها علوم الطب والجراحة، كذلك ارتحل ***أرخميدس*** من صقلية إلى الإسكندرية ليتابع أبحاثه العلمية هناك.

ومما ساعد على ازدهار العلوم في ***الإسكندرية*** استقرار الأوضاع السياسية في مصر وسيطرتها على الملاحة والتجارة العالمية في تلك الفترة. كما أن تشجيع **بطليموس** للعلم والعلماء وتخصيص الرواتب الدائمة لهم، وتأسيسه لمتحف **الإسكندرية** كأول جامعة يرتادها الطلاب والعلماء لمتابعة أبحاثهم فيها، وكذلك تدشينه ***لمكتبة الإسكندرية*** الشهيرة كأول دار للتأليف والنشر (***فرض على كل عالم يزور الإسكندرية أن يقدم لتلك المكتبة نسخة عما كتبه، فيوالي النساخ العاملون في نسخ الكتب لتباع لمن يشاء أو تصدر إلى خارج البلاد. كما صُنفت الكتب فيها بطريقة منظمة ووضع فهرس بمحتوياتها لتسهيل الإطلاع والمطالعة)***[٦]، كل هذا دفع بعجلة التقدم العلمي أشواطاً بعيدة نحو الأمام وأصبحت ***الإسكندرية*** المركز الثقافي الأول في العالم الهيللينستي تجتمع فيه وتشع آراء الفلاسفة ونظريات العلماء وأقوال الأدباء والمفكرين.

أما في **سورية** فقد أصبحت المدن السلوقية ***كإنطاكية والرها وحران ورأس العين وأفاميا*** من المراكز الثقافية الهامة التي حملت لواء الحضارة اليونانية. ففي ***أفاميا*** أدى ثلاثة من الفلاسفة السوريين دوراً كبيراً في إقامة المدارس الفلسفية في ***أثينة*** أمثال **بوسيدونيوس** ***POSSIDNIUS*** (٥٠ق.م)، وهو ***رواقي*** وعالم كبير إلى جانب اعتقاده الراسخ بالتنجيم ويعتبر المسؤول الأول عن ترويج هذا العلم بين الطبقات الرومانية العليا[٧]، ***ونومينيوس NUMENIUS*** من القرن الثاني الميلادي، وكان ***أفلاطونياً***، وطور تعاليم بوسيدونيوس الفلسفية، وكانت فلسفته تعتمد أن يرجع كل ما أتى به

---

(٦) حول تفاصيل إحداث وتنظيم مكتبة الإسكندرية انظر: ***مصطفى العبادي - مصر في العصر الهيللينستي*** - بيروت ١٩٨٨ م ص ١٥١ — ١٩٢.

(7) E, Deplaces, la religion grecque, Picard, 1969, p 282.

الفكر اليوناني إلى التعاليم الشرقية[8]، ***ويمليخوس القنسريني*** ***JAMBLIQUE***(٣٣٠ ب.م) وهو من المسؤولين عن الانحطاط الذي أصاب **الأفلاطونية المستحدثة**، إذ انصرف أتباعه وتلاميذه في الشرق عامة ولاسيما في أثينة عن التفكير الفلسفي الرصين إلى اصطناع الشعوذات وأعمال السحر إلى أن استفحل الأمر في أثينة وأقدم الإمبراطور **جوستنيان** سنة ٥٣٩ ب.م على إغلاق تلك المدارس، ولم يشمل هذا الحظر الإمبراطوري، كما هو معروف، مدارس الإسكندرية الفلسفية، فدام فيها التعليم حتى الفتح العربي، قبل انتقال أساتذتها وتلامذتها إلى إنطاكية وحران ثم إلى بغداد.

وكان لانتقال ***مدرسة الإسكندرية*** إلى بغداد، التأثير الكبير على فلسفة العصور العباسية، إذ أخذت المدارس الثقافية في هذه العصور بنقل التراث الفكري اليوناني إلى اللغة السريانية والعربية. وإننا إذا أخذنا بعين الاعتبار ضخامة حركة الترجمة التي ظهرت عند العرب على يد من عُرفوا ***بأهل الذمة (السريان والصابئة)*** وغيرهم من التراجمة أمثال ***المعتزلة وأخوان الصفا***، وإذا تفحصنا نوع إنتاجهم ومنحى تفكيرهم، رأينا في فلسفة الأحقاب العباسية، امتداداً سوياً وطبيعياً لفلسفة ***العصر الهيللينستي***. فقد كان هؤلاء العلماء من التراجمة الأداة الرئيسية التي اتصل من خلالها العرب المسلمون بعلوم اليونان وفلسفتهم، والواسطة التي انتقل من خلالها التراث السرياني واليوناني إلى بلاد فارس والشرق الأقصى.

والواقع أنه لم يكن بإمكان أهل الذمة على وجه خاص، القيام بهذا الدور المتميز في الحضارة العربية الإسلامية، لولا توفر جملة من العوامل أهمها، أن ***الحضارة العباسية*** كانت أشبه ببحر تدفقت إليه أنهر العلوم وأساطير الأمم المختلفة من كل حدب وصوب. وكان الوسطاء كثراً، فكل أمة وملة وكل حامل ثقافة من مختلف الأمم والشعوب أتى ببضاعته الثقافية إلى بغداد، من ***نساطرة ويعاقبة وصابئة ومجوس*** ومن حملة ***الغنوص (GNOSE)*** الآرامي الهيللينستي الذين كانوا يحاولون مزج الأساطير بالدين المسيحي وبرزت فيه بوادر الأفلاطونية المستحدثة. وكان من

---

(8) F, Cumont, les religions orientales dans le paganisme romain 1963, P. 288.

أبرز هؤلاء في القرن الثالث الميلادي ***أوريجانوس المسيحي*** (٢٥٤ب.م) ***وأفلوطين الوثني*** رائد الوحدانية (٢٧٠ب.م)[٩].

ويأتي في الأهمية الثانية، ***التسامح الديني*** الذي دعا إليه الإسلام، ومارسه الخلفاء والأمراء المسلمون على أرض الواقع، فقد تمتع ***أهل الذمة*** بالحرية الدينية والفكرية، وبحماية الدولة ورعايتها، وجاء تشجيع الخلفاء والأمراء المسلمين للعلم والعلماء، بغض النظر عن الدين واللون والجنس، ليدفع أهل الذمة للإسهام عفوياً وبحماسة شديدة في النهضة العلمية في العصر العباسي.

نضيف إلى كل ما تقدم، أن منطقة شمالي ***العراق وسورية***، ومنطقة ***بلخ*** (أفغانستان اليوم)، كانتا من أهم المراكز التي ساهمت بإخصاب الحركة الفكرية في بغداد: ***الأولى*** بما أعطته من عدد كبير من التراجمة، ***والثانية*** بعلمائها، وبما قدّمه ***البرامكة البلخيون***، من عون وتشجيع لحركة الترجمة التي أغدق عليها الخلفاء العباسيون الأموال دون حساب. ونلاحظ أن هاتين المنطقتين كانتا الأكثر (***تأغرقاً***) من كل المناطق الآسيوية الداخلية التي فتحها الإسكندر، بما شاد من مدن في بكترية، ومحطات مراقبة مقدونية، وبما سيحققه السلوقيون من بناء مدن في شمال العراق وسورية تشبهاً بالفاتح[١٠].

وبعد ذلك، انتقل التراث اليوناني إلى الأوروبيين بواسطة علماء العرب في ***الأندلس وجنوب إيطالية وصقلية***، ثم في ***بلاد الشام*** أثناء الحروب الصليبية. فكان ذلك من أهم العوامل في قيام حركة ***النهضة الأوروبية***، وقد اندفع الأوروبيون منذ ذلك الحين إلى أحياء التراث اليوناني في كل جوانبه الحضارية، بغض النظر عن الحجم الذي اتخذه كل جانب منها، سواء أكان ذلك يمس الناحية السياسية أم الاقتصادية أم العسكرية أم الفكرية أم الفنية أم الأدبية، ثم لم يكتفوا بالتفاسير والشروح الهيللينستية بل رجعوا إلى الأصول والنصوص اليونانية نفسها.. وانتهى الأمر إلى

---

(٩) انظر: ***متوديوس زهيراتي، الإسكندر الكبير*** (فتوحاته وريادة الفكر اليوناني في الشرق)، دمشق، دار طلاس ١٩٩٩م، الطبعة الأولى، ص ٢٣٤.

(10) Arnold Toynbee, L' Histoire encyclop Elsevier1975. 404, seq Cartes, p 473 et 475.

سيطرة الفكر اليوناني على الحضارة الحديثة حيث يستحيل فهم أية ناحية من الحضارة الأوروبية الحديثة دون الرجوع إلى أصولها في التراث اليوناني. فلذلك نرى، أن الحضارة اليونانية ما زالت حية في أوروبة حتى العصر الحاضر. ***فالمدارس، والرياضة، والعلوم، والفنون بأنواعها، والمذاهب الفلسفية، والنظم السياسية وغير ذلك من الأمور،*** قد ظهرت عند اليونانيين أم أنها تطورت على أيديهم، ولا تزال شعوب أوروبة تسمي كل هذه الأمور بأسمائها اليونانية القديمة[١١].

وأخيراً، إذا ما حاولنا أن نتلمس بعض الملامح والصفات العامة للتفاعل الحضاري الذي تم بين الحضارة اليونانية والحضارات الشرقية أثر الفتح المقدوني للشرق نجد أن الحضارة الهيللينستية كان لها ***وجهان*** في الشرق. فالمدن الجديدة كانت أشبه بالجزر اليونانية في بحران الشرق وهي يونانية في لغتها ومؤسساتها ونظمها وتقاليدها وشكلها الخارجي. أما ***الوجه الثاني***،فهو شرقي خالص فاللغة والأفكار والآلهة المصرية القديمة، وكذلك اللغة الآرامية والمؤسسات السورية والوحدانية العبرية ولغة بابل وآلهتها وآلهة آسية الصغرى وفارس ولغتهما ـ كل ذلك ظل ماثلاً حياً في قرى الشرق ومدنه القديمة.

وهكذا فإن الحضارة اليونانية لم تستطع السيطرة تماماً على الحضارة الشرقية، بل ظهرت الحضارتان معاً حتى إن بعض المؤسسات الشرقية القديمة كانت تظهر أحياناً في ثوب يوناني ظاهري.

ولكن رغم ذلك حدث تفاعل واختلاط واقعيان بين الحضارتين، فكان تأثير الشرق أقوى في ميدان ***السياسة والدين***، بينما كان تأثير اليونان أقوى في مجال ***العلم والفن والفلسفة.*** وكان نظام الحكم في اليونان يقوم على أساس دول المدن المستقلة وعلى النظام الجمهوري، فأصبح نظام الحكم تحت تأثير الشرق ***ملكياً*** على الطراز الشرقي. ***وكذلك دخلت على الديانة اليونانية بتأثير الشرق فكرة الحياة الآخرة وتسربت الغوامض والأسرار الدينية الشرقية إلى اليونان، وأضيفت إلى الآلهة اليونانية صفات شرقية جديدة.***

---

(١١) انظر بالتفصيل: ***محمد كامل عياد***، ***تاريخ اليونان***، دمشق ١٩٦٩، الطبعة الأولى، ص ٩ ـ ١٧.

أما في مجال الفلسفة والعلوم والفنون فكانت الغلبة ***للفكر اليوناني***، حيث انتشرت في الشرق فلسفة ***سقراط وأفلاطون وأرسطو*** وتلاميذهم، واختلطت بالأفكار الشرقية، فنشأت مذاهب فلسفية جديدة مثل ***الرواقية***، وهي فلسفة الاحتمال والصبر التي وضعها **زينون**[12]، ***والأبيقورية*** وصاحبها ***أبيقور*** الذي يرى أن السعي وراء السعادة غاية الحياة. كما انتشر في القرن الثالث الميلادي مذهب ***الريبية*** الذي وضعه **بيرون**، ومذهب ***الأفلاطونية*** الحديثة الذي أسسه ***أمونيوس*** وتلميذه ***أفلوطين*** في الإسكندرية، ***وهو مزيج من أفكار أفلاطون والعقائد المسيحية واليهودية***. وقد اهتم المثقفون بالفلسفة حتى أصبحت دين الخاصة وانتشرت بين عوام الشعب أيضاً فأثرت في نواحي حياته العملية.

كذلك أصبح للعلم مفهوم جديد اتصف ***بالعالمية*** بعد أن كان محصوراً في أطر إقليمية ضيقة، وأصبح العالِم ينقل علمه إلى طلاب من قوميات وبلاد مختلفة. كما أصبح المؤرخون اليونان (**هيرودوت مثلاً**) يكتبون أيضا عن تاريخ الشعوب الأخرى غير اليونانية بعد أن كان تأريخهم يقتصر على الحوادث المحلية بصورة رئيسية.

رابعاً: أعلام العصر الهيللينستي:

يمكننا إرجاع قيام العصر الهيلينيستي إلى خمسة أعلام هم حصراً من العصر الهيلليني، أصابت أقلامهم الدراسات الشرقية من علوم وفلسفة ومعتقدات وتمازج العبادات بين الشرق والغرب، وكان إسهامهم كبيراً في الخروج بهذه الدراسات إلى حيز التأليف ونشر المصنفات العلمية وإقامة المدارس الثقافية والأكاديميات العلمية التي أدت دوراً كبيراً في إرساء قواعد العصر الهيللينستي. وهؤلاء الأعلام هم على التوالي:

١- ***إيسوقراط (٤٣٦ ـ ٣٣٨ق.م)*** الذي بلغ باللغة اليونانية حد الكمال في رونقها وروعتها، وكان الداعية طوال نصف قرن دون كلل أو ملل، للدعوة إلى اتحاد دول المدن اليونانية والثأر من الفرس، وتحرير المدن الأيونية في آسية الصغرى من

---

(١٢) دعيت ***بالمدرسة الرواقية***، لأن مؤسسها ***زينون*** وهو أحد القبارصة من أصل فينيقي كان يعلّم تحت رواق دعي بوسيل (***POECILE***) في الساحة العامة.

النير الفارسي، وهو الذي لفت أنظار مواطنيه إلى تحقيق دعواته بشخص فيليب المقدوني.

٢- ***أفلاطون (٤٢٩ ـ ٣٤٧ ق.م)*** أستاذ أرسطو خلال عشرين عاماً، ويعتبر الرائد الحقيقي للفكر الديني في العصر الهيللينستي بكامله، بما قام به من دراسات ونشر المؤلفات العلمية حول المعتقدات وتمازج العبادات الشرقية والغربية(١٣).

٣- ***أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م)*** أستاذ الإسكندر وواضع المنطق والماورائيات، ومؤسس المنهجية العلمية الأرسطية التي كانت إحدى دعائم التألق العلمي في أول قرني العصر الهيللينستي، وخميرة تألق هذه العلوم في هذا العصر ولاسيما في الإسكندرية.

٤- **فيليب المقدوني (٣٨٢ ـ ٣٣٦ ق٠م)** والد الإسكندر، الذي وطد أركان دولته وزودها بأقوى جيش في عصره، ووحّد اليونان، فساعد الإسكندر بفضل كل ذلك من القيام بفتحه الكبير.

٥- ***الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م)*** وهو الذي حقق فتحاً عسكرياً وحضارياً فريداً، وحمل مدنية الحضارة اليونانية حتى مشارف الهند، وأنشأ المدن، وشرّع أبواب التعارف بين الشعوب، وشجع التمازج الحضاري على مدى لم يُعرف في تاريخ الإنسانية له مثيل.

هؤلاء كلهم لم يكونوا البادئين في مساهماتهم، بل كانوا حصيلة من سبقوهم في هذا المجال، ونهاية تطور سالف طويل، ومدخلاً للعصر الهيللينستي الجديد.

---

(١٣) حول تمازج العبادات بين الشرق والغرب انظر: ***متوديوس زهيراتي***، ص١٩٣ ـ ٢٥٣.

البحث الثاني

المقدونيون حتى الإسكندر

أولاً: مقدونيـة :

تقع مقدونية جنوب شرق أوروبة، في شبه جزيرة البلقان، وتمتد من بحر إيجة باتجاه الشمال، ما بين أبيروس ***(EPIROS)***[1] غرباً وتراقية ***(TRACE)*** شرقاً، وأنهارها عديدة، وتنحصر مقدونية اليوم ما بين اليونان، ويوغوسلافية قديماً، وبلغارية.

وهي في معظمها أراض جبلية وذات سهول قليلة الخصوبة، ويوجد فيها العديد من مناجم الفضة في قسمها الشرقي، ***ويتكون الشعب المقدوني من أجناس متعددة وهم قبائل هندية أوروبية تمتّ إلى اليونان بصلة وتتكلم لهجة قريبة من لهجتهم.*** ولكنهم كانوا في حالة دائمة من التفكك والنزاعات، وزاد في بؤسهم فقر طبيعة بلادهم بالموارد اللازمة للرقي والمرافئ الضرورية للاتصال بالخارج، فظلوا يحتلون آخر درجة في سلّم المدنية والحضارة، وإن شابهوا في أنظمتهم السياسية والاجتماعية اليونانيين في العصر الهومري من حيث وجود الأمراء الإقطاعيين ووجود النظام العقاري الوسط الذي يجمع بين فكرة المشاع وفكرة الملكية الفردية، في حين لم يكن حكمهم الملكي يرتبط بأي قانون يحدد الخلافة، كما لم تكن قوتهم الجسدية المتميزة وشجاعتهم تلتزم بأي انضباط أو تدريب.

---

(١) **(EPIROS)** مقاطعة إلى الشمال الغربي من بلاد اليونان الحالية، يقع قسم كبير منها في ألبانيا حالياً، وقد أدت هذه المملكة دوراً سياسياً كبيراً في العصر الهيللينستي.

كانت مقدونية في القرن الخامس ق.م تتبع فارس، وكان عاهلها *الإسكندر الأول* أول ملك مقدوني يخوض في سياسات اليونان، ويقلد اليونانيين في العادات والتقاليد والثقافة، وعظُم شأن الحضارة اليونانية في القرن التالي وازدادت مقدونية قوة وعظمة. وأثناء الحروب الفارسية ـ اليونانية في عام ٤٨٠ ق.م، وهي الحروب التي اتخذها ***الإسكندر المقدوني*** ذريعة لمهاجمة الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها بدعوى الأخذ بالثأر، كان جده ***الإسكندر الأول*** يحارب إلى جانب الفرس في غزوهم، لكنه كان يخون هؤلاء سراً، ويبعث بأخبارهم إلى الأثينيين فكافأه هؤلاء بأن أسموه فيما بعد ***مواطناً يونانياً*** وسمحوا له بالاشتراك كيوناني في الألعاب الأولمبية. وكان من نتائج هذه المنحة، أن أخذت العائلة المالكة في بيلا (***BELLA***) العاصمة المقدونية، تدعي بأنها يونانية، وتقلّد اليونانيين في اللغة والعادات والتقاليد وتعمل على نشر الثقافة اليونانية بواسطة الأساتذة والمدرسين الذين تستقدمهم من اليونان.

وجاء الإسكندر الثاني فحكم مدة سنة، وكان له عمل نبيل أتى بنتائج كبيرة، وذلك بتأسيسه لسلاح المشاة الذي يُعرف عند المقدونيين باسم (*الرفاق الرجالة*) وكان هذا السلاح أحد دعائم العرش الملكي المقدوني وشكّل قوة موازية لسلاح الفرسان.

ولما ورث العرش برديكاس (*PEREDIKAS*) الشقيق الأكبر ***لفيليب الثاني*** والد ***الإسكندر المقدوني***، انصرف بكل قواه إلى تقوية المملكة وتوسيع رقعتها (وهي المهمة التي أكملها أخوه فيليب من بعده) لكن الحظ لم يُسعف برديكاس في مواصلة ما خطط له لتقوية المملكة وإعلاء شأنها إذ قُتل في معركة مع القبائل الإلليرية التي تسكن سواحل الأدرياتيك وشمال شرق ألبانيا الحالية عام ٣٥٩ ق.م، على الحدود الشمالية الشرقية للمملكة، تاركاً خلفة مملكة تحيق بها الأخطار من كل جانب. ***وكان وريثه الشرعي ولداً قاصراً، فتولى فيليب بعد أخيه الوصاية على ابن شقيقه،*** ولكنه لم يلبث أن استأثر بالسلطة ومن ثم بالعرش، وتمكن من هزيمة خصومه وضمان العرش لنفسه باسم *فيليب الثاني*، وإحلال الأمن والاستقرار في جميع أنحاء المملكة. ولما قُتل خلفه ابنه البكر ***الإسكندر الثالث*** الذي عُرف في التاريخ بلقب ***الإسكندر المقدوني (الإسكندر الكبير)***.

لم يتعرّض المقدونيون لأي غزو فارسي، ولم يكن للإسكندر ووالده أي ثأر على هؤلاء، ولكن الطلب بالثأر كان بمنزلة ***استجلاب لعواطف اليونانيين لحملهم على الاعتراف بالمقدونيين أنسباء لهم في العائلة اليونانية،*** بعد أن كانوا ينظرون إليهم نظرة فيها شيء من الذل والاحتقار ويشيرون إليهم باسم (*برابرة الشمال*) هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الدافع أيضاً إلى جذب عواطف اليونانيين ***اقتصادياً بحتاً،*** إذ كانت مقدونية دولة فقيرة، وكان على الملك واجب تدبير الأموال للإنفاق على جيشه ودولته الفقيرة وإلا حاق به الهلاك والزوال.

ولكن اللافت للنظر والذي يثير الدهشة والإعجاب، أن هذه الدولة الفقيرة قد تمكنت بفضل عبقرية الملك فيليب الثاني ونبوغه العسكري، أن تنشئ جيشاً نظامياً لم يكن له مثيل في عصره. ***والأمر الثاني*** الذي يجب الانتباه إليه، ***هو أن القوة العسكرية المقدونية لم تكن حصيلة لرقي الأمة وتطورها، بل كانت نتيجة لجهود فردية***، ولذا لم يُقدّر لها أن تعيش بعد أن حُرمت من هذه الجهود. ***وكانت في ذلك على عكس الإمبراطورية الرومانية التي كانت تختلف عنها تماماً، إذ قامت على جهود المواطنين الأحرار الذين كانوا يتميزون بالإخلاص والجرأة والمقدرة،*** ولذا استمرت الإمبراطورية وازدهرت وعاشت قروناً عديدة.

ثانياً: فيليب الثاني وتنظيم المملكة:

تميز الدراسات الحديثة ***فيليب*** بلقب ***(الثاني)*** أي ***فيليب الثاني (٣٨٢ - ٣٣٦ق.م)***، تسلّم الملك وكان لا يتجاوز العشرين عاماً، وتؤكد الدراسات بأنه كان رجلاً نشيطاً طموحاً مقتدراً في الحرب والسياسة، وأحد الرجال الموهوبين وأمهر قادة الجيوش في العصور القديمة. ويجمع دارسو حياته، على أنه كان إلى جانب ذلك موهوبا في السياسة والإدارة والإصلاح الاجتماعي، ***فعمل على تحضير شعبه، ووطّن القبائل، وأنشأ المدن، ووطّد مملكته في دائرة الحضارة اليونانية، ووضع يده على مناجم الذهب والفضة واستخرج معادنها، وسك الدينار المقدوني الذي نافس بقوته الاقتصادية الدينار الفارسي والدراخمة الأثينية.***

أما في ***السياسة*** فكان طموحاً إلى حد مقارعة المستحيل، وامتاز بالحنكة وبُعد النظر، ومعرفة مواطن ضعف أعدائه، وبارعاً في ذرع بذور التفرقة بين أعدائه. أما في ***أخلاقه السياسية*** فكان بعيداً عنها بما يتميز به في المراوغة وبذل الوعود الملتبسة، والمهارة في إشعال الحروب والتظاهر بحبه للسلم، والاستعجال في عقد الصلح إذا كان يتفق مع أهدافه، وكانت المالأة والنعومة من أساليب الخداع عنده حيث استمال إلى جانبه أحد أكبر أساتذة الخطابة في أثينة ***إيسوقراط (٤٣٦ ـ ٣٣٨ ق.م)*** الذي كان كثير التأثير في الرأي العام في كل بلاد اليونان وبدعواته المتكررة إلى نبذ التفرقة والتجزئة ووحدة بلاد اليونان.وكان إيسوقراط فخوراً بوطنه ومفتوناً بأمجاد أثينة وعظمتها، ***وظل على مدى ربع قرن يدعو إلى توحيد قوى اليونان، وعقد الجهود لمحاربة الفرس.*** واستطاع فيليب سريعاً إمكانية استمالة إيسوقراط من خلال ما كان يدعو إليه وجعله داعية طوعية له، فصانعه وناغمه في تطلعاته، ووجد ***إيسوقراط*** في الملك ***فيليب*** ضالته الذي سيسير بجحافل اليونان باسم أثينة في حربها الثأرية ضد الفرس، وأخذ يُقنع مواطنيه بطيب نيات الملك المقدوني. ولكن وإن لم يفتهُ ما كان يبيت له فيليب من فرض سيطرته على بلاد اليونان، فوجه له خطاباً مفتوحاً بألا يستخدم سلطانه كما يستخدم المستبدون سلطانهم، بل يستعين به على جمع شمل اليونان وتوجيههم إلى حرب ثأرية وتحرير المدن الأيونية في آسية الصغرى من نير الحكم الفارسي.

تعرّض **فيليب** وهو في السادسة عشرة من عمره، إلى تجربة كان تأثيرها حاسماً في مجرى حياته، ففي الحروب النـي نشبت من أجل وراثة العرش، كان على أخيه الملك برديكاس، بعد توقيعه على معاهدة مع طيبة ***(THEBES)*** أن يسلّم رهينة ملكية ضماناً للوفاء بالتزاماته. ولما لم يكن له ولد آنئذ، فقد عمد إلى إرسال أخيه الأصغر **فيليب.** كانت طيبة يومئذ في أوج عظمتها، بعد أن رفعت عن كاهلها هيمنة إسبارطة، وكانت حضارتها ريفية، ولم يكن لسمعتها العسكرية في اليونان أي منافس. وعاش **فيليب** في هذه البيئة العسكرية فترة خمس سنوات معاملاً كضيف لا

كأسير، وأخذ يتعلّم المهارات العسكرية على يد خير القادة العسكريين الطيبيين من أمثال ***أبامينونداس*** **(*EPAMINONDAS*)** ***وبلوبيداس*** **(*PELOPIDAS*)** وبعد عودته وتسلّمه المُلْك كان هاجسه الكبير، هو تأسيس جيش قوي واستغلال المهارات العسكرية التي تلقاها في طيبة لتأسيس هذا الجيش بعد أن أدخل عليها تعديلات تكتيكية مبتكرة أهمها نظام ***الفيلق*** **(*PHALANX*)** الذي يرتكز على مبدأ ترتيب عناصر القتال بشكل رأس حربة يتقدمها رجل يحمل رمحاً بيده ودرع باليد الأخرى ويليه رجلان يحمل أحدهما رمحاً باليمنى ودرعاً باليسرى والآخر يعاكسه في حمل أسلحته، يليهما أربعة رجال ثم ثمانية حتى نهاية الفيلق الذي يبلغ تعداد صفوفه ستة عشر صفاً، وتتحرك الكتلة وكأنها درع شائكة لاختراق خطوط الأعداء(٢).

واستطاع ***فيليب*** بواسطة هذا الجيش إحراز انتصارات سياسية وعسكرية على أعداء مقدونية في الغرب وأهمهم ***الاللوريون*** **(*ILLYRIANS*)** ***والبايونيون*** **(*PAEONIANS*)** في الشمال. كما أتاح له استيلاؤه على بعض إحراج المنطقة الشمالية الغربية ومناجم فضتها، إنشاء أسطول كان في أشد الحاجة إليه لمقاومة أقوى أساطيل المنطقة وهو الأسطول الأثيني.

وكان على رأس هذا الجيش الفريد الذي خلّفه *فيليب* لولده *الإسكندر* رهط من القادة المدربين المظفرين، نكتفي بذكر الأكثر شهرة منهم من الذين برزوا فيما بعد في جميع الميادين زمن الفتح وبعده مثل ***بارمينيون*** **(*PARMENION*)** أشهر قادة الإسكندر، ***وبرديكاس*** **(*PEREDIKAS*)** ***وأنتيباتروس*** **(*ANTIPATOS*)** اللذين سوف توكل إليهما تباعاً الوصاية على العرش بعد موت الإسكندر، ***وأنتيجون*** **(*ANTIGONE*)** من سيحاول عبثاً إعادة توحيد الإمبراطورية بعد موت الإسكندر، ***ونيارك*** **(*NEARQUE*)** أمير البحر، الذي سيصل مصب الأندوس بمصبات دجلة والفرات، ***وأومين*** **(*EUMENE*)** وهو اليوناني الفذ بين هؤلاء المقدونيين الذي ظل

---

(٢) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ***سورية في عصر السلوقيين***، دمشق، دار شمأل للطباعة والنشر ١٩٩٣، ص١٣.

فيما بعد وحده أميناً للشرعية والعرش بعد وفاة الإسكندر، *وبطليموس وسلوقس*، اللذين سيملكان بعد تقسيم الإمبراطورية، وسوف تدوم سلالة كل منهما، ***الأولى في مصر والثانية في سورية حتى الاحتلال الروماني.***

استغل فيليب انشغال اليونان بالحرب المقدسة الثالثة[٣]، وأكد سيطرته على جميع الشاطئ اليوناني المطل على بحر إيجة، وبلغت حدوده الشمالية نهر الدانوب. ومع أنه هزم الفوكيين وحلفاءهم، فأنه لم يستطع السيطرة على مضائق الترموبولاي، لكن محاولته أدت على الأقل إلى إزعاج الأثينيين، الذين كانوا يتفانون في سبيل حرية هذه المضائق. كما أدت المحاولة نفسها إلى تنبيه هؤلاء إلى الخطر الذي يتهددهم من الشمال، وكذلك إلى تعاظم نفوذ الحزب المناوئ لفيليب في أثينة برئاسة الخطيب اليوناني ***ديموسيثنيس (DEMOSTHENES)*** (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م)[٤]. وعندما هدأ النزاع السياسي والعسكري بين فيليب وأثينة بموجب هدنة مؤقتة، كان فيليب وقتها قد سيطر بشكل نهائي على جميع بلاد اليونان الشمالية بالإضافة إلى أقليم تراقية الغني بموارده.

ولكن هذه الهدنة لم تدم لأكثر من فترة قصيرة (٣٤٦ ـ ٣٤٣ق.م)، إذ سرعان ما ابتدأ النزاع من جديد، حينما أيد فيليب بعض أعداء أثينة ضدها، واستطاع ديموسيثنيس وحزبه أن يؤلفوا ـ رداً على هذا العمل ـ عصبة هيللينية مضادة لفيليب والمدن تحت رعايته

---

(٣) جرت الحروب المقدسة الثلاث بين بعض أهم دويلات بلاد اليونان، وذلك نتيجة للخلاف بين مدينة دلفي المقدسة وميناءها حول أحقية الميناء في فرض رسوم على الحج القادم إلى دلفي عن طريقه، وقد دامت هذه الحروب متقطعة بين سنتي ٥٩٠ ـ ٣٤٧.

(٤) ***ديموسيثنيس:*** أحد كبار خطباء اليونان وبلاغييهم، عمل في مجال السياسة وكتب خلال (٣٥١ ـ ٣٤٤ق.م) مجموعة خطب أشار فيها إلى الخطر الذي يمثله المقدونيون على الديمقراطية في بلاد اليونان بعد تسلّم فيليب الحكم في مقدونية وعمل على تقوية مملكته. وكرّس منذ ذلك الوقت كتاباته في هذا المجال وخلّف لنا منها عدداً باسم ***الفيليبيات*** **(PHILIPPIC)** وتوقف عن ذلك فترة الهدنة بعد موقعة **(*خايرونية*)** ثم عاود نشاطه المعادي لمقدونية بعد موت الإسكندر، ولكنه فشل في ذلك. وعندما طالبت مقدونية حكومة أثينة بقتله لجأ إلى أحد معابد ***كالاورية (KALAURIA)*** ومع ذلك تابع المقدونيون مطاردته، فتجرع السم ومات سنة (٣٢٢ق.م).

تضم عدداً من المدن اليونانية مثل كورنثة وميجارة وغيرها ، في حين حافظت بعض المدن على علاقاتها السلبية بالأحلاف القائمة.

وتفاقمت الأحداث لتؤدي إلى إعلان رسمي للحرب بين أثينة وحلفائها من جهة ، وفيليب ومعاضديه من جهة ثانية. وكانت أهم معارك هذه الحرب موقعة ***خايرونية*** **(*CHAERONEA*) (٣٣٨ق.م)** ، التي قاد فيها الإسكندر ميسرة جيش أبيه ، وحقق وهو في الثامنة عشرة من عمره نصراً باهراً ساهم في تكريس النصر الكبير الذي حققته فيالق أبيه على الجيش اليوناني.

وفي سنة ٣٣٧ق.م ، دعا فيليب جميع المدن اليونانية إلى مؤتمر عام في كورنثة ، فلبت المدن جميعاً دعوته باستثناء إسبارطة ، وأقرت إقامة حلف هيلليني بزعامته ، كما أقرت استقلال كل دولة من الدول الأعضاء وضمان سلامة حدودها. واستجابة إلى طلب فيليب قرر الحلف محاربة الفرس بقيادة مقدونية وإعداد جيش كبير لهذا الغرض ، وحددوا المعونة الحربية التي كان يجب على كل دولة من الدول الأعضاء أن تسهم بها.

وعلى هذا النحو ، حقق فيليب هدفاً من هدفين رمى إليهما منذ بدء العمل على تأسيس الإمبراطورية وهو خضوع بلاد اليونان له وإرغامها على تأييده. ولكن القدر لم يمهله لتحقيق هدفه الثاني ، وهو القضاء على دولة الفرس ، فقد اغتيل سنة ٣٣٦ ق.م بعد احتفاله مباشرة بزفاف ابنته كليوباترة على حليفه اسكندر ملك أبيروس ، ونادى الجيش بابنه ***الإسكندر*** ملكاً على مقدونية ورئيساً للحلف الهيلليني دون منازع.

إذاً يمكننا الاستنتاج دون مغالاة ، أنه لولا هذه التركة الغنية التي وفرها فيليب لابنه الإسكندر لصعب بل لاستحال على الفاتح الكبير أن ينجز ما قام به في الفترة القصيرة التي عاشها للفتح ، وهي أقل من ثلاث عشرة سنة.

هذا قول حق ، ولكنه لا يعبر إلا عن شق واحد من الحقيقة. أما ***الشق الثاني*** ، وهو الأهم في نظرنا ، فهو جزمنا أنه ما كان من الممكن مع وجود ذلك الجيش الفريد ، أن تجري الأمور كما عهدناها ، لولا عبقرية الفاتح المتعددة الجوانب ، ***الحربية والحضارية والإنسانية*** ، كما سنتبين في الفصول اللاحقة.

هذا ما ورثه ***الإسكندر*** عن والده فيليب خُلقاً وعملاً، على أنه لا بد لنا لإكمال حصيلة الفاتح الوراثية من أن نصف طبائع والدته ***أولمبياس*** **(*OLYMPIAS*)**، ومعرفة الجو الذي عاش فيه أثناء حداثته في كنفها، لفهم الأثر الحاسم عليه منها.

ثالثاً: أولمبياس (والدة الإسكندر):

يقول المؤرخ الكبير ***رينة غروسة***، في والدة الإسكندر كلمة رائعة حيث قال ***(إن المؤرخين الأقدمين كتبوا حياة هذه المرأة بأحرف من نار)***.

كانت ***أولمبياس*** من أسرة المولوسوس **(*MOLOSSES*)** من مقاطعة **(*أبيروس*)** وهي جزء من ألبانيا اليوم، وتدعي الانتساب إلى (*أخيلوس*) بطل إلياذة هوميروس، وهي شقيقة الإسكندر ملك أبيروس آنذاك.

التقى فيليب الوالد بزوجته ***أولمبياس (أم الإسكندر)*** عام (٣٥٨ ق.م)، في احتفال كان يجري في جزيرة *ساموثراكي* في بحر إيجة، كانت سنه وقتئذ ٢٤ عاماً، وكان وريثاً شرعياً للملك. وفي هذا الاحتفال وأثناء الرقص الكهنوتي تعرّف فيليب على أولمبياس وكانت ابنة يتيمة لأحد ملوك أبيروس السابقين. وكانت أبيروس أكثر بدائية من مقدونية، وكانت فيها الأحوال غير مستقرة، لكنها كانت في نظر فيليب ذات إمكانات كبيرة. ولما كان قد وقع في حب ***أولمبياس*** واستعصى عليه منالها دون زواج، لذا لم يتردد وسارع إلى الاقتران بها.

أسهب المؤرخون القدماء في ذكر تعلّق نساء تلك المقاطعة أي مقاطعة **(أبيروس)** بالطقوس الوثنية السرية والتي توصف بالهمجية، ووصف الشعائر التي كانت تُقام إكراماً وتعظيماً ***لديونيسيوس إله الخمر والعربدة***. وكانت عابدات تلك الجمعيات يتنادين في الأعياد وعند حلول المواسم، لإقامة أغرب ما عُرف في التاريخ القديم من حفلات مشبوهة همجية ومريبة[٥]. ***وكان الهدف من تلك الطقوس***

---

(٥) لا شئ يضاهي ما أتى به يوروبيدس في مأساته الشهيرة من وصف دقيق لعابدات ديونيسيوس وطقوسها المريبة انظر حول ذلك: (*EURIPIDES:LES BACCHANTES*).

الوصول إلى الغيبوبة والشطح بمضغ اللباب والأعشاب المسكرة والرقص القائم على خلجات الجسم وترجيف الأطراف، وهز الأعطاف، في جو عابق بالموسيقى الصاخبة المصحوبة بنقرات الطبلة وأنات المزمار، مع ما يتخلل ذلك من صرخات وزعقات مدوية، وتشنجات لا واعية، حتى إذا بلغت الهستيريا بالجماعة أشدها، نفرت تلك النساء تائهات شاردات في دياميس الظلام، يناجين **ديونيسيوس** والأرواح، إلى أن يصادفن حيواناً، فيعملن فيه الأظافر تمزيقاً وتقطيعاً بوحشية وشراسة، ويرشفن من دمه وهن مسعورات، ويأكلن من لحمه باهتياج، ثم يهمدن منهوكات القوى حتى الصباح.

وكانت ***أولمبياس*** والدة الإسكندر، عضواً مرموقاً في تلك الفرق، وقد اشتهرت علاوة على ذلك بمداعبة الثعابين والأفاعي، فكانت تلفها حول خصرها، وتدخلها بين ضفائر شعرها للإثارة والتهويل، وأغرب من كل ذلك أنها كانت تصطحبها إلى فراشها لترقد معها.

أما في حياتها الخاصة فقد كانت ***شرسة، عارمة النزوات، عميقة الحقد، شديدة القسوة***، تجد لذة في تعذيب من لا يستكين لعجرفتها وطموحها، أو من تسوّل له نفسه مقاومة رغائبها. حتى إن زوجها فيليب الذي بلغ كل الانتصارات عجز عن الانتصار لزوجته، وكان يخاف اشتراكها في مثل هذه الطقوس الهمجية. ويقول بلوتارخوس مؤرخ سيرة الإسكندر، ***أن فيليب وجدها ذات ليلة وإلى جانبها أفعى في السرير، فارتاع لهذا الأمر***. والأسوأ من ذلك، أن أولمبياس أخبرته ذات مرة، أنه لم يكن والد الإسكندر الحقيقي، بل أن صاعقة انقضت عليها ليلة زفافهما وأشعلت فيها النار، وأن الإله العظيم **زيوس** هو الذي حملت منه بالأمير المقدام. ونفر فيليب من ممارسات زوجته الطائشة، فولى وجهه شطر غيرها من النساء فهجرها، وشرعت أولمبياس تثأر لنفسها منه ***فأخبرت ولدها الإسكندر بسر أبوّته الإلهية***. وزاد الطين بلة أن قائداً من قواد فيليب يدعى ***أتالوس*** (***ATALLUS***) طلب أن يشرب نخب ولد فيليب المرتقب من زوجته الثانية وقال إنه الوارث الشرعي (***أي المقدوني لحماً ودماً***)

لعرش البلاد، فما كان من الإسكندر إلا أن ضربه بالكأس في رأسه وصاح قائلاً ***(وهل أنا إذن ابن زنى؟)*** واستل فيليب سيفه يريد أن يقتل به ولده، ولكنه كان ثملاً لا يستطيع الوقوف فضحك منه الإسكندر وقال ***(ها هو ذا رجل يستعد للانتقال من أوروبة إلى آسية وهو لا يستطيع أن يخطو آمناً من مقعد إلى مقعد)***. وبعد بضعة أشهر من ذلك، طلب ضابط من ضباط فيليب يدعى ***(بوسنياس)*** أن يأخذ الملك بحقه من *أتالوس* لإهانة لحقت به منه، فلما لم يجبه الملك إلى طلبه اغتاله وكان ذلك في عام (٣٣٦ق.م).

وقد بلغت شراسة أولمبياس، والدة الإسكندر، حداً عرّضها لتهمة الضلوع في اغتيال زوجها، وأنها هي التي حرّضت بوسنياس على اغتياله والدليل على ذلك، أنها احتجزت ***كليوباترة،*** الملكة الجديدة والزوجة الثانية لفيليب مع ابنتها الصغيرة *أوروبة*، وبعد التعذيب والتشويه وقتل الطفلة، على مرأى من والدتها، أمرت *أولمبياس* الأم المسكينة أن تشنق نفسها، ففعلت تخلصاً من العذابات الأليمة التي كانت تنتظرها(٦).

فمما لا شك فيه إذن، أن بعض التقلقل الذي لوحظ في مزاج الإسكندر، وأعمال القسوة التي سجلها عليه التاريخ، وقد بدت واضحة في السنين الأخيرة من حياته ترجع إلى تلك التركة الثقيلة من طباع والدته الشاذة. وكان من حسن حظ ***الفاتح*** أن فكر والده، **الملك فيليب،** بدعوة ***أرسطو*** لتعديل طباع ابنه، وتخفيف حمل وراثته وتثقيفه ثقافة عالية، وكان ذلك من سنة ٣٤٣ ـ ٣٤٠ ق.م.

---

(٦) انظر: ***متوديوس زهيراتي*** ص ٢٦ ـ ٢٧.

البحث الثالث

الإسـكندر الكبيـر

أولاً: نشأته وتربيته :

ولد ***الإسكندر*** في صيف سنة (٣٥٦ق.م)، وكان ثمرة زواج فيليب الثاني زواجاً سياسياً من أولمبياس، أخت إسكندر ملك أبيروس.

تلقى ***الإسكندر*** تربية خاصة لم يحصل عليها أي ملك من ملوك مقدونية الأوائل وخاصة من الناحية التعليمية، إذ استدعى والده فيليب الثاني، ملك مقدونية ***أرسطو*** (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م) لإكمال تحصيل ابنه الإسكندر. وكان على أرسطو أن يجابه صبياً وهو في الثالثة عشرة من عمره، ***شديد الذكاء، ناضجاً قبل أوانه، فخوراً بمحتده، طموحاً في تصوراته، شغوفاً بالمجد حتى الهوس، صعباً في مراسه، لا يتحمل الإكراه على أمر، ومولعاً بممارسة كل رياضة عنيفة،*** وكان ذلك في **بلاّ** (***PELLA***) عاصمة مقدونية عام ٣٤٢ق.م، وهو العام الذي تبلورت فيه فكرة فيليب الثاني لأن يكون ابنه ولياً للعهد، لما توفر فيه من أسباب القوة والشجاعة والرجولة والثقة الكاملة في النفس، عندما استطاع الابن أن يكبح جماح الجواد ***بوكفالوس*** (***BUCEPHALOS***) ويمتطي صهوته مزهواً، بعد أن فشل كل الفرسان المقدونيون الذين يجيدون ركوب الجياد حتى الملك فيليب نفسه من كسر جماحه. وقد كان مقدراً لهذا الجواد الذي رافق الإسكندر في كل معاركه، ***أن يكون من أشهر الجياد في التاريخ***[1]. وبذلك نطق لسان فيليب في ولده

---

(١) انظر: **جون جنتر**، الإسكندر الأكبر، ترجمة فاروق حافظ القاضي، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١١.

قائلاً (***يا ولدي، إن أرض مقدونية لن تكون كفاء لك، إن في شأنك مملكة من صنعك تكون جديرة بك)***[٢].

ومن هنا تكمن القاعدة الأساسية التي استلهم منها فيليب قراره من أن يجعل من ابنه ولياً للعهد، الذي هيأ له المناخ المناسب باستدعائه الفيلسوف الكبير أرسطو لأن يكون معلماً لابنه الإسكندر. ويعود اختيار فيليب لأرسطو لعدة أسباب من أهمها:

١ - إعجاب فيليب بالثقافة والعقلية اليونانيتين حيث أمر باتخاذ اللغة اليونانية لغة مستخدمة في بلاطه، وكان يولي التعليم قدراً كبيراً من الاهتمام دائماً، وكلّفه ذلك دفع مبالغ طائلة من المال إلى أرسطو لقاء تعليم ابنه حيث حققت هذه التجربة نجاحاً عظيماً، وذلك لأن شهرة أرسطو كانت تقوم على علومه الغزيرة في مجالات ***الطب والسياسة والقانون والتاريخ الطبيعي والتربية والتعليم***. وقد عرّف الأستاذ تلميذه الفتى بكل هذه الموضوعات وبموضوعات أخرى غيرها، ولقّنه ضروب اللذة التي تتأتى باستخدام قوى العقل في التفكير وفتح أمامه على الأخص عالم الكتب العظيمة[٣]. وبعد سنوات قليلة قال الإسكندر عندما سُئل عن سبب تعظيمه لمؤدبه أرسطو أشد من تعظيمه لوالده قائلاً ***(لأن أبي سبب حياتي الفانية، أما أرسطو فهو مؤدبي وسبب حياتي الباقية)***[٤].

---

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٤.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢٢، ٢٤، ٢٩.

ولشدة اغتباط فيليب بالطريقة التي كان أرسطو والأمير الشاب يمضيان بها معاً، أمر بإعادة بناء البلدة (***ستاجيرا***) (***STAGIRA***) مسقط رأس أرسطو، وهي مستعمرة يونانية تقع شمالي جبل ***أتوس ATOS*** شمالي بحر إيجة بعد استيلائه عليها عام ٣٤٩ ق.م، إبان إحدى الحروب التي مهدت له اجتياح بلاد اليونان، ثم أعاد بناءها وجمّلها سنة ٣٤١ ق.م، وخصها بامتيازات كبيرة نزولاً عند رغبة أرسطو مؤدب أبنه وأستاذه، وسُمح لمواطنيها المنفيين بالعودة إليها تكفيراً منه عن عمله، وإعراباً للفيلسوف العظيم عن الشكر والوفاء ولأنه سننّ لها دستوراً حكيماً سارت بهديه أجيالاً طوالاً حول ذلك انظر:

المرجع السابق ص٣٠، ثم ***أرسطو***، السياسة، ترجمة الأب أوغسطينس بربارة البوليسي، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت ١٩٥٧م، مقدمة الترجمة، ص ٦.

(٤) انظر: ***أبو الوفاء المبشر بن فاتك***، مختار الحكم ومحاسن الكلم، أخبار الإسكندر، تحقيق عبد الرحمن بدوي، إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠م، ص٢٤٦.

٢- أراد فيليب أن يجعل تحصيل ولي العهد كاملاً على يد أستاذ أكثر انفتاحاً وأوسع شمولاً في معارفه، ***خبير في الأخلاقيات والأحكام***، على أنه لا يستبعد أبداً أن فيليب كان يهدف علاوة على ذلك، ***أن يبعد ابنه عن طباع والدته الشاذة وتحكمها في تنشئة الإسكندر على ممارساتها الدينية القائمة على غرائب الطقوس المهووسة.***

واستغرق التعليم الجدي ثلاث سنوات متوالية (٣٤٣ -٣٤٠ ق.م) تبعتها فترات متقطعة بقي أرسطو خلالها مع تردده إلى (***ستاجيرا***) مسقط رأسه إلى جانب تلميذه.

وكانت مهمة أرسطو شاقة وعسيرة، إلا أن الحظ حالفه في تيسير أمور مهمته بأن اهتدى إلى منفذ بلغ به قلب تلميذه، لما رأى عنده من انفتاح حتى النهم لكل علم ومعرفة. وقد وصفه ***بلوتارخوس*** **(بأنه كان شديد الشغف بالعلم، شغفاً يزداد على مر الأيام، وكان مولعاً بجميع أنواع المعارف محباً لقراءة جميع أنواع الكتب)**[٥].
وسرعان ما نفذ الأستاذ لب الأمير لسعة علمه ودقة ملاحظاته وطرافة تعليمه، وأخذ يلقنه منذ السنوات الأولى أصول الأدب اليوناني ومبادئ الخطابة والشعر، ونقّح له نص الإلياذة الهومرية وعلّق له عليها، فأضحى ذلك النشيد الخالد للإسكندر الصغير. ولعل كتاب أرسطو في ***الشعراء*** ومؤلفات أخرى في الأدب وفلسفته قد وضعت في تلك الحقبة لولي عرش مقدونية وغيره من أبناء أشراف الأمراء والوزراء وأبناء كبار البلاط الذين كانوا يشاطرون الإسكندر الصغير دروسه، وكان من بين هؤلاء استناداً إلى قول **المبشّر بن فاتك** ***(كثير من التلاميذ من أبناء الملوك وغيرهم منهم: ثاوفرسطس، وأوديموس، والكسندروس الملك (أي الإسكندر)، وأرميوس، وأيسخولوس وغيرهم من الأفاضل المشهورين المبرزين في العلم والحكمة)***[٦]. ونذكر منهم أيضاً ***هيفايستون*** (***HEPHAISTON***) صديق الإسكندر المفضل، ***ونيكاتور*** (***NICATOR***) وهو ابن ***بارمينيون*** كبير قواد الدولة، ***وليونات***

(٥) انظر: ***بلوتارخوس***، الإسكندر ١٤.

(٦) انظر: ***المبشر بن فاتك***، أخبار أرسطو، ص ١٨٣.

(***LEONAT***) الذي خاطر بنفسه في حصن الماليان لإنقاذ حياة الإسكندر ولعب دوراً كبيراً في حروب السند[٧].

ولم يكتف أرسطو في تهذيب تلميذه الملكي بالدروس البيانية والأدبية، بل شمل ***الشعر والأدب والخطابة والسياسة والتاريخ والجغرافية ومعلومات عن الطب والتطبيب،*** ويقول **بلوتارخوس** في حياة الإسكندر: ***(إني اعتقد أن حب الإسكندر الطب مردّه إلى أرسطو أكثر من غيره، ولم تكن معرفة الإسكندر الطب مقتصرة على المبادئ، بل كان يداوي أصدقاءه في مرضهم ويرشدهم إلى طرائق المعالجة والحمية كما هو واضح من رسائله)***[٨]. ولكن في هذه النقطة بالذات يجب الإشارة إلى ملاحظة مهمة وهي، أن طب عصر أرسطو طب تلقيني عملي قبل كل شيء، يقوم على الملاحظة والتمرس، تجوده الحذاقة ويغنيه الحدس، لا تسبقه دروس تشريحية أو فيزيولوجية كما نألفها اليوم[٩].

إلا أن أهم ما كان يصرف أرسطو عنايته إليه في تربية الإسكندر، هي الدروس العالية التي كان يلقيها عليه في ***المنطق وفلسفة الطبيعة وما بعد الطبيعة والأخلاق وخصوصاً في السياسة،*** لأن هذه المادة كانت في نظر فيليب والد الإسكندر أهم المواد، لما كان يباشره من حروب وما كان آخذاً فيه من خطة السيطرة والتوسع وبسط سلطانه على بلاد اليونان وما كان في نيته من إخضاع بلاد فارس واستعمار الممالك الآسيوية. فلذلك ركز أرسطو على تعليم تلميذه من هذه الناحية (***الأخلاق السياسية***) ***التي شدد فيها على المعايير السياسية في كيفية التعامل مع رعيته أتباعه كون الإسكندر الصغير ملك المستقبل،*** واستطاع أرسطو أن يغرز في عقل تلميذه الصغير هذه المبادئ السياسية بحكم وأمثال كانت شاهداً على ***إنسانية الإسكندر وحضارته وأسلوب تطبيقها خلال فترة الفتح،*** ويورد لنا ***المبشر بن فاتك*** بعض هذه الحكم والأمثال في رسائل كتبها أرسطو لتلميذه الإسكندر يقول فيها:

---

(٧) انظر: ***متوديوس زهيراتي***، ص ٤٥.

(٨) انظر: ***بلوتارخوس***، الإسكندر ٨، ٤١.

(٩) G, RADET: ALXANDR E LE GRAND ARTISAN DU LIVRE 8 ED, P24.

(أعلم أن العلم زين الملوك، ودليل ذلك أن يسلم الناس من جورك ويحمدونك وتسلم آخرتك). ثم يضيف **(املك الرعية بالإحسان إليها، تظفر بالمحبة منها، فإن طلبك بإحسانك إليها أطول بها باعتسافك عليها)** وقال للإسكندر مرة **(إن الجمال مضرة على صاحبه ومنفعة للناظر إليه)** ثم كتب له **(إن الذي يتعجب فيه الناس منك الجزالة وكبر الهمة، والذي يحبونك عليه التواضع ولين الجانب، فاجمع الأمرين، تجتمع لك محبة الناس وتعجّبهم منك)** ويضيف في مكان آخر **(إنك قد أصبحت ملكاً على ذوي الإحسان، وأوتيت فضل الرئاسة عليهم، فما يشرّف رئاستك ويزيدها نهلاً، أن تستصلح العامة لتكون رئيساً لخيار محمودين لا لأشرار مذمومين)**(١٠).

ولقد ألف أرسطو لتلميذه كتاباً في **(الملكية)** وآخر في **(الاستعمار)**، ولسوء الحظ لم يبق منهما إلا شذرات(١١). ولعل الفيلسوف أسهم عملياً في بعض الشؤون السياسية نزولاً عند رغبة الملك فيليب. ولكن أصعب الأمور التي واجهها أرسطو في مسيرته التعليمية لتلميذه، هي تشذيب طباعه الصعبة التي ورثها عن والدته أولمبياس ما أمكنه، فسعى قبل كل شئ إلى تمرينه على كبح نزواته العارمة، وعلى إخضاع أعماله للعقل وجعل الاعتدال رائده في كل شيء. وبوسعنا أن نؤكد أن تأثير المعلم في تلميذه كان عميقاً في حقلي **الأخلاق والثقافة**، وهذا ما يظهر من خلال الرسائل التي كتبها الإسكندر لأستاذه أرسطو والتي يقول فيها: **(خير لي أن أتفوّق على غيري في العلوم من أن أتفوق عليهم في اتساع الملك وقوة السلطان)**(١٢). وقال ذات مرة **(لولا العلم ما قامت الدنيا، ولا استقامت المملكة، وكل شيء تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء، والمخبران عن كل شيء، والقلم يوجدهما شكلين ويريكهما صورتين)**(١٣). وقال في فصل من كتاب له إلى أرسطو **(أما بعد فإني راغب**

---

(١٠) انظر: ***المبشر بن فاتك***، أخبار أرسطو، ص ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٥.

(١١) A, HEITZ: FRAGMENTA ARISTOTELES, PARIS, PP 59 – 61.

(١٢) انظر: **بلوتارخوس**، الإسكندر ١٤.

(١٣) انظر: ***المبشر بن فاتك***، أخبار الإسكندر، ص ١٤٣.

في المشورة، طالب للزيادة في المعرفة، أعرف مجدها، وأجتهد في الاختصاص بمنافعها، ليس تثنيني عن ذلك رغبة أظن إني أنالها، ولا قضية أتوهم بلوغها)(١٤).

وأما إعجاب الإسكندر بالحضارة اليونانية وتمسكه بثقافتها وعلومها، وسعيه لنشرها في كل البلاد التي افتتحها بقيت من ثوابت أهدافه. وإن حبه للعلم الذي نهله من معينه الصافي، جعله يحيط نفسه بالفلاسفة والعلماء والمؤرخين والشعراء والخبراء في شتى المعارف البشرية. وهكذا نرى، أن سياسة الفتح التي قام بها الإسكندر، قد اتخذت في كثير من مظاهرها صفات البعثة العلمية، ويعود الفضل إلى أرسطو الذي وسّع أفق تفكير تلميذه.

وهكذا فإن الإسكندر بعد تتلمذه على يد أرسطو، أخذ بشؤون الإدارة وأمور الحرب ثم الفتح، ولم يتفرغ للدراسة بعد ذلك على يد أحد غير أرسطو.

ثانياً: هل نجح أرسطو في تربية الإسكندر:

لكي نسهّل دراسة مثل هذا الموضوع، يجب أن ننظر إليه من ناحيتين اثنتين: ***أولاهما الناحية التعليمية وثانيتهما السياسية:***

١- ***فمن الناحية التعليمية*** نرى أن أرسطو نجح إلى حد كبير في التأثير على فكر تلميذه في مختلف المجالات العلمية والتربوية، فهو أراد أن يشذّب طباع الإسكندر الصعبة التي ورثها عن والدته ما أمكنه، فسعى قبل كل شيء إلى تمرينه على كبح نزواته العارمة وعلى إخضاع أعماله للعقل والتعقل وجعل الاعتدال رائده في كل شيء، وكان تأثير المعلم في تلميذه عميقاً في حقلي ***الأخلاق والثقافة***، والأدلة على ذلك كثيرة، وكلها تشير إلى عرفان كبير وتقدير عميق أعلنهما الإسكندر مراراً ورافقاه طوال حياته.

هذا من جهة، ومن ***جهة ثانية*** لا مناص من القول إن هذا التأثير فيما يتعلق ***بضبط النفس والاعتدال***، خف ثم تقلص مع مرور الزمن لأسباب عديدة منها: الإرهاق نتيجة الجهود الجبارة والمتواصلة خلال السنوات العشر التي بذلها الإسكندر

---

(١٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٥٠.

في الإدارة والحروب. فمؤرخو الإسكندر كلهم متفقون على أن الإسكندر كان يجمع بين يديه ***الإدارة والقيادة***، وقد أشادوا بمقدرته الخارقة على العمل دون كلل أو ملل، ***ولولا شبابه النضر، وصحته المتينة، وحيويته المتدفقة، وحماسه المنقطع النظير، وتطلعه إلى مثل عليا كانت عنده أقوى من العقيدة***، لما استطاع الصمود طوال تلك السنين المضنية، إذ دأب على الدوام أن يحتفظ لنفسه بأصعب المهام وأخطر المراكز، زد على ذلك تململ الجيش وعقد المؤامرات[١٥]، التي تعرّض لها والندم العميق الذي استحوذ عليه بعد ارتكابه أعمال عنف مقيتة.

كل ذلك أدمى قلبه، ووتر أعصابه، وجعله يسرف في ***شرب الخمر***، ولا سيما في السنوات الخمس الأخيرة من حياته. وعلى الرغم من ذلك يؤكد لنا ***بلوتارخوس*** مؤرخ الإسكندر ***(أنه لم يكن بمقدور الخمر أو النوم أو اللهو إعاقته عما كان متوجباً عليه من أعباء الدولة، كما قد حصل للكثيرين الذين ركبوا مركبه)***[١٦].

وأما حب الإسكندر للعلم الذي نهله من معينه الصافي، جعله يحيط نفسه بجمهرة من العلماء في شتى المعارف البشرية ***(كما أشرنا سابقاً)***، والفضل يعود في ذلك إلى أرسطو الذي وسع أفق تفكير تلميذه بطلبه من الإسكندر عند دخوله مصر، أن يجرّد حملة علمية لمعرفة سبب فيضان النيل السنوي. والإسكندر هو الذي انتدب أسطولاً للبحث عن منافذ بحر قزوين، وحقق استكشاف الساحل الممتد من دلتا الهندوس إلى مصبات دجلة والفرات. وقبيل وفاته، أراد إكمال ما بدأ به، حول سواحل شبه جزيرة العرب، لربط العراق بمصر، وكان موته عشية اليوم الذي كان على الأسطول البدء برحلته.

وبقي الإسكندر رغم مشاكله، يتفرغ للمطالعة كلما سنحت له الفرصة، وكانت نسخة الإلياذة التي ضبطها وعلّق عليها أرسطو لا تفارقه، وتزّود بكل ما

---

(١٥) مؤامرة ***فيلوتاس*** ومحاكمته واغتيال ***بارمينيون*** (خريف ٣٣٠) واغتيال ***كليتوس*** (خريف ٣٢٨) ومؤامرة ***هرمولاوس*** ورفاقه، قضية السجود والقبض على كاليستين نسيب أرسطو (ربيع ـ صيف ٣٢٧).

(١٦) انظر: ***بلوتارخوس***، الإسكندر ٢٣.

استطاع من مسرحيات ***أيسخيلوس وسوفوكليس ويوروبيدس*** وغيرها من الكتب. واستطاع الإسكندر أن يخدم العلم في شخص أستاذه المفضل فخصص له **٨٠٠ وزنة** اقتطعت من غنائم الشرق على ما يخبرنا به المؤرخ ***بليني***[١٧]، لمساعدته في افتتاح أول مدرسة علمية (***اللقيون***) وفي الاستمرار في أبحاثه العلمية، ويجرّد له رجالاً لجمع النماذج الحيوانية والنباتية والمعدنية في البلاد التي أفتتحها[١٨].

٢ - *أما من الناحية السياسية* : فلا نستطيع أن نوضح هذه الناحية إلا بعد أن نتعرّض بعض الشيء إلى أجواء الفكر السياسي الذي كان سائداً في بلاد اليونان في تلك الفترة.

من الأمور المسلم بها التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك وأن توضع موضع جدل، اعتقاد اليونانيين بامتياز عنصرهم عن البرابرة (***أي غير اليونانيين***) من فرس وغيرهم. فالمسرحي اليوناني ***يوروبيدس*** (٤٨٥ - ٤٠٦ق.م) يقول (***إن البرابرة كلهم عبيد، ما عدا واحداً منهم، أي من يرأسهم***)[١٩]. وأما ***أفلاطون*** (٤٢٩ - ٣٤٧ق.م)، فيشيد بقرابة اليونان فيما بينهم، ويؤكد الاختلاف في الجنس والدم مع البرابرة، مضيفاً أن اليوناني والبربري عدوان بالطبيعة. واستمر ***إيسوقراط*** (٤٣٦ - ٣٣٨ق.م)، على مدى قرابة نصف قرن يردد بلا ملل أوكلل دعوته إلى تحقيق الاتفاق والوحدة بين اليونانيين، وشن الحرب على البرابرة، أي الفرس والثأر منهم والسيطرة عليهم بحق سمو الحضارة اليونانية على ما عداها، وذلك عن طريق إلقاء الخطب الطويلة لليونانيين، وللزعماء أمثال فيليب، ومن أشهر هذه الخطب خطبته العظيمة المعروفة باسم ***الجمعية العامة أو البانيجركس*** (***PANEGYRICUS***)[٢٠]. و***ديموسيثنيس*** (٣٨٣ - ٣٢٢ق.م)، كان يضفي على هذه الحرب صفة قدسية. أما ***أرسطو*** (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م)، اعتبر دولة المدينة اليونانية (***POLIS***) كل شئ، والشرقي

---

(17) PLINE: HISTOIRE NATURELLE. V III, BUDE, PP 16, 17.

(١٨) انظر: ***متوديوس زهيراتي***، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(١٩) انظر: ***يوروبيدس،*** هيلانة ٥.

(٢٠) انظر: ***إيسوقراط***، البانيجركس، ٤٩.

غير جدير إلا بأن يحكمه اليوناني ويعامله معاملة العبيد، ويتفق رأيه مع **يوروبيدس** من (***أن اليونان سادة الأعاجم***)[٢١] ، كأنما الأعجمي والعبد بالطبيعة واحد[٢٢]. ***ويقسم أرسطو الناس إلى قسمين (بعضهم أحرار بالطبع، والبعض الآخر أرقاء بالطبع)***[٢٣].

أما في شأن تطبيق هذه المبادئ على الفتح المقدوني، فقد كان ***إيسوقراط*** ينصح الملك فيليب (***أن يكون محسناً إلى اليونان، ملكاً على المقدونيين، وسيداً على البرابرة***). وما علّمه أرسطو إلى تلميذه لم يخرج عن هذه الأطر، فقد قال له (***عليه أن يكون قائداً لليونان، وسيداً على البرابرة).*** وكان ***كاليستين*** نسيب أرسطو وتلميذه والمؤرخ الرسمي لحملة الإسكندر، ***يمثل هذا التعليم الأرسطي***، ويجسد هذه العقلية التقليدية على أكمل وجه.

إذن، هذه هي الأجواء السياسية المعمول بها في بلاد اليونان، أي الدعوة إلى استرقاق الشعوب البربرية (***أي غير اليونانيين***)، فما الذي فعله الإسكندر تجاه هذه الدعوات وهذه الأجواء؟.

يمكن القول، أن ما فعله الإسكندر كان ***مناقضاً*** لأفكار أستاذه أرسطو، الذي لم يكن يقر قيام دولة عالمية أوسع نطاقاً من نطاق دول المدن الصغيرة اليونانية، ولا المساواة بين الشعوب اليونانية والبرابرة في المعاملة. وإذا كان من الجائز أن أرسطو لم يوح إلى الإسكندر بمحاربة الفرس، إلا أنه كان يعتبر هذه الحرب حرباً عادلة ومقدسة على من هم دونهم في العرق والجنس والثقافة. ولكن التلميذ (***الإسكندر***) فنّد وطرح تعاليم أستاذه أرسطو سريعاً، فيما يخص تفوق اليونان العرقي، واعتبار كل من

---

(٢١) هذه العبارة مأخوذة من مأساة ***يوروبيدس*** الشهيرة (***إيفجينيا في أوليس***) التي مثّلها سنة ٤٠٥ وهي شطر من الشعر ١٤٠٠.

(٢٢) انظر: ***أرسطو***، السياسة ١، ٥، ٦، ١٢٥٢ ب، من الغرابة أن يعد أرسطو الأعاجم عبيداً بالطبع محرومين في نظره من العقل، مع ما كان عليه بعضهم من الثقافة العالية والمدنية العظيمة، وما كان أرسطو وأبناء جلدته ليجهلوا ذلك الأمر.

(٢٣) انظر: ***أرسطو***، السياسة ٢، ١٥، ٣٥، ١٢٥٥ آ.

سواهم برابرة. وكان كما لاحظ كبار مؤرخيه، على العكس من ذلك يمعن في (***تمشرقه***) كلما ابتعد عن اليونان وتوغل في فتوحاته. بل يمكن القول، ***بكل اطمئنان بأنه تجاوز أفكار أستاذه بعيداً بنظرته الإنسانية التي تتفق ومفهوم الشرائع السماوية،*** ورغم إيمان الإسكندر بتفوق حضارة اليونان، ***إلا أنه كان يؤمن بمبدأ الأخوّة الإنسانية والمساواة بين الشعوب ومزج الأجناس وإزالة البغضاء بين القارتين المتعاديتين،*** وانطلاقاً من هذه العقيدة الإنسانية الحضارية، كانت له أربع زوجات كلهنّ فارسيات، وقد أقام يوماً حفل زواج جماعياً اقترن فيه ثمانون قائداً من قواده بفارسيات، وليس هذا فقط، بل كان عدد جنده من الفرس لا يقلّ عن نظرائهم اليونانيين، وعزم على إخضاع كل رعاياه من فرس ومقدونيين ويونانيين لقواعد تشريفات واحدة.. ولهذا كان الغضب عليه عارماً في صفوف أبناء جلدته الذين كانوا يترفعون على أبناء غيرهم من الأمم ولا يحسبونهم إلا بزمرة العبيد لهم.

ومن هنا يمكن القول، إن أرسطو استطاع إلى حد كبير ***أن ينجح في تربية الإسكندر من الناحية التعليمية وأن يغرز في فكر تلميذه العلم والمعرفة، والاعتدال، وتشذيب النفس، وضبط الانفعال، والإحسان إلى الرعية. إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً في تربيته من الناحية السياسية للبون الشاسع بين فكره الذي يؤمن بسمو الحضارة اليونانية على غيرها من الشعوب واعتبار كل ما هو غير يوناني (بربري)، وفكر تلميذه الإسكندر الذي كان يؤمن بفكرة إنسانية حضارية بعيدة كل البعد عن الفكر السياسي اليوناني في تلك الفترة، وهي فكرة المساواة بين الشعوب، إزالة البغضاء بين الأجناس المتعادية، وأن التفاضل بين الشعوب يجب أن يقوم على فضلهم وأعمالهم، وليس حسب أجناسهم وألوانهم*** (كما سنرى لاحقاً).

ثالثاً: استتباب الأمر للإسكندر:

بعد اغتيال الملك فيليب في عام ٣٣٦ق.م، نادى الجيش بالإسكندر ملكاً، وبدأت تهب عليه من الجنوب والشمال عواصف القلق والاضطراب، وواجه هذه الصعاب بهمة وعزيمة لا تلين، إذ قام بإلقاء القبض على المتهمين باغتيال والده

وإعدامهم مع جميع المنافسين والمناوئين له، وبهذه الخطوة يكون قد قضى على المقاومة الداخلية وخطا الخطوة الأولى نحو مستقبله العظيم. ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، ذلك أن اليونانيين رأوا في موت فيليب فرصة للتخلص من التزاماتهم التي ارتبطوا بها بموجب المعاهدات التي أبرموها معه، فابتهجوا لمقتله وغمرت ***ديموسيثنيس*** سعادة كبيرة ولبس أفخر الثياب وتوّج رأسه بإكليل من الزهر، واقترح على الجمعية العامة أن تضع تاجاً على رأس قاتله ***بوسنياس*** تكريماً له(٢٤). كما طردت إمبراقية حامياته من أراضيها(٢٥). واستدعت ايتولية منفييها المناوئين لفيليب(٢٦)، وتأججت نار الثورة في طيبة ومعظم دول البلوبونيز، هذا إلاّ أنه في مقاطعتي تراقية وألورية المتاخمتين لمقدونية من الشرق والغرب أخذت تظهر أعراض تنم عن تهديدهما مقدونية نفسها.

ولم يتردد الإسكندر الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، بل اتجه فوراً في صيف ٣٣٦ق.م نحو الجنوب واسترد سلطانه على تسالية، واختير رئيساً لحلفها مدى الحياة مكان فيليب، كما دانت له مدن حلف كورنثة ما عدا إسبارطة واختارته قائداً للحلف مكان والده، ***وكلفته بغزو آسية الصغرى والقضاء على دولة الفرس.*** وبعدها عاد الإسكندر إلى عاصمته (**بلا**) ونظّم شؤونها، واتجه بعدئذ في ربيع ٣٣٥ق.م صوب الشمال ليقلّم أظفار الفتنة التي أوقدت نارها القبائل المتبربرة، فقام بحملة جريئة أرغمت كل الشعوب البلقانية المشاكسة في أواسط بلغارية ومدينة بخارست في رومانيا الحاليتين على تقديم فروض الطاعة. وفي طريق العودة علم بأن الأللوريين استولوا على أقوى القلاع التي كانت تحمي حدود مقدونية الغربية، فخف إلى هناك واجتاز مائتي ميل في قلب بلاد الصرب وأنزل بهم هزيمة فادحة، ولم يتابع الإسكندر هذا النصر بغزو إللورية لمعاقبتها على ما أقدمت عليه، لأن الأنباء التي

---

(24) WEIGALL, A: ALEXANDER THE GREAT. N. Y 1932. P 97.

(٢٥) مدينة يونانية تقع شمال غرب بلاد اليونان في أقصى جنوب مقاطعة إبيروس شمال خليج أكتيوم، كانت في الأصل مستعمرة كورنثية.

(٢٦) مقاطعة في بلاد اليونان الوسطى تشرف سواحلها على مدخل خليج كورنثة.

وصلته من بلاد اليونان استدعت مواجهة الموقف هناك سريعاً، وهو أمر تكتيكي دلل فيه الإسكندر على براعته - وهو شاب - في تقدير أولويات تحركاته سياسياً وعسكرياً[٢٧].

وفي هذه الأثناء راجت إشاعة في أثينة، هي أنَّ الإسكندر قد قُتل وهو يحارب عند نهر الدانوب، وكان الأثينيون أكثر اليونانيين فرحاً بما زُعم عن موته، وقرر مجلسهم بتأثير الخطيب **ديموسيثنيس** الذي أخذ يدعو إلى حرب الانفصال عن مقدونية إلى تحريض طيبة للخروج عن طاعة الإسكندر، واستجابت طيبة لهذا المطلب، وقتلت الموظفين المقدونيين الذين تركهم فيها الإسكندر، واستولت على أحد حصونه، وأرسلت أثينة العون إلى طيبة الثائرة، ودعت بلاد اليونان والفرس إلى التحالف ضد مقدونية. وثارت ثائرة الإسكندر لهذا العمل الذي لم يكن الدافع إليه في نظره رغبة اليونان في الاستقلال، بل كان غدراً منها وكفراً بفضله عليها، فقام بالزحف نحو الجنوب وهاجم بلاد اليونان مرة أخرى، ووصل إلى طيبة وقطع المسافة وقدرها ٢٤٠ ميلاً في ظرف (١٤يوماً)، وقد فوجئ الطيبيون بهذه السرعة المذهلة غير المتوقعة، وشتت الجيش الذي سيرته طيبة لمقاومته، وضرب الحصار عليها، ولما رفضوا الاستسلام بعد مفاوضات دامت ثلاثة أيام، اقتحم الإسكندر المدينة عنوة ودمرها عن بكرة أبيها، وقتل ستة آلاف من أهلها وبِيْعَ الأحياء الباقون في سوق العبيد، وقد أرعبت هذه الصرامة دول اليونان الأخرى، فسارعت كل منها إلى إعلان خضوعها. ولكن الإسكندر **ندم** فيما بعد على هذا الانتقام العنيف وعدّه سبة له، ولم يكن يتردد بعد هذا الانتقام في أن يعطي أي طيبي ما يطلبه إليه، وقد كفّر عن بعض ذنبه بمعاملته المتسامحة لأثينة إذ عفا عن نكثها ما قطعته على نفسها من عهود في السنة السابقة، ولم يتشدد في طلب **ديموسيثنيس** وغيره من الزعماء الذين قاوموا المقدونيين، وظل إلى آخر حياته يُظهر لأثينة دلائل الاحترام والحب، فوهب أكر وبول أثينة كثيراً من الغنائم التي

---

(٢٧) انظر: ***مفيد رائف العابد*** الإسكندر الكبير، دراسة في فكره السياسي والعسكري، مجلة الفكر العسكري، العدد٢، دمشق ١٩٧٨.

ظفر بها في انتصاراته الآسيوية، وقال عقب حملة حربية صعبة (***أيها الأثينيون، هل تعلمون أي أخطار أعرض نفسي لها لأكون خليقاً بحمدكم***)[٢٨].

ويجب الإشارة إلى ملاحظة مهمة، أن الإسكندر قد أصدر أمراً إلى جنوده أثناء الحصار والإيقاع بطيبة في جو من الخراب والتدمير، ***بألا يمسوا بيت الشاعر الكبير (بندار) وبيوت أقارب هذا الشاعر، وأن يبقوا على المعابد وحياة الكهنة والكاهنات، وجميع الطيبيين الذين أثبتوا أنهم قاوموا الثورة.*** وبعد ذلك عاد الإسكندر إلى مقدونية للتهيئة لغزو الشرق، بعد أن ضمن استيعاب كل مدن بلاد اليونان، والدرس الذي لقنّه إلى مدينة طيبة.

رابعاً: دوافع غزو الإسكندر للإمبراطورية الفارسية:

لابد لنا قبل عرض فتوحات الإسكندر، من الإشارة بإيجاز إلى بعض أو أهم الدوافع التي كان لها الأثر الأكبر في قيام ملك غربي ولأول مرة في التاريخ بغزو الشرق على رأس جيش صغير نسبياً قياساً على جيوش منافسيه.

ولا شك أن الأسس القوية التي أقام عليها والده فيليب صرح مقدونية والاستعدادات التي جهزها قبل موته، قد سهّلت كثيراً من المصاعب العسكرية أمام الإسكندر وكانت عاملاً مادياً مهماً جداً، فالوالد قدّم لابنه آلة عظمته، ومعوان شهرته، ومهد له السبيل لبناء صرح مجده، فغير الإسكندر وجه التاريخ، وبهر الفاتح الكبير العالم بمنجزاته، فطمس إلى حد بعيد صيت والده، حتى كاد الناس ينسون عظمة الوالد وحميم فضله على ابنه الإسكندر.

ومما أسهم في تسيير مهمة الإسكندر ***فوزه برئاسة حلفي تسالية وكورنثة*** على نحو ما مر بنا سابقاً. ولا يغرب عن البال أن الإسكندر ورث عن أبيه عزمه على محاربة الفرس تحقيقاً لدعوة ***إيسوقراط*** (***ISOKRATES***)[٢٩]. وكان من أشهر فلاسفة اليونان

---

(28) GROTE, G; HISTORY OF GREECE, 12V. EVERMAN LIBRARY, XI, 85.

(٢٩) ***إيسوقراط*** (٤٣٦ - ٣٣٨ق.م) خطيب وفيلسوف شهير تتلمذ على يد (**بروتاغوراس**) وصادق سقراط وأسس مدرسة في جزيرة (**خيوس**) للخطابة والبلاغة (٤٠٤ - ٤٠٣ ق.م) =

وخطبائهم في القرن الرابع. ذلك أن هذا الفيلسوف كان قد اتجه إلى عدد من قادة بلاد اليونان وأخيراً إلى فيليب مناشداً إياه تحقيق الدعوة التي لم يمل عن ترديدها على مدى نصف قرن تقريباً، ولكنها ذهبت هباءً وسط انهماك المدن اليونانية في صراعاتها الدموية التقليدية. ***وفحوى هذه الدعوة، هي أن خير وسيلة لإنقاذ بلاد اليونان من صراعاتها كانت تآلف اليونان ولاسيما أثينة وإسبارطة للثأر من البرابرة والسيطرة عليهم بحق سمو الحضارة اليونانية على ما عداها، وإنشاء مدن في الأقاليم التي تقهر.***

ولا شك أن حث أرسطو للإسكندر على الاطلاع والبحث عن المعرفة كان ***دافعاً آخر*** من دوافع الحملة الشرقية بدليل اصطحابه معه عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في مختلف فروع المعرفة، وهو الأمر الذي لم نعهده في غزوات الملوك السابقة لغزوة الإسكندر، وفي رأي بعض المؤرخين أن أرسطو لم يوح إلى الإسكندر بالقيام بحملته الشرقية وتكوين إمبراطورية عالمية لأنه، لم يكن يقر قيام دولة أوسع نطاقاً من دول المدن اليونانية الصغيرة، ولا المساواة بين اليونان والبرابرة في المعاملة. وإذا كان من الجائز أن أرسطو لم يوح إلى الإسكندر بمحاربة الفرس، فإنه يجب أن نلاحظ أن أرسطو كان يعتبر هذه الحرب حرباً عادلة، وأن الصلة لم تنقطع بين التلميذ وأستاذه، إلا عندما خرج التلميذ على تعاليم أستاذه في معاملة البرابرة، وهو أمر اعتبره بعض المعاصرين له كفراً بحق الحضارة اليونانية المتميزة[٣٠].

ويجب ألا يفوتنا هذا التنويه بأنه كانت تحت أمرة الدولة الفارسية موارد لا تنضب من الأموال والرجال، ولديها أسطول ضخم يسيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، في حين أن خزائن الإسكندر كانت خاوية ومثقلة بالديون منذ عهد والده فيليب بمبلغ مقداره (***٥٠٠ تالانت***)[٣١]، (التالانت يساوي مبلغ ستة آلاف

= ثم مدرسة ثانية في أثينة حوالي سنة (٣٥١ق.م)، قضى أواخر حياته في الكتابة، وخلّف لنا كتابين مهمّين أولهما: (***PHILIPPOS***) والثاني (***PANATHENAICOS***) وكانت آخر مؤلفاته رسالة تهنئة إلى فيليب المقدوني بمناسبة نصره في موقعة خايرونية، اعتبر مناصراً للمقدونيين وتوفي بعد رسالته بأيام.

(٣٠) انظر: ***مفيد رائف العابد***، سورية في عصر السلوقيين، ص ١٨، ١٩.

(31) ARRIAN: IV, 7.

دراخمة). وأنه كان في أشد الحاجة إلى ثروة الفرس الغنية ليظل باستطاعته الاحتفاظ بالجيش الذي بناه وخلّفه له والده ولدفع ديونه المذكورة أعلاه، غير أنه كان يقلل من شأن ذلك كله، ويغري على غزو هذه الدولة أنها كانت ***تفتقر إلى القادة المجربين*** وإلى ما أحرزه اليونان والمقدونيون من تقدم في فنون القتال خلال النصف الأول من القرن الرابع ق.م.

خامساً: معارك الإسكندر الكبرى:

للإسكندر أربع معارك كبرى: ***الأولى*** معركة ***كرانيكوس*** (***GRANICUS***) (٣٣٤ق.م)، قرب الدردنيل، وقد مهدت للإسكندر الاستيلاء على آسية الصغرى. ***والثانية*** معركة ***إيسوس*** (***ISOS***) (٣٣٣ق.م)، قرب الإسكندرونة اليوم عند ممرات طوروس البحرية التي مهدت له السيطرة على سواحل سورية وفينيقية وفلسطين ومكنته من فتح مصر. والثالثة معركة **جاوجميلا** (***GAUGAMELA***) (٣٣١ق.م) (موقع تل جومل على بعد حوالي ٥٠ كم شمالي أربيل) قرب الموصل، ومهدت له الاستيلاء على الإمبراطورية الفارسية. وأخيراً معركة ***الهيداسب*** (٣٢٦ق.م)، ثاني سواعد نهر السند من الغرب التي مهدت له طريق الهند. وسنقوم الآن بدراسة تفاصيل كل معركة على حدة، ونبين نتائجها على الفتح الإسكندري.

١- معركة كرانيكوس (أيار ٣٣٤ق.م):

في ربيع سنة ٣٣٤ق.م عبر الإسكندر الدردنيل، ومعه من الجند ما يربو على ثلاثين ألفاً من المشاة وما يزيد على خمسة آلاف من الفرسان، بعد أن ترك وراءه قائدة العجوز ***أنتيباتروس*** (***ANTIPATROS***) على رأس حوالي (٩٠٠٠ من المشاة) و(٦٠٠ من الفرسان) لتصريف أمور الحكم في مقدونية ومراقبة بلاد اليونان. وبعد أن عبر الهلسبونت زار في طريقه ***قبر أخيل*** في طروادة، وصب عليه الزيت تكريماً له، ووضع عليه تاجاً من الورد، وأقسم من تلك الساعة أن يواصل ذلك الكفاح الطويل بين أوروبة وآسية الذي بدأ عند طروادة حتى نهايته المظفرة.

ويبدو أن الملك الفارسي ***داريوس الملقب (بدارا الثالث)*** ، لم يقدّر مدى الخطر الذي وفد عليه من وراء البحر ، فكلف عدداً من ولاته في آسية الصغرى بصد الهجوم المقدوني. وبالفعل قام ولاة كل من فروجية على الدردنيل ، ولودية وأيونية وكبادوكية وفروجية الوسطى بإعداد قوة كبيرة بقيادة (***ممنون الرودوسي***) واليوناني الأصل - ***وكان قائداً لقوات المرتزقة اليونانية وبارعاً في الإستراتيجية العسكرية*** - لملاقاة الإسكندر ، واتخذوا لهم موقعاً منيعاً على الضفة الشرقية الشديدة الانحدار لنهر كرانيكوس. أما بالنسبة للإسكندر فقد كانت هذه المعركة من الوجهة العسكرية معركة شبه مرتجلة ، واعتبرها بداية الطريق لما كان يجيش في نفسه لمجابهة الفرس في معركة حاسمة والانتصار عليهم ، ولما وصل بجيشه في ساعات الظهر إلى الضفة الغربية من النهر ، ركز صفوفه على مرتفع شمالي الجيش الفارسي وقليلاً إلى الوراء.

ولاحظ الإسكندر بوميض عبقريته ، أن العدو قد ارتكب خطأ فادحاً إذ جعل الخيالة في الصفوف الأمامية قرب ضفة النهر ، مما يفقدها زخم الصدام في الهجوم ، فوطّد النفس على استغلال هذا الخطأ في التعبئة وعلى بدء المعركة دون إبطاء ، وخاصة أن الشمس أخذت تميل إلى ما وراء ظهره ، مما يعيق رؤية العدو إبان المعركة.

ورغم كل المحاذير التي عدّدها (**بارمينيون**) أحد أكبر قادته العسكريين ، لافتاً نظر الإسكندر إلى عمق مجرى النهر ، وارتفاع الجرف المتربص عليه العدو ، والخوف من تشرذم الكتائب المقدونية عند اجتيازها النهر تحت وابل السهام ، أعطى الإسكندر أمره ببدء القتال ، موعزاً إلى فرسانه بتسديد الضربات على ميمنة العدو ، في حين قاد بنفسه ما تبقى من جنده وقام بعبور النهر فجأة عند التقاء ميسرة العدو مع قلبه وتحطيم مقاومة الفرس الذين قاوموه مقاومة يائسة ، وقتل في هذه المعركة أعداد كبيرة من المرتزقة ، ولم ينج منهم إلا القليل ممن تمكنوا من الانسحاب مع الجنرال **ممنون** ، وقد أسر من هؤلاء المرتزقة ألفان ، أبقى عليهم الإسكندر وأرسلهم إلى مقدونية للعمل في الأشغال الشاقة.

ورغم أن هذه المعركة كانت قصيرة الوقت انتهت بتقهقر الخيالة الفارسية والقضاء على معظم قوات المرتزقة ، إلا أنها كانت حامية وخطيرة جداً ، إذ كاد

الإسكندر يقع صريعاً في الميدان، من خلال استعراضنا لنصين تاريخيين يعودان إلى كل من **بلوتارخوس وآريان** مؤرخي الإسكندر، يستعرضان في هذين النصين كيف تعرّض الإسكندر للموت المحتم في حومة المعركة عندما أطبق عليه القائدان الفارسيان الكبيران **سيتيزيدات وريزاس**، فتحاشى الإسكندر الخصم الأول، وسدد رمحه إلى صدر الثاني فانكسر على الدرع، فاستل الإسكندر سيفه يقارع خصمه، فما كان من سيتيزيدات إلا أن اقترب من خلف الإسكندر المنشغل بخصمه، وعلاه بضربة سيف خرقت الخوذة وانتهت إلى شعره، ثم رفع ذراعه وكاد أن ينهال عليه بالضربة القاضية لو لم يعالجه **كليتوس المقدوني** - أحد قادة الإسكندر - بضربة سيف بترت ساعده[٣٢].

كانت حياة الإسكندر ومستقبل الفتح وكل منجزات العصر الهيللينستي رهن ضربة **كليتوس**، وكانت حقاً ثواني معدودات حددت للتاريخ مجراه، ولو تأخر كليتوس لحظة واحدة لقضي على كل شيء.

وبعد الانتصار في كرانيكوس، ***استسلمت جميع المدن والمستوطنات اليونانية المنتشرة في آسية الصغرى، كما قدِمت إلى الإسكندر وفود من المدن الآسيوية تطلب منه القيام بزيارة مدنها وتعلن فتح أبوابها له.***

وقد بعث الإسكندر بالجنرال (**بارمينيون**) مع كوكبة من الفرسان وخمسة آلاف من المشاة، لتسلّم هذه المدن وتنظيم أمورها. أما مدينتا **ميليتوس** (***MILETUS***) **وهاليكارناسوس** (***HALICARNASSUS***)، وكانتا مرفأين هامين للأسطول الفارسي، فقد رفضتا الاستسلام واضطر الإسكندر إلى احتلالهما عنوة بعد حصار شاق. وفي هذه الأثناء كان الشتاء قد أقبل، فعزم الإسكندر على قضاء هذا الفصل في طرسوس (**بين أضنة ومرسين**) وأرسل الجنود الذين كانوا قد تزوجوا حديثاً إلى قضاء فصل الشتاء مع عائلاتهم، ومعهم ضباط كُلفوا بتجنيد متطوعين من مقدونية والبلقان للانضمام إلى الجيش.

---

(٣٢) تختلف التفاصيل لدى كل من المؤرخين بلوتارخوس ***(سيرة الإسكندر، المقطع ١٦) وآريان (تاريخ الإسكندر ١٦٠١) وديودور (المكتبة التاريخية ١٧ ، ٢٠)*** لكنها تتوافق في جوهر الحدث الهام.

وكان الفرس يعتمدون في حكمهم المدن اليونانية في آسية الصغرى على الطغاة والحكومات الاوليجاركية[٣٣]، ولكن الإسكندر نهج في آسية الصغرى بعد نصره السابق نهجاً مغايراً لذلك، وهو الاعتماد على تأييد الحكومات الديمقراطية الحرة. ومرد ذلك إلى أن الديمقراطيين كانوا يكرهون حكامهم الطغاة والاوليجاركيين وكذلك الفرس الذين أقاموا عليهم أولئك الحكام، وإلى أن أعداء الفرس كانوا أصدقاء الإسكندر بحكم المصالح المتبادلة، ***ولهذا فإن الفاتح المقدوني أعلن أنه قد أتى للقضاء على الحكومات الاوليجاركية وإعادة الديمقراطية، والسماح لكل مدينة باسترداد حقها في الحرية والتمتع بقوانينها الخاصة التي كانت لها قبل خضوعها لسلطان الفرس.***

وكان من جراء هذا الإعلان، ***أن الديمقراطيين قاموا بالاستيلاء على مقاليد الأمور في المدن اليونانية في آسية الصغرى، وبطرد الحكومات الموالية للفرس. وعلى هذا النحو اكتسب الإسكندر ولاء هذه المدن وضمن خطوطه الخلفية قبل متابعة زحفه صوب سورية.***

٢ - معركة إيسوس (تشرين الثاني ٣٣٣ق.م):

لم تنل الهزيمة الأولى عند نهر ***كرانيكوس*** من معنويات الفرس، وكانت آمال العاهل الفارسي تعتمد على الجنرال (***ممنون الرودوسي***)، والذي كان (دارا) عظيم الثقة به وموضع اعتماده وقد عينه قائداً عاماً.

في هذه الأثناء وبعد استسلام معظم مقاطعات آسية الصغرى للإسكندر وتعيين عدد من قادته على الولايات التي أخضعها، خف شمالاً للانضمام إلى قوات قائده (**بارمينيون**) عند **جورديوم** (***GORDIUM***) في مقاطعة فروجية الداخلية، وسط آسية الصغرى للإشتاء وانتظار وصول الإمدادات من مقدونية. ***ويُذكر أنه يوجد في قلعة***

---

(٣٣) الأوليجاركية: (***OLIGARCHY***) وتعني باللغة اليونانية (***حكم الأقلية***) والمقصود هنا هو نوع من الحكومات عُرف في بعض دول المدن في بلاد اليونان وخارجها، وقد اعتمد نظام الحكم على أثرى المواطنين، بغض النظر عن الأصول الطبقية والنبالات الموروثة.

هذه المدينة كارة قديمة تُنسب إلى الملك (جورديا س)، وأغرب ما في هذه الكارة، أنه كان هناك حبل ضخم من اللحاء يشد النير إلى عريشها، خُفي أوله وآخره بتشابكات يتعذر تمييزها، وكانت قد شاعت نبوءة عن عقدة الكارة، أن الآلهة وعدت من يستطيع فك العقدة بالسيطرة على آسية كلها، ووقف الإسكندر أمام هذه العقدة الغريبة وتأملها، وبعد أكثر من محاولة، استل فجأة سيفه وقطعها بضربة واحدة(٣٤).

كانت خطة الفرس الاستراتيجية في هذه المعركة، أن يتوجه الجنرال ممنون لغزو اليونان لقطع الإسكندر عن مواصلاته وقواعد تموينه عبر البلقان وبحر إيجة، وبدأ بتنفيذ الخطة في ربيع عام ٣٣٣ق.م، وقد تكلل هجومه المبدئي المضاد بنجاح، فاسترد جزيرة خيوس، وأطاح بحكومات عدد من الجزر الأخرى، وشرع في احتلال جزيرة لسبوس مفتاح طريقه إلى اليونان. وهكذا عاد بحر إيجة من جديد بحيرة فارسية، وقد أصيب الإسكندر بالقلق الشديد جراء ذلك، وخاصة أنه لم تكن لديه قوة بحرية لصد الأسطول الفارسي بعد أن سرّح معظم أسطوله، في حين كان الجنرال ممنون يهاجم وينتقل من نصر إلى نصر، وقد غدا وضع الإسكندر حرجاً جداً في البلقان واليونان. إلا أن الحظ أو الصدف حالفت الإسكندر هذه المرة وأنقذته من هزيمة منكرة، إذ مرض الجنرال ممنون ومات فجأة، وكان موته ضربة قاصمة للملك الفارسي ومخططاته. وقد ترك ممنون القيادة لاثنين من مساعديه، لكنهما لم يكونا على مستوى في الحنكة والمهارة والخبرات، زد على ذلك قيام (دارا) باستدعاء حوالي عشرين ألفاً من المرتزقة اليونانيين الذين كانوا يعملون كمشاة البحر في الأسطول، مما قلل من إمكانات العمل البحري لديه في البلقان وبحر إيجة.

وإزاء زوال خطر ممنون والاستعدادات التي بدأ (دارا) يتخذها، خف الإسكندر جنوباً لاحتلال البوابات الكيليكية (***إحدى مداخل سورية الشمالية***) ذات الموقع الاستراتيجي الهام. وبعد الاستيلاء عليها اتجه إلى مدينة طرسوس، وفيها أصابه مرض إثر استحمامه وهو في حالة تعرّق بمياه نهر الكيدنوس الشديدة البرودة

---

(٣٤) انظر: ***بلوتارخوس***، الإسكندر ١٨.

والهابطة من أعالي جبال طوروس ، ***فعرض عليه طبيبه فيليب الأكارناني شراباً مسهلاً ، وفي تلك اللحظة وصلت إلى يد الإسكندر رسالة من قائده بارمينيون يقول فيها ، أن (دارا) قد رشا فيليب ليدس له السمّ، فما كان من الإسكندر إلا أن عرض الرسالة على فيليب، وبينما كان الطبيب يقرؤها شرِب الإسكندر الدواء ولم يصب بأي سوء، وفي هذا دليل على ثقة الإسكندر الكبرى بحاشيته وقوة شخصيته ورباطة جأشه.***

وبعد شفاء الإسكندر، تحرك على رأس قوات للاستيلاء على الممرات المؤدية إلى سهل (***إيسوس***)، وتابع سيره إلى أن بلغ مرياندروس (***الإسكندرونة اليوم***)، ولما بلغ الإسكندر أخيراً أن (دارا) وصل إلى إيسوس، أدرك أنه المكان الأفضل للمعركة حيث يستريح جيشه الذي لم يكن يتجاوز كثيراً الثلاثين ألفاً، بينما هذا السهل يشكل عائقاً أمام انتشار الجيش الفارسي الكبير وخيالته(٣٥)، فحث القادة والجنود على المضي بأقصى سرعة فوصل عند حلول الظلام إلى الممر الذي يؤدي إلى معسكر الفرس، فاجتازه بعد أن أمّن مرتفعاته، ثم استراح جنوده على المنحدرات حتى الفجر(٣٦).

ولم يكن عسيراً على الإسكندر أثناء هبوطه إلى السهل الإحاطة بتفاصيل تمركز فرق العدو، ولاحظ بعينه الوقادة، أن الفرس عمدوا إلى تكثيف خيالتهم على ميمنتهم، فأدرك أنهم يعدّون العدّة للقيام بحركة التفاف حول الميسرة المقدونية، فأكمل تعبئة صفوفه ثم أمر الخيالة التسالية أن تتسلل من الميمنة إلى الميسرة من وراء صفوف جيشه بحيث لا ترى، ليكون انقضاضها المباغت أقوى عند إحباط الخطة الفارسية إذا حدثت(٣٧).

وكان الأسلوب الذي اتبعه الإسكندر في ***إيسوس*** لا يختلف في جوهره عما اختاره في ***كرانيكوس***، إلا أن جهده لم يكن هذه المرة ينصب على خرق ميسرة الفرس

---

(35) ARRIAN, II, 7, !.

(36) IBID, II, 8, 2 .

(37) IBID, II, 9, 10.

والضرب في خاصرة الجيش فحسب، بل جعل هدفه الوصول إلى قلب جبهة العدو حيث كان (دارا) يتابع من على مركبته الفخمة مجرى القتال، ولما رأى العاهل الفارسي أن الإسكندر أصبح قاب قوسين منه تصحبه كتيبة (***الأشراف***) يدحر بنجاح كل مقاومة قاصداً إياه بالذات، فقد الملك الفارسي أعصابه ولوى هارباً بمركبته لا يلوي على شيء وأنهى بهروبه كل شيء، ولكن القتال استمر على شدته لبعض الوقت، إلا أن الفرس كانوا الآن يقاتلون إنقاذاً لأرواحهم. ***أما صاحب القضية فقد كان هارباً في مركبته التي تركها بسبب بطئها وامتطى بديلاً عنها جواداً سريعاً تاركاً خلفه خوذته ودرعه ومعطفه الملكي الفضفاض وزوجته وابنتيه وبقية أفراد أسرته.*** وكان من جملة الغنائم التي تركها (دارا) وراءه ثلاثة آلاف تالنت ذهبي وجميع خدمه وحاشيته. وعلى الرغم من أن انتصار الإسكندر في هذه المعركة كان حاسماً، إلا أنه لم يحقق مبتغاه في القبض على خصمه أو قتله رغم عمليات المطاردة الطويلة له. ويتفق جميع الرواة على أن سلوك الإسكندر تجاه عائلة (دارا) كان شريفاً ونبيلاً، وأنه استمر يعاملها كما كانت عليه حالتها قبل انتصار الإسكندر.

آ – سورية :

وفي أول الساحل السوري أعاد الإسكندر تأسيس **مرياندروس** (***MERIANDROS***) الفينيقية القديمة وأسماها ***الإسكندرية (إسكندرونة حالياً***) ثم تقدم نحو ***ماراثوس*** (***MARATHOS***) (***عمريت حالياً***) فاستقبله فيها (***ستراتون***) نائب ملك أرواد والساحل المقابل له، وقدّم له تاجاً من ذهب نازلاً عن أرواد وماراثوس ومملكته كلها، وذلك في الوقت الذي كان فيه والده (***جروستراتوس***) وعدد من ملوك فينيقية وقبرص فضلاً عن قائدي البحرية الفارسية في بحر إيجة ينتظرون الأوامر للتحرك بمساعدة (***أجيس***) ملك إسبارطة.

وكان (دارا) قد ترك في دمشق، عندما كان في طريقه إلى معركة إيسوس، كثيراً من الأموال والأسلحة والمعادن النفيسة، وقد عمد الإسكندر من ماراثوس إلى إرسال قائده بارمينيون للاستيلاء على دمشق، وكانت المدينة الرئيسية في سورية الداخلية، وتم

الاستيلاء عليها دون قتال بما فيها جميع الغنائم التي تركها (دارا) وراءه، وقد قامت بهذه المهمة مع بارمينيون، ***الخيالة التسالية*** مكافأة لها على سلوكها الرائع في معركة إيسوس. وقد وعدها الإسكندر بأن يحتفظ الفرسان لأنفسهم بكل ما قد يحصلون عليه سلباً أو نهباً أثناء الطريق.

وفي ماراثوس أيضاً، تسلّم الإسكندر ***رسالة من (دارا) يعرض عليه فيها إطلاق سراح أسرته مقابل التحالف والصداقة،*** ولكن الإسكندر رفض هذا العرض وأذاع أعلاناً سياسياً أورد فيه الأسباب المسوغة لقيامه بغزو الإمبراطورية الفارسية وركز فيه على قيام (***أكسركس***) بغزو بلاد اليونان قبل حوالي قرن من الزمان، وقيام (دارا) نفسه بالتدخل في شؤون بلاد اليونان، وأعلن في الختام أنه الملك الفعلي لآسية بموجب حق الفتح والغلبة.

ب . صيدا وحصار صور:

غادر الإسكندر ***ماراثوس*** صوب الجنوب، حيث بلغه نبأ استسلام ***جبيل*** وترحيب سكان ***صيدا*** به، فدخل هذه المدينة العريقة وأعاد إليها ممتلكاتها ودستورها الخاص، ثم تابع زحفه جنوباً إلى أن بلغ مدينة ***صور الفينيقية***، وكانت صور في ذلك الزمن جزيرة صغيرة ضمن المنطقة التي تُعرف اليوم ***بجنوب لبنان***، وكان غرض الإسكندر من الاستيلاء على صور، ***تعطيل طاقة البحرية الفارسية، وضمان سلامة الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.*** وكانت صور جزيرة منيعة وتُوصف بأنها قلعة لا تقهر، وكان سكانها قد نزحوا عن صور القديمة القائمة على بر الشاطئ، ونقلوا جميع سكانها إلى ما وراء أسوار المدينة الجديدة في جزيرتهم الصغيرة المفصولة عن البر بحاجز من الماء يبلغ عرضه حوالي (***٨٠٠ متر تقريباً***). وكانت صور وقتئذ دولة فينيقية بحرية وتجارية، وذات ثروات غنية تكفيها لأن تعيش باطمئنان وسلام ضمن أسوارها المنيعة.

قُوبل الإسكندر عند وصوله إلى صور البرية، بوفد من صور البحرية يتألف من شيوخ المدينة عارضاً عليه في غياب ملكهم المرافق للأسطول الفارسي استسلام

مدينتهم، بعد أن قدموا له الهدايا وتاجاً من ذهب، ورحب الإسكندر بالوفد وتظاهر له بالود والتكريم. ولكنه طلب السماح له بدخول المدينة ليقدم القرابين لما زعمه بأنه جده الأعلى (**ملقارت**). ***وكان ذلك من قبل الإسكندر نوعاً من المناورة والحيلة السياسية في محاولة لحمل الصوريين على الكشف عن حقيقة عواطفهم وعما إذا كانوا يرغبون حقاً في البقاء على الحياد،*** وقُوبل طلب الإسكندر بالرفض معللين ذلك بأن زيارة الإسكندر معبد (***ملقارت***) كانت تعني اعتراف الإله بحق الإسكندر في حكم المدينة في عُرف ذلك العصر.

ورداً على هذا الرفض، حاصر الإسكندر المدينة وكان الهجوم عليها في منتهى الصعوبة، فالمدينة الجديدة كانت قد بنيت على جزيرة مسوّرة يبلغ محيط دائرتها ***أربعة آلاف متر،*** ويفصلها عن الشاطئ حزام بحري بعرض (**٨٠٠ متر**) وعمق كان يصل في بعض الأماكن إلى ***مائتي متر تقريباً***. وكان للمدينة مرفآن ***الأول*** إلى جهة الشمال ضمن الأسوار، ***والثاني*** خارجها. وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة كانت الأسوار ترتفع حتى علو (***٥٠ متراً تقريباً***) وذلك وفقاً لأقوال المقدونيين.

كانت ثقة الصوريين بأنفسهم كبيرة جداً بسبب مناعة مدينتهم وقدرتها على الصمود مدة طويلة، لكن الصوريين خاب ظنهم في ثقتهم، لأن الإسكندر لم يكن بالرجل الضعيف الذي يستكين ويصاب باليأس، إذ عنده قدرات كبيرة على الصبر والاحتمال عند الشدائد، وخاصة بعد أن جاء مهندسوه باختراعات جديدة في تكتيكات الحصار العسكرية التي بواسطتها شدد الخناق على صور وقرر أن يقوم بالهجوم النهائي بجميع معدات الأسلحة والحصار المتوافرة لديه ومن جهات عديدة. وبناءً على ذلك جرى تحديد مواقع الثغرات التي كانت على سفن الإسكندر أن تدك أسوارها، وخُصصت سفن ومعدات لتغطية هذا العمل وحمايته، وجهزت مراكب المشاة لتكون جاهزة للمرور عبر الجسور المتحركة إلى الثغرات التي يتم أحداثها، وكان على الأسطول أثناء الهجوم أن يحتل مرفأي المدينة شمالاً وجنوباً، وأن تقوم بعض سفنه حاملة المنجنيقات والنبالة بالدوران المتواصل حول الجزيرة تشتيتاً لجهود المقاومة،

وتفتيشاً عن نقاط الدفاع الضعيفة في الجدران واغتنامها للتسلل إلى داخل المدينة. إن مثل هذا المزيج من التكتيك المركّز والمتنوّع الذي يجري تطبيقه بانسجام ودون تشابك، هو ميزة تميز بها الإسكندر القادر على الإحساس بالسانحة واستغلالها فور حدوثها.

شرع الإسكندر في دك الجدران حسب الخطة، وأخذت القاذفات الصخرية تعمل توسيعاً وتضخيماً في الشقوق والفتحات، بينما السفن الحربية والنبالة يُصرِفون المدافعين ويضللونهم، وقد أدى هذا الهجوم العنيف قبيل العصر إلى إحداث فتحات كافية في الجدران فهوت عليها الجسور المتحركة واندفع حملة التروس يعبرون هذه الجسور ويتدفقون عبر الثغرات أو يتسلقون على الجدران بواسطة السلالم والحبال. وكان الإسكندر أول من تسلّق حبلاً إلى أعالي السور، وكان سلوكه ولباسه يميزه بوضوح عن الآخرين ويجعله هدفاً لسهام المدافعين ورماحهم. ومع تدفق المهاجمين عبر الثغرات وتنظيفهم للأسوار من الدفاعات الصورية، سقطت صور أخيراً بأيدي المقدونيين، وكان آخر دفاع للمدينة الباسلة عند هيكل (***ملقارت***) لكن دون فائدة.

كان طول أمد الحصار سبعة أشهر من (***شباط إلى آب ٣٣٢ق.م***) ولذا كان انتقام الإسكندر شديداً، ***فقد قتل حوالي ثمانية آلاف من سكان المدينة، وأسر ما يقرب من ثلاثين ألفاً بيعوا في أسواق النخاسة.*** ولكن قسوة الإسكندر هذه كان لها ما يسوّغها، إذ إنه حال اقتحام جيشه للمدينة أعلن الإسكندر عن ***المهادنة والأمان*** لكل من يلجأ إلى الهياكل وأماكن العبادة، إلا أن معظم الصوريين المقاتلين ظلوا على عنادهم بعدم الاستسلام واستماتوا في الدفاع عن مدينتهم وثابروا على القتال حتى آخر رمق. ولم يستفد من إعلان الإسكندر سوى قلة قليلة، منها ما كان قد استطاع الهرب إلى قرطاجة، ومنها من لجأ إلى المعابد والمحافل. وفي نهاية الأمر سمح الإسكندر بإعادة إعمار المدينة وباستيطانها من قبل السكان الذين تمكنوا من النجاة، بعد أن وضع فيها حامية مقدونية، ومنحها دستوراً ونظام حكم على طريقة اليونان في تلك الفترة[٣٨].

---

(٣٨) حول حصار الإسكندر العسكري لمدينة صور بكل تفصيلاته وتكتيكاته العسكرية، انظر بالتفصيل: ***محمد أسد الله صفا***، الإسكندر المقدوني الكبير، بيروت دار النفائس ١٩٨٥م، ص ١٢٧-١٣٨٠.

ولما كان الإسكندر قد أبقى على الملكية في صيدا، فقد آلت إليها زعامة الساحل السوري. وفي أثناء حصار صور تسلم الإسكندر إمدادات من جميع قطع الأسطول الفينيقي (فيما عدا القسم الذي كانت تسهم به صور)، كما وصلت إليه سفن قبرصية. ***وكان من نتيجة ذلك أن فقدت صور أسطولها وأن الأسطول الفارسي فقد أفضل سفنه، ولم يعد يشكل ذلك الخطر الكبير الذي كان الإسكندر يخشى منه.***

وفي أثناء حصار الإسكندر لصور تسلم رسالة ثانية (صيف ٣٢٢ق.م) من (دارا) عرض عليه فيها، ***فدية كبيرة قدرها عشرة آلاف ورنة كفدية لأسرته، والزواج من ابنته (ستاتيرا)، والإبقاء على القسم الغربي من آسية الصغرى كبائنة لزواجه بها،*** فرفض الإسكندر وأجابه قائلاً (***إن كل ما تظن أنك تعطيه واقع الآن بيدي، وإني لست راضياً بقسم من ملكك***).

ج ـ حصار غزة:

جعل الإسكندر من نهاية صور عبرة لكل مدن المنطقة التي سارعت جميعها إلى الاستسلام له والاعتراف بسلطته وسيادته باستثناء غزة، التي يبدو أنها لم تتعظ بمصير صور فامتنعت عن التسليم اعتماداً على مناعة أسوارها وتأييد حلفائها من الأعراب. وكان حاكمها ***باتيس*** (***BATIS***) الذي خُيّل إليه أن الإسكندر لم يستطع الصمود أمام غزة القوية المنيعة، بعد الحصار المنهك الذي لاقاه في صور ولم يُقدِم على معركة حصارية أخرى.

وتمثلت دفاعات غزة في كونها تقع على رأس رابية عالية، ورأى الإسكندر فيها بأنها مدينة فائقة القوة وتشكّل خطراً كبيراً على شريان مواصلاته، ولذلك رأى بثاقب رأيه وسرعة قراره لمواجهة دفاعات غزة المنيعة بأن يرتفع بقاعدة الهجوم إلى ارتفاع مماثل لغزة أي إلى علو ثمانين متراً تقريباً. وبدئ العمل على الفور وأخذ العمال والمهندسون يخططون لكيفية تنفيذ أساليب الحصار ومن ثم الهجوم، وقد استغرق العمل والحصار شهرين كاملين (**صيف ٣٢٢ق.م**)، استعملت خلالها جميع أنواع المنجنيقات وآلات الحصار. كما حفر المقدونيون أنفاقاً إلى داخل المدينة، وقد دافعت

غزة عن نفسها دفاعاً مستميتاً ولكن دون الحؤول أن تسقط بيد الإسكندر، وخاصة أنها لم تتلقَ أية مساعدات خارجية، وفي نهاية الأمر استطاع الإسكندر دخول المدينة والسيطرة عليها. ونظراً للاستفزاز والمقاومة التي واجهها الإسكندر من قبل غزة وعدم الاستسلام له رغم كل الإعلانات والنداءات، بأن ألقى القبض على قائدها (***باتيس***) ***وأمر بأن تُخرق قدماه، وأن توضع فيها حلقات من النحاس وشده بعد موته إلى العربة الملكية بالحبال وجرت به في أقصى سرعة لها حول المدينة، وبعد ذلك قام بقتل جميع الرجال واستعباد النساء والأطفال***[٣٩].

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أن معظم المؤرخين المعاصرين يشكّون في صحة زيارة الإسكندر بيت المقدس، وهي الزيارة التي ذكرها المؤرخ اليهودي يوسف (***JOSEPHUS***)، ولم يرد لها ذكر عند غيره من المؤرخين القدامى[٤٠]. ولكن بعض المراجع الحديثة تشير إلى أن بيت المقدس استسلمت للإسكندر دون مقاومة وأحسن معاملتها[٤١]. وربما عدم الإشارة إليها في مصادر المؤرخين القدماء تعود إلى انعدام عمليات الحصار أو حدوث أية معارك تستدعي تأريخها نظراً لاستسلامها بشكل سلمي دون أية مناوشات.

د. مصر:

بعد تحطيم غزة تابع الإسكندر طريقه إلى مصر فوصلها في أواخر تشرين الأول ٣٣٢ق.م، فاستسلم **مزاكس** (***MEZAKES***) والي مصر الفارسي في العاصمة ممفيس، وسلّم الإسكندر جميع كنوز مصر لعلمه اليقين بعجزه عن مقاومة الإسكندر بعد هزيمة مولاه وهربه وسيطرة الإسكندر على سورية، ولا سيما أنه كان لا يستطيع الاعتماد على مساعدة الشعب المصري وكان يكره الفرس كرهاً شديداً، وهكذا آلت مصر إلى الإسكندر بدون قتال.

---

(39) ARRIAN, 1, 3 .

(٤٠) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص٢٦.

(٤١) ***ول ديورانت***، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الثاني، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٥٣، ص ٥٢٧.

ولما كان المصريون يحقدون على الفرس لانتهاكهم حرمة ديانتهم، فقد كان الإسكندر حكيماً جداً من هذه الناحية، وكان أول عمل قام به عندما حط رحاله في العاصمة المصرية ممفيس (**منف**)، **هو أن يظهر احترامه للديانة المصرية، ولذلك قدّم القرابين في معبد فتاح (PTAH) للآلهة الوطنية والعجل المقدس آبيس (APIS)، ورسم نفسه فرعوناً طبقاً للطقوس الدينية المصرية، فلذلك رأى فيه المصريون منقذاً ومحرراً لهم من نير الاحتلال الفارسي.**

وتابع الإسكندر زحفه باتجاه وادي النيل، وهناك بدت له ضرورة إقامة عاصمة جديدة لملكه وهي ***الإسكندرية حالياً*** عند مصبات نهر النيل الكثيرة، وربما اليونانيون الذين يسكنون مدينة ***نقراطيس المصرية*** منذ منتصف القرن الثامن ق.م - ***وهي مدينة تجارية وصناعية في آن واحد*** - هم الذين أشاروا عليه بإنشائها نظراً ***لموقعها الهام ولتكون مركزاً تجارياً هاماً وشريان الوصل مع بلاد اليونان، وتشكل بديلاً عن نقراطيس المصرية.*** إضافة إلى ذلك كانت رغبته في تأسيس مدينة الإسكندرية ***محبته لإنشاء المدن، وتخليد اسمه، وحبه في نشر الثقافة الهيللينية، وحاجته الماسة إلى مركز حربي وبحري، وأخيراً نقل العمليات التجارية من صور وغزة بعد تدميرهما.*** وخطط الإسكندر محيط أسوار الإسكندرية، وحدد شوارعها الرئيسة، وأماكن العبادة للآلهة المصرية واليونانية، ثم ترك بقية تفاصيل بناء المدينة لمهندسه الكبير **دنقراطيس** (***DINOCRATES***).

وبعد بناء الإسكندرية أخذ الإسكندر جزءاً من جيشه ونفراً من صحبه، واتجه في محاذاة الشاطئ حتى وصل إلى (***بارايتونيون PARAETONION***) (***مرسى مطروح حالياً***)، ثم توغل في الصحراء قاصداً الحج إلى ***معبد آمون*** (***AMON***) في واحة ***سيوة*** (***SIOUHAH***)، وكان يضارع في أهميته أعظم معابد الوحي اليونانية وذاع صيته في كل أنحاء العالم اليوناني منذ القدم. ويميل أغلب الباحثين إلى أن الإسكندر قام بهذه الزيارة لتحقيق غايتين اثنتين أمام الرأي العام العالمي وهما: ***إثبات صحة نسبه بالآلهة المصرية، وبالتالي أحقيته في حكم مصر والفوز بمباركة الإله آمون لمشروعاته المقبلة.***

وقد كان من شأن تحقيق هاتين الغايتين، أن ييسر على الملك الإله تكوين إمبراطورية عالمية وبسط نفوذه في أرجائها.

وعلى أي حال مضى الإسكندر إلى سيوة واستقبله كاهن المعبد ـ على أنه ابن آمون ـ وقدّم الطاعة إلى الإله آمون ـ ***وهو أبوه نفسه إذا جاز لنا أن نصدّق والدته أولمبياس*** ـ ونحن لا نعرف ما حدث بين الإسكندر ووحي الإله آمون، فهو لم يفصح عما حدث داخل قدس الأقداس، ولكن لا بد أن الإسكندر قد سأل عن مصير حملته وجهوده، ولا بد أن الرد كان منبئاً بتحقيق آمال الإسكندر وسيادته على العالم.

وقبل أن يبرح الإسكندر مصر، قام بتنظيم البلاد تنظيماً دقيقاً، فمنحها استقلالاً داخلياً، ووضع وادي النيل تحت أمرة حاكمين أحدهما على الأقل مصري، في حين وضع الأقاليم المتاخمة للدلتا تحت إشراف رجلين من اليونان، وأمر الجميع أن يرعوا في حكمهم التقاليد المصرية القديمة، وتحصيل الضرائب وتسليمها إلى ***كليومنيس (KLEOMENES) النقراطيسي***، وكان أحد الحاكمين اللذين عينهما الإسكندر، وأوكل إليه أيضاً الأشراف على إنشاء الإسكندرية[٤٢].

ومن هذا المنطلق تجدر الإشارة إلى ملاحظة هامة، ***أن الإسكندر لم يُحدث وجود منصب حاكم عام للبلاد***، وإنما وزع السلطة بعناية شديدة بين المشرفين على الإدارة والشؤون العسكرية والمالية. وقد كان ***أريانوس*** أول من لاحظ هذه الحقيقة وفسرها بأن الإسكندر فعل ذلك عامداً ليمنع أي حاكم بمفرده من أن يُحكِم سلطانه ويتمكن من الاستقلال بمصر. ورغم أن أحداً لم يستطع الاستقلال بمصر أثناء حياة الإسكندر، ولكن ما إن غادر هو مصر حتى وجدنا المشرف على الشؤون المالية (***كليومنيس النقراطيسي***) يظهر فوق كل الموظفين والقادة الآخرين وبدا كأنه والي مصر الفعلي. ورغم أعماله التي أغضبت سائر اليونانيين يبدو أنه ظل حائزاً ثقة الإسكندر التامة وبقي في منصبه طوال حياة الإسكندر[٤٣].

---

(٤٢) هذه الوظيفة لم يذكرها ***آريانوس*** ولكن ذكرها ***أرسطو***، الاقتصاد ٢، ٣.

(٤٣) انظر: مصطفى العبادي، العصر الهيللينستي (مصر) بيروت ١٩٨٨م، دار النهضة العربية، ص٢٢.

٣ ـ معركة جاوجميلا (تشرين الأول ٣٣١ق.م):

في تموز (يوليو) سنة ٣٣١ق.م لحق الإسكندر بقائده بارمينيون الذي كان يرابط على ضفة الفرات الغربية، وعبر الفرات ثم دجلة بدون مقاومة، ثم اتجه صوب قرية صغيرة تدعى **جاوجميلا** (*GAUGAMELA*) ***(موقع تل جومل على بعد حوالي ٥٠ كم شمالي آربيل)*** حيث كان (دارا) قد عسكر على مقربة منها، ووقع اختياره على هذا المكان لأنه كان سهلاً فسيحاً ومناسباً لحركات خيالته العديدة.

وتألف جيش (دارا) من حوالي ثلاثمائة ألف، ما عدا أربعين ألفاً من الخيالة، ومائتي مركبة زودت عجلاتها بالمناجل الحادة، وخمسة عشر فيلاً هندياً مدرباً على القتال. أما الإسكندر لم يكن معه سوى خمسين ألفاً، والفارق كان كبيراً جداً في هذه المعركة.

وقد عمد الإسكندر إلى خطة في التعبئة لم يسبقه إليها أحد، وهي أن يقيم جبهة ثانية تكون على استعداد لتعكس وجهتها القتالية عند اللزوم، وعزز ميمنته وميسرته لتكونا على مقدرة عند الانكفاء من الانتشار لوصل الجبهتين، بحيث يؤلف الكل مربعاً يقاتل من مختلف جهاته، وأطلق على هذا التشكيل اسم ***(المربع الكبير المجوف)***، وهو ترتيب يسمح بالعمل بحركية عظيمة(٤٤). ولقد جرى تنظيم تشكيلات الأجنحة وترتيبها بحيث تستطيع أن تقابل كل اتجاه، وأن ترد على كل هجوم مهما يكن مصدره ومقصده. وبناءً على هذا التشكيل طلب الإسكندر من فرق النبالة أن يصوبوا سهامهم إلى صفوف الفيلة وإلى المركبات الفارسية، كما أمر المشاة الذين اعتادوا تنفيذ التعليمات بسرعة وإحكام، أن يفسحوا في صفوفهم لمرور المركبات، إحباطاً لمحاولة العدو بعثرة صفوف الجيش بواسطة العربات.

وعملاً بنصيحة بارمينيون استراح جيش الإسكندر أربعة أيام، وفي ليل اليوم الرابع من أيام تشرين الأول (أكتوبر) سنة ٣٣١ق.م، بدأت المعركة وكان النصر فيها للمرة الثالثة مديناً لعبقرية الإسكندر في التعبئة وتحركه في ساحة القتال من خلال ***الخدعة*** التي اصطنعها الإسكندر، حيث بدأ المعركة بزخم هجومه إلى اليمين، على عكس ما كان يتوقعه الفرس من عادات الإسكندر أثناء الهجوم، وأوغل بهذا الاتجاه

(44) WELKEN, ALEXANDRE LE GRAND, PAYOT. P141.

فانزلقت معه اضطراراً صفوف الجيش الفارسي لمقاومته، مما أحدث امتداداً غير متوقع في الجبهة وحصول ثغرة في قلب خطوط الفرس الأمامية. وعندما تأكد الإسكندر من وقوع ما كان يسعى إليه، انعطف بسرعة البرق مع صفوة خيالته إلى اليسار باتجاه الثغرة، وتعمق فيها حتى قلب الجيش حيث كان (دارا) ممتطياً مركبته وسط حراسه، وكان لا بد أن يحدث هذا التحول المفاجئ ذهولاً وارتباكاً في قيادة الفرس، إذ أصبحت لا تعرف إلى أين توجه كراديس جيشها.

أما (دارا)، فعندما رأى الإسكندر شاخصاً إليه فطِن إلى ***الخدعة*** بعد فوات الأوان، وتأكد أن خصمه سيصل إليه لا محالة، ***فانهارت عزيمته ولاذ بالفرار***، شأنه في ذلك شأن المرات السابقة، وطارده الإسكندر قرابة خمسين كيلو متراً حتى آربيل، فلم يستطع اللحاق به، إلا أنه استولى هنالك على خزانة ملكه ومؤونة الجيش، ثم كرّ عائداً إلى ساحة القتال وكانت المعركة قد أشرفت على نهايتها.

وبعد نهاية هذه المعركة وهزيمة (دارا)، زحف الإسكندر على بابل حيث استسلم له (***مازايوس***) الذي كان قائداً بارعاً في معركة جاوجميلا وأكرمه الإسكندر وعينه والياً على بابل، ***وكانت هذه أول مرة أسند فيها الإسكندر مثل هذا المنصب إلى فارسي***، ولكن الإسكندر عين إلى جانبه قائداً عسكرياً مقدونياً، وكذلك مشرفاً على الشؤون المالية. وعندما استسلم إلى الإسكندر عدد من قادة الفرس البارزين عين منهم سبعة عشر والياً، ولكن الإسكندر أعطى ***مازايوس*** دون غيره من الفرس الذين أقامهم حكاماً على بعض الولايات ***حق سك النقود***. وإزاء الترحيب الذي قوبل به الإسكندر في بابل، أمر بإلغاء جميع قرارات الملك الفارسي (***أكسركس***) التي أبطلت العادات والتقاليد البابلية. وبعد ذلك تابع الإسكندر تقدمه نحو سوسة (***SUSA***) على بعد ٢٣ كم من مدينة (***ديزقول***) المعاصرة، حيث عين عليها والياً فارسياً آخر، وأسكن أسرة (دارا) ثم سارع صوب **برسيبوليس** واستولى عليها، وغنم من كنوزها ما قدّر بمئة وثمانين ألف تالانت وأحرق فيها قصر أكسركس، وأراد من ذلك أن يكون هذا العمل عبرة لآسية وإيذاناً بأنه تم الأخذ بثأر المعبد البابلي العظيم (E.***SAGILA***) الذي خرّبه أكسركس قبل حوالي قرنين من الزمان.

وعندما علِم الإسكندر بأن (دارا) يعد العدة لمتابعة القتال في إكباتانا (***EKBATANA***)، وكان قد فر إليها بعد معركة جاوجميلا، أسرع لملاقاته قبل أن يتم استعداداته، ولكن بعد عشرة أشهر تآمر قادة (دارا) عليه بعد يأسهم من قتال الإسكندر واغتالوه بزعامة بارسانتس (***BARSANTES***)، قرب قرية شيرود (**تموز سنة ٣٣٠ق.م**) الواقعة جنوب شرقي بحر قزوين، وكان الإسكندر آنذاك جاداً في طلبه، ***إلا أنه لما وصل إليه كان (دارا) ملك ملوك فارس ملقى في عربته جثة هامدة ومضرجاً بدمائه، فوقف الإسكندر خاشعاً يتأمله، ثم خلع رداءه ولفّه به، وأمر أن يُجهز ويُسلّم إلى والدته، ليدفن في مدافن برسيبوليس الملكية على الطريقة الفارسية وبالأبهة اللائقة بعاهل الفرس من خلال احتفال ملكي مهيب.***

وكان من جرّاء اغتيال الملك الأكبر بعد الهزائم التي نزلت بالفرس وتفرّق كلمتهم، أنه لم يعد في وسعهم بوصفهم إمبراطورية كبيرة مقاومة الإسكندر، ***وهكذا طويت إلى حد كبير آخر صفحة من صفحات الإمبراطورية الفارسية، وبدأ حكم جديد للمنطقة تحت رعاية حكام جدد يمثلون حضارة جديدة في مبادئها وعقائدها وأنظمتها.***

وكذلك كان من جرّاء انتصارات الإسكندر واغتيال (دارا)، أن الإسكندر أصبح الملك الأكبر ***بحق الفتح***، ودعا نفسه (***سيد آسية***)، وتبعاً لذلك أصبح من حقه أن يعامل كل من يقاومه معاملة العصاة الخارجين على سيد البلاد ولو كانوا من العناصر الوطنية. ***ولذا فإنه قام بتثبيت الولاة الفرس الذين قدموا فروض الطاعة له في مناصبهم وأعطاهم الأمن والأمان، وأعدم الذين ما زالوا في حالة العصيان بعد أن وقعوا في أسره.***

آ - *القتال شرقاً في آسية الوسطى:*

بعد أن أمّن الإسكندر مؤخرته باستسلام ولاة الهضبة الإيرانية وفرار بعضهم الآخر، اتجه شمالاً باتجاه باكترية لاقتفاء أثر هؤلاء. وفي طريقه بلغ الإسكندر نبأ استسلام **ساتيبارزانس** (**SATIBARZANES**) والي آرية فعفا عنه وثبته في ولايته وأرسل إليه أحد قواده لمرافقته وإن لم يزوده بقوات كافية، دليلاً على رغبته في اتباع

سياسة جديدة تقوم على أساس الثقة بالولاة الفرس، وعند وصول الإسكندر إلى ***بلخ*** ***(BALEKH)*** بلغه تمرد ***ساتيبارزانس***، مما اضطره إلى العودة جنوباً وإخضاع آرية ثانية رغم فرار ***ساتيبارزانس*** بصعوبة. وعلى مقربة من إحدى المدن الهامة التي تدعى ***ارتاكوانا*** ***(ARTAKWANA)*** أسس أول مدينة حملت اسمه شرقي دجلة. وفي طريقه باتجاه باكترية توقف الإسكندر في المقر الملكي في ***فرادا*** ***(PHARADA)*** حيث حاكم ***فيلوتاس*** ***(PHILOTAS)*** ابن ***بارمينيون*** وأحد أفضل ضباطه وكان ذلك في سنة ٣٣٠ ق.م، بتهمة الخيانة لشخص الإسكندر وأعدمه، ثم أتى دور الإعدام في العام نفسه على **بارمينيون** والد فيلوتاس وبيان ذلك: أن أحد المقدونيين طلب من فيلوتاس القائد الأعلى للخيالة المقدونية مقابلة الإسكندر لإطلاعه على مؤامرة حيكت ضد حياته، وتقاعس فيلوتاس طيلة يومين ولم يُخبر الإسكندر، وعرف الإسكندر أخيراً بالمؤامرة عن طريق أخرى، وبعد تحقيق عاجل أمر بإحضار المدعو **دمنوس** الذي كان أول من أباح بالسر، ولكن هذا فضّل الموت على ألا يساق إلى الملك، مما ضاعف قلق الإسكندر إذ فقد بموته كل أمل في معرفة الحقيقة.

وجمع الإسكندر سراً أعز قواده الذين يثق بهم، وصادف أن أكثر هؤلاء كانوا من المنافسين الذين يضمرون العداء لفيلوتاس، فساد الرأي أنه يصعب التسليم ببراءة قائد الخيالة فيلوتاس الذي أخفى على الإسكندر مثل هذا الأمر الخطير، وهو بحكم دالته ووظيفته ممن يدخل على الإسكندر غير مرة في اليوم الواحد، وقُبض على فيلوتاس وسيق إلى محكمة الجيش مغطى الرأس على عادة المقدونيين في موضوع الخيانة العظمى، وقيل إنه أقرّ بضلوعه في المؤامرة تحت وطأة التعذيب فأعدم.

وتوجس الإسكندر شراً مما يُقدم عليه قائده الأكبر بارمينيون والد فيلوتاس نظراً لمكانته ومقدرته وبعد صيته، وخاصة أن الإسكندر قد ولاه على ***همذان*** عقدة طرق مواصلات الجيش وتموينه، وكانت تحت إمرته القوى والأموال والكنوز التي جُمعت من عواصم فارس. وتراءى للإسكندر أنه لا بد لبارمينيون أن يثأر لإعدام ابنه، فبادر وأرسل مع أسرع سعاته من يثق به من ضباطه وزوده بخاتمه حسماً لكل

شك أو تردد مع الأمر الصريح بالقضاء الفوري على كبير قواده... وطعن بارمينيون وهو يقرأ رسالة الإسكندر التي حملها الساعي إليه مع الموت. وكان أصدق تعليق على هذه الكارثة المروعة ما قاله ***أنتيباتروس*** نائب الإسكندر في أوروبة عندما بلغه الخبر (***إذا كان بارمينيون قد تآمر على الإسكندر فمن يؤتمن بعده ؟ وإذا كان لم يتآمر فما العمل الآن؟***)[٤٥].

وبعد سنتين أي في عام ٣٢٨ ق.م وقعت الكارثة الثانية، وكان ضحيتها ***كليتوس*** شقيق ***لاينيس*** مرضعة الإسكندر في طفولته، وهو الذي سبق أن أنقذ حياة الإسكندر في أولى معاركه (***كرانيكوس***) كما ذكرنا سابقاً.

حدث ذلك خلال وليمة أقيمت في ***سمرقند*** وقد لعبت الخمرة في رؤوس المدعوين، وإثر مشادة كلامية بين القائد كليتوس، ممثل جناح رجالات الجيش المقدوني الأكبر سناً والمتمسكين بأسلوب الملك فيليب والد الإسكندر الذي كان يمارس الحكم بطريقة جماعية معتبراً الملكْ تراثاً للأمة كلها، وبين القواد الأصغر سناً الذين كانوا يجارون الإسكندر في ممارسة السلطة كقنوة خاصة به وحده. وغالى في تلك الليلة بعض صغار الضباط في تزلّفهم وبالغوا في تعظيم منجزات الإسكندر، ووصل بهم الشطط إلى إنكار مآثر والد الإسكندر، من أنه إليه وحده يرجع الفضل في إرساء عظمة مقدونية، حتى زعم قائلهم أن مجد فيليب قائم على أنه والد الإسكندر، واستشاط كليتوس غضباً من إهانة ذكرى الملك الكبير فيليب، وكانت الخمرة قد أفقدته اتزانه وأطلقت عقال لسانه، فقام يفصح عن كل ما كان يحز في قلبه. وكان أقسى ما توجه به إلى الإسكندر تنكّره لوالده الملك، ليكون ابن آمون، وإغفال إسهام جنوده وقواده في انتصاراته، وتقريب قواد الفرس منه، واغتيال

---

(٤٥) يعتقد بعض المؤرخين ببراءة ***فيلوتاس***، وأنه ذهب ضحية حسد القادة من زملائه وكراهيته لهم انظر:

G; RADET, ALEXANDRE LE GRAND, ARTISAN DU LIVRE, P; 113.

ويقول (***ويلكن***) إذا كان ثمة من جزم في قتل فيلوتاس فالمسؤولية تقع على الجيش الذي حكم عليه بالموت انظر: (WILKEN); P 170 .

بارمينيون الذي أخلص له، وختم تعنيفه ملوّحاً بذراعه، ***ومذكراً الإسكندر أنه بساعده هذه قد أنقذ حياته في معركة كرانيكوس.*** ولما انتصب الإسكندر يريد الاقتصاص من قائده، توسط الحاضرون وأخرجوا كليتوس إلى الخارج، فما كان من هذا بسكره إلا أن تسلل إلى القاعة من باب آخر، وما كاد يراه الإسكندر حتى انتزع مزراقاً من أحد الحراس القائمين قربه وابتدره بطعنة اخترقت صدره، فزعق كليتوس بعدها زعقة مدوية تبعتها حشرجة الموت(٤٦).

وصعق الإسكندر والحاضرون على ما حدث وساد صمت رهيب، وعاد الإسكندر إلى رشده فأبصر الواقفين حوله مشدوهين بلا حراك فهاله ما فعل، وفجأة وثب إلى الجثة وانتزع منها المزراق وقلَبَ السِنان يريد قتل نفسه، ولولا لم يسبقه قواده إلى خطف السلاح من يده وحمله مرغماً إلى غرفته لسبق السيف العزل، وبقي الإسكندر ثلاثة أيام بلياليها يبكي وينتحب وهو يردد ***(بأي وجه أقابل مرضعتي بعد أن قتلت أخاها؟).***

ولم تستطع أقوال رجال حاشيته وإلحاح أعز أصدقائه تبديد بأسه، ودخل عليه الفيلسوف ***(أناكسارك)*** يسأله معاتباً ***(كيف أصبح من أخضع العالم عند قدميه على هذه الحال من الوهن والعجز العصبي)*** ولربما كانت كلمات ***(أريستاندر)*** كبير منجمي البلاط، أكثر فاعلية في نفس الإسكندر عندما قال له ***(إن ما حدث كان مقدّراً ولا مهرب منه، وبهذا قضت آلهة أوليمبوس، ولا طاقة لأي من البشر على صده)*** فاستكان الإسكندر وخضع للقدر المحتوم(٤٧).

وبحلول عام ٣٢٧ ق.م نجح الإسكندر بعد جولة مثمرة في شمال شرق الهضبة الإيرانية في فرض سيطرته على جميع الأصقاع التي دانت في فترة سابقة للمتمردين

---

(٤٦) انظر: ***بلوتارخوس*** ٥١، ٨ الذي يلقي التبعة على **كليتوس** الذي بعد أن أُخرج قسراً من القاعة عاد ليتحدى الإسكندر. أما آريانوس ٤، ٨، ٩ فيسرد أكثر من رواية عن الحادث ولكنه يؤكد، مثل بلوتارخوس، أن كليتوس بعد أن أُبعد عاد لمجابهة الإسكندر، فبادره هذا إذ ذاك بالطعنة القاضية.

(٤٧) انظر: ***بلوتارخوس***، ٥٢، ٣.

من بدو الساكا والضغديين والباكتريين، وأهمهم ***أوكسو آرتس*** ***(OXOARTES)*** الذي استسلم رجاله للإسكندر بعد مقاومة عنيفة ووقعت أسرته في الأسر بما فيها ابنته ***(روكسانا)*** ***(ROXANA)*** التي تزوجها الإسكندر فيما بعد، متابعاً بذلك سياسته التي أفضت إلى سوء التفاهم وفقدان الثقة بينه وبين اليونانيين والمقدونيين. ذلك أن هذا الزواج كان زواجاً سياسياً محضاً قصد به إظهار احترامه للعرق الفارسي خاصة، واسترضاء الأمراء الشرقيين ووضع حد للحرب القومية عامة.

ب . تصرفات الإسكندر وتمرد قواده:

إلى حين اغتيال (دارا) واستيلاء الإسكندر على العاصمة الفارسية ***إكباتانا*** في صيف سنة ٣٣٠ق.م، كان الإسكندر ملكاً مقدونياً وقائداً لحلف كلفه بمحاربة الفرس، وقد بلغت هذه المهمة غايتها بتحطيم الدولة الفارسية، وقد شعر المقدونيون واليونانيون بأنه لا علاقة لهم باستمرار زحف الإسكندر شرقاً، وخاصة عندما رأوه ماضياً في اتخاذ بعض الخطوات التي أشعرتهم وأكدت قناعتهم بأن الإسكندر لم يعد مليكهم فقط، بل أصبح ملكاً آسيوياً متمشرقاً استناداً للأسباب التالية:

١ - عني الإسكندر باحترام رعاياه الجدد من الشرقيين ***(مصريين وسوريين وبابليين وفرس)*** لإيمانه بأن التفرقة بين الناس في المعاملة يجب أن تقوم على أساس فضلهم وليس جنسهم، وقناعته بأنه على الرغم من تأخر بعض حضارات هذه الأقوام عن الحضارة اليونانية، فإنه من الممكن تحضير هؤلاء والاستفادة من مقوماتهم الحضارية القائمة، وهي عكس الفكرة التي كان ينادي بها أرسطو كما أسلفنا، ودان بها اليونان بشكل عام.

٢ - دأب الإسكندر منذ مقتل (دارا) على ارتداء الثياب الفارسية والتزي بزي الفرس وإتباع المراسم الفارسية بين خاصته، ثم علانية في بعض المناسبات.

٣- إدخال نبلاء الفرس في عداد الفرسان في الحرس الملكي والحرس الخاص، وإقامة ولاة منهم على المقاطعات التي افتتحها.

٤ - أمره باختيار ثلاثين ألفاً من شبان الفرس ليصار إلى تثقيفهم ثقافة يونانية وتعليمهم أساليب القتال المقدونية.

٥ - زواجه من الأميرة ***روكسانا*** ابنة الشريف الفارسي أوكسو أرتس زوجة شرعية له.

٦ - انجـراف الإسـكندر في تيـار المراسـم والعـادات الفارسـية باقتباسـه عـادة السجود (***PROSKYNESIS***) له، وهي التي بمقتضاها كان يتعين على جميع من يقتربون من الملك أن يؤدوها بما فيهم ذلك المقدونيون واليونانيون. وكان بقصد من وراء ذلك المساواة بين رعاياه الفرس والشرقيين في المعاملة.

لقد أحدثت تصرفات الإسكندر وسياسة الدمج العنصري التي اتبعها بين رعاياه الغربيين والشرقيين مزيداً من التوتر في علاقات الإسكندر مع قواده المقدونيين الذين كانوا معه، ورأوا في سلوك الإسكندر أنه ينزلق أكثر فأكثر نحو التمشرق والتفرد في الرأي، آخذاً بأساليب ملوك الفرس في الحكم المطلق وسعيه الحثيث إلى المساواة في المعاملة والتوظيف والخدمة بينهم هم الذين يعتبرون أنفسهم الأسياد المظفرون، وبين قواد الفرس وأشرافهم البرابرة المغلوبين(٤٨).

وعلى أية حال، فقد كان من شأن هذه التصرفات التي قام بها الإسكندر أن رفاقه من المقدونيين واليونانيين تصوروا - ***نظراً لعجزهم عن فهم المغزى الحقيقي الذي رمى إليه الإسكندر*** - أنه تحول إلى ملك فارسي ورأوا أن من واجبهم وقفه عند حده مما تسبب له في كثير من المتاعب كانت أولاها مؤامرة (***فتيان القصر***) وهي التي ارتبط بها اسم (***كاليسيثنيس KALLISTHENES***) (٤٩)، الذي رد على الإسكندر بأن يقصّر العادات الشرقية على الشرقيين، وحكم عليه الإسكندر فيما بعد بالإعدام مع بقية المتآمرين.

وبيان ذلك أن أحد فتيان الحاشية ويدعى **هرمولاوس** (***HERMLAOS***) تآمر ونفر من زملائه على حياة الإسكندر بإيحاء من كاليسيثنيس الذي أثبت التحقيق أنه ردد على مسامعهم أنه يفضل قتل الطغاة، ولعل مجرد حدوث هذه المؤامرة يكفي

---

(48) RADET, G: OP, CIT, pp 241.

(٤٩) ***كاليسيثنيس*** ابن أخت أرسطو معلم الإسكندر الذي اصطحبه معه لتأريخ حملته، أرّخ للإسكندر على أنه بطل الهيللينية وابن زيوس، ولكنه اختلف معه سنة ٣٢٧ ق.م في حركة معارضة ضد تصرفات الإسكندر التي أوحت لكثير من رفاقه أنه أصبح ملكاً شرقياً.

للدلالة على عجز رفاق الإسكندر بما فيهم أنضجهم عقلاً وأكثرهم ثقافة مثل كاليسيثنيس عن تفهم مرامي الإسكندر السياسية التي سنفصلها في الفصل القادم.

لم يكن من شأن التآمر على حياة الإسكندر أن يصرفه عن السير قدماً في سياسته فحسب، بل أمعن في ذلك شدة وحدة عندما كان لا يزال في باكترية وخطا خطوتين اثنتين في سياسته المتمشرقة ***إحداهما*** : هي أنه وضع فرقة الفرسان الملكيين تحت قيادته الخاصة وضم إليها قلة من أبناء الفرس. ***وثانيهما*** : هي أنه أعاد جميع فرسانه البلقانيين إلى بلادهم عدا التراقيين منهم، واستبدل بالذين أعادهم فرساناً من الشرقيين ممن استبسلوا سابقاً في مقاتلته قبل إخضاع ولاياتهم ثم أخلصوا في خدمته، وهو أمر يعكس مدى ثقة الإسكندر بنفسه وبسياسته(٥٠).

٤ - معركة الهيداسبس (تموز ـ يوليو ٣٢٦ ق.م):

في بداية صيف عام ٣٢٧ ق.م، خرج الإسكندر من مدينة باكترية على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألفاً في طريقه باتجاه كابول (***KAPUL***) العاصمة الأفغانية حالياً، وفي طريقه قدّم له بعض زعماء المنطقة عدداً من الأفيال هدية لمتابعة حربه بعد أن يئسوا من مقاومته، واستطاع في فترة وجيزة بما أوتي من روح معنوية عالية وكفاية حربية ومهارة دبلوماسية، اكتساح معظم الأقاليم المتاخمة لمملكة ***باورافا*** (***PAURAVA***) شمال غربي الهند، وكان ملكها **بوروس** (***POROS***) قد تحالف مع بعض الحكام المجاورين. وبعد أن أعاد الإسكندر تنظيم فرسانه، فاجأ غريمه بوروس الذي عسكر على الضفة الشمالية من نهر ***الهيداسبس*** (***HYDASPES***) ودامت المعركة ثماني ساعات، وكانت أقسى معارك الإسكندر وأكثرها ضراوة وعدداً في الضحايا. ولكن الإسكندر استطاع أن ينتزع النصر بفضل خيالته الجيدة وصمود الكتائب المقدونية الرائع، بالرغم من أن بوروس استبسل في المعركة استبسالاً منقطع النظير، ووجود عدد كبير من الفيلة معه التي لم يكن جيش الإسكندر قد أجاد أساليب

---

(٥٠) انظر ***مفيد رائف العابد***، ص ٣٢.

مقارعتها بعد. وعندما تقابل الملكان، المنتصر والمنكسر بعد القتال، سأل الإسكندر بوروس: ***ماذا تريد أن أصنع بك***؟. فأجابه بوروس بإباء ***(أن تعاملني كملك)*** فرد عليه الإسكندر، وقد أعجبته عزة نفسه ***(أردت أن تُعامل كملك، فلتبق لك مملكتك)***[51]. وبعد ذلك أصبح بوروس حليف الإسكندر وحاكماً وطنياً يتمتع بقسط من الرعاية والحماية، وساعد الإسكندر في طريقه باتجاه نهر السند، حيث أكمل إخضاع الأراضي الواقعة بين ***(الهيفاس)*** و ***(الهيداسبس)*** من روافد نهر السند.

سادساً: انتفاضة العصيان ونهاية الحملة:

بعد عودة الإسكندر من حملة الهند، ***أمعن في سياسة المزج والمساواة التي اعتمدها لإرساء دعائم إمبراطوريته العالمية،*** إذ نراه وبعد ثلاث سنوات من زواجه بالأميرة الفارسية ***(روكسانا)*** في بكترية (ربيع عام ٣٢٧ق.م). يقيم في سوسة عام ٣٢٤ ق.م، ***أغرب حفل زواج جماعي عرفه التاريخ***، وأحاط هذا الحفل بمظاهر العظمة والبذخ بإنشائه سرادق ضخم بلغ محيطه على حد قول المؤرخين أربعة فراسخ نُصب على خمسين عموداً بعلو عشرين ذراعاً، وأُسدلت عليه الستائر التي حيكت بخيوط من الذهب والفضة ورُصعت بالأحجار الكريمة، وكانت أرائك الإسكندر من الذهب الخالص، وفُرشت أرضية السرادق بالسجاد الفارسي الفاخر.

وبلغ الحفل ذروته عند وصول رتل من الفتيات الفارسيات وهن من ذوات الجمال البارع، تتقدمهن ***(ستاتيرا)*** ابنة (دارا) البكر، ***وباريزاتيس (PARYSATIS)*** ابنة أرتخشتر الثالث وتزوج منهما الإسكندر، ويكون بهذا الزواج قد ربط نفسه بفرعي الأسرة المالكة الفارسية. ثم تبع ذلك رهط من الأميرات الفارسيات من ذوات الأسر العريقة، اتخذ منهم ثمانون ضابطاً من ضباط الإسكندر زوجات شرعيات لهم، وحذا حذوهم عشرة آلاف من الجنود الذين تزوجوا بفارسيات. ودامت الاحتفالات خمسة أيام متوالية تخللتها المهرجانات والمباريات الغنائية والموسيقية والألعاب والتمثيليات ومظاهر التسلية المتنوعة[52]. ***وتجلى كرم الإسكندر في هذه المناسبة على أروع***

---

(٥١) انظر: ***متوديوس زهيراتي***، ص ٥٩.

(٥٢) انظر: ***بلوتارخوس***، ٧٠، ٣.

مظاهره، فقد أعفى كل المتزوجين بآسيويات من التكاليف المالية، عدا البائنة والهدايا الشخصية التي خص بها كل زوجة، ثم تكّفل بدفع الديون المترتبة على كل ضباط وجنود جيشه، وقد بلغت هذه الهبات حسب قول المؤرخ أريانوس عشرين ألف وزنة(٥٣).

وقلق اليونانيون والمقدونيون من تصرفات الإسكندر، وعابوا مواطنيهم لقبول الزواج من فارسيات، وإتباعهم طقوساً بعيدة عن تقاليدهم الوطنية، وكأن الإسكندر أصبح ملكاً فارسياً أكثر منه مقدونياً. وزاد من قلقهم واستيائهم عندما جاء حكام المدن الجديدة التي بناها الإسكندر أو غزاها ومعهم ثلاثون ألفاً من شبان الفرس جاؤوا من المقاطعات الشرقية، وقد تدربوا على النهج المقدوني في القتال للانخراط في صفوف جيش الإسكندر، كما أضرم أوار غضبهم رؤية أحد قادة الإسكندر وهو (***بوسوتاس***) متزيناً بثياب الفرس أمام إعجاب الإسكندر. ***إن كل هذه المظاهر التي أقدم عليها الإسكندر اعتبرها رجاله دليلاً على استشراقه.*** ورغم كل ذلك، فإن الإسكندر ظل ماضياً في هذا النهج ولم يُعر لذلك أي اهتمام، بل على العكس من ذلك اتخذ الإسكندر في السنة نفسها أجراء آخر وهو ***جهره بألوهيته***، وطلبه إلى جميع مدن حلف كورنثة ما عدا مقدونية تأليهه، وارتدى ثياباً كهنوتية، وزيّن رأسه في بعض الأحيان بقرني آمون(٥٤). ***ورغب من جميع هذه المدن أن تعترف به من ذلك الوقت بأنه ابناً لزيوس ـ آمون.*** ويفسر الباحثون أن المقصود بذلك التأليه هو إتاحة الفرصة للإسكندر للتدخل في شؤون الحلف، لأن الإسكندر رئيس الحلف مقيد بميثاقه، وأما الإسكندر الإله فأنه لا حدود لسلطته(٥٥).

ولم يكتف الإسكندر بكل هذه المظاهر، بل التفت أخيراً إلى الجيش وأمعن شدة في سياسة المزج والمساواة التي أخذ بها، إذ أدمج الفرس والصغديين والبكتريين بفيالق الفرسان المقدونية، ***وعمد إلى مزج العناصر بعضها ببعض، وأنشأ فيلقاً خامساً***

---

(٥٣) انظر: ***آريانوس*** ٧، ٥، ٣.

(٥٤) انظر: ***أثينايوس*** ١٢، ٣٥.

(٥٥) انظر: ***مفيد رائف العابد*** ص ٣٤.

من الفرسان جمع فيه عناصر آسيوية ومقدونية[٥٦]. ولم يستثن من ذلك أحداً حتى فرقته الخاصة (***الأغيما AGIMA***) التي من عادتها أن تحتفظ بحقها لأشراف مقدونية دون غيرهم، فأدخل فيها عدداً من الأمراء والأشراف وأبناء الولاة الفرس، نذكر منهم شقيق (***روكسانا***) زوجة الإسكندر الأولى، وجعلها تحت أمرة أحد قواده وهو من بكترية، وقد نظر السواد الأعظم من الجنود المقدونيين شزراً إلى مظاهر هذا (***التبربر***) الذي وتر أعصابهم وجعلهم أشبه ببركان أن ينفجر في أول فرصة[٥٧].

وانطلق الإسكندر بعد ***سوسة*** مع بعض فرق جيشه يتفقد مصبات دجلة والفرات، ثم صعد دجلة حتى مدينة (***أوبيس***) القائمة على تقاطع الطرق، وكان الجيش قد سبقه إليها. وفي (***أوبيس***) عرض الإسكندر أن يعيد إلى مقدونية الطاعنين في السن والمرضى من رجال الجيش بعد أن منح كل منهم مكافأة سنوية نظير خدمته، ويؤكد ***أريانوس*** أنه وهب كل منهم وزنة زيادة على مرتبه الذي لم ينقطع حتى العودة إلى الوطن. وفي هذه الحالة تأكدت وساوس المقدونيين وهم على ما عليه من الاستياء والحفيظة، وظنوا أن الإسكندر كان يرمي إلى إقصائهم عنه تدريجياً والاستعاضة عنهم بالفرق الفارسية، ونقل مركز الإمبراطورية من مقدونية إلى الشرق، تمشياً مع سياسته المتشربة بروح العطف نحو الشرقيين، ومما زاد في وساوسهم ما لاحظوه من اهتمام الإسكندر الشديد وولعه بإنشاء المدن الجديدة والمستقرات العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية. فما كان من رجال الجيش باستثناء الحرس والفرق الفارسية، بأن ثاروا على الإسكندر وطالبوا بإعادتهم جميعاً إلى أوطانهم مستعيناً بعد اليوم بوالده (***آمون***) في حروبه، حيث لا حاجة إليه بالناس وهو إله ليحققوا له أغراضه. فلم يكن منه إلا أن غضب غضباً شديداً، وأمر رجال الحرس

---

(٥٦) لم يستطع الإسكندر مزج الجيش دفعة واحدة، نظراً للمعارضة التي لاقاها عند فرق المشاة، فبدأ بالفرسان في سوسة سنة ٣٢٤ ق.م، ثم بالمشاة بعد أشهر في بابل، وإضافة إلى الثلاثين ألفاً من الشبان الفرس، بلغ المزج أشده في الكتائب الجديدة إذ ضُمَّ إلى كل أربعة من المقدونيين اثنا عشر من الآسيويين في كل صف في العمق انظر: ***آريانوس*** ٧، ٦،٧ و٧، ٢٣.

(٥٧) انظر: ***متوديوس زهيراتي***، ص ١٢٣.

بالقبض على زعماء الفتنة، ثم ألقى في جموع الجيش خطبة مؤثرة قال فيها (***لست أريد أيها المقدونيون، أن أصدكم عن العودة إلى عيالكم لأن هذا شأنكم، لكني أردت قبل انصرافكم أن تعرفوا كيف تكافئوننا، أنا وأبي على ما أسديناه لكم... لقد وجدكم أبي فيليب فقراء تائهين، لباسكم الجلود، يرعى أكثركم قطعاناً هزيلة في الجبال، فأعطاكم سهول البرابرة القائمين حولكم وجعلكم أسيادهم بعد أن كنتم عبيداً لهم...لقد أخضعت لكم الشرق كله... وكسبت لكم كنوز فارس... وأنا ماذا جنيت من هذا كله سوى هذا الأرجوان وهذا الإكليل ؟.. آكل ما تأكلون، وأنام مثلما تنامون، لا بل أسهر من أجلكم وأنتم راقدون.. من منكم يجرؤ ويكشف عن جروح أكثر مما أحمل في جسدي ؟... لقد أردت أن أسرّح من لم يعد يقوى منكم على القتال ليذهب إلى بيته وأنتم تريدون كلكم الذهاب، ألا أذهبوا وأذيعوا على الملأ أنكم هجرتم مليككم*** الإسكندر، ***وعهدتم به في حماية البرابرة المغلوبين، ذلك لعمري يؤتيكم مجداً عظيماً أمام الناس، وبراً ممدوحاً أمام الآلهة، الآن أقول لكم: أذهبوا)***[٥٨].

وما كاد الإسكندر ينهي خطابه حتى سارع للاعتكاف في قصره، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وبعد اعتكافه لمدة ثلاثة أيام دعا زعماء الفرس إليه، وطلب منهم مساعدته على إنشاء جيش قوامه البشري فارسي وتسمياته وأنظمته مقدونية. ونتيجة لهذا التصرف تراجع الجيش عن موقفه وعاد الجميع إلى القصر الملكي بعد أن ألقوا سلاحهم تعبيراً عن خضوعهم يطلبون الغفران والسماح، وأنهم سيبقون ليل نهار أمام القصر حتى يظفروا برضى قائدهم واستجاب الإسكندر أخيراً لتوسلاتهم، فعفا عنهم بعد أن قدّم قرابين الشكر للآلهة، وأقيمت وليمة كبرى جلس فيها الإسكندر بين المقدونيين، يليهم الفرس ثم بقية ممثلي الأمم، وصلى عرافو اليونان والفرس معاً، وتضرع الإسكندر إلى الآلهة (***أن تمنح المقدونيين والفرس السعادة والوئام والتعاون في إدارة الإمبراطورية***).

---

(٥٨) انظر: ***آريانوس*** ٧، ٩، ١٠.

وكان عدد الجنود الذين اختاروا العودة إلى مقدونية قرابة عشرة آلاف، صُرفت لهم مستحقاتهم وأضاف إليها الإسكندر وزنة هبة لكل منهم (كما ذكرنا آنفاً). ويخبرنا بلوتارخوس أن الإسكندر أوعز إلى نائبه (***أنتيباتروس***) في البلقان (***أن يُجلس العائدين من خدمته في الحفلات الرسمية العامة في الصف الأول وعلى رأس كل منهم إكليل***) رمزاً للمجد الذي أحرزوه لاشتراكهم في فتوحات الإسكندر[٥٩].

سابعاً: موت العلمين الكبيرين (الإسكندر وأرسطو):

في ربيع ٣٢٣ ق.م، وصل الإسكندر إلى بابل، وأنفذ بعثة استكشافية علمية للتأكد من أي النظريتين أصح: ***نظرية أرسطو القائلة بأن بحر قزوين لم يكن إلا بحيرة كبيرة، أم النظرية القديمة القائلة بأن هذا البحر ليس إلا خليجاً ناتئاً من المحيط.*** كما أنفذ بعثات لاستطلاع سواحل الجزيرة العربية، ووضع مخططاته الحربية لغزو الجزيرة العربية. غير أن تعرّضه للظروف القاسية وإدمانه الشراب ومؤامرات ضباطه وتمرد جنوده، أضعفت بنيته القوية وأوهنت قوته النفسية. وكانت أقسى ضربة سددتها الأيام القاسية إليه موت صديقه ***هيفايستيون*** (***HEPHAESTION***) المفاجئ، وكان رفيق حروبه وعشير أيامه السعيدة، وكان الإسكندر يحبه حباً بلغ من شدته أنه حين دخلت زوجة (دارا) خيمة الملك الفاتح وانحنت أولاً لهيفايستيون احتراماً له لظنها أنه هو الإسكندر، قال لها الملك الشاب في رقة ولطف، أن هيفايستيون هو أيضاً الإسكندر[٦٠]. وكأنما أراد بقوله هذا أنه هو وهيفايستيون رجل واحد. وأن من ينعم النظر في سلوك الإسكندر خلال الأشهر المتبقية له يوقن أن دوافع حماسته قد فترت ونوابض حياته خفتت، ***وأصبح سريع الانفعال، كثير الوساوس، شديد الاعتقاد بتنبؤات العرافين، يكثر الطلب بإقامة الذبائح ليستكشف الغيب بفحص أحشائها، طالباً إلى الكهنة البابليين القيام بطقوس التطهير***[٦١].

---

(٥٩) انظر: ***بلوتارخوس*** ٧١، ٨٠.

(٦٠) انظر: ***آريانوس*** ٢، ١٢.

(٦١) انظر: ***متوديوس زهيراتي***، ص١٢٨.

كل هذه الظروف القاسية دفعته لأن يكثر من الشراب محاولاً دفن أشجانه في الخمور، وبينما كان يشرب مع ضباطه ذات ليلة إذ عرض عليهم أن يتباروا في شرب الخمر، فتجرّع (**برامكس**) وهو أحد ضباطه نحو ثلاثة جالونات وفاز بالجائزة وهي وزنة من الذهب، ***ومات بعد ثلاثة أيام***. وأقيمت مأدبة أخرى بعد أيام قلائل شرب فيها الإسكندر خابية تحتوي جالون ونصفاً من الخمر، وعاد في الليلة التالية إلى الشراب، فاشتد عليه البرد فجأة وأصيب بالحمى وآوى إلى فراشه، ولم تفارقه الحمى عشرة أيام كاملة ظل في أثنائها يصدر الأوامر إلى الجيش والأسطول ولم ينقطع عن إقامة الشعائر الدينية، ***وتوفي صباح يوم ١٣ حزيران (يونيو) سنة٣٢٣ق.م، ويكون الإسكندر بذلك عاش اثنتين وثلاثين سنة وثمانية أشهر، وحكم اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر، فحُنط وأقيم له مأتم لم يعرف العالم له نظيراً، وقيل فيه ما لم يقل في أحد***[٦٢].

وحدث تنافس بين قواد الإسكندر لاحتواء جثته، وتمكن بطليموس في آخر الأمر من توجيه الموكب إلى ممفيس حيث بقي الجثمان مؤقتاً إلى أن أتم تشييد ضريح لائق به فنُقل إلى الإسكندرية، وقد ظل التابوت والجثمان محفوظين إلى زمن الإمبراطور الروماني ***إسكندر سايروس ٢١١ بعد الميلاد*** ثم فُقد أثرهما، ويذهب عالم الآثار فريزر سنة ١٩٧٢م، إلى أن كل التنقيبات عن جثمان الإسكندر باءت بالفشل، ويسود رأي اليوم بين بعض علماء الآثار - ولكنه غير مؤكد - أن قبر الإسكندر قائم تحت جامع النبي دانيال في الإسكندرية، لذلك يصعب التنقيب عنه[٦٣].

لم يترك الإسكندر بسبب موته المفاجئ وصيته لأن العبقرية لا تورّث، وكل ما قيل في هذا الصدد أنه عندما سُئل، وهو على فراش الموت أمام بعض قواده، لمن

---

(٦٢) بقيت أقوال الخطباء في المأتم الذي أقيم للإسكندر في بابل، ووصف العربة التي نقلت جثمانه إلى الإسكندرية، موضوع تباري المؤرخين والشعراء والكتاب عبر العصور، ونجد عند ***المسعودي*** في كتابه (***مروج الذهب***) أقوالاً شبه خرافية بهذا الصدد.

(٦٣) انظر: ***متوديوس زهيراتي***، ص١٢٩.

يترك الملك أجاب (**للأكثر جدارة بينكم**) وروي أنه انتزع الخاتم من إصبعه ودفعه للقائد اللامع (**برديكاس**)[٦٤].

ووصل نبأ موت الإسكندر إلى أثينة في أوائل شهر تموز (يوليو)، فكان له وقع النار في الهشيم فثارت المدينة، بتحريض **ديموسيثنيس**، وأُعلنت الحرب على مقدونية، وطُردت حامياتها المرابطة على أرضها، وتوّج أعضاء الحزب المعادي لمقدونية رؤوسهم بأكاليل الغار فرحاً وابتهاجاً لموت من كانوا قبل موته يتخذونه إلهاً يُعبد، وينشدون كما يقول بلوتارخوس (***أناشيد النصر كأنهم قد فازوا عليه بشجاعتهم***)[٦٥].

أما أرسطو أستاذ الإسكندر الذي كان مشرفاً على (***اللوقيون***)[٦٦]، أصبح مثل هذا الوضع خطراً عليه وعلى مؤسسته العلمية بعد مضايقات تعرّض لها. فنرك أثينة خلسة وهو يقول، إن نفسه لا تطاوعه أن يتيح لأثينة فرصة أخرى ترتكب فيها الإثم في حق الفلسفة[٦٧]، وترك إدارة (***اللوقيون***) إلى تلميذه ***ثيوفراستوس*** (***THEOPHRASTUS***). وقصد هو مدينة (**خالكيس**) في جزيرة يوبوية مسقط رأس والدته، وهناك أخذ يتم ما أمكنه من مؤلفاته، بعد أن حكم الأثينيون عليه بالإعدام، ولكن الفرصة لم تسنح لهم لتنفيذ الحكم، ذلك أن أرسطو قضى نحبه بعد

---

(٦٤) ورد ذلك عند ***ديودور الصقلي*** انظر: المكتبة التاريخية ١٨، ٢، ٤. أما ***آريانوس*** فقد ذكر أمر الخاتم، ولكنه لم يذكر ***برديكاس*** انظر: تاريخ الإسكندر ٧، ٢٦، ٣. وبرديكاس هذا تزوج شقيقة الإسكندر بعد موته وقتل في مصر، وممن ضلع في قتل سلوقس القائد مؤسس الإمبراطورية السلوقية.

(٦٥) انظر: ***ول ديورانت***، ص ٥٤١.

(٦٦) ***اللوقيون***: آكاديمية علمية أسسها أرسطو وزودها بمكتبة فريدة وهي الأولى من نوعها في العصور الكلاسيكية، ضم إليها آلاف المصنفات العلمية والفلسفية والتاريخية والوثائق التي أمكنه العثور عليها، وأغناها بمتحف للنباتات والحيوانات والمعادن، واستمر يضيف إليها ما توصلت إليه يديه أو ما يبعثه إليه أصحابه وتلامذته وأصحاب العلم الذين رافقوا الإسكندر.

(٦٧) انظر: ول ديورانت ص ٥٤٢.

بضعة أشهر من مغادرته أثينة، أي في نفس السنة المشؤومة بموت الإسكندر، ***وكان ذلك في شهر (آب أغسطس ٣٢٣ق.م) بداء مزمن في معدته، وكان قد أتم الثانية والستين من عمره.***

ثامناً: الموقف ما بعد الإسكندر وتفكك الإمبراطورية:

تعتبر مرحلة ما بعد الإسكندر من أعقد مواقف التاريخ[٦٨]، فالإسكندر أنشأ إمبراطوريته في سرعة غريبة وشملت شعوباً وأقطاراً متباينة أشد التباين لم تكن قد خضعت لنظام سياسي وإداري محكم يكفل لها البقاء والاستمرار. كما أن مسألة وراثة العرش لم يكن الإسكندر قد تفرغ لها بعد لتنظيمها في الوقت الذي لم يكن له وريث شرعي.

فلذلك فإن الأمر ما بعد الإسكندر كان بيد كبار قواده وأعوانه في الحملة، الذين كان لكل منهم أطماعه وآماله، وقليل منهم من كان يؤمن بفكرة الإسكندر في المساواة والتوحيد ومزج الحضارات بين الشرق والغرب لينتج عن ذلك ميلاد جديد لحضارة عالمية جديدة في قوتها ووحدتها تجلب الرخاء والسلام على الإنسانية جمعاء.

ولكن للأسف الشديد، إن من آل إليهم أمر الإمبراطورية كانوا على نقيض معلمهم وقائدهم الأكبر. وكان الاختلاف بينهم يتوقف على مدى اختلاف أطماعهم، فمنهم من أراد الإبقاء على وحدة الإمبراطورية ليخلف الإسكندر على رأسها أمثال برديكاس وأنتيجونس، ومنهم من كان يسعى للحصول لنفسه على إحدى الولايات ليستأثر بها ويؤسس فيها دولة مستقلة مثل بطليموس.

هذا هو الموقف الذي نشأ في بابل عند وفاة الإسكندر بها، ولكن ما من شك أن برديكاس صاحب المركز الأسمى في الحملة بعد الإسكندر، وكان قائداً عاماً للجيش ومهيمناً على شؤون الإمبراطورية، ويبدو أنه كان موضع ثقة الإسكندر الكاملة وأقرب الناس إليه، حتى ليقال إن الإسكندر حين حضرته الوفاة منح برديكاس خاتم الملك (كما لاحظنا سابقاً). لذلك لم يكن مستغرباً أن يشعر برديكاس

---

(68) CLOCHE, P: LA DISLATION D UN EMPIRE (323 - 280 AV) PARIS 1959.

بأنه صاحب الحق الأول في تولي مقاليد الأمور بنفسه، وجاء مؤتمر بابل الذي عقد بين قواد الإسكندر للفصل في مشكلة ولاية العرش والنظم التي تتبع في حكم الإمبراطورية المقدونية بتسوية شاملة لتوزيع السلطة في الإمبراطورية.

ففي هذا المؤتمر اتفق الجميع على أن يتولى العرش ملكان هما ***أرهيدايوس*** ***(ARRHIDAEOS)*** الذي لقّب بفيليب الثالث، وكان أخاً غير شقيق للإسكندر، والمولود المنتظر للإسكندر من (***روكسانا***) زوجته الفارسية إذا كان ولداً، وجاء المولود ولداً في آب أغسطس سنة ٣٢٣ ق.م وسمي بالإسكندر الرابع. بعد ذلك منحت القيادة العليا للجيوش في آسية لبرديكاس الذي استطاع أن يجعل من نفسه وصياً عاماً على الملكين، وخاصة أن ***أرهيدايوس*** كان معروفاً بالبلاهة وضعف العقل وعدم القدرة على الحكم بنفسه. أما القيادة في اليونان فقد منحت ***لأنتيباتروس*** ***(ANTIPATROS)*** أكثر قواد الإسكندر مكانة وشعبية عند الجنود. وكان الإسكندر قد تركه لتدبير شؤون مقدونية في غيابه وللإشراف على اليونان، وقد بقي له هذا المنصب في التسوية الجديدة. أما سائر أجزاء الإمبراطورية فقد وزعت بين ثلاثة من القادة أهمهم: ***أنتيجونس*** الذي منح الولايات الإمبراطورية في آسية الصغرى، ثم سلوقس عهدت إليه قيادة عليا في الجيش كالساعد الأيمن لبريديكاس وتنازل عن هذا المنصب في سنة ٣٢١ ق.م ليشغل منصبه الجديد والياً على بابل، ثم بطليموس بن لاجوس الذي منح مصر وكان أحد أعضاء الحرس الخاص للإسكندر وأحد مستشاري هيئة أركان حربه.

وبعد كل ذلك حدثت أيضاً صراعات عنيفة ومعارك طاحنة بين خلفاء الإسكندر وأطماعهم في اقتسام الإمبراطورية - لا نريد أن ندخل في تفاصيل هذه الصراعات لشدة تعقيداتها وأحداثها - ولكن يمكن القول، إن هذه الصراعات أسفرت عن نتيجة نهائية هي اقتسام إمبراطورية الإسكندر إلى عدة ممالك ودويلات يحكم كلاً منها أحد قادته، ***وهي دولة البطالمة بقيادة بطليموس في مصر، ودولة السلوقيين بقيادة سلوقس في سورية وأطلق عليها فيما بعد الإمبراطورية السلوقية، وأنتيجونية بقيادة أنتيجونس الثاني في مقدونية واليونان.***

تاسعاً: مصير أسرة الإسكندر:

لم يكن للحب دور مهم في حياة الإسكندر، ويسرد لنا ***بلوتارخوس*** كثيراً من المواضيع التي تحدثنا عن ترّفع الإسكندر وشهامته من هذه الناحية، فهو يذكر لنا أنه كان يستمسك بالفضيلة في الناحية الجنسية، ولكن ذلك لم يكن عن مبدأ يدين به، وإنما مشاغله هي التي كانت تحول بينه وبين الانحراف إلى هذه الناحية. ***ذلك أن نشاطه الدائم، وسيره الطويل، وحروبه الكثيرة، وخططه المعقدة، وأعباءه الإدارية،*** كانت تستنفد كل قواه، ولا تترك له إلا القليل من شهوة الحب. وكانت له زوجات كثيرات، ولكن زواجه بهن كانت تضحية منه قضت بها شؤون السياسة والحكم، وكان شهماً ذو مروءة في معاملته للنساء، لكنه كان يفضّل عليهن صحبة قواده. وجاء رجاله ذات مرة إلى خيمته بامرأة جميلة بعد أن مضى من الليل أكثره، فسألها (***لِمَ تأخرت إلى هذا الوقت***) فردّت عليه بقولها (***كان عليّ أن أنتظر حتى أنيّمَ زوجي***) فصرفها الإسكندر وعنّف خدمه وقال لهم (***أنه كاد بأعمالهم أن يصبح زانياً***)[٦٩].

تزوج الإسكندر بأربع نساء فارسيات: الأولى (***روكسانا***) ابنة أوكسو آرتس حاكم بكترية، وولدت له ابناً مات صغيراً في الهند، وعند وفاته كانت حاملاً في شهرها السابع. والثانية (***بارسيني***) ابنة أرتباز وحفيدة أرتخشتر الثاني أحد ملوك فارس، وكانت ذات ثقافة يونانية، وولدت له (***هرقول***) سنة ٣٢٧ ق.م، الذي كان عند موت الإسكندر قد ناهز الرابعة من عمره، ولم يخلف الإسكندر لأنه من زواج غير شرعي، وكانت الثالثة والرابعة من بنات ملوك فارس وهما (***ستاتيرا***) بكر (دارا) الثالث منافس الإسكندر و(***باريزاتيس***) ابنة أرتخشتر الثالث، تزوج الإسكندر بهما في حفل الزواج الجماعي في سوسة ولم تنجبا.

وعندما ولدت (***روكسانا***) بعد شهرين من موت الإسكندر ابناً، نودي به ملكاً على الإمبراطورية باسم ***الإسكندر الرابع***، ووضع تحت الوصاية. وكان قد جرى

---

(69) PLUTARCHUS, MORALIA, 179 E.

تقسيم الإمبراطورية بين قواد الإسكندر تحت شعار الوصاية الملكية، ولما لم يعد من صالح هؤلاء العودة إلى دولة موحدة، جرت تصفية أسرة الإسكندر على يد القائد (***كاساندروس***) بن (***أنتيباتروس***). فقتل تباعاً (***أولمبياس***) والدة الإسكندر، ثم (***بارسيني***) وأبنها، وأخيراً (***روكسانا***) وولدها (***الإسكندر الرابع***) الوريث الشرعي للعرش، وبموته قُضي على سلالة الإسكندر المقدوني وعلى كل أمل في وحدة الإمبراطورية.

عاشراً: نتائج حملة الإسكندر على العصر الهيللينستي:

لم تشعر بلاد اليونان بأن موت الإسكندر كان نهاية عصر من العصور، بل نظرت إلى الإسكندر نفسه على أنه بداية العصور الحديثة، وعلى أنه رمز الشباب القوي، لا على أنه عامل من عوامل الاضمحلال والفناء، ***بل على العكس من ذلك فقد افتتحت لنفسها أقطاراً جديدة، وانتشرت في أصقاع متعددة من العالم،*** بعد أن حطمت تكوين الإمبراطوريات الواسعة التي كانت تعترض سبل الاتصال والانتشار والتجارة من حواجز سياسية. وبدأت جموع المهاجرين اليونان تتدفق على آسية ومصر وأبيروس ومقدونية، وزادت فتوحات الإسكندر من هذه الهجرات بما أتاحت للمغامرات من فرص، وما مهدت من سبل جديدة، وفُتح المجال للدم الهيلليني واللغة والثقافة اليونانية من أن تشق طريقها إلى داخل آسية الصغرى وفينيقية وفلسطين واخترقت سورية وبابل وتخطت نهري الفرات ودجلة، بل وصلت إلى بكترية والهند نفسهما. ***فلم تكن الروح اليونانية في وقت من الأوقات أشد مما في ذلك الوقت حماسة وشجاعة، ولم تُحرز الآداب والفنون اليونانية نصراً حاسماً أوسع من النصر الذيأحرزته في تلك الفترة.***

وقد أدت الفتوحات المقدونية دوراً كبيراً في ترسيخ الاستقرار الاقتصادي والنظام السياسي، بأن حطمت ما أقامته الحكومات أو اللغات من حواجز بين الأمم، ودعت الشرق والغرب إلى تبادل المصالح التجارية تبادلاً أفضل مما كان عليه في السابق. وكان من نتيجة ذلك أن تجددت الحياة في آسية اليونانية تجدداً باهراً، حيث لم تعد حرة في إشعال نار الثورات أو التجارب في أساليب الحكم، بل اتخذت اتجاهاً

معيناً معاكساً، هو التآلف بين جميع المدن الآسيوية، حتى أصبح الائتلاف إلهاً يُعبد في هذه المدن(٧٠)، وانعكس ذلك على ظهور المدن الجديدة، والوديان الخصبة كدجلة والفرات والأردن والعاصي وجيحون، بعد أن كانت قفاراً صخرية، وأصبحت الأرض بكل ما تحتويه من ثروات معدنية ملكاً قومياً(٧١).

وبلغت المهن الصناعية، درجة عظيمة من التخصص، ليس فقط على مستوى تقسيم العمل (***DIVISION OF LABOUR***) بين الزراعة والصناعة فحسب، بل تعدت ذلك إلى تقسيم العمل المهني (***DIVISION OCCUPATIANAL OF LABOUR***) فعلى سبيل المثال، كانت ميليتوس مركزاً هاماً لصناعة النسيج، وإنطاكية تستورد المواد الخام وتحيلها بضائع مصنعة. وبلغت بعض المصانع الكبيرة التي تستخدم العبيد درجة لا بأس بها من الإنتاج الكبير ترسله للأسواق العامة(٧٢)، حتى كان مستوى الإنتاج أكبر من الاستهلاك، مما أدى إلى التحول إلى الأسواق الخارجية ونشأ بذلك التبادل الدولي (***INTERNATIONAL TRADE***) أو التجارة الدولية، التي تمخض عنها الانتقال من الاقتصاد العيني (***ECONOMY BARTER***) إلى الاقتصاد النقدي (***ECONOMY MONETARY***) ونتج عنه بالضرورة ظهور المصارف التجارية التي تيسر وسائل الائتمان المصرفي (***CREDIT BANK***) الفردي والعام، ولم يكن ذلك ميسراً، إلا بوجود الطرق البرية والبحرية الآمنة التي كان لها فضل في تقصير المسافات، وبذلك نشأت طرق القوافل التجارية التي تمتد من إسبانية إلى قرطاجة ومقدونية وبلاد اليونان ومصر والشرق الأدنى، حتى الهند والصين.

ولهذا يمكن القول، إن فتوحات الإسكندر أدّت دوراً حاسماً في عودة الحضارة اليونانية إلى مواطنها الآسيوية القديمة، لأننا لا نستطيع أن نغفل، أن الروابط الحضارية وتمازج الثقافات بين اليونان والشرق كانت قبل الإسكندر بعدة

---

(70) ***ROSTOVTZEFF***, ***M***; SOCIL AND ECONOMIC HHISTORY OF THE ROMAN EMPIRE, OXFORD 1926, P 79.

(71) ***GLOTZ***, ***G***; ANCIENT GRECE AT WORK, N. Y 1926, P 353.

(72) ***ROSTOVTZEFF***, ***M***; OP, CIT, P 386 - 370.

قرون. فالبدايات الأولى لموجات الهجرة اليونانية وانتشار الصلات الحضارية بدأت منذ القرن الحادي عشر ق.م، وبدأت في الاستقرار منذ القرن الثامن ق.م، بعدد كبير من جاليات هذا الشعب على شواطئ القارات الثلاث المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط. أما الآن، وإثر فتوحات الإسكندر ونتيجة لإشادة الكثير من المدن الجديدة، والتوسع في الأراضي، فقد ازدادت الهجرات وأخذت الروابط الحضارية في الانتشار بشكل أوسع وأسرع ***ودخلت مرحلة التنظيم (ORGANIZATION) أي تنظيم الدولة المبرمج، بعد أن كانت في السابق مرحلة تمهيدية عفوية. فلذلك أن جذور التفاعل الحضاري القديمة بين الشرق واليونان، أخذت تنمو وتورق وتثمر بسرعة كبيرة عندما تهيأ لها المناخ المناسب في ظل إمبراطورية عالمية واحدة، رسم حدودها الأولية الإسكندر الكبير بسيوف مقدونية ويونانية،*** ثم تابع خلفاؤه من بعده، وإن لم يكونوا على شاكلة الإسكندر في تقديرهم للنزعة العالمية ـ ***إلا أن النزعة الثقافية الهيللينية أخذت في التوسع والانتشار على يد العلماء والفلاسفة والتراجمة والفنانون ليبدعوا حضارة العصر الهيللينستي، الذي كان محصلة أساسية لفتوحات الإسكندر،*** وفيه أخذت الحضارة اليونانية تنتشر وتتوسع في كل الآفاق تحت ***شعار التنظيم***. وبفضل انتشار اللغة اليونانية واتخاذها لغة عامة، وجدت وحدة ثقافية دامت في بلاد البحر الأبيض المتوسط ما يقرب من ألف عام، فكان جميع المثقفين ملمين باللغة اليونانية ويتخذونها وسيلة للصلات الدبلوماسية، ولنشر الآداب والعلوم في كل من مصر والشرق الأدنى. وقد كتب ***بوليبيوس*** في عام ١٤٨ ق.م عن هذه الفترة (***التي تتقدم فيها العلوم والفنون بخطى سريعة***)[٧٣]. وكان الناس في هذه الفترة، إذا تحدثوا عن العالم المعمور تحدثوا عنه بوصفه عالماً ذا حضارة واحدة. ولم تكن مدرسة الإسكندرية ومكتبتها في مصر، التي انتقلت إليها العلوم اليونانية من بلادها الأصلية بموجب قرارات الحكام والعلماء، إلا أحد مظاهر هذا التنظيم الحضاري ***بوصفها يونانية المولد والصبغة والمحتوى،*** وشكلت بالتالي مصدر

---

(٧٣) انظر: ***بوليبيوس*** ٩، ٢.

إشعاع ثقافياً بارزاً في منطقة الشرق الأدنى القديم في كل جوانب العلم والفكر والفن والأدب طوال سبعة قرون حملت فيه الإسكندرية لواء الثقافة العالمية في ذلك الوقت. وإلى جانب مكتبة الإسكندرية، نشأت مكتبات ومدارس أخرى في الإسكندرية وإنطاكية وبرجامة وبيروت، وسرعان ما انتشرت بعد ذلك المكتبات العامة في أكثر المدن صغيرها وكبيرها في دول شرق البحر المتوسط، التي خلّفها الإسكندر بعد موته وتقسيم إمبراطوريته العالمية إلى ممالك ودويلات.

وعلى الرغم من تغلغل الحضارة اليونانية في الشرق الأدنى بشكل واسع، لا يسعنا إلا أن ننوه، إلى أن ذلك لايعني أن الشرق الأدنى قد غلب على أمره، فقد كانت خصائصه متأصلة فيه قديمة العهد. ***فلم تمتزج فيه الأجناس والثقافات، الامتزاج الذي كان يحلم به الإسكندر، فقد شكلت وفاته المبكرة ضربة قاصمة لتحقيق نزعته العالمية،*** التي لم يستطع إرساء جذورها وقواعدها فيما بعد وإكسابها البنيان المتين الذي لا يتزحزح، ***فكان هذا الحلم كالعشاء من الأعلى، أما من الأسفل فكان خليطاً من الشعوب والثقافات واللغات الشرقية، إذ لم يحدث في الشرق ما امتاز به اليونان من نشاط وحب للتجديد، ومن حرص على الشؤون الدنيوية، ورغبة شديدة في الكمال، والتعبير عن الذات والنزعة الفردية. كل ذلك لم يحدث تغييراً ما في أخلاق الشرق، بل حدث على العكس من ذلك، أن جاشت أساليب التفكير والإحساس الشرقية في أذهان الطبقة اليونانية الحاكمة،*** ثم نقلها هؤلاء إلى الغرب. فقد ظل الاحتفاظ بالكتابة المسمارية، وأُنزلت اللغة اليونانية إلى المكانة الثانية في عالم التجارة والأعمال، وأثبتت الملكية المطلقة، أنها أقوى من الديمقراطية اليونانية. ***وانتهي الأمر بأن فرضت صورتها على الغرب نفسه، فأصبح لملوك اليونان والأباطرة الرومان آلهة كما كانوا في الشرق. وانتقلت نظرية حق الملوك المقدس التي كانت تسود بلاد الشرق إلى أوروبة الحديثة عن طريق رومة والقسطنطينية، واستسلم عدد عظيم من اليونان للطقوس الدينية البابلية، والفينيقية، والسورية. وقصارى القول إن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة، وإن الشرق عرض على اليونان الدين. وكانت الغلبة للدين، لأن الفلسفة كانت ترفاً يُقدم للأقلية الضئيلة، أما الدين فكان موضع اهتمام الكثيرين.***

وفي نهاية هذه الدراسة يمكننا أن نستخلص ثلاث نتائج رئيسية توصلنا إليها، يمكن إنجازها على الشكل التالي.

١ - ***إن فتوحات الإسكندر أنقذت الحضارة اليونانية برمتها من الضياع والتلف،*** بعد أن دخلت في مستنقع الأحداث والأحزاب المتخاصمة في القرن الرابع ق.م (***عصر الأزمة***)، وشكلت هذه الفتوحات مرحلة جديدة للحضارة اليونانية من حيث ولادتها من جديد، وعودتها إلى ماضيها التليد وتراثها الأصيل الذي كان عليها في القرن الخامس ق.م (**عصر الازدهار**) وما قبله. ولكن في اتجاه جديد، وبخط يختلف عن الخط الأثيني الذي عهدناه زمن بركليس (**عصر الازدهار**).

٢ - اكتسبت الصلات الحضارية ما بين الحضارتين اليونانية والشرقية القديمة صفة التنظيم (***تنظيم الدولة***)، وبدأت هذه الصلات تعتمد الدراسات والقوانين وموافقة الحكام، وتم إخضاع التفاعل الحضاري إلى أسس مدروسة وقويمة تستند إلى اتفاقيات وقرارات الحكام ومن أهمها: ***التنافس العظيم بين علماء العرب وفلاسفتهم في ترجمة العلوم اليونانية إلى اللغات العربية والسريانية واللاتينية التي انتقلت بدورها إلى الأوروبيين في الأندلس وجنوب إيطالية وصقلية، ثم في بلاد الشام في أثناء الحروب الصليبية. وكان ذلك من أهم العوامل في قيام حركة النهضة الأوروبية***[٧٤].

٣ - إن فتوحات الإسكندر لم تأخذ المدى الفعلي الذي أراده لها في تحقيق حلمه في سياسة النزعة العالمية، ولم تستطع الحضارة اليونانية من أن تصبغ حضارة الشرق الأدنى القديم بالصبغة اليونانية الخالصة، على الرغم من التداخل الكبير الذي

---

(٧٤) انظر حول هذا الموضوع مقالة ***ماكس مايرهوف (بحث في تاريخ التعليم الفلسفي والعلمي عند العرب)*** في كتاب: ***التراث اليوناني في الحضارة العربية الإسلامية*** - دراسات لكبار المستشرقين - ***ترجمة عبد الرحمن بدوي،*** الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٣٧ - ١٠٠. ثم انظر: ***عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي،*** الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٥، ص ٩٢ - ٢٢١.

شغل عدة عصور حتى ما قبل الإسكندر وبعده. فكان هذا التداخل والتفاعل بالنسبة إلى حضارة الشرق الأدنى القديم ***جانب العطاء والأخذ، وجانب التأثر والتأثير***. حتى يمكننا القول، إن أعمق النتائج أثراً، والتي تولدت إثر فتوحات الإسكندر، ***ليس فقط اصطباغ الروح الشرقية بالروح الغربية فحسب، وإنما كان أيضاً باصطباغ الروح الغربية بالروح الشرقية.***





القسـم الثانـي

التاريخ الحضاري

للإمبراطورية السلوقية

(٣١٢ - ٦٤ ق.م)



البحث الرابع

تأسيس الإمبراطورية السلوقية

أولاً: سلوقس الأول (أصله ونشأته وصفاته) :

تختلف المصادر في سنة ولادة سلوقس، بين سنتي (٣٥٨-٣٥٤ ق.م)، ولكنها تجمع في معظمها على أنه ولد في مدينة ***(يوروبوس EUROPOS)***[١] في مقدونية وهو ابن ***(لاوديكي وأنطيوخس)***، ويعتقد أنه كان قائداً مشهوراً في جيش فيليب والد الإسكندر.

ولا شك أن سلوقس لم يكن من عامة الشعب، وإنما من النبلاء وتصفه المصادر بأنه كان أحد رفقاء الإسكندر. والدليل على ذلك أن الإسكندر أسند إليه قيادة فرقة (***الفرسان الرفقاء***) التي تتألف من نبلاء مقدونية.

ويمكن تكوين فكرة ما عن شخصية سلوقس وصفاته من التفرس فيما وصل إلينا من صور على النقود أو تماثيل ذلك، أن هذه التصاوير وخاصة التماثيل النصفية منها تطالعنا بملامح سلوقس الشخصية، ***وهي جبهة عريضة عالية، وعينان غائرتان، وأنف دقيق، وشفتان حازمتان، وذقن عريضة قوية، ورقبة عريضة قوية العضلات، وكلها ملامح تفصح ـ إذا جاز التعبير ـ عن صفات رفيعة جديرة بعاهل عظيم، كشفت سيرة حياته عن صفاء ذهنه وذلاقة لسانه وقوة إرادته ودهائه السياسي وطموحه.***

---

(١) من الجدير بالذكر أن الاسم تحمله مدينتان واحدة على نهر (***أكسيوس AXIOS***) والثانية في مقاطعة (***الموبية ALMOPIA***) ويزيد الأمر غموضاً أن موقع المدينتين غير معروف، إضافة إلى أن المؤرخ (***مالالاس***) يذكر أن سلوقس ولد في العاصمة (***بللاPELLA***). انظر: ***مفيد رائف العابد، سورية في عصر السلوقيين***، ص٤١.

وعقد سلوقس خلال حياته زيجتين كانت ***أولاهما*** من (***أباما*** ***APAMA***) الفارسية ، ***وثانيهما*** من الأميرة المقدونية ***(أستراتونيكي STRATONIKE)*** ابنة دمتريوس. ومما يجدر بالملاحظة ***أولاً*** : أن زواجه من (***أباما***) كان أطول زيجاته أمداً وأكثرهما رسوخاً، وكانت إحدى عرائس زواج (***سوسة***) الكبير سنة ٣٢٤ ق.م، والجدير بالملاحظة ***ثانياً*** : أن (***أباما***) تنفرد بأنها من بين تلك السيدات جميعاً الوحيدة التي أصبحت جدة لسلالة من الملوك الهيللينستيين.

ورغم أن سلوقس لم يكن مخلصاً تماماً لمجموع أفكار الإسكندر السياسية والحضارية ، فإنه كان أخلص قادته على الإطلاق وأكثرهم وفاءً لبعض أصول هذه الأفكار، وقد ظهر هذا واضحاً جلياً في متابعته أمرين بوجه خاص : ***أحدهما هو اقتفاء أثر الإسكندر في نشر الحضارة اليونانية عن طريق العديد من المراكز الكثيرة التي أنشأها. والأمر الثاني : احتفاظه بزوجته التي منحه الإسكندر إياها يوم عرس سوسة الكبير.***

أما الزواج الثاني لسلوقس ، فقد كان من (***أستراتونيكي***) ابنة دمتريوس ، وهي التي تزوجها في غمرة محالفات التصاهر التي عقدها خلفاء الإسكندر بعد موقعة ***أيسوس***. ومعنى ذلك أن هذا الزواج كان زواجاً سياسياً توخى سلوقس من ورائه دعم قدراته العسكرية باكتساب مودة حليف قوي تدين له بالولاء مدن يونانية كثيرة، ويسيطر على أسطول كان لا يقل كثيراً عن أسطول غريمه بطليموس ، إذ كان سلوقس يعلق أهمية كبيرة على تزايد نفوذه في المناطق الغربية من إمبراطورية الإسكندر (تلك المناطق التي كان لدمتريوس فيها هيمنة واضحة) تمهيداً لتحقيق الخطوة التالية في طريق حلمه الكبير في استعادة السيطرة على إمبراطورية الإسكندر.

والحقيقة أن سلوقس عندما تزوّج من ***أستراتونيكي*** قام بهجر زوجته الأولى ***أباما*** ويعود ذلك إلى سببين اثنين ***أولاهما : استقرار أموره في الشرق لصالحه ، وثانيهما : أن العرف المقدوني يأمر بعدم اتخاذ أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد،*** علماً أن سلوقس لم يُغدق أي مظهر من مظاهر التشريف على الزوج الجديدة

(***باستثناء إطلاق اسمها على واحدة فقط من المدن الجديدة التي أنشأها***) وتنازله عن هذه الزوجة لابنه يدلان على أنه لم تكن لهذه السيدة عند سلوقس مكانة خاصة تداني من قرب أو بعد مكانة أباما عنده[٢].

ويتضح من أمر سلوقس في مصاهراته أنه كان ابن عصره فعلاً، وكان يتصرف بمصاهراته بوعي وحكمة، لما لهذه الزيجات من آثار سياسية معروفة. ***ذلك أنه ضمن باستبقاء أباما ولاء ودعم المناطق الفارسية، في حين كسب بزواجه من أستراتونيكي وقوف دمتريوس إلى جانبه، وترحيب رعاياه من اليونانيين والمقدونيين.*** فما أن قضى لبانته من هذا الزواج حتى خلع زوجه الثانية على ابنه، وفضلاً عن ذلك فإنه أمّن بمصاهرته حدوده الشرقية، وضمن مصادر تموينه بالمواد والسلع الضرورية لاقتصاد إمبراطوريته وقوتها العسكرية.

ثانياً: سلوقس في بابل ولجوؤه إلى مصر:

تشير المصادر إلى أن سلوقس لم يقم خلال حملة الإسكندر بدور يضارع الأدوار التي قام بها القواد الكبار الذين اصطرعوا بعد وفاة الإسكندر. ***وعلى الرغم من ذلك فقد كان سلوقس واحداً من أخلص رفاق الإسكندر الذين اعتمد عليهم في حملته وعُهد إليه بعدة مهام متنوعة كان بعضها حاسماً في بعض المواقف.*** وخاصة بعد أن اكتسب سلوقس من الخبرة وأثبت من الكفاية والشجاعة ما أكسبه ثقة الإسكندر، فاختاره في زمرة من اعتمد عليهم الفاتح الكبير في فتح عدد من الأقاليم، وأسند إليه قيادة فرق متعددة في بعض المعارك، وخاصة قيادة (***فرقة الفرسان الرفقاء***) وهي التي سبق أن تولى قيادتها أكبر القادة مثل هيفايستون وبعده برديكاس في حياة

---

(٢) يحدثنا المؤرخ أبيان عن قصة حب أنطيوخس لزوجة أبيه أستراتونيكي، فيذكر أن الأمير الشاب أحب زوجة أبيه، وكتم هذا الحب في داخله. وبسبب هذا الحب سقط الأمير مريضاً دون أن يعرف أحد سبب مرضه، إلا أن طبيب القصر عرف سر هذا المرض وكشف عنه للملك سلوقس، فما كان منه إلا أن تنازل له عنها، كما تنازل له عن الجزء الشرقي من المملكة انظر: APPIAN, SYR, 59.

الإسكندر. ولاشك في أن قيادة مثل هذه الفرقة المؤلفة من نبلاء مقدونية كانت شرفاً عظيماً، وتكسب شاغلها مكانة سامية لا تفوقها إلا مكانة القائد العام للجيش. ولم يستمر سلوقس في منصبه هذا طويلاً، إذ أنه تنازل عن هذا المنصب في سنة ٣٢١ ق.م لصالح كاساندروس بن أنتيباتروس ليشغل منصبه الجديد والياً على بابل.

وكانت مهمة سلوقس في حكم ولاية بابل مهمة وعسيرة جداً لعدة أسباب، على الرغم من أن بابل تمتلك كثيراً من الميزات والمقوّمات وتشابه ولاية مصر في كثير من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية، إلا أن موقعها الجغرافي وقربها الشديد من مواقع الأحداث وميادين القتال، وخاصة أن مؤتمر تريباراديسوس أمر بتعيين أنتيجونوس قائداً عاماً للجيش الملكي في آسية، كان لها نتائج بعيدة المدى أثرت في مجرى الأحداث العامة، إذ لم تثبت الطمأنينة في نفس سلوقس بسبب تصرفات أنتيجونوس اللاأخلاقية مع حلفائه ومرؤوسيه السابقين الذين اغتالهم. وبدأت نواياه السيئة تتجه تباعاً نحو سلوقس الذي عرف بعدم قدرته وقصوره عن مقاومة هذا الطاغية بقوة السلاح، للفارق الكبير بين قوتيهما. ففي هذه الحالة عرف سلوقس أنه أمام أمرين: ***إما البقاء في مركزه ومحاولة استرضاء أنتيجونوس بأي ثمن، وإما الفرار من وجهه مؤقتاً،*** وانتظار الفرصة المواتية لمناهضته، فإنه فر فجأة بصحبة خمسين فارساً من أصدقائه إلى بطليموس في مصر.

ثالثاً: تكوين التحالف الرباعي:

ولم يقبع سلوقس خلال المدة التي قضاها في مصر، كأي لاجئ سياسي آخر بل عمل منذ وصوله سنة (٣١٦ق.م) على التهيئة للقضاء على أنتيجونوس. ذلك أنه منذ وصول سلوقس إلى مصر أخذ يوغر صدر بطليموس على أنتيجونوس، ويكشف له عن خطره ويحثه على عقد محالفة بينه وبين كاساندروس (***الوصي***) ولوسيماخوس (***أحد القادة في آسية الصغرى***) لوضع حد لأعمال أنتيجونوس التوسعية.

وقد كللت جهود سلوقس بعقد اتفاق رباعي بينه وبين بطليموس وكاساندروس ولوسيماخوس وأرسل المتحالفون سفارة مشتركة إلى أنتيجونوس لمطالبته بالاعتراف

لبطليموس بسورية جميعها وللوسيماخوس بفروجية على الدردنيل، ولكساندروس بكبادوكية ولسلوقس ببابل، واقتسام أموال الإمبراطورية التي استولى عليها بعد انتصاره على يومنس، بيد أن أنتيجونوس رفض مطالب الحلفاء وقابل مبعوثيهم باحتقار شديد، مما أدى إلى استعداد الطرفين للحرب.

وفي خلال فترة الصراع ضد أنتيجونوس التي استغرقت الفترة (٣١٦ - ٣٠١ق.م) أسهم سلوقس بجهد وافر في عدة ميادين لنصرة حلفائه. ذلك أنه في سنة ٣١٥ق.م تولى قيادة الأسطول البطلمي وهدد أيونية، فحين كان أنتيجونوس يمهد لمهاجمة كاساندروس في مقدونية قام سلوقس بتهديد شواطئ أيونية، ثم أشترك مع منلاوس شقيق بطليموس في محاربة أنصار أنتيجونوس في جزيرة قبرص، وفي سنة ٣١٤ق.م شارك في مهمة في البحر الإيجي لصالح بطليموس، حيث حقق انتصارات هامة على حاميات أنتيجونوس في مقاطعة كارية في آسية الصغرى وفي جزيرة كوس في البحر الإيجي.

ولعل أهم المعارك على الإطلاق التي شارك فيها سلوقس بوصفه حليفا لبطليموس كانت ***معركة غزة***. ففي أواخر سنة(٣١٣ - ٣١٢ق.م) تابع أنتيجونوس طريقه عبر سورية وآسية الصغرى صوب أوروبة لإخضاع مقدونية، بعد أن أرسل ابنه دمتريوس على رأس قسم كبير من الجيش في مهمة عاجلة للقضاء على بقية الحاميات البطلمية التي طردت من سورية في فاتحة الحرب سنة (٣١٥ق.م) ونجح دمتريوس في هذه المهمة، ودانت له بذلك جميع مقاطعات فينيقية وجنوب سورية مما غره بمتابعة الزحف في اتجاه مصر.

وحين كان دمتريوس يتابع تقدمه في سورية صوب مصر، قرر المجلس الاستشاري لبطليموس بتأييد من سلوقس أن الوقت قد حان لرد العدوان، وأنه لا مجال لانتظار دمتريوس في مصر متبعين القاعدة الحربية القائلة: ***بأن الهجوم خير وسيلة للدفاع***. وبالفعل فقد توجه جيش ضخم على رأسه قائدان محنكان هما بطليموس وسلوقس عبر سيناء نحو فلسطين. وعلى تخومها وبالقرب من غزة التقى الجيش البطلمي بجيش أنتيجونوس بقيادة دمتريوس - وكان شاباً لم يتجاوز الاثنين

والعشرين ربيعاً - وجرت واحدة من أعظم معارك العصر، حيث انتصرت الكفاية على التهور والشجاعة، فهزم دمتريوس هزيمة قاسية وفر متجهاً نحو أبيه.

وقلبت نتائج معركة غزة موازين القوى في المنطقة وخاصة بالنسبة لانتجونوس الذي فقد سورية، كما اضطر إلى وقف عملياته تجاه مقدونية، وتعديل كل خطط عملياته المقبلة، فكانت بحق أقصى صدمة وجهت إليه منذ بداية الحرب العظمى بين الحلفاء، فلا عجب أن هذه الموقعة تعتبر في رأي بعض المؤرخين حداً فاصلاً لإحدى حقب التاريخ[٣].

رابعاً: عودة سلوقس إلى بابل:

لم تقتصر نتائج معركة غزة على خسارة أنتيجونوس سورية مؤقتاً، بقدر ما كانت فاتحة لبروز أعظم منافس له تمت على يديه نهايته المفجعة، ذلك أن سلوقس استغل نتائج المعركة، واتجه بصحبة نفر قليل من الرجال وبتأييد من بطليموس لاستعادة ولايته السابقة بابل. وفي طريقه قامت بعض الحاميات المقدونية الساخطة على أنتيجونوس بالانضمام إليه بزعامة ***بوليارخوس*** (***POLYARECHOS***)، وبهذا الدعم العسكري، ونتيجة للتأييد الشعبي الذي قوبل به سلوقس في منطقة بابل تمكن سلوقس بعد حصار قلعة بابل التي تحصّن فيها أنصار أنتيجونوس من السيطرة على بابل مرة أخرى. وفيما بعد أعلن سلوقس هذا اليوم بالذات (أول ديوس = أكتوبر، تشرين الأول) سنة ٣١٢ق.م إمبراطوريته وبداية للتقويم السلوقي.

خامساً: موقعة إبسوس ونهاية أنتيجونوس:

بعد اتخاذ أنتيجونوس لقب ملك وإزاء أطماعه التوسعية الواسعة، كان لا يمكن أن يترك لسلوقس الولايات الشرقية بمواردها الغنية، إذ أن الأحداث اللاحقة أكدت أنه كان يفكر جدياً بالخروج من مأزق وجوده بين أعداء في الشرق والغرب، ولهذا الغرض فقد أرسل سنة ٣٠٤ ق.م ابنه دمتريوس في محاولة لإقصاء نفوذ

---

(٣) انظر: ***مفيد رائف العابد*** ص ٥٠ ـ ٦١.

كاسـاندروس نهائيـاً مـن بـلاد اليونـان الـشمالية أو القـضاء عليـه، ويبـدو أن نجـاح دمتريـوس في تحقيـق النـصر عـلى كاسـاندروس وطـرد حامياتـه مـن البلوبـونيز وبـلاد اليونان الوسطى كان شؤماً عليه، فقـد أدى هـذا النـصر إلى أحياء الحلف القـديم بـين كاسـاندروس ولوسـيماخوس وبطليمـوس وسـلوقس، ذلـك أن كاسـاندروس بعـد هزيمته اتفـق مـع لوسيماخوس عـلى إعـداد حملـة ضـد أنتيجونـوس، وعـلى التـماس المعونة مـن بطليمـوس وسـلوقس، لأن القـضاء عـلى كاسـاندروس كـان ينـذر الجميـع بأشد المخاطر من أنتيجونوس. وتبعاً لذلك جـدد الملـوك في سـنة ٣٠٢ ق.م محالفـة سـنة ٣١٥، إلا أنها لم ترم هذه المرة إلى كبح جماح أطمـاع أنتيجونـوس فحـسب، بـل إلى القضاء عليه قضاءً مبرماً.

وفي بداية سـنة ٣٠٢ ق.م بـدأ التحـالف عملـه، فقـد تقـدم لوسـيماخوس عـلى رأس جيش تعززه قوة أرسلها حليفه كاساندروس، واكتسح الجـزء الغـربي مـن آسـية الصغرى. وعنـدما تحـرك أنتيجونـوس لمحاربتـه سـاعدت أمطـار الخريـف لوسـيماخوس على التحصن في إحدى المواقع بقرب مدينـة هيراكليـة، وأرسـل يـستعجل نجـدة حليفـه سلوقس وبطليموس. وحين كـان دمتريـوس يـضغط بـشدة عـلى كاسـاندروس في بـلاد اليونان ألزمه أبوه بالعودة إلى آسية، حيث كان الجميـع يتهيـؤون للموقعـة الكـبرى مـع مطلع الربيع.

وكان سلوقس قد عاد في صيف ٣٠٢ بكل قواته من البنجـاب ووصـل في شـتاء سنة ٣٠١/٣٠٢ إلى كبادوكية بعد عناء شديد، وتقـدر قواتـه بعـشرين ألفـاً مـن المـشاة واثني عشر ألفاً من الفرسان، وعدد من نبالي آسية الوسـطى وحـوالي خمـسمائة فيـل هندي بالإضافة إلى مئة عربة حربية من ذوات المناجل، وكان يتولى قيادة الفرسان ابنـه الشاب ***أنطيوخس*** (الأول فيما بعد).

وفي ربيع ٣٠١، وصـل سـلوقس إلى الطريـق العـام الأوسـط في آسـية الـصغرى وفـشل أنتيجونـوس في منـع اتـصاله بلوسـيماخوس، وكـان يعـاني في معـسكره مـن صـعوبات شـديدة. وعنـد (***إبـسوس***) **IPSOS** في فروجيـة كـان عـلى أنتيجونـوس أن

يواجه الجيشين الحليفين اللذين أفلحا في الحصول على نصر مؤزر أدى إلى هرب دمتريوس وقتل أنتيجونوس. وهكذا طويت صفحة عظيم آخر من عظام رجال الإسكندر مثلما طويت من قبل صفحات كراتروس وبرديكاس وبايثون. وعند مصرع أنتيجونوس كان يبلغ الحادية والثمانين من عمره.

سادساً: الفوز بسورية وبداية المشكلة السورية مع البطالمة:

تعتبر معركة ***إبسوس*** من أهم أحداث الفترة التي تلت موت الإسكندر، ذلك أنه بالقضاء على أنتيجونوس في هذه المعركة، قضى على أكبر محاولة إعادة توحيد الإمبراطورية، كما قضى على إمبراطورية أنتيجونوس وهي التي شكلت العامل الرئيس في أحداث الخمس عشرة سنة السالفة. غير أنه كان مقدراً لسلالة أنتيجونوس أن تظل طويلاً عاملاً من أهم العوامل السياسية في العالم الهيللينستي.

ورغم فرار دمتريوس إلى أفسوس واحتفاظه بقوته البحرية التي كانت تعتبر أقوى قوة بحرية معاصرة وبعض حامياته في عدد من الجزر والمدن الساحلية شرقي البحر المتوسط وبحر إيجة إلا أن القضاء على جيش أبيه البري أتاح الفرصة للمنتصرين اقتسام الإمبراطورية. ولا شك أن كبرى الغنائم كانت من نصيب سلوقس ولوسيماخوس. وتؤكد المصادر رغم عمومية إشاراتها على أن سلوقس ربح ***سورية من الفرات إلى البحر وفروجية الداخلية وما بين النهرين وأرمينية وما يدعى بكبادوكية السلوقية، وأصبحت مملكته تمتد من أقاصي الهضبة الإيرانية إلى فروجية***[٤]. بينما غنم لوسيماخوس معظم المقاطعات المطلة على البحر التي كانت لانتيجونوس في آسية الصغرى، في الوقت الذي أعطيت فيه كيليكية وأكثر شاطئ آسية الصغرى الجنوبي إلى بلايستارخوس أخ كاساندروس.

بيد أنه نشب بين بطليموس وسلوقس خلاف ***حول امتلاك جوف سورية***، وكان مقدراً لهذا الخلاف أن يظل أمداً طويلاً من أهم عوامل التناحر المدمر بين دولتي

---

(٤) شملت الدولة السلوقية في بعض الأحيان مناطق خارج إطار الشرق الأدنى، وامتدت سيطرتها من حدود الهند شرقاً حتى آسية الصغرى وبعض مناطق بلاد اليونان في الغرب. إلا أن قاعدتها الاساسية ارتكزت على سورية الكبرى وبلاد الرافدين.

البطالمة السلوقيين. وسبب هذا الخلاف هو أنه حين كان الصراع دائراً في آسية الصغرى تحرك بطليموس بجيشه نحو فلسطين لنجدة حليفيه (سلوقس ولوسيماخوس)، وعندما بلغه نبأ كاذب فحواه أن لوسيماخوس قد هزم وأن أنتيجونوس في طريقه صوب سورية، سارع إلى إخلاء جوف سورية وانسحب نحو مصر، فاعتبره الملوك الثلاثة (سلوقس ولوسيماخوس وكاساندروس) خائناً للقضية التي ناضلوا من أجلها وأنكروا عليه حقه في الحصول على أية مكاسب إقليمية إلا أنه في أثناء اشتباك حليفيه (سلوقس ولوسيماخوس) مع أنتيجونوس عند إبسوس. عاد فاحتل جوف سورية حتى نهر اليوثيروس (***الكبير الشمالي***) تمشياً مع الاتفاقية السابقة سنة ٣٠٤ مع حلفائه الذين أنكروه عليه. بيد أنه رغم استياء سلوقس من تصرف بطليموس ومن اتجاهه على رأس جيشه إلى فينيقية للرد على ادعاء بطليموس بأحقيته في امتلاك جوف سورية، فإنه وقد كان يدين لبطليموس بفضل ما أولاه من مساعدة مكنته من استرداد بابل عفّ عن الاشتباك معه، مكتفياً بالتصريح ما معناه بأنه (***من أجل الصداقة فقط سيؤجل البت في هذه القضية ولكنه سيأخذ بعين الاعتبار فيما بعد كيف يعامل صديقاًاقتنص أكثر من حقه***).

سابعاً: مصرع سلوقس:

بعد هزيمة لوسيماخوس ومصرعه والاستيلاء على ممتلكاته في آسية الصغرى، كان طبيعياً أن يتصور أنه أصبح يسيراً عليه الفوز بعرش مقدونية - عرش غريمه الصريع - فيدعم بذلك حقه في السيطرة على إمبراطورية الإسكندر، ولكن القدر أنكر عليه تحقيق هذه الأمنية الغالية مثل ما أنكرها على من سبقوه. إذ أنه بعد أن عبر الدردنيل، انقض عليه ضيفه بطليموس كراونوس وعاجله بضربة قاتلة في ظهره في مطلع سنة ٢٨٠ق.م وفر القاتل على حصانه إلى أحد المعسكرات في مدينة لوسيماخية القريبة وأعلن جيش سلوقس ولاءه لقاتل الملك.

وعلى أي حال، فقد افتدى (***فيلتايروس***) ***PHILETEAEROS*** أمير برجامة في آسية الصغرى جسد الملك القتيل بمبلغ من المال، وأحرقه وأرسل رماده إلى ابنه

أنطيوخس في بابل، الذي نقله ودفنه في سلوقية بيريه على مقربة من مصب نهر العاصي حيث بنى له معبداً ذا فناء خارجي وأطلق عليه اسم ***نيكاتوريون*** (***NIKATORION***) (***وهو اللقب الرسمي الذي حمله سلوقس في حياته***). وبمقتل سلوقس وقبله لوسيماخوس انتهى في التاريخ الهيللينستي عصر (***الديادوخي***) ***DIADOCHI*** (***أي خلفاء الإسكندر***)، ***وبدأ عصر جديد هو عصر (الابيجوني)*** ***EPIGONAI*** ***أي (الذين ولدوا فيما بعد)***[٥].

---

(٥) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص٦٧.

البحث الخامس

نظـم الحكـم

أولاً : سلطة الملك :

تخلو المصادر القديمة من الحديث تفصيلاً وإجمالاً عن السلطات التي كان السلوقيون يمارسونها ، ***بيد أنه لما كان سلوقس قد اكتسب كل ممتلكاته بحد السيف وكان حق الفتح يكسب الفاتح حقوقاً مطلقة على الأقاليم التي فتحها ، فلا شك إذن في هذه الحالة أن سلوقس اعتبر نفسه صاحب البلاد التي فتحها وسيد رعيته المطلق الذي تتركز بين يديه جميع السلطات وذلك بحق الفتح فضلاً عن حق الإرث عن الإسكندر.*** وقد تأكد هذا المفهوم بمقتضى الانتصارات التي حققها مؤسس الدولة سلوقس الأول في ميدان القتال. وفي أعقاب معركة (***إبسوس***) (***موقعة الملوك***) تحدث سلوقس قائلاً (***من العدل أن يتصرف المنتصر في الغنائم التي يحصل عليها من المهزوم كيفما يشاء)*** ، كما أضاف أنطيوخس الرابع إلى هذا المفهوم قائلاً (***أن أكثر الحقوق قداسة ورسوخاً ، هو ذلك الحق المكتسب في أعقاب تحقيق في الحرب***)[1] .

كان السلوقيون في نظر رعاياهم من الشرقيين هم سادة البلاد ، وخلفاء الملوك المحليين ، وكان الخاتم الرسمي لأنطيوخس الأول على سبيل المثال يتضمن ألقاباً كاذبة ، ***فهو الملك الكبير ، الملك القادر ، ملك العالم ، ملك البلاد ، وملك بابل***[2] .

---

(١) انظر : ***بيكرمان ، الدولة السلوقية (ملوك سورية السلوقيين)*** ، ترجمة حسان إسحق ، دمشق ١٩٩٣م ، إصدار دار الأبجدية ، ص ٢٠.

(٢) انظر : ***مفيد رائف العابد*** ، ص١٦٦ .

ويمكننا أن نلاحظ في الوثائق التي تتحدث عن إعادة بناء معبد الإله (**بعل**)، ووثائق أخرى يرجع تاريخها إلى العصر السلوقي، عثر عليها في بابل وأوروك، أن الملوك السلوقيين كان ينظر إليهم باعتبارهم الورثة الشرعيين لملوك بابل القدامى، ***وأن هؤلاء الملوك شأنهم في ذلك شأن الإسكندر الكبير، فقد تلقوا سلطتهم من الإلهين بعل ومردوك***[3].

والملك هو محور الدولة، والقانون يتجسد في شخصه، لأن العدالة تلازمه في جميع أعماله، وعندما تنازل سلوقس الأول عن زوجته ***أستراتونيكي*** لابنه أنطيوخس، على الرغم من أنه كان قد أنجب منها بنتاً، فأنه برر هذا السلوك الغريب في خطبة له أمام جنوده عندما قال ***(إن هذا الأمر غير مألوف لدى الفرس، وكذلك بالنسبة للآخرين، ولكن ما يفعله الملوك هو الحق)***[4].

ولم يدخر السلوقيون وسعاً لإضفاء المزيد من الشرعية على حكمهم، وذلك من خلال الادعاء بانتسابهم إلى الآلهة. فذكر سلوقس الأول أنه ينحدر من الإله ***أبوللون***، واتخذ ***الهلب*** شعار هذا الإله رمزاً له، وقام برسم الهلب في شكل وشم على جسده[5]. كما اقتفى خطوات الإسكندر الأكبر حين ادعى انتسابه إلى الإله ***زيوس***، وأقامت له المدن التكريم الذي تضمن إقامة مذبح لتقديم القرابين، وإطلاق اسم سلوقس على أحد الشهور في التقويم المحلي للمدينة، وتقرر أيضاً إقامة مهرجان بصفة دورية تُعزف خلاله الموسيقى وتقام فيه المسابقات الرياضية من أجل الإله أبوللون، الذي تنحدر منه العائلة المالكة. وبعد وفاة سلوقس قررت إحدى المدن إقامة احتفال سنوي أطلقت عليه (***سلوقيا***) يقام قي نفس الوقت الذي تجري فيه الاحتفالات بعيد الإله ***ديونيسيوس*** إله الخمر عند اليونان[6].

---

(3) ***ROSTOVTZEFF, M***: THE SOCIAL AND ECONOMIC HISTORY OF THE HELLENSTIC WORLD, OXFORD 1941, P 437.

(4) IBID, P 434.

(5) ***WALBANK, F. W***: THE HELLENISTIC WORLD, LONDON 1992, P 211.

(٦) انظر: أبو اليسر فرح، الشرق الأدنى في العصرين الهيللينستي والروماني، القاهرة ٢٠٠٢، الطبعة الأولى، ص ١٧٤.

بيد أنه إزاء الفارق الهائل بين طبيعة الأحوال في كل من الدولتين البطلمية والسلوقية ، يصعب أن نتصور أن سلطات سلوقس أو أي ملك سلوقي بلغت مبلغ السلطات التي تمتع بها أي ملك من ملوك البطالمة في مصر. ذلك أن الدولة البطلمية كانت تستند على قاعدة عريضة ذات مقوّمات وحدوية عريقة ، وأن رعايا البطالمة يتألفون من عنصرين رئيسيين هما ***المصريون واليونان*** والذين لم يتجاوز عددهم أربعة ملايين نسمة(٧). وأما الدولة السلوقية فإنها حتى عام ٣٠١ق.م كانت لها قاعدة واحدة هي منطقة بابل وعاصمتها سلوقية على نهر دجلة ، ثم منذ عام ٣٠١ ق.م أصبحت لها قاعدة ثانية هي شمال سورية وعاصمتها سلوقية بيريه ثم إنطاكية ، ومنذ عام ٢٨١ق.م أصبحت لها قاعدة ثالثة وهي أيونية وعاصمتها ساردیس. وتبعاً لذلك تعددت عناصر السكان وضمَّت إلى جانب المقدونيين واليونانيين، ***سوريين وفرساً وبابليين وأعراباً ويهوداً،*** وغير ذلك من الأقوام والطوائف وبلغ تعدادهم حوالي سبعة ملايين نسمة(٨). فلذلك اتسمت الدولة بالاتساع إلى جانب تعدد الأجناس مما كان يتعذر معه سيطرة الملك الحاكم على النحو الذي كان يتيسر لملك يحكم دولة مثل مصر. وإزاء اتساع رقعة الإمبراطورية السلوقية ، حذا ملوكها حذو الإسكندر في اتباع الطريقة الفارسية في الإدارة وهي التي كان قوامها تقسيم الإمبراطورية إلى عدد من الوحدات الإدارية تماثلت أحياناً واختلفت أحياناً أخرى نظم حكمها المحلية ، وكذلك مدى خضوعها للسلطة المركزية ، وإزاء بعد الشقة بين كثير من هذه الوحدات ومقر السلطة المركزية ، فإنه كان طبيعياً ألا يتمتع الملك الحاكم بسلطته المطلقة على كل أنحاء الإمبراطورية ، بل ألا تكون سيطرته على بعض أجزائها أكثر من سيطرة اسمية ، وأن تعاني الدولة السلوقية ، مثلما عانت الإمبراطورية الفارسية من عوامل الافتقار إلى الترابط والتلاحم.

---

(7) ***GRANT, M***: FROM ALEXANDER TO CLEOPATRA. THE HELLENISTIC, WORLD, LONDON 1982, P 48

(8) IBID, P 48.

ثانياً: ألقاب الملك:

لقدساير الملوك السلوقيون النهج السائد بين ملوك العصر بحمل ألقاب كانت تضاف إلى أسمائهم وينم كل منها عن صفة بعينها. ورغم أننا لا نعرف منشأ كل هذه الألقاب إلا أنه مما لا شك فيه أن بروز هذه الألقاب قد ارتبط بحوادث معينة. وقد انقسمت بدورها إلى ثلاث فئات (***إلهية***) مثل (***ثيوس = الإله أو المؤله***) وهو اللقب الذي أطلقه الملطيون على الملك أنطيوخس الثاني نظراً لمساعدته إياهم على التحرر من طغيان (***تيمارخوس TIMARCHOS***) و(***وصفية***) مثل (***كالينيكوس = منتصر***) وهو اللقب الذي أطلقه سكان بابل على دمتريوس الأول لأن هذا الملك حررهم من طغيان أحد حكامهم. و(***أسرية***) مثل (***فيلوبانور = صديق والده***) وهو اللقب الذي أطلق على أنطيوخس الخامس. إضافة إلى ألقاب ساخرة تجسد أو تضخم إحدى صفات الملك مثل (***مربي الفيلة***) و(***الرأس الفارغ***) و(***ذي الأنف الأقنى***) الذي أطلق على أنطيوخس الثامن وغيرها من الألقاب.

ويجدر بالملاحظة، أن اللقب أو الصفة التي كان يمنحها بلد ما لملك ما تكريماً أو عرفاناً بالجميل لم يكن يُعمل به إلا من قبل سكان البلد أو المدينة نفسها. وهكذا لم تعنِ كل الأعمال الطيبة التي تمتع بها الملطيون في عهد أنطيوخس شيئاً لسكان بابل، وأن هذا الملك الذي أطلق عليه لقب الإله في ملطية لم يكن يحمل هذا اللقب في أي من مدن الإمبراطورية خلاف المدينة التي منحته إياه، وعلى هذا يمكن القول، ***أن اللقب الذي أطلق على أنطيوخس الأول من قبل جنوده لم يعنِ شيئاً لغير هؤلاء الجنود.***

ثالثاً: رجال البلاط وألقابهم الفخرية:

كان من سمات الأنظمة الملكية في كل العصور وجود حاشية في قصر الملك يحمل أفرادها ألقاباً فخرية متباينة في المرتبة. فكان الملك يختار بعض المقربين لمرافقته حتى قبل أن يصبح ملكاً، وكان هؤلاء يحملون لقب الأصدقاء (***PHILOI***). وقد جرت العادة أن يرفع الملك الكلفة بينه وبينهم إذ كانوا يلازمونه كظله. وتثبت مجموعة من النقوش والمصادر الأدبية، أن كل ملك جديد كان بإمكانه الاحتفاظ بأصدقاء سلفه أو

والده أو التخلص منهم. ولا يصبحون في عداد الأصدقاء إلا بمبايعة جديدة من الملك الجديد.

وكان من الطبيعي أن يتفاوت هؤلاء الأصدقاء في مراتبهم تصاعدياً على النحو التالي: الأصدقاء (**PHILOI**) والأصدقاء المشرفين (**TIMOMENONPHILON**) والأصدقاء الأول (***PRINCEPSAMICORUM***). وتأتي الفئة الأخيرة وهي التي تتقدم رتبة الأصدقاء بجميع تقسيماتها، وهي فئة (***أقارب الملك***)، ويبدو أن لقب القريب كان يطلق على الأرجح على الذين يشرفون على تربية الملك أو يتربون معه. ولم يكن بالضرورة ارتباط هؤلاء بأي رابط أسروي أو عائلي. وكانت رسائل الملك إلى هؤلاء كانت تعطي المرسل إليهم أحد اللقبين (***أخ***) و (***أب***) تبعاً لسن المرسل إليه على الغالب.

ويتميز الأصدقاء عادة بارتداء القبعة المقدونية ذات الأطراف العريضة والمصبوغة بالقرمز، إضافة إلى الأردية القرمزية. وكما هو بالنسبة للأصدقاء، كان رداء القريب قرمزياً، ويتميز بأن القريب كان يشبك رداءه أو عباءته بواسطة دبوس ذهبي، ويبدو أن هذا الدبوس كان هدية من الملك. ويضيف كتاب المكابيين الأول بأن الأقرباء كانوا يتلقون تكريماً آخر بالسماح لهم بالشرب من الكؤوس الذهبية. وهو أمر تعدّه المصادر القديمة ضمن سلسلة الامتيازات الممنوحة للأقارب والتي يمكن إجمالها في (***ارتداء الأردية القرمزية وحقوق الشرب في كؤوس ذهبية، والتحلي بالسلاسل والأساور الذهبية والنوم في الأسرّة الذهبية، وربط الرأس بالعصابة القرمزية)***. وتعيد بعض المصادر القديمة أصول هذه الامتيازات إلى البلاط الفارسي في حين يعيدها بعض آخر إلى البلاط المقدوني، في الوقت الذي تجمع فيه كل هذه المصادر على أن هذه الامتيازات كانت تُمنح بموجب براءات خاصة يصدرها الملك بشكل خاص، ويكون تجريد القريب من هذه الامتيازات بتمزيق رداءه بشكل علني.

ولا نستطيع من واقع المصادر، أن نتبين امتيازات الصديق أكثر من توقعنا قدرته على رفع الكلفة في الحديث أو التعامل مع الملك، إضافة إلى تأثيره في حياة الملك العامة والخاصة. ويذكر ***بوليبيوس***، أن الأصدقاء كانوا ألصق رجال الحاشية

بالملك يلتقي بهم منذ استيقاظه ويقضي برفقتهم ساعات النهار حتى في الحرب كما في الصيف.

ولما كان الأصدقاء ينغمسون إلى هذه الدرجة بقضايا صديقهم الملك، فقد كان من الطبيعي أن يؤلفوا مجلس أركان حربه في المعارك، ويلاحظ ذلك من خلال عبارة تثبت أهمية هذا العرف السياسي، ففي أحد المراسيم التي أعلنها أنطيوخس الرابع وردت عبارة (***بعد أن تداولنا مع أصدقائنا قررنا***). ويبدو من خلال ذلك أن أهمية الأصدقاء كانت تنبع من أن الملك اختار هؤلاء بمحض إرادته، وذلك من أجل سد حاجة الملك إلى مستشارين وناصحين وخبراء في أمر من أمور الدولة أو الحياة الخاصة.

نستنتج من كل ذلك، أن طبقة النبلاء في الإمبراطورية السلوقية طبقة اصطنعها الملوك، فإن الاندماج في هذه الطبقة لم يكن مقصوراً على فئة بعينها من رعايا الدولة، بل كان يمكن لأي إنسان أن يرتقي في هذه الطبقات حسب مشيئة الملك ولو كان من غير رعايا الدولة.

رابعاً: مساعدو الملك:

أوجد سلوقس عند تأسيس إمبراطوريته، حاشية اصطفى أفرادها من الرجال المقربين لمساعدته في إدارة شؤون الدولة، وعلى مر الزمن كوَّن هؤلاء الأصفياء مجموعات تنقسم وتتميز فيما بينها بألقابها الفخرية. وقد أطلق على مجموع هؤلاء الرجال (المحيطون بالقصر) (***HOI PERI TEN AULEN***)، كما انقسم هؤلاء فيما بينهم إلى ثلاث فئات ***أولها***: (***رجال الحاشية الملكية***) ويأتي في مقدمة هؤلاء موظف لقبه (***هوايي تون براجماتون***) ويعني (***القائم على شؤون المملكة***)، مما يدل على أنه كان كبير الوزراء أو الوزير الأكبر، ويتربع على قمة التنظيم الإداري. ويليه في الأهمية موظف لقبه (***أبيستولوجرافوس***) ويعني (***القائم على شؤون المراسلات***). ويعتقد بعض المؤرخين، أن مهمة هذا الموظف كانت بالإضافة إلى تسيير أمور الدولة الخارجية والمقاطعات البعيدة، الإشراف على شؤون الدولة القضائية، وهناك مناصب أخرى كمنصب (***أرخياتروس***) ويعني (***طبيب الملك***) ومنصب (***ديويكيتيس***) ويعني (***وزير الخزانة***) ومنصب (***رئيس حجاب الملكة***).

وثاني هذه الفئات ***الأصدقاء (PHILOI)*** ، ***وثالثها (أفراد اللوازم والخدمة)*** ويتوقع من خلال التسميات أن أفراد ***الفئة الأولى*** شكلوا مجموعة كبار معاوني الملك في الشؤون الإدارية والسياسية ، كما شكل أفراد ***الفئة الثانية*** مجموعة ندماء الملك ورفاقه في أوقات الدعة والراحة كما في الأوقات العصيبة. وأن أفراد هاتين الفئتين كانوا يشكلون ***مجلس الملك*** (***SYNEDRION***) الذي كان يستشاره الملك في إدارة شؤون المملكة وسياستها العليا. في حين كان أفراد ***القسم الثالث*** يتألفون في غالبيتهم من الأرقاء والخصيان والخدم والحراس من جميع الرتب الذين كانوا يلتزمون بخدمة الملك في جميع أماكن إقامته وتحركاته ، وكان كل فرد من أفراد القسم الثالث يختص على ما يبدو باختصاص محدد وينقسمون فيما بينهم كل حسب اختصاصه وعلى هذا المبدأ عرّف أحد الممثلين الكوميديين في أثينة نفسه بأنه كان يحضّر فقط الحساء للملك سلوقس.

وإلى جانب هذه الفئات والشخصيات الرسمية ، كان قصر الملك السلوقي يضم أعداداً من الخليلات والظرفاء والندماء والممثلين والراقصين والموسيقيين والطفيليين الذين كانوا يعملون على تسلية رجال القصر في أوقات فراغهم.

خامساً: المراسم:

شابه البلاط السلوقي كل بلاطات العالم القديم ، حيث كان الملك محور ومركز بلاطه ، ويبدو أن مراسم البلاط كانت تقييد حركات الملوك لدرجة أن عدداً منهم كانوا يتلذذون بخرق هذه المراسم رغم ما كان يسببه لهم هذا الخرق من سخط البلاط. ويذكر ***ديودوروس*** أن معاصري أنطيوخس الرابع كانوا يطلقون عليه لقب ***(الرأس المجنون)*** أو ***(الدماغ الفارغ)*** لمجرد كونه ديمقراطياً يجوب الحوانيت ويرتاد الحمامات العامة. كما ***ندد بوسيدونيوس الأبامي*** بشدة بتصرفات أنطيوخس التاسع لأنه كان يغادر القصر خفية بصحبة عدد من أصدقائه دون أن يقوم بمصاحبة أي من رجال الحاشية. ويذكر ***بوليبيوس*** أن أنطيوخس الثالث كان يدعي المرض لخرق قواعد وأنظمة القصر الملكي.

ولا يعرف الكثير عن أصول وقواعد التشريفات التي طبقت في بلاط إنطاكية باستثناء أن الملك كان يُخاطب بلقبه الملكي مع إضافة اسمه أحياناً ***(الملك سلوقس)*** مثلاً. وعند الانصراف من حضرته كان يحى بعبارة ***(تمتع بصحتك جيداً)***. وكان الملك بالمقابل يمد يده مصافحاً زواره أو أنه كان يعانقهم حسب درجة العلاقة مع كل واحد منهم على الأرجح. وقد عرفنا بعض المعلومات البسيطة عن مراسم الحداد الرسمي، حيث كان الملك يتشح بالملابس السوداء، ويغلق القصر أبوابه أي يتوقف الملك عن مقابلة أو استقبال أحد. ورغم أن **ليفيوس** يذكر أن فترة الحداد تستمر عدة أيام دون تحديد، فإن من المرجح أن تستمر لفترة تسعة أيام حسب الأعراف اليونانية.

وكان الملك يرتدي في معظم ساعات يومه زياً خاصاً ارتداه رسمياً جميع خلفاء الإسكندر وهو الزي المقدوني. والذي يعتقد بعض المؤرخين بأنه كان يرتدى فقط في حالات الصيد والحرب. ويتألف اللباس الخارجي من حذاء له رقبة إضافة إلى الخلاموس (***CHLAMOS***)، وهو عبارة عن عباءة قصيرة تنسدل على الأكتاف وتُشبك عند الرقبة بدبوس، والقبعة ذات الأطراف التي تشبه القبعة الأوروبية الحديثة، والتي كانت تستبدل أثناء الحرب بالخوذة المقدونية.

وقد اعتمد الملوك السلوقيون في ملابسهم اللون القرمزي لوناً ملكياً. كما أحاطوا جباههم في أوقات السلم بعصابة (***عرفت باسمها الفارسي وهو الديادِما (DIADEMA)، وهي عبارة عن قطعة قماش زرقاء عليها نقاط بيضاء، اعتمدها الإسكندر كلباس رأس بعد انتصاره على داريوس رمزاً للملكية، وتابعه خلفاؤه من بعده)*** كانوا يعصبونها على شعورهم مباشرة أو يربطونها فوق قبعاتهم وخوذهم في فترة الحرب. ويبدو أن هذين الرمزين ***(اللون القرمزي والديادِما)*** يشيران بوضوح إلى شخص الملك. ولكن مع ذلك تشير بعض الشواهد إلى أن الملك تنازل في بعض المناسبات عن احتكار اللون القرمزي ومنح حق ارتدائه إلى أفراد حاشيته مع استبقاء احتكار الديادِما التي ظلت الشعار الخاص للملكية السلوقية ورمزها.

ويلي الرداء القرمزي والديادِما في الأهمية الملكية ***(الخاتم الملكي)*** الذي تذكر المصادر أنه كان يحمل دائماً نقش ***(المرساة)*** رمز سلوقس وسلالته. ويبدو أن هذا

الثالوث كان مهماً جداً في كسوة الملك وخاصة حين يظهر أمام الجماهير، لدرجة أن أنطيوخس الرابع أثار استياء الأوساط المحافظة في إنطاكية عندما كان يجوب شوارع عاصمته بعباءة رومانية وتاج من الأزهار[٩].

سادساً: القصـر:

حملت القصور التي أقام فيها الملوك السلوقيون أسماء متعددة، منها أولي (***AYLE***) ومنها توباسيليون (***TOBASILEION***) ومنها تاباسيليا (***TABASILEIA***) ويبدو أن الفرق بين التسميات خاضع لاعتبارات مكان وجود القصر وامتداد مساحته وتعدد أقسامه وملحقاته. ولم تحتكر العاصمة وجود القصور بل تعدتها إلى معظم العواصم الإقليمية تقريباً. إذ تذكر المصادر قصوراً ملكية في (***ساريس***) في آسية الصغرى وفي سلوقية دجلة وفي (***سوسة***). ورغم أن جميع أمكنة إقامة الملك **حتى** الخيمة زمن الحرب كان يطلق عليها اسم البلاط الملكي، إلا أن المصادر لا تذكر شيئاً عن أشغال أي من الملوك السلوقيين الأوائل بصورة خاصة أياً من قصور العاصمة الفارسية إكباتانا.

سابعاً: اللغـة الرسميـة:

كانت اليونانية لغة البلاط السلوقي، واللغة الرسمية للدولة بشكل عام. ولم يقدم سلوقس وخلفاؤه على استخدام أية لغة أخرى في شؤون الدولة إلى جانب اليونانية مثلما استخدم البطالمة اللغة المصرية القديمة في اللوائح والقوانين والقرارات وخاصة ما كان منها متعلقاً بشؤون الضرائب. ويعزى التزام السلوقيين اللغة اليونانية دون غيرها إلى تعدد اللغات وتنوعها في إمبراطوريتهم. ومع ذلك فإنه لا يبعد أن الأسرة المالكة السلوقية كانت تستخدم اللغة المقدونية في أحاديثها الخاصة داخل نطاقها الضيق، وكانت هذه اللغة شديدة القرب من اليونانية.

---

(٩) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ١٧٩ - ١٨١.

ثامناً: القوة العسكرية:

لم يخالف خلفاء الإسكندر في آسية الغربية ولا سيما في سورية المبدأ السائد، وهو أن المعارك وحدها هي التي تقرر حدود الدول وتبعية الأقاليم وساكنيها. وهو مبدأ لخصه فلاسفة وملوك العصور الكلاسيكية وما قبلها بقولهم ***(إن الانتصار عن طريق الحرب هو الوثيقة الملكية الأكثر قوة والأكثر عدلاً)***. وعن طريق هذا الاعتراف بهذا الحق ساد مبدأ آخر هو حق انتقال هذا الحق عن طريق الوراثة. وبناء على ما تقدم، فقد رأى خلفاء الإسكندر كيف فرضت قواتهم المسلحة الطاعة على المهزومين من الشعوب والقبائل والممالك والمدن التي تبعت لهم. فظهرت تبعاً لذلك أهمية القوة العسكرية وسيطرتها على العقلية التنظيمية لهذه الإمبراطورية التي اشتدت حاجتها إلى جيش كبير نظراً لترامي تخومها بشكل هائل وتعدد العناصر التي تكونت منها هذه الإمبراطورية.

ولما كانت إمكانات السلوقيين المادية لا تسمح بالإبقاء على جيش كبير دائم تحت السلاح، فقد كان الجيش النظامي أو الجيش العامل محدود العدد وقد انتشرت فرقه في الأقاليم والحصون والعواصم على شكل جاليات تكفل الأمن والاستقرار وتوطين العناصر المقاتلة بعد الحروب في بعض المناطق القريبة من الحدود التي تتوافر فيها الأراضي الزراعية الواسعة التي تسمح بتوزيعها على المستوطنين العسكريين على شكل إقطاعات تكفل لهؤلاء عيشاً كريماً في فترة السلم مقابل تعهد المقطع بالخدمة في الجيش كلما دعت الحاجة. وبهذا النظام حققت الدولة هدفين استراتيجيين من أهدافها العامة ***أولهما: إنعاش اقتصادها الزراعي، وثانيهما: تجميع العناصر المقاتلة في مكان واحد وأمكنة محددة دون حاجة إلى الإنفاق عليهم باستمرار.***

ونظراً لاتساع رقعة الدولة وترامي تخومها وتعدد عناصرها فقد اتسمت جيوش السلوقيين بالسمة الدولية. إذ لم تكن تعتمد في تكوينها على أفراد قومية بعينها فحسب، بل كانت تتألف من جنود ينتمون إلى قوميات متعددة. فلذلك فإن العناصر الرئيسية التي احتوتها هذه الجيوش كانت بحسب أهميتها على الشكل التالي:

١ - ***العنصر المقدوني***: وكان الاعتماد عليه أمراً طبيعياً أملاه اعتباران أساسيان ***أحدهما***، أن هذا العنصر كان من جنس البيت المالك، وشكّل بدون شك الدائرة الضيقة المباشرة التي يطمئن الملك السلوقي إليها ويأمن جانبها. ***والاعتبار الآخر***، وهو الأهم من الناحية النظرية هو أن المحاربين المقدونيين كانوا يمثلون بالنسبة للملك السلوقي كياناً سياسياً لا يمكن تصوّر قيام حكمه بدونه، باعتبار أن نظام مقدونية السياسي كان يقوم على أساس أن الجيش المقدوني هو القاعدة السياسية الشعبية التي تضفي الشرعية على سلطات الملك.

٢ - ***العنصر اليوناني***: الذي عرِف احتراف الجندية والارتزاق منها منذ زمن بعيد، نتيجة لانعدام موارد الرزق وتفشي الفقر والعوز في بلاده. وسارع هؤلاء إلى تقديم خدماتهم لسادتهم نظراً لحاجة كل من الطرفين للآخر. فالمرتزقة يبحثون عن فرص مادية للعيش، والحكام يوفرون هذه الفرص لحاجتهم الماسة إلى الخدمات المعروضة.

٣- ***العنصر الفارسي***: الذي لم يُستخدم بنفس القوة التي استخدمها الإسكندر، ولكن تفادياً لجرح شعورهم وكسباً لودهم، وخاصة أنهم كانوا أخوالاً للعائلة السلوقية، لم يغفل السلوقيون إشراكهم في قواتهم دون الاعتماد عليهم بشكل كبير.

وقد تألف الجيش السلوقي من تشكيل رئيس هو ***الفيلق*** أو الفالانكس (***PHALANX***) وتشكيل آخر هو فرق ***الرفاق المشاة*** (***PEZETAIROI***). وقد سُلّح رجال الفيلق برماح ضخمة كان يطلق عليها اسم ***ساريسا*** (***SARISSA***) طولها حوالي سبعة أمتار. وكانوا يحملون إلى جانب رماحهم سيوفاً ودروعاً معدنية على سواعدهم ويلبسون خوذاً وأغطية لسيقانهم. وينتظمون في الفيلق صفوفاً عددها ستة عشر صفاً، وكانت الصفوف الخمسة الأولى تقف في حالة الهجوم حاملة رماحها الطويلة في المقدمة، ودروعها المتلاصقة تكوّن جبهة حديدية متماسكة تبرز منها رؤوس الرماح وكأنها الأشواك المدرعة[١٠].

---

(10) ***CRIFFITH. G. T***: THE MEREENARIES OF THE HELLENISTIC WORLD (CAMBRIDGE1936).

وقد شكّل ***الكريتيون*** نوعاً متميزاً من حملة الدروع غير المعدنية، وكوّنوا أحد عناصر الجيش السلوقي الهامة نتيجة براعتهم في استخدام أقواسهم ونشابهم وخاصة في حرب الجبال. ويبدو أنه لم يكن جيش من جيوش العصر يخلو من فرقة من المرتزقة الكريتيين. وتبعاً لذلك كانوا يحاربون مع كلا الجانبين المتقاتلين.

وقد احتلت ***كتائب الفرسان*** مرتبة أعلى شأناً من المشاة ووصفت بأنها ***صفوة الفرسان***، وكانت فرقة الخيالة الملكيين تحيط بالملك أثناء المعركة فمن المحتمل أنها اعتبرت (***صفوة الصفوة***) أي صفوة كتائب الفرسان الرفقاء.

إضافة إلى ذلك، فقد شكلت فرق ***الفيلة*** عاملاً هاماً من عوامل قوة الجيوش السلوقية، التي كانوا يؤمنونها باستمرار من شبه القارة الهندية بحكم التجاور الجغرافي والعلاقات الوثيقة بين الإمبراطورية والهند، وقد علّق السلوقيون آمالاً كبيرة على أهمية الفيلة وينهض دليلاً على ذلك أنها رُسمت على عدد كبير من نقودهم منذ سلوقس الأول، وبلغ تعدادها بحسب بعض المصادر إلى خمسمائة فيل كانت ترابط في مدينة أبامية على نهر العاصي، نظراً لتوفر الأعشاب والموارد الغذائية للفيلة التي استخدمت بنجاح في معارك عدد كبير من ملوك سورية السلوقيين منهم سلوقس الأول في موقعة إبسوس وأنطيوخس الأول في وجه الغال وأنطيوخس الثاني في وجه البطالمة وأنطيوخس الثالث في مواجهة مولون ومواجهة البطالمة وأخيراً في مواجهة الرومان، كما استخدمها ديمتريوس الثاني ضد المتمردين اليهود في فلسطين.

وقد أدت الفيلة خدمات جليلة في المعارك، فهي إلى جانب تهديدها الفرسان والمشاة وهدم تحصينات العدو نظراً لحجمها الكبير وتدريعها بطبقات من الجلود أو من المعدن، كانت تشارك بحمل أبراج خشبية يمتطيها في بعض الحالات أربعة محاربين من النبالة والرماحين، إضافة إلى سائقها الماهوت (***MAHOUT***). وترجّح بعض الدراسات الحديثة، أن سواس الفيلة كانوا يضيفون إلى شرابها قبل المعركة مواد مُسْكِرة لجعلها في حالة هياج، كما كانوا يضيفون أمامها مزيجاً من عصارة الفواكه المشابهة للون الدماء الحقيقية حتى لا تخشاها في المعركة.

ورغم خدماتها الجليلة في المعارك وشعبيتها الجماهيرية لدرجة حصول بعضها على أوسمة عسكرية حسب بعض المصادر الساخرة، إلا أن استخدام السلوقيين للفيلة لم يستمر كثيراً بعد موقعة (***ماغنيزية عام ١٨٩ ق.م***) ذلك لأن نصوص معاهدة أبامية حرّمت عليهم أن تضم جيوشهم فرقاً من الفيلة، ولم نعد نسمع إطلاقاً على أية فيلة في الجيش السلوقي بعد مغتصب العرش ***تروفون*** ***(TRYPHON)*** الذي قتله أنطيوخس السابع سنة ١٣٨ق.م.

وتخلو المصادر الأدبية من أي ذكر لأسطول قوي يتناسب مع قوة الجيش السلوقي، ويمكن تفسير ذلك في أمرين اثنين: ***أولهما***، أن الأساطيل المعاصرة لتلك الفترة لم تكن قادرة على إحراز السيطرة على الأرض، كما كانت تفعل الجيوش باستثناء حالات السيطرة على الجزر، وهو أمر لم تكن الإمبراطورية السلوقية في معظم الفترات بحاجة إليه. ***وثانيهما***، أن سيطرة السلوقيين السياسية كانت سيطرة قارية قياساً على ممتلكات الأنتيجونيين والبطالمة، ولم تكن ممتلكات سلوقس البحرية تتضمن إلا قسماً صغيراً من شواطئ الخليج العربي الذي خلت منها النشاطات البحرية العسكرية لقادة العصر.

ولكن مع ذلك بقيت الحاجة ماسة إلى إنشاء أسطول، ويبدو أن المدن البحرية التي تبعت السلالة السلوقية على الساحل السوري وأيونية وبعض جزر البحر الإيجي قد أمنت هذه الحاجة في الأوقات العصيبة أو في أوقات الحاجة. إضافة إلى أن نصوص معاهدة أبامية قد حرّمت على ملوك سورية امتلاك سفن كبيرة أو أسطول كبير، وأن معظم أنشطة خلفاء أنطيوخس الثالث قد اقتصرت على البر بما فيهم أنطيوخس الرابع الذي هاجم مصر مرتين، كان لنا أن نتصور أن هذا السلاح لم يكن هاماً بدرجة كبيرة ضمن أسلحة الجيش السلوقي في العصر الهيللينستي(١١).

---

(١١) حول تفاصيل أكثر عن القوة العسكرية السلوقية انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص١٩٥-٢١٠.



البحث السادس

المـدن والمسـتعمرات

أولاً: نشر الحضارة اليونانية :

لقد رأينا أن الإمبراطورية السلوقية كانت تتألف من عدة وحدات شديدة التباين من حيث العدد والجنس والحضارة والأوضاع الاجتماعية، وإزاء ذلك كله، وإزاء قناعة ملوك سورية السلوقيين في ذلك العصر بسمو الحضارة اليونانية على حضارات الأقوام التي خضعت لهم، كان طبيعياً أن يتخذ هؤلاء من اليونانيين والمقدونيين سنداً وعضداً، وأن ينشؤوا لهم أكبر عدد ممكن من مراكز الاستيطان اليونانية. وقد كان من شأن ذلك إنشاء كل هذه المراكز تحقيق ثلاثة أهداف حيوية :

فالأول: يعطي دولتهم طابعاً هيللينياً.

والثاني: يهيئ البيئة المناسبة التي تُمكّن أعوانهم الرئيسيين من حكم الإمبراطورية والنهوض بمرافقها، ومن ممارسة وجوه نشاطهم وألوان الحياة التي ألفوها، في الوقت نفسه تحميهم من غائلة الذوبان في المجتمعات الشرقية، وبذلك يضمن هؤلاء الملوك تحت أمرتهم أعداداً كبيرة من الأعوان المخلصين الذين بفهمون مراميهم ويتفانون في خدمتهم، ويقيمون مراكز متعددة تكون بمثابة نقاط ارتكاز قوية لدعم سيطرة الملوك والحفاظ عليها.

أما الثالث: تكون بموجبه مراكز الاستيطان اليونانية مراكز إشعاع للحضارة اليونانية، تقوم بصبغ أكبر عدد من الأهالي الوطنيين بالصبغة اليونانية فتزداد على مر

الزمن أعوان هؤلاء الملوك، وتصبح الحضارة اليونانية عاملاً للوحدة والتماسك بين العناصر المتنافرة في الإمبراطورية.

ثانياً: بناء المدن والمستعمرات:

سار سلوقس الأول على نهج الإسكندر الكبير، فقد كان هذا الفاتح العظيم يحرص على زرع المستوطنات والمدن أثناء فتوحاته في الشرق (كما رأينا سابقاً)، وإذا كان الهدف الأول الذي حرص عليه سلوقس الأول، هو نشر الحضارة اليونانية في أرجاء إمبراطوريته، فإن هذا الهدف لا يمكن وضعه موضع التنفيذ، دون الاعتماد على العنصر البشري، وبذل الجهود من أجل تشجيع اليونانيين على الاستقرار في أراضي الدولة السلوقية، وإغداق الامتيازات عليهم في جميع المجالات.

وقد اتخذت المنشآت السلوقية في شكلها العام ***صورتين مختلفتين***، كانت إحداهما هي ***المستعمرة العسكرية***، والأخرى هي ***المدينة الكاملة***. ويتفق معظم الباحثين على أن أساس عملية الاستيطان كانت المستعمرة العسكرية، وليست المدينة لاعتبارات عسكرية هامة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن السلوقيين لم يكونوا بحاجة فقط إلى عسكريين لإرساء دعائم إمبراطوريتهم، فالمدنيون ـ كما نعرف ـ يشكلون ركناً أساسياً من أركان الدولة، ***والمصرفيين والتجار وأصحاب دور التشغيل والصنّاع والعلماء***، فقد كان هؤلاء جميعاً عماد الحياة في المدن اليونانية التي أنشئت منذ القرن السابع ق.م. وبطبيعة الحال لم تكن المستعمرة العسكرية، وإنما المدينة هي التي تستطيع أن تهيئ لهؤلاء جميعاً المناخ المناسب لممارسة وجوه نشاطهم المختلفة ممارسة مثمرة.

ولما لم يكن في وسع السلوقيين - مثلهم في ذلك مثل البطالمة - أن يولوا الأهالي الوطنيين ثقتهم، ويتخذوا منهم أعوانهم في مختلف أجهزة الحكم، فإنهم اعتمدوا في ذلك على اليونانيين والمقدونيين. ومعنى ذلك كله، أن السلوقيين كانوا في حاجة ماسة إلى تشجيع أعداد كبيرة على الهجرة من مقدونية وبلاد اليونان القارية، ومن أيونية للخدمة العسكرية وممارسة النشاط الاقتصادي والمالي والعمل في دواوين الحكومة.

ولكـي يـضمن الـسلوقيون اسـتقرار محـاربيهم ووجـود عـدد كـبير مـنهم رهـن إشارتهم باستمرار، أنشؤوا لهـم مستعمرات عسكرية ومنحوهم إقطاعـات زراعيـة تكفـل لهـم دخـلاً مجزيـاً. وأمـا المـدنيون فـإنهم لكـي يـضمنوا اسـتقرارهم في رحـاب الإمبراطورية، فإنهم هيؤوا لهم المناخ الملائم لحياتهم التي كانوا يألفونها عن طريق إقامة مدن كانت على الأقل تشابه إن لم تكن أفضل من المدن التي وفدوا منها. ودليلنا على ذلك هو أن إنطاكية ولاوداكية وسلوقية بيريه وسلوقية دجلة وغيرها لم تنشأ في البداية على هيئة مستعمرات ثم تطورت إلى مدن، ***بل أنشئت منذ البداية على هيئة مدن تتوافر لكل منها جميع مقوّمات المدينة كاملة.*** ويؤكد ذلك أن الملوك السلوقيين اتخذوا ثلاثاً منها الواحدة بعد الأخرى عواصم لإمبراطوريتهم[١]. ولكن لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن، أن سلوقس حين فكر في بناء المدن اليونانية في دولته، كان يخطط لمنح هذه المدن استقلالاً ذاتياً على النمط اليوناني[٢].

وقد أطلق السلوقيون على هذه المدن أسماء مدن ومناطق في بلاد اليونان ومقدونية[٣]. فحملت إحدى المدن على سبيل المثال اسم بللا (***PELLA***) كبرى مدن مقدونية[٤]. ويذكر المؤرخ (***أبيان***) أن سلوقس أقام نحو ٥٠ مستعمرة، ولكن المؤرخ ***جرانت***، يرفض مثل هذا القول ويعتبره نوعاً من المبالغة[٥]. ومن ناحية أخرى، يرى بعض المؤرخين أن السلوقيين حين أقدموا على إقامة عدد كبير من المدن والمستوطنات التي حملت أسماء مقدونية، فأنهم يبدون كما لو كانوا يرغبون في إقامة مقدونية جديدة في الشرق[٦]، وهو هدف يصعب تحقيقه إذا ما أخذنا في الاعتبار أن أعداد اليونانيين والمقدونيين، الذين وفدوا إلى الدولة السلوقية، كانت قليلة إذا ما قورنت

---

(١) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٣١٩.

(2) ***GRAINGER, J . D***: THE CITIES OF SELEUKID SYRIA, OXFORD, 1990, P 65.

(٣) انظر: سيد الناصري، تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى في العصر الهيللينستي، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٨٩.

(4) ***WALLBANK, F, W***: OP CIT, P 134.

(5) ***GRANT, M***: OP CIT, P 52.

(6) ***ROSTOVTZEFF, M***: OP CIT, P 479.

بعدد السكان المحليين، لذا فإنه من الصعب أن يؤدي استقرار اليونانيين إلى صبغ الدولة السلوقية بالصبغة اليونانية في فترة وجيزة، وخاصة في ظل وجود شعوب ذات حضارات عريقة، ***مثل الفرس والبابليين***، ومن ثم فقد وقعت على عاتق المدن الجديدة مسؤولية جسيمة، تتمثل في قدرتها على أن تكون مراكز جذب لليونانيين والمقدونيين. ولهذا الغرض حرص الملوك على أن تبدو هذه المدن في أبهى صورة فجعلوا منها الحدائق الغنّاء، التي ترصعها النافورات والتماثيل الجميلة(٧).

وإذا كان الملوك الأوائل قد اتفقوا في حماسهم لبناء المدن والمستعمرات، فإنهم اختلفوا من حيث اهتمام كل منهم بمنطقة دون الأخرى. فقد أولى سلوقس الأول اهتماماً كبيراً لإنشاء المدن في ***سورية وكيليكية وبلاد الرافدين***، بينما انصب اهتمام ***أنطيوخس الأول*** بدرجة أكبر ***على المناطق الشرقية***، وهو أمر يمكن تفهمه إذا ما تذكرنا أن هذه المنطقة هي موطن والدته ***(أباما)***(٨).

نستنتج من كل ما سبق، أن الأسرة السلوقية قد تفوقت على جميع معاصريها من ملوك ذلك العصر بتلك الظاهرة الحضارية، التي أدت دوراً كبيراً في نشر واستمرار الحضارة اليونانية في آسية الغربية بوجه عام حتى أوائل الفترة الأموية الإسلامية. وكانت تلي تلك المدن اليونانية في الأهمية ***المستوطنات العسكرية*** التي تفنن سلوقس في إقامتها جنباً إلى جنب المدن أسوة بقائده ***الإسكندر***.

وأهم المدن التي أنشأها السلوقيون في مراكز إمبراطوريتهم (سورية وجنوب الرافدين) لا تتعدى خمس مدن وهي: ***سلوقية دجلة، سلوقية بيريه، إنطاكية، لاوداكية، أبامية.*** ومن الملاحظ أن هذه المدن حملت أسماء أفراد العائلة المالكة. ويرى المؤرخ ***ولبانك***، أن إطلاق هذه الأسماء على المدن، يعكس رغبة الملوك في إضفاء الطابع العائلي على الدولة، وإبراز دور الملك والعائلة في شكل الدولة الموحد(٩). أما

---

(٧) انظر: ***سيد الناصري***، ص ٢٩٩.

(٨) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ١٩٣.

(9) ***WALBANK***, OP CIT, P 135.

دورا يوروبوس فتعتبر أهم مستعمراتهم من حيث توافر المعلومات وعدد البعثات الأثرية التي نقبت في موقعها في هذه الفترة.

١ - *إنشاء سلوقية على نهر دجلة*:

بعد عودة سلوقس من مصر في عام ٣١٢ ق.م، ونجاحه في تدعيم مكانته في ولاية بابل، شرع في إقامة عاصمة له، فاختار موقعاً بالقرب من مدينة بابل، وهو في الأصل موقع لمدينة قديمة تسمى أوبيس (***OPIS***)[١٠]. وكان لوجود المدينة الجديدة على نهر دجلة ميزة كبرى، فقد وفر لها ذلك وجود ميناء، أصبحت بفضله قادرة على استقبال السفن التجارية، وساعدها في أن تصبح مركزاً تجارياً مهماً، فكانت تتحكم في الطرق التجارية التي تأتي من الجزيرة العربية، التي تصب فيها تجارة الهند، كما كان هناك طريق يربط ما بين مدينة سلوقية على نهر دجلة ومدينة إنطاكية.

ولعل من أهم أسباب بناء سلوقية دجلة، ***أن سلوقس بوصفه ملكاً مقدونياً متحضراً بالحضارة اليونانية، ويدرك تمام الإدراك حاجته الملحة إلى اليونانيين والمقدونيين إقامة صرح دولته، كان لا بد من أن تكون له عاصمة يونانية تضفي على ملكه طابعاً يونانياً، وتهيئ البيئة المناسبة لحياة العناصر اليونانية والمقدونية التي استقدمها، وتساعد هذه العناصر على الحفاظ على مقوّماتها.*** وإزاء هذه الاعتبارات لم يكن في وسع سلوقس أن يتخذ من مدينة شرقية مثل بابل عاصمة لملكه ولا مستقراً للعناصر الأجنبية التي استقدمها.

ولأجل تطوير مدينته الجديدة قام سلوقس بنقل عدد من سكان بابل إليها وخاصة التجار، بعد أن أمر بنقل سوقها التجاري إلى المدينة الجديدة التي بدأت تنمو حتى إنها فاقت مدينة بابل. ويذكر المؤرخ (**بليني**) أن سكان المدينة الجديدة بلغ عددهم ٦٠٠ ألف نسمة[١١]. ورغم الجهود التي بذلها سلوقس للحفاظ على طابع المدينة اليوناني الذي أراده لها، فإنه لم يستطع صد غائلة الامتصاص الشرقي لوقوع

---

(١٠) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ١٩٦.

(11) ***PLINY***, VI, 9 – 10.

المدينة في وسط شرقي بحت حيث أقام فيها عدد كبير من السوريين والبابليين واليهود[١٢]. ورغم مبادرة سلوقس بعد سيطرته مباشرة على سورية وآسية الصغرى إلى اتخاذ عاصمة أخرى هي سلوقية بيريه ثم إنطاكية، فإن هذا لم يعقه عن استمرار توجيه الاهتمام إلى عاصمته الأولى التي تعاظمت أهميتها التجارية، واعتبرها أثناء حياته عاصمة ثانية لإمبراطوريته، وأرسل إليها ولي عهده كتائب له على مقاطعات شرقي الفرات[١٣].

٢- *سلوقية بيريه*:

تقع سلوقية بيريه شمالي مصب نهر العاصي عند سفح جبل كاسيوس (***موسى داغ حالياً***) المطل على خليج السويدية على الساحل السوري. ويذكر ***بلينيوس ومالالاس***، أنه عندما أراد سلوقس إنشاء المدينة صعد سنة ٣٠٠ ق.م، إلى أحد الجبال القريبة المقدسة من الإله زيوس وقدم له قرباناً راجياً إياه أن يرشده إلى المكان المناسب لتأسيس أول مدينة تحمل اسمه في تلك المنطقة. وإجابة ذلك ظهر نسر وهو طائر زيوس، وانقض على لحم القربان وحمله إلى موقع سلوقية مشيراً بذلك إلى الموقع الذي يجب أن تبنى فيه المدينة. وعندئذ قام سلوقس بتأدية طقوس تأسيس المدينة وأطلق عليها اسمه ودرج الناس على تسميتها سلوقية على نهر العاصي، وفي أحيان أخرى كان يطلق عليها سلوقية بيريه تيمناً باسم ميناء أثينة البحري (***بيرايوس***) وفي رواية أخرى على اسم قرية مقدونية[١٤].

أمر سلوقس بنقل عدد من سكان المستعمرة اليونانية القديمة بوسيديوم (***POSIDIUM***) ميناء صابوني حالياً إلى مدينته الجديدة، إلا أن المدينة ضمت شريحة من السكان المحليين إلى جانب اليونان. ويذكر المؤرخ ***بوليبيوس***، أن عدد سكان المدينة

---

(12) ***GRANT***, OP CIT, P 60.

(١٣) انظر: مفيد رائف العابد، ص ٣٢٢، أبو اليسر فرح، ص ١٩٦.

(١٤) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٣٢٢.

من الرجال الأحرار حين استعادها أنطيوخس الثالث من أيدي البطالمة في عام ٢١٩ ق.م بلغ ٦٠٠٠ نسمة[١٥].

وقد اختلفت مدينة بيريه في تخطيطها عن سائر المدن السلوقية الأخرى، حيث أقيمت على منحدرات جبلية تتجه نحو البحر، ويرجع هذا إلى طبيعة الأرض التي أقيمت عليها، وتم تزويد المدينة بخنادق لحمايتها من الفيضان. ومن جهة أخرى فهي المدينة السلوقية الوحيدة التي لم تُخطط وفقاً للنظام الشبكي لعدم ملاءمة طبيعة موقع هذه المدينة لتطبيق مثل هذا النظام.

وفي هذه المدينة بنى الملك أنطيوخس الأول معبداً دفن فيه والده سلوقس الأول، وأطلق على المعبد اسم ***نيكاتوريون*** (***NIKATORION***). ومن المعتقد أنه كان يوجد معبد آخر في المدينة، بالإضافة إلى المسرح، أما من الناحية الدستورية فأنه كان يوجد في المدينة مجلس وحكام منتخبون وهيئة مواطنين[١٦].

٣- لاوداكية (اللاذقية):

أنشأ سلوقس هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط تكريماً لوالدته (**لاوديكي**) وهي واحدة من خمس مدن حملت هذا الاسم، ومن المرجح أنها أقيمت في موقع قريتين فينيقيتين هما ***رامانثا*** (***RAMANTHA***) ***ومازابدا*** (***MAZABDA***)[١٧].
وكان لها ميناء وحيد وحسنة البناء وجميلة الموقع تقوم على سفوح عدد من الجبال التي تغطيها الكروم، التي سمحت بتصدير الخمور بكثرة إلى أرجاء العالم القديم وخاصة الإسكندرية.

ولا يعرف إلا القليل جداً عن لاوداكية (***بناؤها ومنظماتها وكيفية إدارة دفة الحكم فيها***) في العصر الهيللينستي بكامله وذلك نتيجة لعدة عوامل أهمها:

---

(١٥) انظر: ***بوليبيوس*** ٥، ٦١، ١.

(١٦) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ١٩٨.

(17) ***GRAINGER***, OP CIT, P 111.

أولها : عدم إجراء أية حفائر منتظمة في المدينة نظراً لاستمرار المدينة عامرة حتى وقتنا هذا.

ثانيها : عدم التعرض لذكر تاريخها في الفترة الهيللينستية من قبل الكتاب القدماء أو كتاب العصر الوسيط ، ولربما كان ذلك عائداً إلى قلة الدور السياسي الذي قامت به في تلك الفترة بالقياس على الدور الذي لعبته في الفترة الرومانية.

ثالثها : سوء حظها بعدم إنجابها لمؤرخ شهير مثل *ليبانوس الإنطاكي أو بوسيدونيوس الأبامي*، اللهم إذا استثنينا قيامها بنشاط تجاري ملموس كوريثة لمدينة أوغاريت الواقعة إلى الشمال منها.

إلا أن إحدى البعثات الأثرية قامت بالتنقيب في أطراف المدينة ، وعثرت على بقايا مسرح يرجع تاريخه إلى العصر الروماني ، ويسود الاعتقاد انه أقيم في موقع مسرح قديم من العصر الهيللينستي ، ونظراً لنقص المعلومات المتوفرة عن المدينة ، فإن الغموض يلف تاريخها ، مما يجعل معرفة ملامح الحياة الاجتماعية في هذه المدينة أمراً عسيراً.

٤- أباميــة:

تقع ***أبامية*** على بعد واحد وخمسين كيلو متراً شمال غربي حماة ويمر بالقرب منها وإلى الغرب نهر العاصي على بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات ، وقد أقيمت في موقع قرية قديمة تسمى ***فارناك*** ***(PHARNAK)*** ، وكان يوجد في هذا الموقع مستعمرة للمحاربين القدماء ، أطلق عليها اسم (**بللا**) على اسم العاصمة المقدونية. وقد أقام سلوقس هذه المدينة تكريماً لزوجته الفارسية (***أباما***) ، وهي واحدة من ثلاث مدن حملت اسم هذه الزوجة. وترجع أهمية هذه المدينة إلى أنها قاعدة عسكرية مهمة للجيش السلوقي ، وكانت تمثل خط الدفاع الأول في الجنوب ضد البطالمة ، كما كانت نقطة انطلاق للقوات السلوقية التي تهاجم الممتلكات البطلمية. ويذكر ***أسترابون*** أنه كان فيها لسلوقس ثلاثمائة جواد وثلاثون ألف فرس وخمسمائة فيل هندي[١٨]. ويبدو

---

(١٨) انظر : أسترابون ١٦ ، ٢ ، ١٠.

أن السبب الرئيسي لجعل هذه المدينة مركزاً لإقامة هذه الحيوانات هو وجود كثير من السهول والمراعي بالقرب من المدينة مما كان ييسر إطعام ذلك الحشد الكبير من الحيوانات. وإزاء إقامة مخازن الأسلحة والتدريب العسكري في هذه المدينة، فقد تمتعت أبامية في العصرين السلوقي والروماني بقدر من الأهمية لا تفوقه إلا أهمية إنطاكية.

ولكن على الرغم من الأهمية التي تمتعت بها مدينة أبامية في العصر السلوقي، فإن الحفائر التي أجريت في موقعها في العصر الحديث، لم تسفر إلا عن العثور على آثار قليلة ترجع في غالبيتها إلى العصر الروماني، ومنها مسرح صغير من المرجح أنه أقيم على أنقاض مسرح من العصر السابق، ومن المنشآت التي تثير الدهشة والإعجاب شبكة دقيقة لتوزيع المياه في المدينة، كما عثر على بقايا معبد للإله زيوس يُعتقد أن تاريخه يرجع إلى العصر الهيللينستي.

٥- *إنطاكية ونهاية الإمبراطورية السلوقية*:

تقع إنطاكية في الشمال الغربي من سورية عند الطرف الجنوبي لسهل العمق ويحدها شرقاً جبل سيلبيوس (***SILPIOS***) وغرباً نهر العاصي. وقد أنشأها سلوقس في العام الثاني عشر من حكمه أي في عام ٣٠٠ ق.م، وأطلق عليها اسمها تخليداً لوالده أنطيوخس، وسمى هذه المدينة ***المؤرخ (أميانوس ماركيلينيوس AMMIANUS MARCELLINUS***) (***درة الشرق الجميلة***)[١٩]. كما دفع بالإعجاب مؤرخاً آخر إلى المبالغة بالقول، ***(إن إنطاكية بلغت من الجمال حداً جعل الآلهة نفسها تتلهف للإقامة فيها)***[٢٠]. وهي واحدة من ست عشرة مدينة حملت ذات الاسم، إلا أنها كانت أشهر المدن التي حملت اسم إنطاكية، وقد أطلق عليها العديد من الألقاب مثل ***إنطاكية على نهر العاصي، وإنطاكية قرب دافني***، وإن كانت قد اشتهرت باللقب الثاني أكثر من غيره.

---

(19) ***AMMIANUS MARCELLINUS***, XXII, 9, 14.

(٢٠) انظر: ***داوني جلانفيل، إنطاكية القديمة***، ترجمة إبراهيم نصحي، القاهرة ١٩٦٧م، ص٧١.

ترددت الكثير من الروايات حول نشأة إنطاكية، وتذهب بعض الروايات إلى القول إنَّ الإسكندر هو الذي اختار موقع المدينة بنفسه. فقد ذكر المؤرخ ***ليبانيوس*** (***LIBANIUS***)، أن الإسكندر بعد أن هزم دارا في موقعة ***إسوس عام ٣٣٣ ق.م***، تقدم نحو فينيقية، ولم يلبث أن توقف في الطريق عند مكان يوجد إلى الشرق من الموقع الذي أقيمت عليه إنطاكية فيما بعد، حيث كان يوجد نبع ماء بالغ العذوبة، حتى إن الإسكندر عندما شرب منه صاح أنه ***يضارع لبن أمه***، وأطلق على النبع اسم (***أولمبياس***) والدة الإسكندر، وأنه عندما رأى جمال الموقع فكر في بناء مدينة فيه، ولكن لم يكن بوسعه إيقاف سير الحملة، فاتخذ الخطوة الأولى نحو إنشاء المدينة عندما أمر بإنشاء مذبح للإله زيوس في هذا المكان[٢١]، ولكننا نفتقر في المصادر الأخرى أي سند لهذا الزعم بما يوحي بأنه ليس إلا وليد خيال صاحبه ***ليبانيوس - الذي اشتهر بحبه الشديد لمسقط رأسه إنطاكية*** - ليضفي على مدينته نوعاً من الجلال ما زهيت به المدن التي أسسها الفاتح الكبير[٢٢].

وكانت إنطاكية تتألف من حيين منفصلين، ***أحدهما للنزلاء اليونان، والآخر للأهالي الوطنيين***، يبلغ أولهما ضعف الثاني مساحة، ولكل منهما سوره الخاص. وتدل المعالم الأثرية للمدينة على أنها خططت وفقاً للنظام الشبكي الذي اتبعه المهندس (***زيناريوس***) في تخطيط المدينة[٢٣]. وقد حددت اتجاهات المدينة بدقة بالغة بحيث تستفيد إلى أقصى حد من الشمس في الشتاء، ومن الظلال والنسيم العليل الذي يهب من البحر صيفاً.

ونفتقر إلى بعض المعلومات عن المباني العامة التي أقيمت عند إنشاء المدينة، ذلك أنه باستثناء ما يذكره المؤرخ ***مالالاس*** عن معبد الإله ***زيوس بوتياتوس*** الذي أقامه سلوقس، لا نعرف شيئاً عن أية معابد أخرى أو حمامات عامة وما لا غنى عنه

---

(21) ***LIBANIUS ANTIOCHIKOS***, 72 - 77, 87.

(٢٢) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٣٢٥.

(٢٣) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٠٢.

من المنشآت الإدارية، التي تميز المدينة اليونانية مثل المسرح، وإن كان من غير المعقول ألا يكون للمدينة مسرح عند إنشائها، ولا نعرف ذلك متى شيدت القناة المرتفعة لجلب المياه من دفنة، أو إذا كان سلوقس قد بنى في إنطاكية ستاديوم (***STADIUM***) للألعاب الرياضية غير ذلك الذي كان يوجد فيها سنة ١٩٥ق.م.

وإذا كان الكتّاب المتأخرون لم يبدوا اهتماماً كافياً بالمباني العامة في إنطاكية، إلا أنهم أظهروا اهتماما كبيراً بالتماثيل التي نُصبت في المدينة عند إنشائها، ولعل أشهر تلك التماثيل على الإطلاق، هو التمثال البرونزي المذّهب ***لتوخي إنطاكية*** (***TYCHE OF ANTOCH***) ربة السعادة والحظ في المدينة، وهو الذي نحته الفنان ***يوتوخيدس*** (***EUTECHIDES***) سنة ٣٠٠ ق.م بتكليف من سلوقس الأول. وتقول بعض الروايات من أن سلوقس أمر بنحت التمثال تخليداً لذكرى فتاة جميلة تدعى ***إيماتة*** (***IMATE***) قُدمت قرباناً للآلهة بمناسبة تخطيط حدود مدينة إنطاكية، ولكن ليس لدينا أي دليل يثبت أن اليونان كانوا يقدّمون تضحيات بشرية. وإذا صح جدلاً أن التقاليد المحلية كانت تجيز مثل هذه الطقوس الدموية، فإننا نستبعد أن سلوقس كان يمكن أن يأخذ بمثل هذه الطقوس عند تأسيس مدينة يونانية(٢٤).

ويمثل هذا التمثال امرأة جالسة على صخرة بجسمها الرشيق الطويل، وهي تلتفت إلى الجهة اليسرى، وترتدي ثوباً فضفاضاً صُففت ثنياته وأذياله على شكل بديع، وقد استندت بيدها اليسرى إلى صخرة، وتتطلع إلى بعيد وكأنها تشرف من أعلى جبل (**سيلبيوس**) على السهول الإنطاكية الخصيبة، وأمسكت بيدها اليمنى حزمة من السنابل ترمز إلى الخصوبة، ويتدفق نهر العاصي من تحت قدميها بحركة مسرحية على شكل غلام باسطاً ذراعيه كأنه يسبح، أما رأسها فقد زين بتاج مصنوع على هيئة سور المدينة.

ومن التماثيل التي أقيمت في المدينة تمثالا ***زيوس وأبوللون***، وكانا يعتبران حامي الأسرة، وكثيراً ما شبه بهما سلوقس وابنه أنطيوخس. هذا إلى بعض التماثيل

---

(٢٤) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٣٣٩.

التي أقيمت تخليداً لبعض أحداث بعينها أهمها تمثال للكاهن ***أمفيون*** (***AMPHION***) الذي ساعد سلوقس في تقديم القرابين عند وضع أسوار المدينة.

وتشير القرائن إلى أن سكان إنطاكية كانوا يتألفون من عدة عناصر يأتي في مقدمتها المقدونيون الذين تقاعدوا بعد الخدمة في جيش سلوقس، وكان أيضاً بعض أبناء كريت وقبرص وأرجوس وهيراكلية. ولا بد من أن الأثينيين الذين أجبروا على الهجرة من أنتجونية إلى إنطاكية كانوا يؤلفون عنصراً هاماً من مواطني المدينة الجديدة، وقد انتظم هؤلاء جميعاً ـ كما في سلوقية بيريه ـ في قبائل وأحياء بلغت في القرن الرابع الميلادي في ثماني عشرة قبيلة، وكان عدد من اليهود وبعض العبيد، وأخيرا كان هناك العنصر الوطني السوري فكانوا يقيمون في حيهم الذي خُصص لهم(٢٥).

وفيما يتعلق بالوضع الدستوري لإنطاكية، فإن المصادر لا تسعفنا عند الحديث عنه، ولكن بعض الباحثين يرون أن المدينة ربما تمتعت بما كانت تتمتع به المدينة اليونانية عند إنشائها، وأنه كان فيها مجلس للشورى (***BOULE***) إلى جانب بعض المظاهر الأخرى.

ومن أبرز معالم مدينة إنطاكية ضاحية ***دافني الجميلة***، التي تعد من أروع الأماكن في العالم القديم، لذا فقد نسجت من حولها الأساطير، وكان يوجد فيها معبد للإله أبوللون، وكان تمثال هذا الإله الموجود بالمعبد من أشهر تماثيل العالم القديم(٢٦).

ونظراً لما كانت تتمتع به ضاحية **دافني** من جمال، فإنها كانت منتجعاً للموسرين من سكان إنطاكية، الذين حرصوا على إقامة دور خاصة لهم فيها،

---

(٢٥) انظر: المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(٢٦) تم التعرف على هذا التمثال من خلال صورة له على بعض قطع النقود التي عثر عليها في مدينة إنطاكية، ويقال أنه يضارع تمثال زيوس الشهير الذي أقامه النحات فيدياس في أولمبية في بلاد اليونان انظر: ***أبو اليسر فرح***، هامش ص ٢٠٣.

وكانت **دافني** عامرة بأماكن اللهو والترف، وكانت مقصداً لطلاب المتعة. وعادة ماكان الملوك يحرصون على قضاء فصل الربيع فيها، وأصبحت فيما بعد مركزاً للألعاب الرياضية، وكانت تنافس مراكز الألعاب الأولمبية في بلاد اليونان(٢٧).

وفي عهد ***أنطيوخس الرابع* (٢١٥ - ١٦٣ ق.م)** شهدت إنطاكية ازدهاراً كبيراً، وتربعت على قمة المدن السورية، وأخذت تنافس الإسكندرية في العظمة(٢٨)، وقد انعكست على المدينة شخصية هذا الملك المترف، فقد أخذ في إقامة المباني العظيمة، وبذل قصارى جهده من أن يجعل من إنطاكية مدينة رائعة، فارتفعت مكانتها، وللمرة الأولى كُتب اسم إنطاكية جنباً إلى جنب مع اسم الملك(٢٩).

وفي إطار اهتمام أنطيوخس الرابع بمدينة إنطاكية، أقام فيها حياً جديداً، أطلق عليه اسم (***أبيفانيا***) (***نسبة إلى اللقب الذي حمله هذا الملك، أي أبيفانس= المتجلي***)(٣٠). وقد تم تزويد هذا الحي بساحة إضافية للسوق العامة (***AGORA***)، وفي هذا الحي أقام أنطيوخس داراً لمجلس الشورى، ومعبداً للإله جوبيتر كبير آلهة الرومان(٣١).

وربما كانت الفكرة التي شاعت في العالم القديم، عن ثراء مدينة إنطاكية، قد تولدت نتيجة لذلك الحفل الضخم الذي أقامه أنطيوخس الرابع في ***دافني عام ١٦٧ ق.م (بالقرب من إنطاكية)***، بعد أن عاد من حملته على مصر وذلك رداً على الاحتفال الكبير الذي أقامته روما سنة ١٦٧ ق.م في مدينة (**أمفيبوليس**) اليونانية احتفالاً بقهر مقدونية ودعت إليه عدداً من المدن اليونانية. وقد أفاض المؤرخ ***بوليبيوس*** في شرح مظاهر الترف والبذخ في الحفل. ***فهو يذكر المهرجانات الرائعة التي استهلت باستعراض عسكري شارك فيه عشرات الآلاف من الجنود ومن قوميات***

---

(٢٧) انظر: ***داوني جلانفيل***، ص ٥٩.

(28) ***GRANT***, OP CIT, P 53.

(٢٩) انظر: ***داوني جلانفيل***، ص ٧٩.

(٣٠) انظر: ***أسترابون*** ٦، ٢، ٤.

(٣١) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٠٥.

مختلفة، وقد تدرعوا بالدروع الجميلة من الذهب والفضة، وركب بعضهم أجمل الخيول المطهمة والمزينة، ومن خلف هؤلاء مشت فرق الخيالة من سكوثية والأفيال الهندية والمصارعون، ثم تلت مواكب هؤلاء مواكب الرجال المدنيين الذين يحملون تيجاناً ذهبية، وألفاً من الثيران التي أعدت للتضحية وثلاثمائة بعثة دبلوماسية من المدن اليونانية، ثم عرض لأنياب الأفيال، وتماثيل لجميع الآلهة وأنصاف الآلهة مذهبة أو مطلية، وآنية رائعة، ونساء متزينات يرششن العطور من زجاجات ذهبية أو محملات بواسطة محفات لها أرجل ذهبية. وقد تضمنت الاحتفالات التي استمرت شهراً إقامة الألعاب الرياضية ومشاهد المصارعين المحترفين وعراك الحيوانات المتوحشة، كما خصصت بعض الأوقات لكي يجري الخمر في مصدر الماء في مدينة إنطاكية.

ويضيف ***بوليبيوس*** أيضاً أن أنطيوخس كان قد شارك في تنظيم دعاية الاحتفالات، فكان الجميع يرونه تارة يرحب بالضيوف، وأخرى يصدر أوامره التنظيمية، وثالثة يلقي النكات، وأخرى يشارك بالرقصات العامة. ويبدو أن أنطيوخس كان يبغي إدهاش الوفد الروماني برئاسة (***تيبريوس سمبرنيوس كراكخوس***) الذي عومل بأمر من الملك معاملة ملكية، فوضع القصر الملكي تحت تصرف الوفد وأحاط جميع أعضائه برعاية لم يكن يحظى بها إلا الملوك[٣٢]. وفي عهد أنطيوخس الرابع أيضاً حلت بالمدينة كارثة، فقد اجتاح إنطاكية وباء، أودى بحياة عدد كبير من سكانها[٣٣].

وبعد وفاة أنطيوخس الرابع، فقدت الدولة السلوقية ومعها إنطاكية، تلك المكانة البارزة التي كانت تتمتع بها، فتدهورت أحوال المدينة، وأصبحت مسرحاً للصراع على العرش من أبناء البيت السلوقي، وشهد الفرقاء في طرقاتها قتالاً شرساً، وجاءت ثالثة الأثافي، حينما نكبت إنطاكية في عامي ١٤٨ و١٣٠ ق.م بوقوع زلازل ألحقت بها أضراراً بالغة[٣٤].

---

(٣٢) انظر: **بوليبيوس** ٣٠، ٢٥.

(٣٣) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٠٧.

(٣٤) انظر: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

وفي عهد ***أنطيوخس السابع*** (١٣٨ - ١٢٩ق.م) نعمت إنطاكية بقسط من الراحة واتشحت المدينة بالسواد، حزناً على مقتل هذا الملك على يد ***البارثيين***، ومنذ وفاة هذا الملك، حتى احتلال الرومان لسورية في عام ٦٤ق.م، لم يكن تاريخ سورية وإنطاكية، إلا سجلاً حافلاً بمظاهر الضعف والتردي. ففي الفترة ما بين عامي ٩٦ - ٨٤ ق.م، تعاقب على العرش ستة ملوك، وحدث في مرتين، أنه كان على العرش ملكان في وقت واحد، كان كل منهما يرى أنه الأحق بالعرش دون سواه. فلا عجب أن فكر أهل سورية في اللجوء إلى قوة خارجية، تكون قادرة على تحقيق الاستقرار، فشخصت أبصارهم إلى ***تيجرانس*** (***TIGRANES***) ملك أرمينية الذي استطاع من توطيد أركان مملكته في عام ٨٣ ق.م، وأخذ يتوسع في بلاد الرافدين، فاستدعوه واستجاب لدعوتهم، وأرسل جيشاً إلى سورية، ونجح في الاستيلاء على العاصمة إنطاكية، وبدأت المدن السورية الأخرى تستشعر الخطر من تقدم تيجرانس فأرسلت في طلب النجدة من الرومان الذين استجابوا لهذا الطلب، وأرسلوا حملة بقيادة ***لوكللوس*** (***LUCCLLUS***) وعندما علم تيجرانس بوصول الجيش الروماني إلى المنطقة، آثر الانسحاب إلى بلاده في عام ٦٩ ق.م بعد أن بقي في إنطاكية لمدة ١٤ عام واتخذ نائبه في سورية من إنطاكية مقراً له[٣٥].

وبعد اضطرار (***تيجرانس***) إلى الانسحاب من سورية، دفعت روما بأحد أبناء البيت السلوقي لكي يرتقي العرش ورحب به أهل إنطاكية وأطلقوا عليه لقب الآسيوي، وتولى العرش تحت اسم ***أنطيوخس الثالث عشر***، إلا أن الاضطرابات تجددت بعد ظهور العديد من المطالبين بالعرش السلوقي.

وفي عام ٦٤ ق.م وصل إلى سورية القائد الروماني **بومبي** (***POMPIUS***) لكي يضع حداً لمشاكل الصراع على العرش السلوقي، وأدرك على الفور أن أبناء البيت السلوقي غير جديرين بالحكم. ومن ناحية أخرى فإن أهل إنطاكية كانوا قد ملوا من الصراعات بين أبناء الأسرة السلوقية، ووجدوا أن القبول بالحكم الروماني أفضل من

---

(35) ***APPIN***, SYR: 48.

العودة إلى دوامة الصراع الأسري، فحرّضوا بومبي على أن يضع حداً للحكم السلوقي، ويقال إنهم دفعوا له مبلغاً من المال من أجل هذا الغرض، فاستجاب لهم بومبي وقرر في عام ٦٤ ق.م تحويل سورية إلى ولاية رومانية، وهكذا توارت الدولة السلوقية من على مسرح التاريخ، واختفت في زوايا النسيان(٣٦).

٦- *المستعمرات العسكرية (دورا يوروبوس):*

إذا كان الإسكندر قد اعتمد في أثناء حملاته العسكرية على المستعمرات العسكرية وأنشأ عدداً منها في عدد من المناطق أشهرها في باكترية وميدية، فإنه بعد موته كانت الحاجة إلى إنشاء المستعمرات أكثر إلحاحاً. ذلك أن سلوقس وخلفاءه استشعروا هذه الحاجة مدفوعين بعاملين هامين:

أحدهما: هو أن موارد دولتهم لم تكن تسمح لهم بالاستمرار على الدوام باستئجار المرتزقة، ولاسيما أن أسواق هؤلاء المرتزقة كانت لا تقع داخل دائرة نفوذهم، مما كان يستتبع الاعتماد على حسن نوايا العاهل المسيطر على بلاد اليونان ومقدونية لضمان استمرار تزويدهم بعناصر يونانية ومقدونية محاربة. وبطبيعة الحال كانت هذه النوايا تتأثر بتقلبات الظروف السياسية، ومن الجلي أن الأوضاع كانت مختلفة عن ذلك في أيام الإسكندر.

ثانيهما: هو أن السبب الرئيسي الذي أقام الإسكندر أولى مستعمراته ظل قائماً، وهو ضرورة ضبط القبائل المتمردة، وفضلاً عن ذلك فإنه جدّ سببان آخران وهما ***تأمين الحدود، وحماية طرق التجارة.*** ولهذا فقد تابع سلوقس وأقرب خلفائه بناء العديد من المستعمرات على امتدا تخومهم ولعل أهمها أو ما أمكن العلم به من خلال المصادر كانت تلك المستعمرات التي أنشئت لصد غارات قبائل الغال المشاكسة منذ عهد سلوقس الأول في آسية الصغرى(٣٧).

---

(٣٦) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٠٧.

(٣٧) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٣٢٩.

ولا شك أن الفائدة من المستعمرة العسكرية ـ بحكم تعدد جوانب هذه الفائدة ومدى فعالية أثرها ـ كانت أكبر من فوائد إنشاء المدن، مما حدا ببعض الباحثين إلى ترجيح فكرة أن المستعمرة العسكرية كانت الأساس في عملية الاستيطان السلوقية وليست المدينة. بناء على أنه فضلاً عن قيام المستعمرات العسكرية بالدفاع ***عن حدود الإمبراطورية وحماية القوافل التجارية، كان من شأن توطين جنود هذه الإمبراطورية في عدد من المستعمرات تيسير عملية استدعائهم وقت الحاجة، واتخاذ هذه المستعمرات مراكز لتجميع الوحدات العسكرية وتوجيهها دون إبطاء نحو مكمن الخطر، والاستغناء عن ضرورة إبقاء القوات كلها تحت السلاح، مما كان يوفر على الدولة النفقات الباهظة التي يتطلبها ذلك، ويقيها من المخاطر التي تنجم عادة عن تجمع قوات كبيرة بلا واجبات تشغلها في وقت السلم،*** هذا إلى أن أرباب الإقطاعيات العسكرية كانوا يقومون باستثمار إقطاعات مستعمراتهم، ونشر ما يراد نشره سواء من الأساليب الزراعية الجديدة أم المزروعات الجديدة، فيسهمون بذلك إسهاماً مباشراً في إنعاش الحياة الاقتصادية وغير ذلك من الفوائد الآنية والمتوقعة(٣٨).

ولعل أشهر مستعمرات الإمبراطورية السلوقية على الإطلاق كانت ***مستعمرة دورا يوروبوس،*** التي تقع شمال شرقي الصحراء السورية على الشاطئ الأيسر لنهر الفرات، وقد أقيمت على موقع قرية قديمة تسمى دورا (***DURA***) ***ومعناها بالآرامية الجدار أو الديار.*** ويعود إنشاء هذه المستعمرة إلى عام ٣٠٠ ق.م حين شرع نيكانور (***NICANOR***) حاكم منطقة شرق سورية في إقامتها بتكليف من سلوقس الأول، وأطلق عليها اسم يوروبوس، على اسم مسقط رأس سلوقس في مقدونية. وتعد هذه المستعمرة من أفضل منشآت السلوقيين، وقد حظيت باهتمام رجال الآثار في العصر الحديث، واستمر التنقيب في موقعها لمدة ١٢ عاماً متواصلة.

احتلت دورا يوروبوس موقعاً عسكرياً وتجارياً متميزاً على نهر الفرات، وكانت تتحكم في الطرق التي تربط شمال بلاد الرافدين مع جنوبها، وتم تحصين

---

(٣٨) انظر: ***سيد الناصري***، ص ٢٩٤.

المستعمرة من جميع جوانبها، وأقيمت فيها قلعة حصينة، وأقيم في داخل القلعة قصر للحاكم الذي كان يحمل لقب استراتيجوس (***STRATEGOS***) وكذلك أقيمت مساكن لإيواء الجنود.

وتم تخطيط المستعمرة في شكل يشبه إلى حد كبير ما جرى عليه العرف في تخطيط المدن في العصر الهيللينستي، وهو النظام الشبكي الذي وضعه مهندس المدن المشهور هيبوداموس (***HIPPODAMOS***) من ميليتوس. حيث يوجد طريقان رئيسيان من الشمال إلى الجنوب ومثلهما طريقان آخران من الشرق إلى الغرب، ويربط ما بين هذه الطرق مجموعة من الطرق الصغيرة. وفي وسط المستعمرة أقيمت ساحة السوق العامة (***AGORA***) كما شيدت فيها بعض المعابد مثل معبد الإله أبوللون والربة أرتميس، وهما الإلهان الحاميان للملك سلوقس الأول.

والحقيقة أننا نفتقر إلى وجود معلومات كافية حول الوضع الدستوري لمستعمرة دورا يوروبوس. ولكن من المرجح أنه كان للمستعمرة في أيامها الأولى مجلس على رأسه حاكم يحمل لقب أرخون (***ARCHON***) أو استراتيجوس، بالإضافة إلى وجود مندوب عن الملك ومجموعة من الموظفين الملكيين والقضاة، كما كان يوجد بها بعض الكهنة الذين يشرفون على شؤون العبادة، وعلى رأسها عبادة سلوقس نيكاتور مؤسس المستعمرة.

أما عن سكان المستعمرة، فإنه يأتي على رأسهم جنود الحامية، الذين كانوا يشكلون وحدة من الجيش النظامي للدولة، وكانوا ينحدرون من المقدونيين الذين استوطنوا المستعمرة في البداية ومعهم عائلاتهم، ولم يلبث أن انضم إليهم أعداد متزايدة من اليونان ومن السكان الوطنيين والعبيد. وقد منح سكان دورا يوروبوس مساحات من الأرض (***KLEROI***) في الإقليم الذي خصص للمستعمرة منذ إنشائها، وهو الإقليم الذي تم استقطاعه من القرى المحيطة بعد مصادرة أراضي السكان الأصليين، كما جرى استصلاح مساحات كبيرة فيها الكثير من أراضي البور، وكانت تلك الأراضي تعتبر ملكية خاصة لحائزيها، فكان من حقهم أن يتصرفوا فيها

كيفما يشاؤون، كما كان من حق النساء تملّك هذه الأراضي، مثلهم في ذلك مثل الرجال.

وعلى الرغم من أن دورا يوروبوس كانت مستعمرة صغيرة، إذا ما قورنت بالدول الكبرى التي أقامها السلوقيون، فإنها أدت دوراً شديد الأهمية في بلاد الرافدين. فبالإضافة إلى كونها مركزاً عسكرياً وإدارياً مهماً، فإنها كانت تتمتع بالرخاء وتزدان بالكروم والبساتين، كما عرفت النشاط الزراعي بجميع أشكاله، وكذلك تربية الحيوان، وكانت مركزاً تجارياً حيوياً ومحطة للقوافل[٣٩].

---

(٣٩) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ١٩٤ – ١٩٥.



البحث السابع

الحياة الاجتماعية

أولاً: عناصر السكان:

تعتبر الإمبراطورية السلوقية أكبر إمبراطورية في العصر الهيللينستي، تضم بين أرجائها عدداً كبيراً من الولايات قُسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي ***آسية الصغرى، وسورية، وولايات شرق الفرات.*** ونتيجة لاتساع الإمبراطورية فقد ضمت بين ظهرانيها أعداداً غفيرة من السكان الذين تنوعت أجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم، مما انعكس في تنوع نظمهم، وتفاوت مستوى معيشتهم من الحياة الرغدة اللينة إلى حياة البؤس والفاقة، وتباين حضارتهم بين البدائية وأعلى درجة من التقدم، فشكلوا فيما بينهم تحت السيطرة المقدونية خليطاً عجيباً من المجتمعات والوحدات السياسية التي لا يربط بعضها ببعض إلا رابطة الخضوع لحاكم أجنبي في كل شيء، وكان لهذا التباين أكبر الأثر في دك صرح الدولة السلوقية رغم جميع محاولات أعظم عواهلها للحفاظ عليها.

أما مسألة تنوع القوميات في الإمبراطورية فكانت تتألف من ستة عناصر رئيسية:

١ - اليونان والمقدونيون.

٢ - السوريون.

٣ - البابليون.

٤ - الفرس (سكان الهضبة الإيرانية بصورة عامة).
٥ - الأهالي الوطنيون في آسية الصغرى.
٦ - اليهود.

يأتي ***اليونانيون والمقدونيون*** في قمة الهرم الاجتماعي، وقد وفدت أعدادٌ كبيرة منهم، واستقرت في مناطق آسية الصغرى وشمال سورية[١]. وكنتيجة حتمية لحاجة السلوقيين إلى اليونانيين والمقدونيين لدعم مركزهم وتنفيذ سياستهم بالخدمة في الجيش وفي مختلف أجهزة الحكم وبالعمل على النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية وبنشر الحضارة اليونانية في ربوع الإمبراطورية، اتبع السلوقيون بجميع الوسائل المشجعة لحثهم على الهجرة إلى الإمبراطورية السلوقية والاستيطان فيها. ***وكان هدف السلوقيين جراء هذه السياسة هو نشر الحضارة اليونانية وتحقيق سياسة الهلينة (HELLENIZATION) أولاً، ومحاولة إيجاد توازن بينها وبين حضارات الشرق العريقة ثانياً.*** وكانت أهم الوسائل توفير البيئة الملائمة لحياة هؤلاء المهاجرين بإنشاء المدن والمستعمرات، وهي السياسة التي ميزت السلوقيين عن غيرهم من حكام العصر الهيللينستي[٢]. وعلى غرار ما فعل البطالمة في مصر، فقد راح السلوقيون يغدقون الامتيازات على المهاجرين من اليونان والمقدونيين، فاختصوهم بالأراضي الخصبة، وأجروا عليهم الرواتب العالية، بعد أن وضعوهم في المراكز العليا في الإدارتين المدنية والعسكرية، واستبعاد السكان المحليين عن شغل الوظائف العليا[٣].

وقد أدى الاختلاط بين اليونانيين والعناصر الوطنية، إلى امتزاج هذين العنصرين في أغلب الأحيان من خلال حالات التزاوج التي لقيت ترحيباً كبيراً من الدولة، نظراً لروح التسامح التي اتسم بها مؤسس الدولة، ***سلوقس الأول***، الذي

---

(1) ***WALBANK***, OP CIT. P 139.

(٢) لم يقم البطالمة سوى مدينة واحدة، هي مدينة بطلمية، التي أقامها بطليموس الأول في صعيد مصر.

(3) ***WALBANK***, OP CIT, P 125.

كان متزوجاً من سيدة شرقية هي (*أباما*)، إلا أنه لا يمكننا القول بأن حالات التزاوج بين اليونانيين والشرقيين، شكلت ظاهرة عامة في السنوات الأولى للحكم السلوقي، ولكنها أخذت بالازدياد مع مرور الزمن.

وتشير القرائن والشواهد الأثرية إلى استيطان اليونانيين والمقدونيين في المدن الوطنية بما في ذلك القاصية منها، ولكن على شكل جالية (***POLITEUMA***). ولعل بابل تعتبر أبرز مثل لاستقرار جالية يونانية كبيرة في مدينة وطنية، إضافة إلى معظم المدن السورية القديمة مثل دمشق وحلب وحماة (*أبيفانية*).

ومن ناحية أخرى، فإن السكان الوطنيين بدورهم أقاموا في المدن اليونانية الجديدة مثل السوريين والبابليين والفرس. وفضلاً عن ذلك لم تخل بعض هذه المدن من عناصر أخرى مثل اليهود. ويبدو أن هؤلاء السكان غير اليونانيين كانوا ينتظمون أيضاً في جاليات قومية (***POLITEUMATA***) كان الغرض منها تحديد الوضع السياسي والإداري لأفراد هذه الجاليات الذين كانوا عادة لا يتمتعون بحقوق المواطنة في المدينة اليونانية التي يعيشون فيها.

ويأتي بعد اليونانيين والمقدونيين، الغالبية العظمى من سكان الإمبراطورية السلوقية، أي من السوريين والبابليين والفرس وسكان آسية الصغرى واليهود في فلسطين (***بعد أن خضعت للحكم السلوقي***). وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه العناصر، فإنه تطالعنا على الفور فوارق حادة من حيث العدد والمستوى الحضاري والظروف التاريخية والبيئة الطبيعية. ***ولا جدال في أن الفرس كانوا أكثر هذه العناصر عدداً وأرفعها حضارة. وكان البابليون وسكان الساحل السوري أصحاب حضارة عريقة أيضاً.*** ونتيجة لتباين البيئات الطبيعية والظروف التاريخية لم تختلف الأوضاع الاجتماعية من عنصر إلى عنصر آخر فحسب، بل اختلفت أيضاً في نطاق العنصر الواحد. فعلى سبيل المثال كان الفرس يشكلون أساساً مجتمعاً إقطاعياً، أما العنصر البابلي فكان مؤلفاً من مجتمعات مختلفة بعضها إقطاعي وبعضها الآخر كهنوتي وبعضها الثالث قبلي والرابع تجاري، وكذلك كان العنصر الوطني في سورية يضم مجتمعات تجارية وكهنوتية وقبلية.

ومما لاشك فيه، أن المجتمعات التجارية كانت أكثر انفتاحا من غيرها، بمعنى أنها أكثر تقبلاً للأفكار والعادات الأجنبية. ولكن مثل هذه المجتمعات التجارية الوطنية في الإمبراطورية السلوقية لم تشكل إلا أقليات صغيرة بالنسبة إلى باقي العناصر الوطنية، فالفينيقيون سكان الساحل السوري لم يكونوا إلا جزءاً من العنصر السوري الوطني. وإذا جاز التسليم بأن هذه المجتمعات قد تأثرت ببعض أساليب الحياة اليونانية فإنه لا يجوز عدلاً التسليم بأن هذه المجتمعات قد تخلت عن كل أساليب الحياة المتأصلة بين ظهرانيها منذ قديم الأزل.

وأما المجتمعات الإقطاعية والكهنوتية والقبلية فإنها كانت شديدة الحفاظ على عاداتها وتقاليدها وخاصة تلك الغالبية التي كانت تعيش في مدنها وقراها وكفورها الوطنية الخالية من السكان الأجانب. بيد أن هذا لا ينفي إقدام بعض عناصرها على اقتباس بعض مظاهر الحياة اليونانية لتحقيق بعض الفوائد.

أما العناصر الوطنية التي كانت تعيش في المدن اليونانية أو في المدن الوطنية التي استقرت فيها جاليات يونانية، فإنه لا يبعد أن تكون ظروف الحياة اليونانية وأنماطها وتقاليدها قد أثرت على بعض أفراد تلك العناصر، الذين كان تعلم اللغة اليونانية يتيح لهم فرص تولي الوظائف الحكومية. ولا شك أن تعلم اللغة اليونانية كان بداية لاصطباغ مثل هؤلاء الوطنيين بالصبغة اليونانية، وربما ساعد على ازدياد هذه الصبغة عاملان.

أحدهما: هو الاختلاط بينهم وبين اليونان في الأسواق والساحات العامة وغيرها.

ثانيهما: هو الاطلاع على مؤلفات أدباء اليونان ومسرحياتهم ونظام تفكيرهم وفلسفاتهم فيما خلّفه أمثال هوميروس وسوفوكليس وأفلاطون وأرسطو وغيرهم[٤].

أما اليهود فقد كانت رغبة الكثيرين منهم في الأخذ بالحضارة اليونانية تصطدم بالتعارض الحاد، ***ما بين العقيدة اليهودية، والديانة اليونانية ذات الطابع الوثني***. ونظراً لأهمية هذا الموضوع سنشير إليه بشيء من التفصيل.

---

(٤) انظر: **مفيد رائف العابد**، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٥.

كانت فلسطين في التقسيم الأول لإمبراطورية الإسكندر من نصيب بطليموس، ولكن السلوقيين لم يقبلوا قط هذا التقسيم لأنهم وجدوا أنفسهم بمقتضاه منفصلين عن البحر الأبيض المتوسط، ولأنهم كانوا يطمعون فيما قد يعود عليهم من ثراء بسبب التجارة المارة بدمشق وأورشليم. وانتصر بطليموس في الحروب التي ثارت بسبب هذا النزاع، واستولى على فلسطين وظلت خاضعة لسلطان البطالمة أكثر من مئة عام (٣١٨ - ١٩٨ ق.م)، كانت تؤدي خلالها جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف وزنة، وترك البطالمة لليهود في فلسطين قسماً كبيراً من الحكم الذاتي.

وكان أساس اليهودية هو الدين، كما كانت فكرة وجود الإله القادر، تسيطر على كل ناحية من نواحي الحياة اليهودية وكل لحظة من لحظاتها. وكان مجلس الكبار (***الجروسيا***) يفرض القوانين الأخلاقية والآداب الاجتماعية بجميع دقائقها ويشرف على تنفيذها إشرافاً تاماً. ***وكانت أسباب اللهو والتسلية والألعاب قليلة ومحدودة، وكان الزواج بغير اليهود محرّماً، وكذلك العزوبة وقتل الأطفال، ومن ثم كان اليهود يتوالدون كثيراً ويربون جميع أبنائهم، وظلوا طوال العصور القديمة يتكاثرون رغم الحروب والمجاعات حتى بلغ عددهم في الإمبراطورية الرومانية أيام قيصر سبعة ملايين،*** وكان معظم السكان قبل العهد المقدوني يعملون بالزراعة، لأن اليهود لم يكونوا قد أصبحوا بعدُ أمةً من التجار. وقد كتب عنهم **يوسيفوس** (***JOSEPHUS***) في ذلك العهد المتأخر، وهو القرن الأول الميلادي بقوله (***لسنا شعباً تجارياً***)، ***أما الشعوب التجارية العظيمة في ذلك القرن فهم الفينيقيون واليونان،*** ولم يكن للفنون عندهم شأن عدا الموسيقى، وكان، ***الناي، والطبل، والبوق، والقيثارة تُستخدم مصاحبة للصوت الواحد، أو للأغاني الشعبية أو التراتيم الدينية.*** وكان الدين اليهودي يعيب على الطقوس اليونانية استرسالها في الخضوع لخيال الشعب ويزدريها، ولهذا السبب لم تكن هناك صلة بينه وبين الصور والنبوءات، ومعرفة الغيب بالنظر في أحشاء الطير، وكان أقل تجسيداً وتخريفاً وبهرجة من دين الديانة اليونانية. وكان الربانيون اليهود يواجهون طقوس الشرك الهيللينية بإنشاء هذه النغمة التي لا تزال حتى اليوم في كل كنيس يهودي (***استمعي يا إسرائيل، الرب إلهنا، الرب الواحد***).

وأدخل اليونانيون في هذه الحياة البسيطة المتزمتة، كل ما في الحضارة اليونانية من أسباب اللهو والغواية. وقد كان يحيط باليهود حلقة كبيرة من المدن اليونانية، وكانت تقوم في كل واحدة من هذه المدن نظم ومؤسسات يونانية وهياكل للآلهة والإلهات اليونانية، ومدارس ومجامع علمية، وساحات للألعاب الرياضية. وأقبل على أورشليم من هذه المدن ومن الإسكندرية، وإنطاكية، وديلوس، ورودوس يونان ويهود يحملون العدوى الهيللينية، عدوى التبحر في العلم، والفلسفة، والفن، والأدب، والاستمتاع بالجمال واللذة، والغناء والرقص، والشراب والطعام، والألعاب الرياضية، والعشيقات والغلمان، فضلاً عن السفسطة المرحة. ولم يستطع الشبان اليهود مقاومة هذه المغريات، التي تدعو إلى الاستمتاع باللذة وإلى التحرر من آلاف القيود الضيقة الثقيلة، وبدؤوا يسخرون من الكهنة اليهود بأنهم حمقى ينحدرون إلى الشيخوخة من دون أن يعرفوا الملاذ والترف ومباهج الحياة.

إزاء هذه المغريات اليونانية، ***تشكلت مجموعة مضادة من أتقياء اليهود المتشددين، وألفوا هيئة من الصفوة المختارة أطلقوا عليها اسم (المتقين)***، وبدأت هذه الجماعة عملها حوالي عام ٣٠٠ ق.م، فحرموا جميع الملاذ والمغريات اليونانية وعدّوها استسلاماً للشيطان، وبرز من اليهود من يعارض في تزمت ***جماعة المتقين*** الشديد ويبحث لنفسه عن خطة وسطى بين التزمت والإباحية. وظل هذا الوضع على حاله حتى عام ١٩٨ ق.م، حين هزم أنطيوخس الثالث بطليموس الخامس وضم فلسطين إلى الإمبراطورية السلوقية. وبعد وفاة أنطيوخس الثالث خلفه أنطيوخس الرابع الذي رأى، ***أنه لكي يثبت قوته يجب عليه صبغ المدن والطوائف والشعوب التي تضمها مملكته بالصبغة اليونانية، علّها تفلح في ربط وصهر هذا الموزاييك في رابطة تتمكن في أوقات الشدة من مواجهة الخطر البارثي في الشرق والروماني في الغرب.*** وبدأ سلسلة من الإجراءات استهدفت هذه الغاية. ويبدو أن أنطيوخس قد نجح في تذليل هذه العقبات بالنسبة لمعظم طوائف مملكته، ***ولكن لم يحقق النجاح نفسه فيما يتعلق باليهود.*** وشكّل نزاع اليهود فيما بينهم ومع أنطيوخس الرابع من

جهة أخرى معلماً من أبرز معالم فترة حكم هذا الملك. وبعد عودة أنطيوخس من مصر، ***اعتقد أنه يمكن بقليل من الضغط العسكري إكراه اليهود المتعصبين على التخلي عن نواميسهم عن طريق القضاء على نفوذهم الديني والسياسي،*** ولاسيما أن هؤلاء كانوا يمالئون أسرة البطالمة بحكم المصالح المتبادلة. وبدأ العمل فأرسل في سنة ١٦٧ ق.م أحد قادته المدعو *أبولونيوس* (***APOLLONIOS***) وحمّله مجموعة من الأوامر الملكية، وطلب إليه تطبيقها بشدة وصلت إلى حد السماح له بإعدام المخالفين بنودها. فقام هذا القائد بإلغاء إقامة الطقوس الدينية اليهودية واستبدل بالإله يهوة (***YAHWA***) الإله زيوس الأولمبي في معبده بأورشليم، وأقام مذبحاً على النمط اليوناني فوق المذبح المقدس في فناء ذلك المعبد، وحرّم الختان واقتناء الأسفار المقدسة وأوجب أكل لحم الخنزير، وقرّبت بعض الجماعات اليهودية القرابين إلى الآلهة اليونانية، وافتتحت في أورشليم مدرسة للرياضة البدنية، واشترك شباب اليهود والكهنة أنفسهم وهم عراة في الألعاب الرياضية (٥).

وارتاعت كثرة الشعب اليهودي من هذه التطورات، وأحست أن دينها يكاد ينهار من أساسه، فانحازت إلى آراء (***المتقين***) وشاع في أورشليم أن أنطيوخس الرابع قد قُتل، واغتبط اليهود لهذا النبأ، وخلعوا الموظفين المعينين عليهم من قبله، ***وقتلوا زعماء الحزب الذي كان يدعو إلى الثقافة الهيللينية،*** وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكراً أو كفراً. ولكن الواقع أثبت العكس، وأن أنطيوخس الرابع لم يُقتل بل هُزم في مصر، وأيقن أن اليهود كانوا سبباً في هزيمته، وأنهم كانوا يأتمرون ليعيدوا بلادهم إلى البطالمة. فعاد إلى أورشليم وذبح آلافاً من اليهود رجالهم ونساؤهم، ودنّس الهيكل ونهبه، وصادر مذبحه الذهبي وآنيته وكنوزه وضمها إلى الخزائن الملكية، وأمر أن يثقف اليهود كلهم على الرغم منهم بالثقافة الهيللينية، وحرّم تقديس السبت والاحتفالات بالأعياد اليهودية، وحرّمت جميع مراسم الدين اليهودي، والزم

---

(5) ***ZEITLIN, S***: HISTORY OF THE SECOND JEWISH COMMONWEALTH 1933, P 18.

الأهلون بإتباع المراسم اليونانية، وعوقب من يخالف هذه الأوامر بالإعدام، وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يُسجن أو يُقتل، وأمر بحرق هذا الكتاب أينما وجد، وأشعلت النار في أورشليم نفسها، وهدمت أسوارها، وبيع سكانها اليهود في أسواق الرقيق.

وفي أواخر سنة ١٦٦ق.م، كان اليهود قد انقسموا بموجب الأوامر الجديدة إلى قسمين: ***قسم قبل مرغماً أم مقتنعاً بالانصراف عن شريعة آبائهم وأقام في بيت المقدس أو هرب إلى المدن اليونانية، وقسم آخر أقل عدداً رفض وهرب خارج بيت المقدس إلى الجبال ممنياً النفس بتكوين حركة معارضة تجبر الملك على إلغاء أوامره***، وكان أفراد هذا القسم يحتاجون في ذلك الوقت إلى زعيم يقود حركتهم المعارضة الذي تولى أمرها ***متاثياس*** (*MATTATHIAS*) وأبناؤه الخمسة ***يوهنان، كاديس، سيمون، بوداس، يوناثان.*** وعندما حاول مندوب الملك إقناع ***متاثياس*** على تنفيذ أوامر الملك، إلا أنه رفض مع أبنائه الخمسة وقال ***(لو أن جميع سكان المملكة أطاعوا أمركم بالمروق من دين آبائهم لبقيت أنا وأولادي الخمسة متمسكين بدين آبائنا الأولين)***. ولما أن اقترب أحد اليهود من المذبح ليقرِّب القربان المطلوب للآلهة اليونانية ذبحه متاثياس بيده وذبح أيضاً مندوب أنطيوخس الرابع، ثم نادى الشعب قائلاً ***(من كان يغار على الشريعة وأراد أن يؤيد العهد فليتبعني)***. فسار وراءه وأبنائه كثيرون من الناس حتى وصلوا إلى جبل (***أفرايم***)، حيث انضمت إليهم جماعة صغيرة من الشبان الثائرين ومن كان باقياً على قيد الحياة من (***المتقين***).

وبعد قليل من هذا الحادث توفي (***متاثياس***) بعد أن أوصي بأن يرأس أتباعه من بعده ابنه (***بوداس***) المعروف باسم مكابي (***MAKKABAEOS***) وتعني المطرقة. وكان (***بوداس***) رجل حرب، وكان جيشه الصغير يعيش في الجبال، وينقض من حين إلى حين على مذابح اليونانيين الوثنية. ووصلت هذه الأنباء إلى أنطيوخس الرابع الذي سيّر على بوداس جيشاً من السوريين واليونان وأمره أن يهدم الحصون التي أقامها ***المكابيون.*** ولكن بوداس انتصر عليهم انتصاراً كبيراً في ممر إماوس (***EMMAUS***) في وادي

عجلون في عام ١٦٦ق.م، على الرغم من أن اليونانيين كانوا من الجنود المرتزقة المدربين أحسن تدريب وتسليح، بينما كانت فرقة بوداس يعوزها الكثير من السلاح والتدريب. وسيّر أنطيوخس عليهم قوة أخرى أكبر من القوة السابقة بلغ من ثقة قائدها بالنصر أن جاء معه عددٌ من تجار الرقيق لشراء الأسرى من اليهود. وهزم بوداس هذا الجيش مرة أخرى، وكانت الهزيمة ساحقة سقطت على أثرها أورشليم في قبضته دون مقاومة، فلما دخلها قام بتطهير كل ما في الهياكل اليهودية من مذابح وزينات وثنية يونانية ودشنها من جديد، وأعاد الصلوات القديمة إلى سابق عهدها وسط مظاهر الابتهاج من اليهود العائدين المتشددين بالدين.

وعندما تقدم ليسياس (***LYSIAS***) نائب الملك بجيش جديد لاسترداد العاصمة، شاع بين الجند أن أنطيوخس الرابع قد مات، وكانت هذه الشائعة صادقة في هذه المرة، وأصبحت الحرية مطلقة فيما يتصرفه ليسياس فاستجاب لطلب الثائرين، وعرض على اليهود أن يترك لهم حريتهم الدينية الكاملة إذا ما ألقوا السلاح، وأمر بوقف اضطهاد المحافظين من اليهود والسماح لهم بممارسة شرائعهم والعيش في بيت المقدس جنباً إلى جنب مع المشايعين لأفكار الحضارة اليونانية، وإعادة هيكل المدينة إلى (***يهوة***). وبناء على ذلك عاد المكابيون إلى بيت المقدس، وأعادوا تكريس الهيكل ***ليهوة*** في احتفالات دامت ثمانية أيام ابتدأت في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٦٤ ق.م، ولا يزال اليهود حتى يومنا هذا يحتفلون بهذا العيد في التاريخ نفسه تحت اسم عيد (***حانوكا***) عيد الأنوار[٦].

ثانياً: طبقات السكان:

انقسمت طبقات اليونانيين والمقدونيين إلى ثلاث طبقات ***العليا، والوسطى، والدنيا***.
وكانت ***الطبقة العليا*** تتألف من فئتين: ***إحداهما حكومية والأخرى غير حكومية***.

---

(٦) انظر: ***ول ديورانت، قصة الحضارة***، الجزء الثاني من المجلد الثاني، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٥٣، ص ٥١ ـ ٥٩ ثم انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

وكانت ***الفئة الأولى*** تتألف من كبار مساعدي الملك أي كبار موظفي القصر من المدنيين والعسكريين، وكان لكل فرد من هذه الطبقة قصر تضمن عدداً من التابعين والخدم. وكان معظم أفراد هذه الطبقة أوسع الناس نفوذاً وأكثرهم ثراء بفضل ما أسنده إليهم صاحب العرش من مناصب وما أفاءه عليهم من خيرات كالوزير الأكبر (**هرمياس**) في حكومة أنطيوخس الثالث الذي كان غنياً إلى حد أنه أعطى الجنود مرتباتهم عندما عجز الملك عن دفعها، وسكرتير أنطيوخس الرابع (**ديونوسيوس**) الذي أرسل إلى أعياد (***دفنة***) ألفاً من رقيقه يحمل كل واحد منهم طبقاً من الذهب يساوي ألف دراخمة أو أكثر.

أما ***الفئة غير الحكومية*** من هذه الطبقة، فكانت تتألف من كبار التجار في المدن التجارية الكبرى مثل بابل وسلوقية دجلة وإنطاكية. ومن الجائز أن هذه الطبقة كانت تضم كذلك أقطاب الصناعة.

وكانت ***الطبقة الوسطى*** تتألف من أربع فئات ثلاث منها حكومية والرابعة غير ذلك، ***وكان أهم هذه الفئات*** جميعاً هي فئة صغار ضباط الجيش الذين تمركزوا في عواصم الإمبراطورية مثل إنطاكية وأبامية أو في المستعمرات العسكرية مثل دورا يوروبوس. وكانت ***الفئة الثانية*** تتألف من كبار صغار الموظفين (الإداريين والجباة) الذين انتشروا في أرجاء الإمبراطورية، وكانت ***الفئة الثالثة*** تتألف من المستوطنين العسكريين من مقدونيين ويونان الذين أصبحوا بفضل إقطاعاتهم التي مُنحوها في عداد الطبقة الوسطى.

أما ***الفئة الرابعة*** غير الحكومية فكانت تتألف من أولئك الذين وفدوا من مقدونية ومن مدن شتى في بلاد اليونان على مدن الإمبراطورية السلوقية القديمة والحديثة، وشكلوا نواة البورجوازية الحديثة وهم الفلاسفة، والعلماء، والمدرسون، والأطباء، والمحامون، والفنانون، ومتوسطو الحال من الصنّاع والتجار.

أما ***الطبقة الدنيا*** فهم أولئك الذين كانوا يعملون جنباً إلى جنب مع الفلاحين في مزارع كبار المقطعين أو في دور الصناعة في المدن.

أما ***طبقات الأهالي الوطنيين*** فكانت الطبقة العليا فيها تتوقف على نوع مجتمع أو مجتمعات أي عنصر من العناصر الوطنية في الإمبراطورية السلوقية. ذلك أن ***الطبقة العليا*** كانت تتألف من كبار أرباب الأراضي في المجتمع الإقطاعي، ومن كبار الكهنة في المجتمع الكهنوتي، ومن أوسع التجار ثراء في المجتمع التجاري، ومن رؤساء العشائر في المجتمع القبلي.

وكان في كل مجتمع من هذه المجتمعات طبقة صغيرة تتألف من ***متوسطي الدخل*** الذين كانوا يتكسبون رزقهم من ممارسة الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو العمل الحكومي.

وتأتي في المؤخرة ***الطبقة الكادحة*** التي كانت أكثر الطبقات عدداً وأقلها حظاً من متاع الدنيا، وكان الأهالي الوطنيون الذين يعملون بالزراعة يشكلون الغالبية العظمة من أفراد الطبقة الدنيا. وكان فريق من هذه الطبقة يتكسب قوته من العمل في دور الصناعة، وفريق آخر من العمل في التجارة ولكن في أضيق نطاق.

ثالثاً: رعايا الإمبراطورية السلوقية وديانتهم:

كان رعايا الإمبراطورية السلوقية يتألفون من ***الفرس والبابليين والسوريين (بما فيهم الفينيقيون)*** وبعض ***اليهود ويونان آسية الصغرى وأهلها الوطنيين***. ومنذ فتح الإسكندر وقيام الإمبراطورية السلوقية وفدت على آسية واستقرت فيها أفواج كثيرة من ***المقدونيين واليونان***. وقد أحضر هؤلاء معهم معتقداتهم الدينية وآلهتهم شأنهم شأن أقرانهم الذين وفدوا على مصر واستقروا في دولة البطالمة.

أما الغالبية العظمى من رعايا الإمبراطورية السلوقية فكانت تتألف من ***الأهالي الوطنيين*** الذين كانت لكل منهم معتقداته الدينية الراسخة. وقد بنى السلوقيون سياستهم الدينية على أساس قويم هو إطلاق حرية رعاياهم الدينية. وتنهض الأدلة متتابعة على أن السلوقيين دعموا هذه السياسة السمحة بإظهار إجلالهم واحترامهم لأبرز آلهة رعاياهم الشرقيين مثل الفرس والسوريين والبابليين وغيرهم من العناصر الوطنية الذين استمسكوا بعبادتهم طوال العصر السلوقي. أما المقدونيون واليونان فقد

وفر لهم السلوقيون الأسباب التي تمكنهم من متابعة أساليب حياتهم حيث استمروا يتعبدون إلى آلهتهم ويقيمون شعائر عباداتهم التي كانت رمز حضارتهم.

وأبرز سلوقس في أثناء حياته اهتماماً واضحاً بأهم الآلهة الشرقية مثل **(بعل)** و(**حدد**) و (***أتارجاتيس***) بصورة خاصة، وآلهة السماء والعاصفة وارعد بصورة عامة. ذلك أنه أعاد باسم زوجه (***استراتونيكي***) بناء معبد (***أتارجاتيس***) في ***منبج (هيرابوليس بامبيكي)***، ولم تلبث هذه الآلهة أن استعادت شهرتها ومضت قدماً فطغت مكانتها على المكانة التي كان يحتلها زوجها الإله **حدد**، بل انتشرت عبادتها بين اليونان. وأسهم سلوقس كذلك في تشييد وأصلاح عدد من المعابد الكلدانية في بابل وأوروك، وقدّم بعض الهدايا على شرف الإله أوزيريس في معبده بمدينة ملطية.

وقد حاول السلوقيون في فترة متأخرة من تاريخهم تقليد البطالمة في عبادة سرابيس (***SARAPIS***) وتوحيد الاهتمامات الدينية لدى شعوبهم، ***وذلك بتقديم إله واحد يجمع بين زيوس (كبير آلهة اليونان) وأهورا مزدا (إله النور الفارسي) وبعل (كبير الآلهة السورية) لكنهم فشلوا في ذلك.*** ويبدو مرد الفشل إلى تعدد أنشطة أنطيوخس الرابع أثناء حياته، وكان أبرز الملوك الذين استشعروا الحاجة إلى توحيد الاهتمامات الدينية، وكذلك تباعد مراكز الإمبراطورية، وقلة عدد المؤمنين الداعين بحماس إلى الديانة الجديدة الموحدة.

المبحث الثامن

الحياة الاقتصادية

إزاء اتساع الإمبراطورية السلوقية وتعدد أصقاعها مع تباين مقوّماتها، وإزاء قلة المعلومات التي نستمدها من المصادر عن الحياة الاقتصادية في الإمبراطورية سواء إبّان عهد سلوقس وخلفائه أم إبّان العهد الفارسي، يتعذر علينا إعطاء صورة كاملة لهذه الحياة، بل إنه ليتعذر علينا تصوير ملامحها الرئيسية دون الاستعانة ببعض ما وضح من الأوضاع الاقتصادية قبل الفترة السلوقية وبعدها، وفي حالات أخرى بما وضح من صور الحياة الاقتصادية في مصر البطلمية المعاصرة لها.

أولاً: الزراعة:

تقدمت الزراعة في العصر الهيللينستي تقدماً كبيراً، بفضل الطفرة التي تحققت في مجال المعلومات الزراعية بعد فتوحات الإسكندر الذي أولى اهتماماً كبيراً للزراعة. ويذكر ***استرابون***، أن الإسكندر عمل على تحسين شبكة الري في إقليم بابل[1]. وبنتيجة فتوحات الإسكندر الأكبر وما أعقب ذلك من قيام عدة دول متنافسة على أنقاض إمبراطوريته، ومن استقرار أعداد كبيرة من اليونان في هذه الدول، ازداد الناس علماً بأنواع جديدة من النبات والعشب والأساليب الزراعية، وتتجاوب أصداء هذه المعارف في مؤلفات (***ثيوفراستوس***) واضع أساس علم النبات[2].

---

(١) انظر: ***استرابون*** ١٦، ١٩٩.

(٢) (***THEOPHRASTOS***) (٣٧٢ ـ ٢٨٨ ق.م) من جزيرة لسبوس من البحر الإيجي قدم إلى أثينة وأصبح من أشهر تلاميذ أرسطو وخليفته في إدارة مدرسته، ألف عدداً من الكتب أشهرها (***حول النبات***) (***الشخصيات***) (***من ما بعد الطبيعة***) ومؤلفات صغرى في التعدين والفيزياء والمناخ ضاع معظمها.

وقد اقتفى السلوقيون خطوات الإسكندر في هذا المجال، ومما هو جدير بالذكر أن مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية آلت إلى السلوقيين، وهي التي كانت في حوزة ملوك الفرس وأثريائهم نتيجة لحاجتهم المتزايدة إلى الأموال اللازمة لبناء قواتهم، وإنشاء المدن والمستعمرات الجديدة، وقد جرى إعادة توزيع هذه الأراضي على الأفراد أو الجماعات، وكذلك المدن والمستعمرات التي أقامها السلوقيون، ومعابد الآلهة. كما حصل أفراد العائلة المالكة ورجال الحاشية، والمقربون من الملك على مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية[٣]. وقد انقسمت هذه الأراضي عند السلوقيين إلى ثلاث فئات:

١ - ***الأراضي الملكية.***

٢ - ***أراضي المعابد.***

٣ - ***أراضي المدن***[٤].

١ - الأراضي الملكية والمعابد والمدن:

بموجب حق الفتح والغلبة، اعتبر السلوقيون نظرياً جميع أراضي الإمبراطورية ملكاً لهم بما في ذلك أرض المدن والمعابد. ولما لم يكن ميسوراً سواء من الناحية العملية أم من الناحية السياسية احتفاظ هؤلاء الملوك بأراضي الإمبراطورية جميعاً والقيام باستثمارها مباشرة فإنهم منحوا جانباً كبيراً من هذه الأراضي إلى غيرهم. ***ففي بعض الأحيان كان الملك يتنازل عن مساحات من الأراضي الزراعية، لكي تكون بمنزلة ضياع كبيرة لبعض الأفراد من الأسرة المالكة والنبلاء والقادة العسكريين من المقدونيين واليونان وكذلك الفرس.*** ويرجح أنهم منحوا إقطاعات كبيرة في أقصى الشرق ضماناً لولاء أعداد كبيرة من نبلاء الفرس وسراتها. وكان صاحب الضيعة يقوم بدفع التزاماته تجاه الدولة إلى موظف مختص[٥].

---

(3) ***ROSTVTZEFF***, OP CIT,P: 465.

(٤) ***تارن، وو: الإسكندر الأكبر***، قصته وتاريخه، ترجمة زكي علي، مراجعة محمد سليم سالم، القاهرة ١٩٦٣ م، ص ١٤٧.

(5) ***ROSTVTZEFF***, OP CIT, P 496.

وكذلك درج السلوقيون على منح بعض أراضي الإمبراطورية على ***شكل هبات للمقطعين العسكريين في بعض مراكز الحدود وفي المستعمرات الجديدة التي أنشؤوها، لقاء تعهد المنتفعين بالخدمة في الجيش كلما دعت الحاجة.***

أما بالنسبة لأراضي المدن، فقد حرص السلوقيون على تقليم أظافر بعض المدن بعدم السماح لها بأن تستبقي من أراضيها إلا ما يكفي لسد حاجتها، وفي الوقت نفسه سمحوا لبعض المدن بالاحتفاظ بأراضيها لأنها رحبت بهم حكاماً جدداً أو على الأقل لم تقاومهم في فترة تأسيس الإمبراطورية.

أما فيما يتعلق بأراضي المعابد، فإننا لا نملك معلومات وافرة عن طبيعة العلاقة بين الدولة والمعابد من الناحية المالية. ولكن تجدر الإشارة إلى أن مساحات الأراضي التي كانت تُمنح للمعابد، أخذت في الزيادة مع ازدياد ضعف السلطة المركزية في الإمبراطورية السلوقية، وهو أمر يشبه إلى حد كبير ما حدث في مصر البطلمية(٦).

٢ - *أنواع المزروعات:*

كان ***القمح*** أهم أنواع الحبوب التي كانت تنتجها الإمبراطورية على الإطلاق، وشاركت في زراعته معظم المناطق الخصبة في الإمبراطورية ومن أشهرها ***ميدية وسورية*** اللتان كانتا تنتجان أجود أنواعه. وكان القمح السوري يصدر إلى مصر لتحسين صنف قمحها كما ورد في بعض البرديات. وتؤكد المصادر شهرة ***بابل وسوسيانا وباكترية*** بزراعة ***الأرز*** منذ عهد الإسكندر، ولكن إنتاجه كان أقل من المطلوب مما أدى إلى ارتفاع سعره وبالتالي إلى حصر تناوله بطبقة معينة من أفراد المجتمع.

ويحدثنا ***استرابون*** بأن اليونان والمقدونيين هم الذين أدخلوا غرس الكروم إلى ***سوسيانا وبابل***، بناء على محبتهم الفائقة للنبيذ، وهم الذين عملوا على إدخال أنواع جديدة منها في المنطقة الواقعة شرقي الفرات حتى أواسط الهند، مثلما عملوا على أقلمة بعض أنواع من المزروعات الأوروبية في مستوطناتهم الجديدة.

---

(6) WALBANK, OP CIT. P 130.

وبناء على المعطيات الأثرية كانت زراعة الزيتون من أعرق وأهم الزراعات في الأقاليم الغربية للإمبراطورية السلوقية، وهي التي تضمنت آسية الصغرى وسورية بمفهومها الواسع. وكان زيت الزيتون السوري يعتبر من أجود أصناف الزيت قاطبة.

ولا شك أيضاً، أن إمبراطورية ماثلت قارة بحجمها، وتنوع مقوّمات أراضيها ومناخها، قد تضمنت ثروة من الأشجار الزراعية يصعب علينا حصرها، ولعل أهمها أشجار ***الفستق والتين والرمان والتفاح والكمثرى والجوز والنخيل***. وكانت معظم هذه الأشجار تتطلب مناخاً خاصاً يتوافر في سورية وآسية الصغرى أكثر منه في مناطق الإمبراطورية الأخرى.

وعرفت بعض مناطق الإمبراطورية الغابات ذات الأشجار التي تصلح أخشابها لبناء السفن، مثل بعض مناطق آسية الصغرى وسواحل سورية، وقام بعض الملوك الأوائل مثل سلوقس الأول إلى إحضار شتلات من النباتات التي تنمو في الهند وبلاد العرب وزراعتها في الأراضي التي تصلح لزراعتها، وخاصة النباتات العطرية التي كان يكثر الطلب عليها من قبل المعابد والأثرياء(٧).

ثانياً: الصناعة:

كانت أهم الصناعات في الإمبراطورية السلوقية صناعة ***الزجاج والحرير والأصباغ*** في فينيقية بمفهومها الواسع (أي الساحل السوري بمجموعه)، وصناعة ***السفن*** في فينيقية والخليج العربي، وصناعة ***التعدين*** واستغلال ***المناجم*** في عيلام أو بعض مناطق آسية الصغرى، وصناعة ***العجلات الحربية وأدوات القتال*** في المراكز الرئيسية في الإمبراطورية، وأخيراً صناعة ***النسيج والأحذية والأثاث والأواني والحلي*** في كل مكان من الإمبراطورية تقريباً.

ممّا لا شك فيه أن الحروب شبه المتصلة في الفترة الهيللينستية، قد أدت إلى تطور ملحوظ ونشاط كبير في الصناعات التي كانت تستلزمها فنون القتال، كالسفن ومختلف أنواع الأسلحة ولوازم الحرب. وأن نشاط مثل هذه الصناعة استتبع نشاطاً

---

(٧) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

مماثلاً في صناعة التعدين التي لا نعلم عن مراكزها شيئاً كثيراً باستثناء بعض الصناعات الذهبية والفضية التي اشتهرت بها مدينة إنطاكية، إذ يذكر ***بوليبيوس***، أن أنطيوخس الرابع الذي عُرف بمخالفته لقواعد البروتوكول، كان يحلو له الهرب من القصر في بعض الأحيان، لكي يذهب إلى مسابك الذهب والفضة ويناقش العمال في شؤون العمل[٨].

وقد كانت ***صناعة النبيذ*** من أهم الصناعات القديمة المنتشرة في مدن آسية الصغرى وجزر بحر إيجة مثل كوزيكوس (***KYZIKOS***) وخيوس وتاسوس وديلوس وكوس ورودوس. بيد أن أجود أنواع النبيذ في الإمبراطورية السلوقية قاطبة كانت من إنتاج لاوداكية (***اللاذقية حالياً***) منشأة سلوقس الجديدة على الساحل السوري. ويبدو أن ***نبيذ لاوداكية*** كان مطلوباً أكثر من غيره للاستهلاك في الإسكندرية، كما يبدو أن نوعية العنب واستخراج النبيذ منه كانا سبب إقبال سكان أهم عواصم العالم المتحضر آنذاك على نبيذ لاوداكية.

وقد ترتب على انتشار غرس أشجار الزيتون في الإمبراطورية السلوقية محصول وفير من الزيتون اشتهر بجودة صنفه، وكان طبيعياً أن يتمخض عن ذلك قيام صناعة نشيطة في إنتاج الزيت من صنف جيد صادف رواجاً ملموساً في أسواق العالم الهيللينستي وهي ***الإسكندرية***.

وكان طبيعياً أن يفضي ازدهار ***صناعتي النبيذ والزيت*** إلى ازدهار صناعة ثالثة وهي ***الآنية الفخارية*** لتعبئتها، ونجحت بعض المدن السلوقية في أن تحتل مكانة بارزة في إنتاج تلك الأواني.

كما عرفت الإمبراطورية السلوقية ***صناعة النسيج*** بأشكاله المختلفة، وكانت مدينة طرسوس من أهم مراكز هذه الصناعة[٩]. واشتهرت مدينة ***لاوداكية*** أيضاً

---

(٨) انظر: ***بوليبيوس*** ٣٦، ١، ٢.

(9) ***WALBANK***, OP CIT, P 162.

بصناعة ***الثياب المطرزة بالذهب***، وذاعت شهرة فينيقية في مجال ***الصباغة***، وكانت تقوم بتصدير الثياب الأرجوانية إلى جميع الأقطار[١٠].

ثالثاً: التجــارة:

إزاء حاجة كل مراكز العالم المتحضر في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى منتجات الشرق الأقصى الهند، اكتسبت التجارة الشرقية منذ أمد بعيد أهمية كبيرة. وإزاء ازدياد الثروة لدى دول البحر المتوسط، وما صاحب ذلك من ازدياد الإقبال على سلع الترف خلال العصر الهيللينستي، ازدادت أهمية التجارة الشرقية ازدياداً كبيراً في تلك الفترة أسهمت فيها عدة عوامل عامة وخاصة.

وقد أسهم انتعاش التجارة ذلك التحول الهام من ***الاقتصاد العيني إلى الاقتصاد النقدي***، وهو التحول الذي أدى إليه فتح الإسكندر للشرق والاستيلاء على كنوز الفرس بما في ذلك أكداس نقودهم الذهبية والفضية، وقد عمل الملوك السلوقيون على تنشيط هذا التحول، وأدَّت المدن السلوقية في غرب سورية ومنطقة بابل دوراً كبيراً في تطويره. إضافة إلى الموقع المتميز الذي كانت تحتله الإمبراطورية السلوقية في قلب العالم القديم، إذ كانت هذه الإمبراطورية مؤهلة بحكم موقعها لأن تؤدي دور الوسيط التجاري، وقد حرص الملوك على تنشيط هذا الدور، وخاصة مع الهند التي كانت المصدر الرئيس للتجارة الشرقية في عهد الملك تشاندرا جوبتا. ذلك أن سلوقس، بعد أن عقد معاهدة الصداقة معه أنفذ إلى بلاط هذا الملك سفيره مجاسثنس (***MEGASTHENES***) ويرجع إلى هذا السفير الفضل في حصول السلوقيين على معلومات صحيحة عن الهند. وتابع هذه العلاقات بعد موت تشاندرا جوبتا عددٌ من الملوك الأوائل وأشهرهم أنطيوخس الأول.

وقد وضع السلوقيون نصب أعينهم هدفين رئيسين:

---

(١٠) انظر: ***سيد الناصري***، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

أولهما هو اجتذاب التجارة الوافدة من الهند ووسط آسية وبلاد العرب لكي تمر بالمناطق الخاضعة لهم بدلاً من مرورها بمصر.

ثانيهما : إيجاد أسواق في الغرب والشمال تكون قادرة على استيعاب البضائع الوافدة من الشرق، بالإضافة إلى منتجات الإمبراطورية السلوقية. وقد نجحوا في توطيد علاقتهم مع جزيرة رودوس في بحر إيجة، التي تمكنت من التحرر من هيمنة البطالمة على تجارتها، وأصبحت تستقبل السفن السلوقية بنفس الحرية التي تتعامل بها مع سفن البطالمة(١١).

اهتم السلوقيون اهتماماً كبيراً ***بالطرق التجارية***، فأخذوا في إنشاء المدن والمحطات التجارية، لكي يتمكنوا من إحكام سيطرتهم على هذه الطرق. ولعل من أشهر تلك الطرق، ذلك الطريق الذي يربط ما بين الهند وبابل، وينتهي في مدينة سلوقية على نهر دجلة التي أدَّت دوراً مهماً في استقبال البضائع الوافدة من الهند واحتلت دور بابل القديم في هذا المجال.

ولما كان عرب الجرها (***GERRHA***) في شرق الجزيرة العربية، وهي دولة صغيرة من حيث الحجم وقلة عدد السكان، قد نجحوا في إحكام سيطرتهم على تجارة الهند الآتية عبر الخليج العربي، وامتدت علاقاتهم التجارية إلى جنوب الجزيرة العربية والهند وإلى بابل وبلاط الأنباط وجنوب سورية، فقد حرص السلوقيون على إخضاع مدينة الجرها لنفوذهم، من خلال وجود أسطول دائم في الخليج العربي ، مما يمكنهم في التجارة الشرقية التي تصب في الجرها(١٢).

ومن ناحية أخرى، اقتفى السلوقيون خطوات الإسكندر الأكبر، في الاهتمام بإرسال البعثات الكشفية، فقد أرسل سلوقس الأول بعثة لاستكشاف شواطئ بحر

---

(11) ROSTVTZEFF, OP CIT, P 162.

(١٢) عن أهمية ***الجرها التجارية*** انظر: ***محمد السيد عبد الغني، شبه الجزيرة العربية القديمة ومصر والتجارة الشرقية القديمة،*** الإسكندرية ١٩٩٩ م، ص ٩٣ ـ ١٢٣.

قزوين. وقد حفزت التقارير التي قدمتها البعثة سلوقس على التفكير في شق قناة بين بحر قزوين والبحر الأسود، ولكن موته المفاجئ وضياع آسية الصغرى من أيدي خلفائه، حالا دون تطبيق هذا المشروع الذي كان يهدف إلى إنعاش طريق التجارة الشمالي. وكان هدف الملك السلوقي من وراء التفكير في شق هذه القناة، هو خدمة التجارة ما بين آسية وأوروبة[١٣].

أما فيما يتعلق بالتجارة الداخلية، فعلى الرغم من أن استخدام النقود التي سكها السلوقيون، قد أدى إلى سهولة تبادل السلع بين أقاليم الإمبراطورية، إلا أنه من الصعب أن نقول بوجود تجارة داخلية نشيطة. ويرجع السبب في ذلك إلى وجود ما يشبه الاكتفاء الذاتي داخل كل إقليم على حدة، ومن ثم فليست هناك حاجة إلى تبادل السلع مع الأقاليم الأخرى.

---

(١٣) عن جهود السلوقيين الكشفية انظر: أبو اليسر فرح، حملات الإسكندر وتطور المعلومات الجغرافية عند الإغريق، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد ٢٧، الجزء الثاني ١٩٩٩م، ص ٥٩.

البحـث التـاسـع

النظـم الماليـة

أولاً: التنظيمات والسياسة المالية:

لم تساعدنا المصادر في رسم صورة واضحة المعالم عن النظم المالية والاقتصادية في الإمبراطورية السلوقية بنفس الدرجة التي نعرفها عن نظم البطالمة في مصر. وإذا تمكنا من معرفة أدق التفاصيل عن مصر تحت حكم البطالمة، فالفضل في ذلك يعود إلى الكم الكبير من أوراق البردي التي جادت بها تربة النيل، والتي ساعدتنا في معرفة المزيد من أوجه الحياة في مصر في هذا العصر.

أما فيما يتعلق بالإمبراطورية السلوقية، فإن الأمر مختلف جداً، فنحن نفتقر إلى مثل هذا المصدر الرائع الذي أجادت به تربة مصر. لذا فإن المتتبع لتاريخ النظم في الإمبراطورية السلوقية، من الصعب جداً أن يحصل على ما يريد من الوثائق في هذا المجال نظراً لاتساع الإمبراطورية السلوقية، وتباين النظم التي طبقت في أنحائها.

ومن ناحية أخرى، فأن الظروف السياسية والجبهات الكثيرة التي كان على السلوقيين أن يحاربوا فيها استنزفت قواهم، وحالت بينهم وبين اهتمامهم بالنواحي التنظيمية. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكننا أن نتصور أن هؤلاء الملوك قد أخلدوا إلى السكينة بعد خوض حروبهم، وأنهم لم يقدموا على وضع أسس جديدة للإدارة المالية في إمبراطوريتهم أو على أقل تقدير، تطوير الأسس القديمة لهذه الإدارة في الأقاليم الرئيسية الثلاث (***سورية وبابل وآسية الصغرى***) والتي كان لكل منها مقوّمات اقتصادية تختلف وتتشابه.

وإذا كان من المؤسف إننا لا نستطيع تبيان خطوات كل ملك سوري في تلك الفترة بسبب العوامل التي ذكرناها سابقاً، فإننا على الأقل نستطيع أن نعرض عموميات النظام بشكل عام.

كانت الإدارة المالية في سورية السلوقية تسمى ***توباسيليكون*** (***TOBASILIKON***) وتعني (***الملكية***) باليونانية[1]. في حين احتفظت الخزانة الملكية بالاسم الفارسي ***جازوفولاكيون*** (***GAZOPHOLAKION***) ومعناه خزانة الدولة. وقد اختلفت التنظيمات في مصر عنها في سورية تحديداً في أن فروع المصرف الملكي في مصر كانت تنتشر في جميع مراكز المملكة الإدارية، في حين اقتصر وجود بيوت المال في سورية على بعض القلاع الحصينة. وهذا ما تؤكده حادثتان ***أولاهما***: أنه في سنة ٢٤٦ ق.م، أرسل سلوقس الثاني رسالة إلى مسؤول بيت المال في قلعة سولوي (***SOLOI***) في كيليكية يأمره فيها بتسلم مبلغ (١٥٠٠) تالانت = وزنة، وهو ثمن أرض باعها الملك. ***وثانيهما***: ما يذكره المؤرخ **بلينيوس** من أن حصيلة الجزية التي جمعت من أقليم بكامله أودعت في قلعة كافرينا (***KAPHRENA***) على نهر الفرات[2]. ويبدو أن الفوارق في نظم الحسابات بين سورية السلوقية ومصر البطلمية تعود في المقام الأول إلى التباين الواضح ما بين طبيعة مصر التي اعتادت على الإدارة المركزية طوال تاريخها، والإمبراطورية السلوقية التي يصعب تطبيق المركزية عليها[3].

يأتي الملك على قمة الإدارة المالية كنظيره البطلمي في مصر، فهو مالك البلاد ومصدر جميع السلطات فيها، وينوب عنه في رئاسة هذه الإدارة موظف يدعى هوايبي تون بروسودون (***HOEPI TON PROSODON***) الذي يرأس بدوره سلسلة من الموظفين الذين يمثلونه في الأقاليم ويحملون في بعض الحالات اللقب نفسه. وإلى جانب نائب الملك للشؤون المالية هذا، عملت مجموعة من المساعدين حمل كل واحد من أفرادها لقباً حمله وزير المالية البطلمي وهو ديويكيتيس (***DIOIKITIS***)

---

(١) انظر: ***ي. بيكرمان***، ص ١٠٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ١٧٩.

وكـذلك كـان يوجـد في الأقـاليم موظفـون حمـل كـل مـنهم لقـب الأيكونومـوس (*EKONOMOS*) أي (***الاقتصادي***)[٤]. وإذا كانـت أوراق الـبردي قـد جـادت علينـا بمعلومـات مفـصلة عـن الـدور البـارز الـذي مارسـه هـذا الموظـف في الإدارة الماليـة البطلمية[٥]، فإن وثائق الإمبراطورية السلوقية قد ضنت علينا بمثل هذه المعلومات، ومن ثم فإننا لا نملك معلومات كافية عن المهام التي أوكلت إلى الأيكونوموس في الإدارة المالية السلوقية.

وتنقسم الإدارة في الإمبراطورية السلوقية مثلها في ذلك مثل أية إمبراطوريـة مـن إمبراطوريات العالم القديم إلى قسمين:

أولها الموارد النظامية.

ثانيها: الموارد الاستثنائية.

ثانياً: الموارد النظامية للإدارة المالية:

الموارد النظامية هي التي كان يمكن للإدارة المالية تقديرها في حالة السلم وتبيان بنودهـا وكمياتهـا بـشكل أقـرب مـا يكـون إلى الدقـة. ولكـن قبـل أن ننتقـل إلى دراسـة الموارد النظاميـة للإمبراطوريـة الـسلوقية، ينبغـي الإشـارة إلى أن هـذه المـوارد ووسـائل تحصيلها كانت تختلف من مقاطعة لأخرى. ولـذلك فـإن المعلومـات الـتي سنعرضـها ونلاحظ تبعثرها بين عدد من المصادر قد لا تشكل بالـضرورة قيمـة في غير الإقليم أو المدينة التي يخصها الحديث.

آ - الفوروس (*PHOROS*):

يـأتي ***الفـوروس*** في مقدمـة أهـم الرسـوم الماليـة الـتي تعتمـد عليهـا ميزانيـة الإمبراطورية، إذ تعتبر المساهمة الأولى التي كانت الوحدات السياسية المرتبطة بالملك

---

(٤) انظر: ***ي. بيكرمان***، ص ١١٠.

(٥) تعد وثيقـة الـدخل الـتي يرجـع تاريخهـا إلى عهـد بطليمـوس الثـاني أهـم المـصادر. فقـد وافتنـا بمعلومات وافية عن هذا الموظف. انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ١٠٨.

تقدمها له، ويعود فرضه تاريخياً إلى عهد دارا الأول واستمر حتى الفترة الرومانية. وكان الملك ديمتريوس الأول هو أول من أقدم على تطبيق هذا النظام واستمر دون أي تغييرات على امتداد العصر السلوقي كله[٦]. وكانت الإدارة المالية السلوقية تتبع في جباية الضرائب الأساسية قاعدتين رئيستين:

أولاهما: أن دافع هذه الضرائب ليس الفرد بل الجماعات في المدن والأقاليم والقبائل. لقد كان السلوقيون يجبون ***(الفوروس)*** من المدن اليونانية ومن السلالات الحاكمة في آسية الصغرى، وكذلك على الشعوب والمدن اليهودية والسامرية في فلسطين التي طُبعت بالطابع الهلليني

ثانيهما: أن الجزية المفروضة على مدينة أو إقليم أو قبيلة كانت توزع على البلديات أو الأقسام الرئيسية في تقسيمات الكتلة الكبرى بحسب الحصة المتفق عليها مسبقاً، والتي لم يكن يطرأ عليها أي تعديل لمدة غير محدودة من السنين سواء كانت رخية أم عجافاً. ويبدو أن هذه القاعدة كانت مجحفة بحق كثير من المواطنين في بعض السنين دعت الرومان إلى المفاخرة بأنهم أدوا خدمة كبيرة للمقاطعات الآسيوية باستبدالهم ضريبة الفوروس الثابتة ***بضريبة العشر المتحولة*** أي حسب الإنتاج الزراعي في كل عام[٧].

وكان مقدار الجزية ثابتاً بصرف النظر عن التبدلات السياسية التي تقع، فقد كان حجمها مدوناً في السجلات. وكانت تُدفع إما نقداً كما هو الحال في أورشليم التي كانت تدفع ٣٠٠ تالانت في عهد أنطيوخس الثالث، ولكن التنافس على منصب رئيس الكهنة والمناصب الدينية الأخرى زاد هذا المبلغ إلى ٣٦٠ تالانت ثم أصبح ٣٩٠ تالانت في عهد أنطيوخس الرابع. وإما عيناً على غرار ما جرت عليه العادة عند البرابرة الفرس. ومثل ذلك ما يحدثنا به ***بوليبيوس من أن أحد الأمراء الفرس دفع جزيته إلى أنطيوخس الثالث ثلاثمئة تالانت من الفضة وألف رأس من***

(٦) انظر: ***ي. بيكرمان***، ص ٩١.

(٧) انظر: المرجع السابق، ص ٩٢.

الخيل وألف دابة أخرى من البغال[8]. وفي البعض ***الثالث*** كان من الجزية يُدفع نقداً والجانب الآخر عيناً، ومن المرجح أن مقدار ونوعية الجزية المفروضة على كل وحدة بعينها يتوقف على مقدار ونوعية ثروتها، وأن نوع الجزية العينية نفسها كان يتوقف على شهرة الوحدة بنوع معين من أنواع الثروة يخدم مصالح الإمبراطورية.

ويبدو أن الجزية لم تكن مجرد ضريبة فحسب، بل كانت بالأحرى أشبه ما تكون بمساهمة حربية، أو حسب تعبير شيشرون (***ثمرة النصر وعقوبة الحرب***). ولا شك أنها كانت قبل كل شيء دلالة ملموسة على الخضوع للملك، ولذلك فإنه لم تعف منها أية وحدة من الوحدات الإدارية في الإمبراطورية السلوقية إلا بنتيجة امتياز خاص كان الملك يخص به بعض الوحدات بعينها كما هو الحال في مدينة (**سميرنا**) أزمير الحالية التي حصلت على إعفاء ضريبي من الملك سلوقس الثاني مكافأة لها على موقفها خلال حرب لاوديكي (***وهي الحرب السورية الثالثة ٢٤٦ - ٢٤٢ ق.م***). كما تبين مصادر أخرى أن كلاً من أنطيوخس الثاني والأول جددا الإعفاءات الضريبية التي كان الإسكندر الأكبر قد خص بها مدينة (***أريترية***)[9]. وتعتبر المصادر اليهودية الإعفاء الضريبي الذي منحهم إياه ديمتريوس الثاني بداية استقلالهم الفعلي في مناطق سكناهم[10].

ب ـ الضـرائب:

إذا كانت الجزية ـ كما أسلفنا ـ أهم الضرائب السلوقية، فإن مجموع الضرائب المختلفة الأخرى لم تكن لتقل عنها أهمية من حيث الكم نظراً لتنوعها وكثرتها، إلا أن أهم هذه الضرائب كانت ضرائب (***القطعان***) و (***الأشخاص***) و وضريبة (***الملح***) وضريبة (***التاج***). وإلى جانب هذه الضرائب السنوية، كانت تجبى على بعض الموارد الاستهلاكية رسوم يمكن اعتبارها في عداد ضرائب (***الأسواق***) وضرائب (***مزاولة***

(٨) انظر: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٩) انظر: المرجع السابق، ص ٩٣.

(١٠) انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٢٢١.

الحرف) ولعل أهمها كانت رسوم تجارة الجملة على الأرجح التي لا نعرفها إلا من خلال الامتياز الذي خص به سلوقس الثالث الرودوسيين الذين اعتزموا ممارسة التجارة في مملكته. وقد حفظ لنا هذا الامتياز ضمن أحد بنود معاهدة أفامية عام ١٨٨ ق.م ، وبمقتضى هذا البند أصبح أهل رودوس معفين من الرسوم أو الضرائب العامة في الإمبراطورية.

أما فيما يخص ضرائب انتقال الملكية ، فإن الوثائق التي عثر عليها في بابل تذكر ضريبتين اثنتين ***أولاهما*** تدعى إيبونيون (***EPONION***) ويبدو أنها كانت ضريبة عامة تجبى على كل معاملات البيع والشراء. ***وثانيهما*** تدعى اندرابوديكون (***ANDRAPODIKON***) وتجبى على تجارة الرقيق كما في مصر البطلمية. وقد شكلت هذا الضرائب على قلتها مصدراً لا بأس به من مصادر الإيرادات العامة.وكانت هناك أيضاً ضرائب عائدات الأرض التي تذكرها الوثائق التاريخية ، ومن أهمها الضرائب التي كانت الهيئات الضريبية تفرضها على الأرض ومنتجاتها ، وبشكل خاص في المدن التابعة للإدارة المالية السلوقية في آسية الصغرى. فقد كانت موارد السلوقيين من استئجار عائدات الأراضي الزراعية كبيرة جداً. وثمة نصان يعطيان إمكانية لتصور الأهمية الكمية لهذه الموارد. ***إذ يذكر بوليبيوس أن سلوقس الثاني قدم إلى أهالي رودوس بمناسبة الزلزال الشهير الذي تعرضت له جزيرتهم عشر سفن كاملة ومائتي ألف مكيال من القمح وكميات من الخشب والصمغ والزبيب ، كما قدم ديمتريوس الأول إلى الرودوسيين أنفسهم في مناسبة أخرى - رغم فقدانه آسية الصغرى ـ مائتي ألف مكيال من القمح ومائة ألف مكيال من الشعير.***

ويمكن أن نضيف إلى عائدات الأرض الضرائب التي يتوقع تحصيلها من استثمار مناجمالذهب في منطقة سيبولي (***SIPOLE***) وتيمولي (***TIMOLE***) في آسية الصغرى. كما يحتمل أن حدائق أريحا (***في غور الأردن***) التي كانت تنتج البلسم قد ضمت في وقت ما إلى الأملاك الملكية ، وذلك قياساً على المعلومات التي تثبتها بعض المصادر عن غابات لبنان التي تنتج أخشاباً لصناعة السفن قد ضمها الملك السلوقي أيضاً إلى أملاكه وفرض عليها رسوماً جمركية.

وتذكر المصادر أربعة اصطلاحات في الحديث عن الرسوم الجمركية وأولها رسم الاستيراد (***EISAGOGIS***) وثانيها رسم المرفأ (***LIMIN***) وثالثها رسم الباب (***LIMENOS***) ورابعها رسم الانتقال المائي في نهر الفرات (***PIOION EUPHRATOU***) ويرجح بعض الباحثين بأن ***الرسم الأول*** كان يفرض على التجارة الداخلة إلى الإمبراطورية بما يوازي العشر من قيمتها. ويبدو أن ***الرسم الثاني*** والثالث كانا متماثلين، بدليل اشتقاق اسميهما من جذر واحد. ومن الجائز أن الرسم الثاني كان يجبى على التجارة الداخلة إلى المدن البحرية والنهرية، ***والرسم الثالث*** كان يجبى على التجارة الداخلة إلى المدن البرية. ***وأما الرسم الرابع*** فإننا لا نعرف إذا كان يفرض على السفن التي تستخدم نهر الفرات أم على الأشخاص الذين يتنقلون على صفحة ماء هذا النهر، أم على البضائع المنقولة عليه أم على هؤلاء جميعاً.

ثالثاً: الموارد الاستثنائية للإدارة المالية:

لا شك أن عائدات الإمبراطورية لم تنحصر في العائدات النظامية أو الشرعية، بل كان في جعبة الملك وسائل متعددة للحصول على السيولة المالية عند الحاجة. وتأتي في مقدمة هذه الوسائل غنائم الحرب. والأمثلة عليها كثيرة وأبرزها عندما سطا أنطيوخس الثالث على ثروة الملك الهندي سوفاجاسينوس (***SOPHAGASENOS***) . وكذلك عندما ابتاع الجرهائيون العرب من الملك نفسه حريتهم في تجارتهم دون تدخل الدولة بدفع خمسمئة وزنة من الفضة وألف وزنة من البخور ومئتي وزنة من العطور المتنوعة. ويذكر المؤرخان أبيانوس وديودوروس حادثة تدخل في باب العائدات الاستثنائية وذلك حينما حصل ديمتريوس الأول من الأمير الكبادوكي (***أوروفرني***) على مبلغ من المال مقابل مساعدته على العودة إلى عرش مقدونية.

ولا شك أن أكبر غنيمة حربية حققها ملوك سورية خلال تاريخهم. كانت غنائم أنطيوخس الرابع خلال حملته على مصر (١٦٩) و(١٦٨ق.م) وجاء في الوثائق البردية أن جنود الملك السلوقي قاموا بنهب كل المؤسسات بما فيها معظم المعابد المصرية.

وفضلاً عن ذلك كانت هناك الأملاك التي تصادر والغرامات التي تفرض عقاباً لبعض المدن على تصرفات معينة، أو عقاباً لبعض الأشخاص أو الطوائف عند الإدانة بتهمة الخيانة. ولعل أشهر هذه الحوادث عندما فرض أنطيوخس الثالث غرامة كبرى على مدينة سلوقية دجلة أثر محاولتها الفاشلة للتمرد والانفصال عن الإمبراطورية، وحادثة أخرى يؤكدها ديودوروس عندما قامت إدارة الصندوق الملكي بمصادرة أملاك عدد من اليهود الذين أدينوا بالتآمر على أمن الدولة.

ولا يغيب عن البال أن معظم ملوك سورية وخاصة أوائلهم قد ورثوا عن ملوك الفرس وأمراء المقاطعات الآسيوية كنوزاً هائلة. ويذكر **بوليبيوس** في هذا الصدد أن كنوز العاصمة الفارسية إكباتانا والتي استولى عليها الإسكندر وأنتيجونس وسلوقس، قد وفرت حتى لأنطيوخس الثالث من الذهب والفضة ما مكنه من سك نقود بقيمة أربعة آلاف وزنة.

ويعتبر بيع الأراضي الملكية آخر الوسائل التي كان الملك السوري في العصر الهيللينستي يتصرف بها للحصول على واردات إضافية. ويبين نقش معاصر أن أنطيوخس الأول باع إلى إحدى مدن آسية الصغرى وتدعى بيتاني (***PITANE***)أرضاً بمبلغ ثلاثمئة وخمسين وزنة. كما تؤكد إحدى الرسائل الملكية أن أنطيوخس الثاني باع مطلقته المدعوة (**لاوديكي**) أرضاً بقيمة ثلاثين وزنة.

رابعاً: نفقات الإمبراطورية السلوقية:

كانت أبرز نفقات الإمبراطورية هي نفقات عمليات الاستيطان التي كانت تتم على حساب الواردات العامة، وتذكر المصادر اليهودية ما قدمه ديمتريوس الأول إلى اليهود لإعادة تشييد أسوار بيت المقدس. إضافة إلى النفقات التي كان يقدمها الملوك السلوقيون لإنشاء وصيانة القلاع ومساعدة المعابد التي ترامت في تخوم الإمبراطورية وإنشاء المدن الجديدة وتجديد القديمة وتقديم الهدايا العامة في مناسبات الأعياد إلى أخلص أتباعهم، وتقديم الإعانات السياسية إلى المدن وبعض الجماعات.

ولا شك أن تكاليف حروب السلوقيين كانت أكثر عبئاً على اقتصاد الإمبراطورية من تكاليف جميع الالتزامات الأخرى. وإذا كانت سنة ١٩٠ ق.م فقط قد كلفت أنطيوخس الثالث مبلغ ٨٠٠٠ تالانت في حربه ضد روما، فإن لنا أن نتصور المبالغ التي كان السلوقيون ينفقونها في تاريخهم الذي تعاقبت فيه الحروب بشكل مستمر[١١].

خامساً: النقود:

تعتبر دراسات النقود في كل العصور من أكثر الدراسات مصداقية وأقلها مدعاة للشك والترجيح والاحتمال، وإذا توافرت لنقود ما فرص صيانة طبيعية جيدة فإنها غالباً ما تصل دون أي تغيير كبير يذكر في شكلها ونقوشها، ولو كانت قد سكت من معدن رخيص، وتعطي دراسة النقود غالباً معلومات جيدة عن أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية والدينية والفنية.

كان حق سك النقود من اختصاص السلطة المطلقة، وكانت العملة السلوقية تُسك دائماً باسم الملك الحاكم أو أنها تتبع له، وهذا ما تترجمه العبارة التالية التي غالباً ما كانت تحملها معظم النقود (***BASILEOS SELEUKO***) أو (***BASILEOS ANTIOCHOU***) ويعني أن النقد ملك للملك سلوقس أو أنطيوخس. وعلى هذا الأساس كانت العملات المتداولة هي عملات الدولة التي تبسط سلطتها على المنطقة. ومثال ذلك خلال احتلال مصر من قبل أنطيوخس الرابع سنة ١٦٩ ق.م اعتمد نقش المرساة على العملة البطلمية دلالة السيادة السلوقية. وقد عثرت بعثات في بعض المناطق السورية وما بين النهرين على عدة ***ترادراخمات*** سكها الملوك السلوقيون باسم الإسكندر الكبير، ولكنها تحمل شعار المرساة رمز السيادة أيضاً.

وكمعظم ممالك العالم القديم التي عرفت النقود، سك السلوقيون نقودهم من **الذهب والفضة والنحاس**. وكانت إصدارات النقود الذهبية غنية في مستهل الفترة

---

(١١) حول النظم المالية في الإمبراطورية السلوقية انظر: ***مفيد رائف العابد***، ص ٢١٣ - ٢٣٩، ***أبو اليسر فرح***، ص ١٧٨ ـ ١٨٢، ي. **بيكرمان**، ص ٩٩ - ١٠٥.

السلوقية وذلك بفضل الكنوز الفارسية التي خلّفها الإسكندر بين أيدي قواده بعد وفاته، والتي كانت تُسك أصلاً في الفترتين الفارسية وأوائل الهيللينستية لتمويل التجارة مع الهند. وقد توافقت ندرة الذهب في العصر الهيللينستي المتأخر مع فقدان التاج السلوقي سلطته على المقاطعات الشرقية المتاخمة للهند مما سبب نقصاً ملحوظاً في سك العملات الذهبية، في حين استمرت الإصدارات الذهبية النظامية عند البطالمة حتى نهاية القرن الثاني، وتوقفت في سورية مع سلوقس الثاني (٢٦٥ - ٢٢٦ ق.م).

وكانت العملة الموضوعة في التداول المحلي غالباً من ***الفضة***، وكانت تُسك حسب المعيار الأتيكي في أثينة، وكانت الوحدة الأساسية في هذه العملة قطعة (***الترادراخما***) التي كان وزنها (١٧) غراماً تقريباً. في حين كانت (***الدراخما***) أقل تداولاً. وقد حافظت مصانع السكة عادة على الوزن القانوني للعملات لفترة طويلة، ولم يتدهور هذا الوزن إلا من فترة حكم ديمتريوس الأول حتى نهاية الإمبراطورية حيث أصبح وزن (الترادراخما) (**١٥**) غراماً، كما تراجعت نوعية السك وطراز العملة حيث أصبحت رديئة جداً وذلك بدءاً من عهد أنطيوخس الثامن حيث كانت معظم أقسام الدراخما (***الأوبول ونصف الدراخما وأجزاؤه***) تُسك من معدن البرونز، ومع ذلك فقد بقيت لبعض هذه القطع البرونزية قيمتها حتى أواخر ملوك سورية، وهي التي تعطي دلالات تقريبية عن علاقة الفضة بالنحاس. ومع أن هذه النسبة وصلت إلى ١/٥٠ فقد كانت هذه النسبة طبيعية في أرجاء العالم الهيللينستي في القرن الثاني.

أما فيما يخص الدراسات المتعلقة بالصور السلوقية على النقود، فقد استمر سلوقس الأول في إصدار نقوده الذهبية والفضية حسب النماذج التي سكها الإسكندر الأكبر، ولكنه في وقت لاحق سك نقوداً تحمل صورته، في حين حملت تتراخماته صورة زيوس. وقد تابع أنطيوخس الأول ضرب نماذج نقود الإسكندر الأكبر وسلوقس الأول إضافة إلى نقود خاصة حمل وجه النقد الذهبي أو الفضي فيها صورة الملك الحاكم.

وقد أعطى الملوك السلوقيون شرف وضع رسم - دون اسم - زوج الملك الحاكم على العملة مرتين فقط أولها عندما وضع ديمتريوس الأول رأس زوجه ***لاوديكي*** إلى جانب رأسه على نقود ذهبية وفضية، وثانيها: عندما منح إسكندر بالاس هذا الشرف إلى زوجه ***كليوباترا***. ويبدو أن هذا التكريم كان يقدم إلى الملكات بمناسبة أعياد الزواج.

أما بالنسبة للعملات الفضية، فقد اختلفت عن الذهبية بحملها عدداً أكبر من الرسوم منها (***زيوس نقفوروس***) (***NIKPHOROS***) = المنتصر، وكذلك رسم الآلهة أثينة والآلهة النصر نيكي (***NIKE***) ورسوم متعددة لفيلة وأسود وعربات وأحصنة. وهناك ظواهر تعتبر ثابتة إلى حد ما في صناعة النقد السلوقية وهي ظاهرة ***القرون المنقوشة*** على رؤوس الملوك وأحياناً الخيول أم على رؤوس الفيلة، وترجع هذه الظاهرة إلى أن القرون كانت تعتبر ***رمزاً للقوة المادية*** في المجتمعات الشرقية القديمة وخاصة الآسيوية منها. ولا أدل على ذلك من أن كثيراً من الكتب الدينية ترمز بالقرون إلى قوة عضلات شخص ما أو إلى شدة بأس إحدى الأمم أو إلى ملك غاز واسع الملك. ويبدو أن الإسكندر الأكبر كان أول شخصية من البشر صورها الفن اليوناني بقرون.

ولا شك في أن الفيلة حظيت بتقدير كبير لدى الملوك السلوقيين، لأنها كانت تمثل قوة بالغة الأهمية في الجيش السلوقي، وخاصة جيش سلوقس الأول، ولعل تقدير سلوقس لقيمة الدور الذي قامت به هذه الأداة الحربية في أعظم انتصار أحرزه وهو انتصاره على أنتيجونوس وديمتريوس في موقعة إبسوس كان السبب في تصوير الفيلة على الكثير من نقود هذا العاهل.

وقد أدى التعدد في اعتماد ورشات مختلفة في أكثر من مدينة من مدن الإمبراطورية، إلى فتح المجال أمام بعض الورشات لاعتماد صور ورموز آلهتها على بعض العملات الصغيرة، مما أتاح لنا التعرف على المعبودات الرئيسية في عدد من المدن في تلك الفترة، منها الآلهة أثينة وأرتميس وتوخي إنطاكية وغيرها.

وأخيراً أهم ملاحظة نود إبداءها على النقود السلوقية هي أن حق سك النقود كان من أخص سمات السيادة ، ولا يمارسه من حيث المبدأ إلا الملك بوصفه السيد الأعلى لجميع رعاياه. ومع ذلك فإن الملك كان يمنح هذا الحق لبعض المدن والمجتمعات ، غير أن هذه المدن والمجتمعات كانت تلتزم بأن تضع على نقودها اسم العاهل المتربع على عرش الإمبراطورية دلالة على الاعتراف بسيادته. ولا أدل على أهمية الاسم الذي تحمله العملة من أن أنطيوخس الأول أمر بإعدام ابنه عندما سك نقوداً فضية باسمه في الوقت الذي لم يكن فيه إلاَّ نائباً لأبيه في الولايات الداخلية بآسية .

وعلى هذا يمكن القول إن إحدى أبرز إشارات الاستيلاء على السلطة كانت سك العملات باسم صاحب السلطة الجديد ورسمه وخاصة في العملات الذهبية. وهو أمر مارسه عدد من مدعي العرش الذين نجحوا في توطيد إقامتهم في السلطة لفترة ما. في حين لم يكن يشار إلى نواب الملك أو الملوك المشاركين إطلاقاً على نقش النقد ، باستثناء حالتين ***أولاهما*** حالة كليوباترا وأنطيوخس الثامن. ***وثانيهما*** حالة أنطيوخس الثاني عشر وأخيه فيليب.

البحـث العاشـر

الحيـاة الثقافيـة

أولاً : الآداب :

امتاز العصر الهيللينستي بصورة عامة بانتشار العلم والمعرفة ، وأفضى انتشار التعليم إلى إنشاء مدارس أولية كثيرة للذكور والإناث معاً. وكان تعليم الإناث ينتهي عند انتهائهن من هذه المدارس، أما الذكور فإنهم كانوا ينتظمون بعد ذلك في سلك ***الجمنازيوم (GYMNASIOM)*** ويتلقون مبادئ التدريب العسكري، إضافة إلى بعض العلوم العامة. وقد أوجدت اللغة المشتركة والتعليم، حضارة مشتركة في العالم اليوناني انتشرت في كنفها الآداب والفلسفة، وعمت في ظلها حرية القول والفكر وزالت الكراهية القومية بين الشعوب، حيث حصلت اللغة والثقافة اليونانيتين على مكانة خاصة لاقترانهما بالشعب الفاتح، وكان تفوّق اللغة والأدب اليونانيين أمراً لا يقبل الجدل، لأن السلوقيين اهتموا بإنشاء مراكز استيطان يونانية ووفروا لمهاجريهم أسباب الحياة الخليقة بهم. وكانت المدارس والمعاهد اليونانية التي انتشرت في كل أرجاء العالم اليوناني أهم دعامة للحضارة اليونانية.

ففي إنطاكية العاصمة السلوقية كان الشبّان يتلقون تعليمهم في ***الجومنازيوم***، التعليم التقليدي الذي كان يؤهلهم للاضطلاع بواجبات المواطنين. وكان مثل هذا النظام من التعليم يتألف من مرحلة ابتدائية في مدارس خاصة أو في بيوت القادرين على ذلك، ومن مرحلة ثانوية في الجومنازيوم، ومن مرحلة الثقافة العالية في المراكز

التي يتوافر فيها أساتذة يستطيعون توفيرها، حيث لم يكن يتابع الدراسة في هذه المرحلة، إلا عدد قليل من الذين تمكنهم مواردهم ويدفعهم طموحهم إلى ذلك.

ولعل اعتماد السلوقيين اللغة اليونانية لغة رسمية لإمبراطوريتهم قد ساعد على انتشار هذه اللغة بين فئات المثقفين والفئات العالية في المجتمع انتشاراً سريعاً. وكان تعلّم اللغة الجديدة يتيح الفرصة لتولي مركز حكومي أو متابعة أي نوع من الدراسات الأكاديمية الأخرى. وقد سهّل هذا الأمر وجود المدن والمستوطنات السلوقية الجديدة أمام السكان المحليين الذين تأثروا لغوياً بالاختلاط القائم يومياً مع اليونانيين في الساحات العامة والأسواق والمسارح وساحات الألعاب والمجالس العامة.

وقد شهد العصر السلوقي ظهور عدد من الدور العامة الكبيرة للكتب، حيث أنشئت في إنطاكية دار عامة للكتب وكانت الأولى من نوعها في سورية، وربما يعود الفضل في تأسيس هذه الدار إلى ***سلوقس الأول***. إلا أن شهرة هذه الدار الثقافية لا تقارن بشهرة مكتبتي الإسكندرية وبرجامة اللتين كانتا تتنافسان في القرن الثاني ق.م على اقتناء مخطوطات أرسطو. ***وتواضع شأن مكتبة إنطاكية يوحي بتخلف الحركة الأدبية والعلمية في الدولة السلوقية عن مثيلتها في دولة البطالمة،*** مما يدل على أن السلوقيين كانوا أقل من منافسيهم اكتراثاً بهذه الناحية الحضارية. ويبدو أن مرد ذلك إلى حقيقة هامة، ***وهي أن السلوقيين بوجه عام لم يولوا العلماء والأدباء من السخاء والعطف قدر ما أولاهم أشقاؤهم البطالمة في مصر، أو لم يهيئوا لهم البيئة التي توائم ازدهار العلم والأدب،*** وينهض دليلاً على عدم توافر البيئة الملائمة، ***أن العديد من علماء وأدباء الإمبراطورية السلوقية هجروها إلى مراكز علمية زاهرة. ومن أبرز هؤلاء الفيلسوف ديوجينيس (DIOGENES) (٢٤٠ - ١٥٢ ق.م) من سلوقية دجلة إلى أثينة، والمؤرخ بوسيدونيوس الآبامي من أبامية إلى رودوس،*** وحذا حذوهما علماء كثيرون ممن كانوا أقل منهما أهمية. بيد أنه ليس معنى ذلك أن الحواضر السلوقية افتقرت تماماً من رجال العلم والأدب، وإنما معناه أنه لم يتهيأ لهذه الحواضر من الأسباب لاستقرار كثيرين من هؤلاء الرجال وازدهار نشاطهم فيها.

ثانياً: العلـوم:

كان أهم إنجاز علمي أنجزه السلوقيون على المستويين الإداري والتنظيمي، ما استهل به سلوقس الأول في عهده الملكي، وهو تبنيه تقويماً رسمياً جديداً اعتمد على الأسلوب الفكي البابلي للتقويم الشمسي مع استخدام أسماء الأشهر المقدونية بدل الكلدانية.

وكان سلوقس الأول قد اختار بعد عودته إلى بابل، ***تاريخ عودته في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ٣١٢ ق.م تاريخاً لبدء العمل في التقويم الجديد،*** وكان يقابل أول أشهر التقويم وهو شهر ديوس (***DIOS***). وكان السوريون ومقدونيو آسية الغربية قد اتبعوا ذلك في تقويمهم، وقد استمر العمل بهذا التقويم في منطقة آسية حتى القرن الثالث الميلادي.

أما فيما يخص النشاط الأدبي في حاضرة السلوقيين، فإن المصادر الأدبية لم تذكر أي ذكر لمعهد علمي (**موسيون**) يشابه معهد الإسكندرية المشهور، أو أية كشوف أو بحوث لعالم رعاه السلوقيون أو كان يعيش في إمبراطوريتهم عندما توصل إلى كشوفه أو بحوثه.

وليس معنى ذلك أنَّ المصادر أنكرت تماماً دور السلوقيين، وخاصة الأوائل في رعاية بعض العلوم. فقد أفادت هذه المصادر عن فضل سلوقس ورعايته لعلمي الفلك والجغرافية من بقية العلوم التي ازدهرت في العصر الهيللينستي، وذلك برعايته لعلماء الفلك الكلدان في بابل بعد تهجير سكانها واهتمامه بإنفاذ البعثات الكشفية في مناطق آسية الصغرى وبحر قزوين. وقد كانت تقارير هذه البعثات حجر الزاوية في نشر المعلومات الجغرافية عن تلك الأقاليم. حيث أفادت هذه التقارير معظم جغرافيي الفترة الرومانية، وكانت دقيقة وشبه كاملة لدرجة أنها أعطيت إلى بومبي سنة ٦٥ ق.م عندما أراد التعرّف على الطرق التجارية في منطقة بحر قزوين.

ثالثاً: الفنـون:

١ - الموسيقى:

اكتسبت الموسيقى أهمية كبيرة عند اليونانيين، وقد تجلى ذلك في عدة ظواهر، منها أن أعظم الفلاسفة اليونان كانوا يعتبرون الموسيقى وسيلة ***لتهدئة الأعصاب***

وتكوين الخلق القويم. وقد اتخذ اليونانيون لهم آلهة خاصة بالموسيقى مثل (***بان وأبوللون***)، وأن الموسيقى كانت جزءاً لا يتجزأ من حفلات الزواج والطقوس الجنائزية وكثير من الشعائر الدينية، وكثير من الحفلات اليونانية العامة كانت تشمل مباريات موسيقية يُكرّم فيها الفائزون تكريماً لا يقل أبداً عن التكريم الذي كان يقام للفائزين في المباريات الرياضية.

وقد بذل السلوقيون اهتماماً كبيراً لرعاية النشاط الموسيقي في مدنهم الرئيسية بشكل عام، وينهض دليلاً على ذلك تصوير أبوللون أحد آلهة الموسيقى اليونانية على بعض نقود السلوقيين، بالإضافة إلى الأنغام الموسيقية التي كانت تملأ الأجواء طوال إقامة أعياد دفنة ١٦٧ ق.م على حد ما يذكر ***بروتارجيدس (PROTARGIDES)*** وامتلاء بلاطات وقصور السلوقيين بالخصيان والأرقاء الذين تخصصوا في إضفاء أجواء البهجة والسرور على الأجواء العامة لهذه القصور.

وظلت الموسيقى شائعة بين جميع طبقات السكان، وتبدلت فيها السلالم والأنغام في اتجاه الرقة والجدة[1]. وأدخلت الأنغام الناشزة القصيرة في الأنغام المتوافقة، وازدادت الآلات والتآليف الموسيقية تعقيداً. وتطورت (***مزامير بان***) القديمة في الإسكندرية حتى صارت مجموعة من (***المزامير البرونزية***)، وحسّن ***تسيبيوس*** حوالي عام ١٧٥ ق.م هذه الآلة فجعلها أرغناً يدار بالماء والهواء مجتمعين ويجعل في مقدور العازف أن يحدث به نغمات من الصوت طويلة جداً. وكانت الآلات تجتمع فتتكون منها جوقة العازفين، وكانت ألحان من الموسيقى الآلية الخالصة تتكون في بعض الأحيان من خمس حركات تُعزف في ملاهي الإسكندرية وأثينة وسرقوسة.

ونال عدد من مهرة الموسيقيين شهرة واسعة وأصبحت لهم مكانة اجتماعية تتناسب مع أجورهم العالية. وفي عام ٣١٨ ق.م كتب ***أرستكسنوس*** (***ARISTOXENUS***)، تلميذ أرسطو، رسالة صغيرة تدعى (***قواعد الألحان***) صارت هي النص القديم الذي يرجع إليه في النظريات الموسيقية. ويروي عنه ***أثينايوس*** قوله في عبارات جميلة (***بعد أن***

(1) ***ATHENAEUS***, XIV, 33.

طغت البربرية على دور التمثيل، وبعد أن فسدت الموسيقى وقضي عليها القضاء الأخير، وأصبحنا نحن أقلية صغرى في هذا الزمان، نستعيد عقولنا، ونحن جالسون بمفردنا، ما كانت عليه الموسيقى في الأيام الخالية)[٢].

٢ - *النحت:*

لم يتأثر فنّا النحت والنقش اليونانيان بتلك المفاهيم السرية الميتافيزيقية الغامضة التي جهدت فنون الأمم الشرقية في الغوص في خفاياها، فتجسيد الكمال كان غاية هذين الفنين اليونانيين في أرقى مبتكراتهما، ويكفي دلالة على هذا، أن الفن اليوناني كان الدعامة الأساسية التي قامت عليها الحضارة الإبداعية حتى عصرنا الحاضر، وإن كان هذا الفن قد تأثر في عصوره الأولى بفنون الحضارات الشرقية التي سبقت الحضارة الهيللينية.

وقد تأثر فنَّا النحت والنقش في كل أرجاء العصر الهيللينستي تأثراً شديداً بتقاليد الفن اليوناني في القرن الرابع ق.م، ويأتي على رأسهم أبرز نحاتيه أمثال ***براكسيتليس (PRAXITELES) وسكوباس (SKOPAS) ولوسيبوس (LYSIPPOS)*** الذي اشتهر سنة ٣٢٨ ق.م في عهد الإسكندر، ومن أشهر أعماله نحت تمثال رأسي للإسكندر.

ويعتقد بعض الباحثين، بوجود مدرسة سورية هيللينستية في النحت بشكل خاص قوامها إنتاج إنطاكية وغيرها من المدن وأطلق عليها اسم (***مدرسة إنطاكية***). وفي رأي هؤلاء الباحثين أن مبتكرات هذه المدرسة جمعت خصائص الفن الهيللينستي المتطور. ***وتتلخص هذه الخصائص في نسب القامات الطويلة وتعريات الربات والنساء بشكل عام، وجعل أجسامهن ذات لحوم مكتنزة، والإغراق في إظهار معالم التهيج والانفعال على الوجوه.***

وقد عُثر على عدة تماثيل يعتقد هؤلاء الباحثون بأنها من أعمال هذه المدرسة، ولعل أشهرها مجموعة تمثل ***أفروديت وبان وإيروس*** وجدت في أحد معابد ديلوس.

---

(2) ***ATHENAEUS***, XIV, 31.

وتوجد هذه المجموعة الآن في متحف أثينة، كما عثر على بعض هذه التماثيل في دورا يوروبوس وأشهرها تمثال (*المرأة المحسنة*) الذي عُثر عليه في معبد أرتميس، ويدل طرازه على أنه كان من صانع محلي عاش في دورا في القرن الثاني ق.م، وعثر على البعض الآخر من تماثيل هذه المدرسة في أفامية وأهمها تمثال **بسوخي** ***(PSYCHE)*** المحفوظ في متحف دمشق.

ولعل أشهر تماثيل هذا العصر على الإطلاق، هو التمثال البرونزي المذهب ***لتوخي إنطاكية (TYCHE OF ANTIIOCH)*** ربة سعادة وحظ وعناية المدينة، وهو الذي نحته الفنان ***يوتوخيدس (EUTOCHIDES)*** والذي عاش في أوائل القرن الثالث ق.م بتكليف من سلوقس الأول. وكان هذا التمثال يمثل سلوقس وأباه أنطيوخس يتوّجان توخي إنطاكية (وقد تحدثنا عن هذا التمثال في فقرة إنطاكية في فصل سابق).

وتذكر المصادر أشهر التماثيل التي أقيمت في إنطاكية في فترة إنشائها، وأشهرها تمثالا ***زيوس وأبوللون*** حاميي الأسرة السلوقية وكثيراً ما شبه بهما سلوقس وابنه، وتمثال زيوس كيراونوس (***الرعاد***). هذا إلى بعض التماثيل الأخرى التي أقيمت تخليداً لبعض أحداث بعينها أهمها تمثال للكاهن ***أمفيون (AMPHION)*** الذي ساعد سلوقس في تقديم القرابين عند وضع أساس أسوار المدينة.

ونشأت في جزيرة رودوس في القرن الثالث ق.م، مدرسة في النحت ذات طابع خاص لا مثيل له في غيرها من المدارس. فلقد كان في الجزيرة نحو مئة تمثال ضخم يكفي الواحد منها على حد قول ***بليني***، لأن ينشر في الآفاق شهرة مدينة. وكان أعظمها كلها تمثال ضخم من البرونز ***لهليوس (HELIOS)*** إله الشمس نحته ***كاريس اللندوسي (CHRES OF LINDUS)*** نحو عام ٢٨٠ ق.م، وتقول إحدى الروايات أن كاريس هذا قد أنتحر حين رأى أن نفقة التمثال قد زادت كثيراً على ما كان مقدراً لها. وأتم هذا التمثال ***لاكس اللندوسي (LACHES OF LINDUS)***. وكان هذا التمثال مقاماً إلى جانب المرفأ ويعلو إلى ارتفاع مئة قدم وخمسة أقدام، ويوحي هذا

الحجم بأن ذوق أهل رودوس كان يتجه نحو المظاهر الفخمة والضخمة ، ولعل الرودوسيين كانوا يستخدمونه منارة للسفن ورمزاً للجزيرة. وإذا جاز لنا أن نصدّق ما جاء في قصيدة في ديوان الشعر اليوناني ، ***فإن هذا التمثال كان يرفع بيده ضوءاً ، وأنه كان يرمز إلى الحرية التي تستمتع بها رودوس.*** وتلك سابقة عجيبة كتمثال شهير في أحد الثغور الحديثة ، وكان هذا التمثال بلا ريب يُعد إحدى **عجائب الدنيا السبع.** ***ويقول بليني ، أن عمل هذا التمثال استغرق اثنتي عشرة سنة ، وأن نفقاته بلغت ثلثمئة وزنة ، وقد حصلت الجزيرة على هذا المبلغ من آلات الحرب التي تركها ديمتريوس وراءه بعد حصاره الفاشل للجزيرة[٣].***

---

(3) ***PLINY***, I, C.



القسم الثالث

التاريخ الحضاري

لدولة البطالمة في مصر

(٣٢٣ - ٣١ ق.م)



ملحق الصور



الصور الملونة من ص 457 إلى ص 464







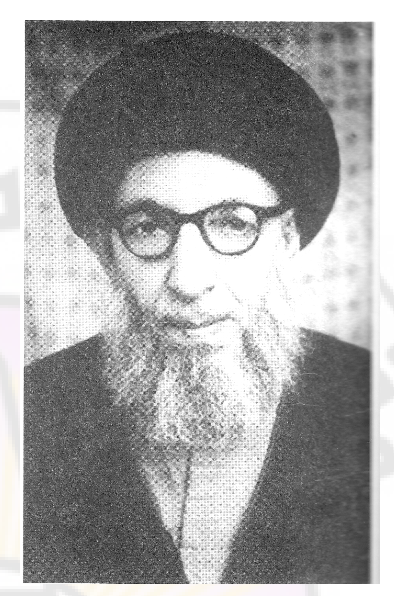




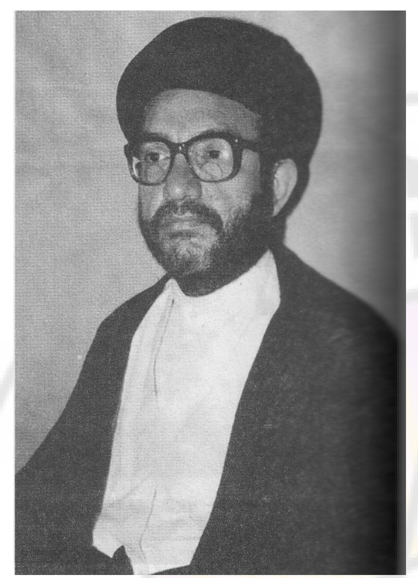



جامعة دمشق
وقل رب زدني علما
Damascus University

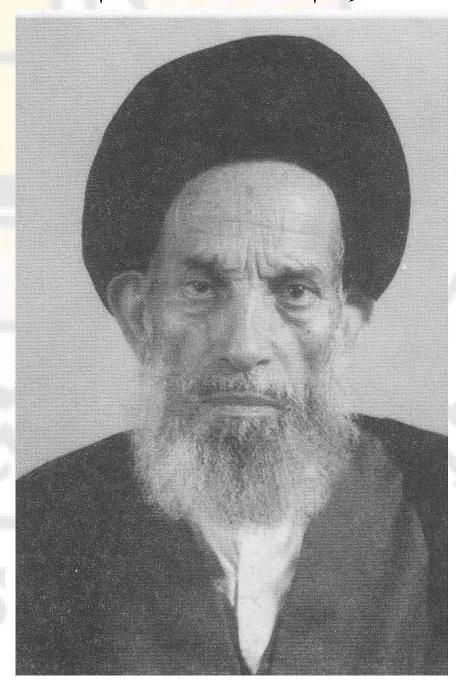




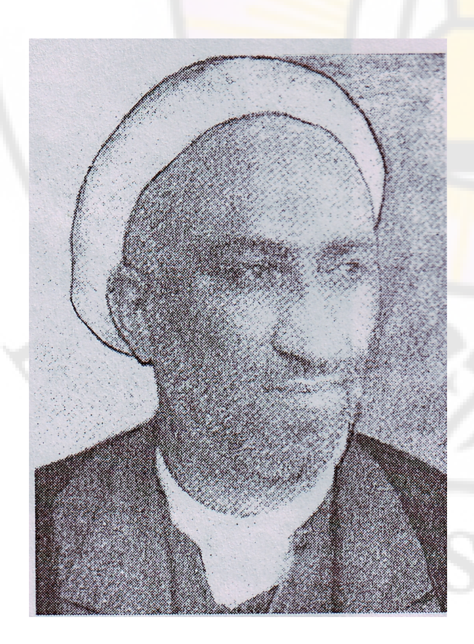
الإمام السيد محسن الحكيم



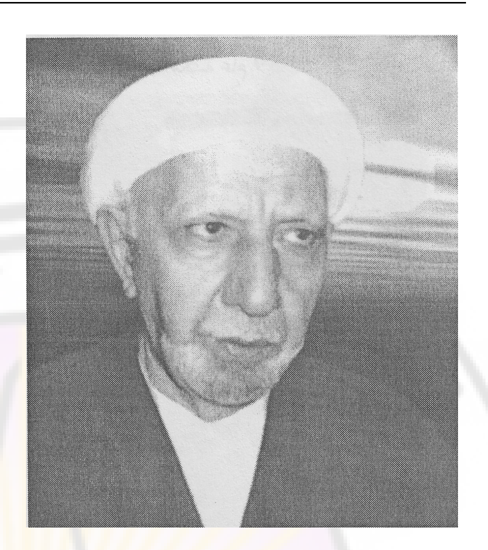
العلامة الشهيد السيد مهدي الحكيم



آية الله السيد مرتضى العسكري



الشيخ محمد رضا الشبيبي



العلامة الدكتور الشيخ أحمد الوائلي



الدكتور الشيخ
محمد حسين علي الصغير



وفد لواء الناصرية يهنئ الزعيم عبد الكريم قاسم



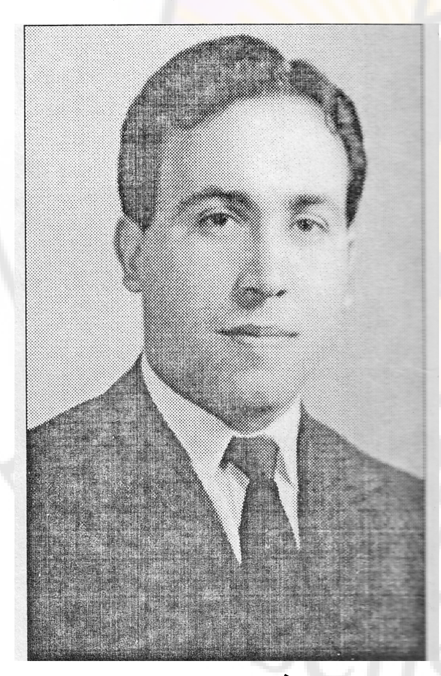
قاسم محمد البكر الزبيدي
والد عبد الكريم قاسم
عام (1928)



حامد قاسم
شقيق عبد الكريم قاسم



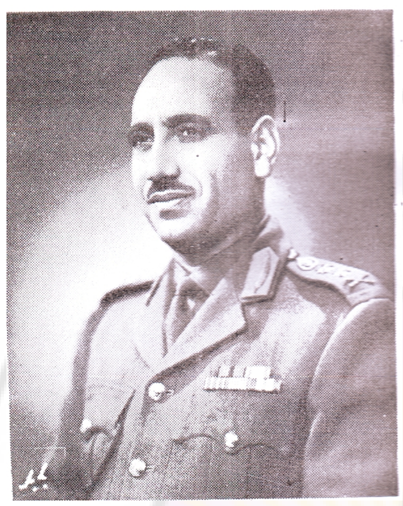
عبد الكريم فرحان
وزير سابق



فؤاد الركابي
أمين سر القيادة القطرية
لحزب البعث العراقي



كامل الجادرجي
رئيس الحزب الوطني الديمقراطي



المشير الركن عبد السلام محمد عارف
رئيس جمهورية العراق الأسبق



عائلة الرئيس عبد السلام عارف



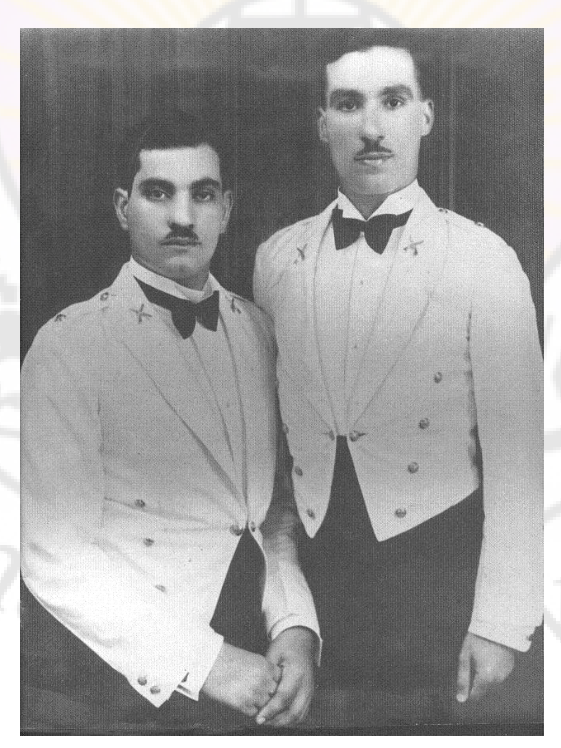
الزعيم قاسم ، وخلفه وصفي طاهر والمهداوي ، وعلى يمينه صدّيق شنشل



الزعيم قاسم وإلى يمينه الدكتورة نزيهة الدليمي
وخلفه وصفي طاهر والمهداوي وماجد أمين



الزعيم في المستشفى



وصفي طاهر والمهداوي في عزّ الشباب



المهداوي بين وصفي طاهر وماجد أمين



وصفي طاهر بين المهداي

وزير التخطيط آنذاك طلعت الشيباني



المهداوي بين وصفي طاهر وقاسم الجنابي



الجواهري بين وصفي طاهر والمهداوي

البحــث الثاني عشــر

الحيــاة الاجتماعيــة

أولاً: نظام تعدد الجنسيات:

عرفت مصر الفرعونية الأجانب من شتى الجنسيات، من ***أثيوبيين وليبيين وآسيويين وفارسيين ويونانيين وغيرهم،*** وكذلك كانت الحال في جميع عصور التاريخ المصري. وعندما شملت الإمبراطورية المصرية ***سورية وبرقة ومناطق في آسية الصغرى وبحر إيجة*** توافدت إلى مصر أعداد أخرى غفيرة من هذه الجنسيات المختلفة سعياً وراء العمل والرزق الوفير. ومن أهم هذه الجنسيات ***اليهود والسوريون والفينيقيون والليبيون وجماعات من شعوب آسية الصغرى.*** هذا هو الخليط العجيب من الأجانب الذين حضروا إلى مصر وعاشوا جنباً إلى جنب مع الأغلبية الساحقة من المصريين. وتبين الإحصاءات الرقم الإجمالي عن عدد سكان مصر، فيذكر (**جوزيفوس**) الذي عاش في بداية العصر الروماني أن عدد سكان مصر ـ عدا أهل الإسكندرية الذين كان لهم سجل خاص بهم ـ هو **سبعة ملايين ونصف مليون**[1]. ونحن نعتقد بصحة هذا الرقم لأن الإدارة الرومانية كانت تحتفظ بإحصاءات دقيقة عن عدد السكان كما كانت تسجل الوفيات والمواليد بانتظام، ***نظراً لارتباط ذلك بالضرائب التي كانت تجبى على الأفراد.*** أما فيما يخص الإسكندرية، فيذكر **ديودور**

(1) ***JOSEPHUS***, BELL, JUD. II, 16, 4.

الصقلي أن عدد سكان الإسكندرية من الأحرار في العصر الأخير من الحكم البطلمي **هو ٣٠٠ *ألف شخص***[٢]. وفيما إذا افترضنا أن ٢٠٠ ألف مما لم يسجلوا ضمن عداد (***الأحرار***) مثل العبيد وبعض الأهالي النازحين من الريف دون أن يكونوا مسجلين رسمياً ضمن أهالي الإسكندرية، فإن مجموع سكان الإسكندرية يكون ***خمسمئة ألف شخص تقريباً***. ومن المحتمل أن هذين الرقمين يمثلان عدد سكان مصر بأسرها في الظروف العادية. وعلى هذا الأساس يمكن الاقتراح أن متوسط عدد سكان مصر في العصرين اليوناني والروماني هو ***ثمانية ملايين شخص***.

هذا العدد الكبير من الأجناس المختلفة كان في حاجة إلى تنظيم دقيق ليسهل الإشراف عليهم من ناحية، والاستفادة منهم من ناحية أخرى. وخاصة أن اليونانيين في مصر لم يقتصر وجودهم على المدن اليونانية فقط، وإنما انطلقوا في جميع أرجاء مصر، وأقيمت من أجلهم قرى جديدة في إقليم الفيوم، كما سكنوا القرى والمدن القديمة جنباً إلى جنب مع المصريين[٣]. وحرص البطالمة على تنظيم اليونانيين والجماعات المتأغرقة من الأجانب حسب أسس خاصة. وقد تم ذلك عن طريق إدراج أعداد كبيرة من اليونانيين في عداد مواطني المدن اليونانية في مصر، أو عن طريق إقامة تجمعات كل حسب موطنهم الأصلي على شكل جاليات بوليتيوما (***POLITEUMA***) لها قوانينها الخاصة. أما سائر السكان من البقية الباقية من اليونانيين والأجانب والأغلبية الساحقة من المصريين فكانوا ينظمون حسب حرفهم وأعمالهم. كما حرص البطالمة على إقامة معاهد الجمنازيوم (***GYMNNASIOM***) التي تعد من أهم مظاهر المجتمع اليوناني، وهي معاهد لها وظيفة ثقافية وتربوية ورياضية، بالإضافة إلى الدور الاجتماعي الذي كانت تقوم به[٤].

---

(٢) انظر: ***ديودور الصقلي*** ١٧، ٥٢، ٦.

(3) ***BOWMAN. A. K***, OP. CIT. P. 122.

(٤) عن الأحوال الاجتماعية للإغريق بشكل عام انظر:

ROSTOVTZEFF. M: OP. CIT. P 330 - 332.

ثانياً: نظام المدن اليونانية الاجتماعي:

اقتصرت العضوية في المدن اليونانية على الطبقات الممتازة من اليونانيين وليس كل اليونانيين، وذلك لأن البطالمة لم يقبلوا على إنشاء المدن المستقلة على النمط اليوناني في مصر لأنها تتعارض مع نظامهم في الحكم الملكي المطلق. فلذلك اقتصر البطالمة على المدن التي كانت موجودة قبل قيام دولتهم مثل (***نقراطيس***) التي أنشئت في شمال غرب الدلتا في نهاية القرن السابع ق.م[٥]، ومدينة (***الإسكندرية***) التي أنشأها الإسكندر وأصبحت عاصمة مصر، ولم ينشئ البطالمة (كما ذكرنا سابقاً) سوى مدينة جديدة هي (***بطلمية***) التي أنشأها بطلميوس الأول في أعالي الصعيد. ***وفي هذا المجال يجب أن نذكر أن نظرة البطالمة كانت تختلف عن نظرة الإسكندر نحو إنشاء المدن. فالإسكندر كان يعتبر كل مدينة أنشأها بمنزلة بوتقة يختلط فيها اليونانيون مع الأهالي الأصليين. أما البطالمة فقد انحرفوا عن هذه السياسة، وجعلوا مواطني المدن اليونانية في مصر بمثابة فئات ممتازة بين سائر السكان، وسنوا لهم من القوانين ما يمنعهم من التزاوج من المصريين حتى يبقى الدم اليوناني نقياً في عروقهم.*** ولم يكن جميع اليونانيين مواطنين في المدن اليونانية كما هو الحال في الإسكندرية، ***بل كانت المواطنة تقتصر كما ذكرنا على العناصر الممتازة فقط،*** أما الآخرون من الجنس اليوناني الآخر فلم يتمتعوا بحق المواطنة، وكانوا رعايا الملك مباشرة، ووجد لهم نظام يعوّضهم عن حرمانهم حقوقهم السياسية وهو نظام (***البوليتيوما***)[٦]، وهي عبارة عن رابطة تضم جميع أبناء الموطن الواحد من بعض الفئات اليونانية أو المتأغرقة، ***فوجدت بوليتيوما للمقدونيين وأخرى لليهود وثالثة للكريتيين ورابعة***

---

(٥) عن هذه المدينة انظر: الفصل الخاص عن العلاقات بين مصر والإغريق: ***أبو اليسر فرح، النيل في المصادر الإغريقية،*** القاهرة ١٩٩٥م، ص ٩ ـ ٣٤.

(٦) عن هذا النظام انظر:

LESQUIE. J R: LESINSTITUTIONMILITAIRES DE L EGYPT SOUS LES LAGIDE, PARIS, 1911, P 143 - 155. ROSTOVTZEFF. M: P 324.

للبيوتيين وهكذا. وإذا كانت كل بوليتيوما في أول الأمر قاصرة على أبناء جنس بعينه، فإنها فقدت هذه الصفة بمرور الزمن، وأصبحت منذ منتصف القرن الثاني ق.م، تضم أفراداً من عناصر أخرى.

ثالثاً: الجالية اليهودية:

ما من شك أن وجود اليهود في مصر يعود إلى ما قبل العصر البطلمي، فقد أقام الفرس حامية من اليهود في جزيرة ***إلفنتين*** على حدود مصر الجنوبية. وقد عُثر حديثاً في تلك الجزيرة على مجموعة من أوراق البردي كتبت باللغة التي يتكلمها يهود هذه الحامية وهي ***الآرامية***. وتثبت دراسة هذه البرديات، أنه من الممكن التأريخ لهذه الحامية السامية بصورة منتظمة في الفترة بين ٥٢٥ - ٤٠٧ ق.م. ولكن منذ أن فتح الإسكندر مصر تقاطر إليها اليهود في أعداد كبيرة استقرت في مواطن متفرقة وخاصة في الإسكندرية حيث كونوا لهم جالية كبيرة سكنت الحي الرابع من أحياء الإسكندرية الخمسة المسمى ***دلتا***. وكان الإسكندر قد حثهم على الهجرة إليها وعرض عليهم كما يقول (***جوزيفوس***)، أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية. وجاء بطلميوس الأول بعد استيلائه على أورشليم بآلاف من أسرى اليهود الذين أطلق سراحهم، ثم دعا في الوقت نفسه كثيراً من أثرياء اليهود إلى الإقامة فيها ومزاولة الأعمال التجارية والمالية. ولم يكد يستهل القرن الأول الميلادي حتى بلغ عدد اليهود في مصر ***مليون شخص***[(٧)].

وسرعان ما ترك اليهود في مصر البطلمية ***اللغة الآرامية*** واتخذوا ***اللغة اليونانية*** بدلاً منها وأن ظلوا متمسكين بدينهم، كما أخذوا يدرسون ويكتبون في الآداب اليونانية، ويترجمون كتبهم المقدسة وتواريخهم إلى اللغة اليونانية. ثم سعوا إلى تعريف اليونان بالتقاليد الدينية اليهودية وتمكين اليهود الذين لا يعرفون العبرية من قراءة كتبهم المقدسة، فقامت طائفة من علماء اليهود بالإسكندرية في عهد بطلميوس

---

(٧) انظر: ***ول ديورانت، قصة الحضارة***، الكتاب الخامس، انتشار الهيللينستية، ٧٥ ـ ٧٦.

الثاني على الأرجح ، ***تترجم التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية*** ، وسر الملوك البطالمة من هذا العمل لأنهم كانوا يرجون أن تؤدي هذه الحركة إلى جعل يهود مصر أكثر استقلالاً عن أورشليم مما كانوا في ذلك الوقت. ***وتقص إحدى القصص الخرافية كيف دعا بطلميوس الثاني عملاً بمشورة ديمتريوس الفاليري سبعين عالماً من علماء اليهود إلى المجيء من أورشليم في فلسطين سنة ٢٥٠ ق.م إلى الإسكندرية ، وكلفهم بأن يقوم كل واحد منهم على انفراد وفي حجرة خاصة بجزيرة فاروس ، بترجمة التوراة إلى اليونانية ، ولم يسمح لهم الاتصال بأحد من الناس حتى فرغ كل واحد منهم من ترجمة أسفار موسى الخمسة. وبعد سبعين يوماً فرغوا جميعاً من الترجمة ، ولما قورنت التراجم المختلفة وجد أنها مطابقة بعضها لبعض في كل كلمة. فدل على ذلك أن هذه النصوص قد تمت بوحي من الإله حتى لا تختلف كلماته عند الترجمة. ومنح الملك هؤلاء التراجمة بعطايا من الذهب. ولكن ثبت الآن أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة ، وأن هذه الترجمة التي عُرفت بالترجمة السبعينية (SEPTUAGINT) قام بها يهود مصريون في فترات مختلفة من العصر البطلمي***[٨].

كان القيام بهذه الترجمة أمراً ضرورياً ، لأن كثيراً من اليهود كانوا قد تأغرقوا تماماً وأصبحت اليونانية هي لغتهم الوحيدة. وبعد إتمام الترجمة نجد أن هذا الاتجاه أخذ يشتد وتصبح المراسيم الدينية اليهودية تؤدى باللغة اليونانية. وبالتدريج أخذ اليهود في مصر يفقدون أي صفة مميزة لهم عن اليونانيين ، فاتخذوا الزي اليوناني وتسموا بأسماء يونانية وتحدثوا اللغة اليونانية ، حتى إن المؤرخ اليوناني (**بوليبيوس**) حين حضر إلى الإسكندرية في منتصف القرن الثاني ق.م ، لم يلحظ أي صفة مميزة لليهود هناك وعدّهم جميعاً يونانيين.

ونظراً لكثرة أعداد اليهود في مصر البطلمية ، وتميزهم الديني الذي تمسكوا به دائماً ، منحهم الملوك حق تكوين (***بوليتيوما***) وأخذوا عن طريقها ينظمون شؤونهم الخاصة ويمارسون دينهم الخاص في حرية واستقلال ، وكانوا يختارون لأنفسهم مجلس

---

(٨) انظر : ***مصطفى العبادي***، ص ١١٣.

كبرائهم، وقد بنوا كثيراً من أماكن العبادة الخاصة بهم التي تُعرف باسم ***سيناجوج*** (***SYNAGOGUE***) أي أمكنة الاجتماع، حيث أقام أنياس (***ANIAS***)حاخامهم الأكبر في عام ١٦٩ ق.م هيكلاً عظيماً في ليونتوبوليس (***LEONTOPOLIS***) إحدى ضواحي الإسكندرية، وخصص صديقه بطلميوس السادس أيراد عين شمس للإنفاق على هذا الهيكل. وكان هذا الهيكل وأمثاله مدارس وأمكنة اجتماع كما كانت معابد دينية.

رابعاً: نظام الطبقات:

كان المصريون بطبيعة الحال هم الأغلبية الساحقة وعماد المجتمع، وكان تنظيمهم الأساسي حسب حرفهم وأعمالهم كما كانوا في العصر الفرعوني. ويذكر **هيرودوت** أن المصريين كانوا ينقسمون إلى سبع طبقات حسب أعمالهم: ***الكهنة، الجند، رعاة البقر، رعاة الخنازير، التجار، التراجمة، ورجال القوارب***[٩]. ولكن كانت هناك فئات أخرى لم يذكرها هيرودوت وجدت في مصر الفرعونية كما وجدت في مصر البطلمية أيضاً، ونقصد بذلك طبقات الفلاحين والصنّاع والموظفين الإداريين. ***وكان أفراد كل مهنة أو عمل منظمين تنظيماً دقيقاً في العصر البطلمي بسبب ضرورة حصرهم وإحصائهم باستمرار لأنهم يعملون في أرض الملك ومصانعه وفي نقل القمح من جميع نومات مصر وشحنه في النيل إلى مخازن الحكومة في الإسكندرية استعداداً لتصديرها بعد ذلك.***

أما وضع المصريين الاجتماعي عامةً في الدولة البطلمية بالنسبة لسائر عناصر المجتمع، ***فقد كان في بادئ الأمر في درجة الانحطاط، وأن الوضع الممتاز كان لليونان***، سواء بين رجال الحاشية الملكية أو الإدارة أو الجيش أو ملكية الأرض. ففي كل هذه المجالات ***كان اليوناني هو المسيطر، أما المصري فكان المغلوب على أمره***، باستثناء طبقة واحدة هي طبقة ***الكهنة*** لأنها كانت أقوى وأخطر مظهر يمثل المصريين.

---

(٩) انظر: **هيرودوت** ٢، ١٦٤.

ولكن مثل هذا الوضع لم يظل على حاله ، إذ سرعان ما أخذت الدولة البطلمية تضعف تدريجياً حتى رأينا المصريين عموماً والكهنة خصوصاً يسعون إلى تأكيد مراكزهم في المجتمع واسترداد بعض حقوقهم ، وخاصة بعد اعتماد البطالمة على المصريين في الجيش البطلمي والقضاء على الغزو السلوقي في معركة فاصلة عند رفح عام ٢١٧ ق.م.

كان انتصار المصريين في معركة رفح له نتائج هامة بالنسبة لمركزهم في الدولة ، فقد استرد المصريون الثقة بالنفس وشعروا أنهم ليسوا أقل كفاءة من اليونان ، فطالبوا بحقهم في تولي جميع المناصب وخاصة المناصب القيادية في الجيش والقصر والإدارة وهذا ما كان لهم. إلا أن ذلك لا يعني تحقيق المساواة بين اليونانيين والمصريين ، ولكننا نلاحظ وجود قدر أكبر من التقارب بين الفريقين. ***فقد أقبل المصريون على تعلم اللغة اليونانية ، واكتسبوا مسحة من الثقافة اليونانية ، وحمل الكثيرون منهم أسماء يونانية ، كما تأثر اليونانيون بالكثير من مظاهر الحياة المصرية ، فتعلموا اللغة المصرية ، وعبدوا الآلهة المصرية ، واتخذوا أسماء مصرية.***

ويلاحظ أن تحسّن مركز المصريين وزيادة نفوذهم في الدولة ، شجعهم على الثورات التي قاموا بها ضد الأسرة الحاكمة في الإسكندرية وشغلت فترات طويلة من النصف الثاني من العصر البطلمي. إذ أنه على الرغم من هذا التقارب بين الفريقين ، فإن الفتور ظل كامناً في أعماق المصريين الذين بدؤوا ينظرون إلى اليونان كغرباء عن البلاد[١٠] ، حتى تفجرت مراجل الغضب لديهم بعد معركة رفح عام ٢١٧ ق.م ، وعادت إليهم ثقتهم في أنفسهم عقب الانتصار الذي أحرزوه في هذه المعركة. فاشتعلت ثوراتهم في عام ٢١٦ ق.م[١١] ، وازداد أوارها ، وراح الكهنة يحرضون المصريين على المزيد من التمرد والانتفاضة ، فشهدت البلاد ثورة عنيفة في عهد ***بطلميوس الخامس*** في عام ١٨٤ - ١٨٣ ق.م. وفي الإسكندرية قام أحد الزعماء

---

(١٠) انظر : ***آيدرس بل*** ، ص ٥.

(١١) انظر : ***إبراهيم نصحي*** ، الجزء الرابع ، ص ١٧٩ ـ ٢٢٤.

ويدعى بتوسيرابيس (***POTOSERAPIS***) بتزعم ثورة في عهد ***بطلميوس السادس*** في عام ١٦٥ - ١٦٤ ق.م. وفي عام ٨٥ ق.م، قاد ***بطلميوس التاسع*** قواته ضد الثوار المصريين في طيبة، وتمكن من إخماد الثورة وانتقم من المصريين بتخريب وتدمير مدينتهم الخالدة ***طيبة***. ***ومما لا شك فيه أن هذه الثورات على الرغم من أنها لم تحقق الهدف الذي قامت من أجله، وهو القضاء على الحكم الأجنبي، فإنها ساهمت إلى حد كبير في إضعاف دولة البطالمة***(١٢).

وينقسم المصريون في دولة البطالمة إلى أربع طبقات وهي على الشكل التالي:

١- ***طبقة أرستقراطية مصرية وجدت في بداية الفتح المقدوني بشقيها المدني والديني،*** ويتمثل ***الشق المدني*** في بقايا الشريحة العليا من المجتمع المصري من كبار الملاّك. والذين صودرت ممتلكاتهم في ظل سياسة الاقتصاد الموجه التي مارسها البطالمة مما أدى إلى تقليص دورها الاجتماعي. أما ***الشق الديني*** فيتمثل في رجال الدين المصريين، الذين ظلوا يتمتعون بمكانة هامة طوال العصر البطلمي وتعاظم نفوذهم في الشطر الثاني من عصر البطالمة بسبب حرص الملوك على اكتساب ودهم وصداقتهم.

٢- ***طبقة المحاربين التي فقدت مكانتها في عصر البطالمة الأوائل،*** بسبب اعتماد هؤلاء في تكوين جيوشهم على الجنود الأجانب، وإسناد مهام ثانوية إلى الجنود المصريين. لذا فقد حُرم المحاربون المصريون من الامتيازات التي أغدقت على سواهم من الأجانب، ولكن حينما منحوا فرصة الاشتراك في القتال، وأثبتوا جدارتهم في معركة رفح تحسنت أحوالهم بعض الشيء.

٣- ***طبقة الموظفين المصريين الذين يشغلون الوظائف الدنيا في الجهاز الإداري مثل وظائف الكتبة،*** وهي وظائف كانت تدر عليهم دخلاً يكاد يكفي الحد الأدنى

---

(١٢) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ١٠٤.

لسد حاجاتهم المعيشية.بينما انحصرت الوظائف الكبرى على اليونانيين فقط دون غيرهم من الطبقات الأخرى.

٤ - ***طبقة المزارعين المصريين التي كانت تشكل قاعدة الهرم الاجتماعي،*** وتتألف من ملايين المصريين الذين كان يعمل غالبيتهم في مجال الزراعة، بينما عمل القليل منهم في مجال الصناعة والتجارة. وكان أفراد هذه الطبقة يرسفون تحت أغلال الظلم ويعانون شظف العيش، ويتحملون النظم الاقتصادية الجائرة التي طبّقها البطالمة، والتي كان هدفها الأكبر توفير أكبر قدر من الدخل للملك، حتى يتمتع هو ورجال حاشيته بأكبر قدر من الرفاهية، على حساب الغالبية العظمى المحرومة من الشعب.

ولكن على الرغم من تلك الظروف القاهرة التي فرضت على المصريين، فإنهم حافظوا على عاداتهم وقوانينهم وظلوا يعبدون آلهتهم القديمة، فكان يتم في داخلها تعليم اللغة المصرية التي تمسك بها المصريون، حتى هؤلاء الذين تعلموا اللغة اليونانية منهم، فإن الثقافة اليونانية ظلت بالنسبة لهم مجرد قشرة خارجية وطريقاً للحصول على الوظائف في الإدارة البطلمية(١٣).

خامساً: اللغــة:

كانت اللغة الرسمية في مصر البطلمية هي ***اللغة اليونانية*** وهي لغة الطبقة الحاكمة، أما المصريون فقد استمروا يتحدثون ***اللغة المصرية القديمة***، وكانت جميع مراسلات الدولة تتم باللغة اليونانية.

ومما ساعد على انتشار اللغة اليونانية إلى حد ما، أن جميع العناصر الأجنبية كانت تستخدمها، كما رأينا في حالة اليهود، فهي لغة الإدارة والترقية في الوظائف البطلمية ***إذ كل من يريد الترقي الإداري تحت لواء البطالمة يجب أن يتقنها***. فلذلك كان الكثيرون من المصريين الطموحين يتعلمون اللغة اليونانية، ويصطبغون بالصبغة

---

(١٣) انظر: المرجع السابق، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

اليونانية تدريجياً، ومن مظاهر ذلك اتخاذهم أسماء يونانية أيضاً حيث إنه منذ منتصف القرن الثاني ق.م، لم يعد الاسم اليوناني في المصادر يدل على أن صاحبه من عنصر يوناني إطلاقاً، إذ يمكن أن يكون صاحبه مصرياً أو سورياً أو يهودياً أو يونانياً أو من أبوين مختلفي الجنس.

سادساً: الديانــة:

اتسمت السياسة الدينية للبطالمة بشكل عام بروح التسامح وأولوا الديانة المصرية اهتماماً كبيراً، وساروا على نهج الإسكندر الذي كان حريصاً على التأكيد بانتسابه للإله آمون وحرص على أن يتوّج كملك في منف على غرار الفراعنة، وليس ذلك فحسب، بل حمل ثلاثة من ألقاب الفراعنة[(١٤)]. وتبع الإسكندر في ذلك البطالمة أيضاً الذين ساروا على نهج الفراعنة اعتباراً من فترة ***بطلميوس الرابع*** الذي حرص على أن يتم تتويجه في منف، ودرج الملوك البطالمة من بعده على أن يقوموا بمثل هذه الطقوس الملكية في التتويج.

أما الملوك الثلاثة الأوائل من البطالمة لم تتم مراسم تتويجهم في منف كفراعنة، وهو أمر ربما كان مردّه، إلى اعتقادهم بأنه لا حاجة لهم إلى هذا الأجراء باعتبارهم خلفاء الإسكندر الذي توّج فرعوناً في منف.

وقد حرص البطالمة على إظهار احترامهم للديانة المصرية، وكان الإسكندر الأكبر قد بادر بتقديم القرابين للآلهة المصرية فور دخوله إلى مصر[(١٥)]، وحذا حذوه بطلميوس الأول فقدّم القرابين للآلهة المصرية، وقام بإعادة تماثيل الآلهة المصرية التي كان الفرس قد استولوا عليها أثناء احتلالهم لمصر، واهتم جميع الملوك البطالمة

---

(١٤) الألقاب الثلاثة التي حملها الإسكندر هي: ١ ـ ***حورس***، ٢ ـ ***نسوت بيتي (أي ملك مصر العليا والسفلى)***، ٣ ـ ***سارع (أي ابن رع)***. عن الآراء التي دارت حول تتويج الإسكندر انظر: ***إبراهيم نصحي***، الجزء الثاني، ص ١٤.

(١٥) انظر: المرجع السابق، ص ٢٩.

بإنشاء المعابد المصرية التي ما زال البعض منها شامخاً حتى يومنا هذا ومعظمها يقع في صعيد مصر.

وقد تمتع الكهنة المصريون بمكانة رفيعة في البلاد، ولكن تحت رقابة البطالمة خوفاً من زيادة نفوذهم، إذ انحصر نشاطهم في ممارسة الشعائر. ومن ناحيتهم حرص الكهنة على إظهار ولائهم للملوك البطالمة بإصدارهم في كل عام مرسوم الولاء للملك. ومن أشهر هذه المراسيم قرار (**كانوب**) الذي أصدره الكهنة في عهد بطلميوس الثالث في عام ٢٣٧ ق.م[١٦]، وكذلك القرار الذي أصدره الكهنة وحُفظ في حجر رشيد في عهد الملك بطلميوس الخامس في عام ١٩٧ ق.م.

إلا أن الكهنة حصلوا على المزيد من المكاسب في الشطر الثاني من عصر البطالمة، نتيجة ضعف السلطة المركزية، ويأتي ذلك في إطار ازدياد أهمية المصريين بعد النصر الذي أحرزوه في موقعة رفح.

أما عن موقف البطالمة من الديانة اليونانية وبسبب شعورهم بالحاجة إلى إضفاء شرعية على حكمهم، فإنهم استندوا إلى بعض المعتقدات في التراث اليوناني والقائلة بأن مؤسسي المدن يجب أن يرفعوا إلى مصاف الآلهة. ولما كان الإسكندر ومن بعده بطلميوس الأول من مؤسسي المدن، فإنهما استحقا هذه المرتبة. ***فقام بطلميوس الأول بتأليه الإسكندر، وأعلنت رودوس تأليه بطلميوس الأول عرفاناً بما قدمه لها من مساعدات، وأطلقت عليه لقب الإله المنقذ سوتير (SOTER)***، وتلى ذلك إنشاء عبادة أسرة البطالمة. وجاءت الخطوة الأولى (***كما ذكرنا سابقاً***) على يد بطلميوس الثاني في عام ٢٧١ - ٢٧٠ ق.م، حين قرر رفع والديه إلى مصاف الآلهة، وربط عبادتهما بعبادة الإسكندر، وأصبح كل ملك يرتقي العرش يتمتع بهذه المكانة ويحمل لقباً إلهياً[١٧].

---

(١٦) وهو قرار (***كانوب الشهير***) الذي صدر عن مجمع الكهنة المصريين في كانوب (***أبي قير حالياً***) سنة ٣٢٧ ق.م، وتوجد ترجمة إنكليزية للقرار في كتاب:

BEVAN. E: A HISTORY OF EGYPT UNDRE THE PTOLEMAIC, DYNASTY 1927, P 208.

(17) ***ROSTOVTZEFF***, OP. CIT, P 268.

وكما اتسم موقف البطالمة بروح التسامح الديني مع الديانة المصرية والديانات الأخرى العائدة لبعض الجاليات الأجنبية من فرس وسوريين وعرب، اتسم موقفهم أيضاً بنفس هذا الاتجاه مع الديانة اليونانية، فانتشرت المعابد اليونانية والمهرجانات الدينية في شتى أرجاء البلاد كمهرجان عيد البطوليمايا (***PTOLEMAEA***) الذي أقامه بطلميوس الثاني تكريماً لوالده، ووصل الأمر إلى أبعد من ذلك بتأثر الديانة اليونانية بالعبادات المصرية وتشبيه الآلهة اليونانية بالآلهة المصرية، ***فربطوا بين الإله آمون والإله زيوس (ZEUS) كبير الآلهة في الديانة اليونانية، وكذلك ربطوا ما بين الإله حورس والإله أبوللون، والربة حتحور المصرية بالربة أفروديتي ربة الحب والجمال عند اليونانيين.*** إلا أن اليونان لم يتآلفوا مع عبادة الحيوانات التي كان المصريون يمارسونها.

وقد أدرك البطالمة أنه لأجل إيجاد الوحدة السياسية للدولة، كان لا بد من إيجاد الوحدة الدينية التي تشمل أهم العناصر في الدولة وهم المصريون واليونان(١٨). فلذلك كان على بطلميوس أن يتخيّر إلهاً يقبله كل من المصريين واليونان معاً، ووجد هذه الوسيلة في شخصية إله محلي صغير حتى يمكن إرضاء كهنته بسهولة عن طريق شعورهم بالغرور لازدياد أهمية إلههم. وتجسدت هذه الوسيلة في شخصية الإله المحلي (***أوزير آبيس***) في مدينة ممفيس. وهو عجل آبيس الذي كان بعد موته يتحد بالإله (***أوزيريس***) ويصبح (***أوزير آبيس***). وكان المقر الأصلي لهذا الإله مدينة ممفيس عاصمة مصر آنذاك، ولم يقتصر اتباع هذا الإله على المصريين فقط، بل كان منهم أجانب ويونانيون بالذات. إذن فأوزير آبيس له من الصفات ما يرشحه ليقوم بدور إله الدولة الجديد. وأجريت بعض التعديلات على شخصية هذا الإله حتى يتقبله اليونان عموماً الذين لم يألفوا عادات المصريين في تمثيل آلهتهم في صورة حيوانية. ولهذا من أجل أغرقة هذا الإله أُدْخِل عليه تعديلان:

---

(١٨) حول سياسة البطالمة الدينية انظر: ***إبراهيم نصحي***، الجزء الثاني، ص ١٨٥ ـ ٢٠٧.

الأول يمس أسمه فأصبح سرابيس بدلاً من أوزير آبيس ليسهل على اليونان نطقه.

والآخر تمثيله في صورة إنسانية بدلاً من صورة العجل. وبعد ذلك أنشئ له معبد كبير في الإسكندرية في الحي الشعبي الذي كان يقع في موقع قرية (***راقودة القديمة***). وأصبح معبد الإسكندرية هو المعبد الرئيسي والرسمي لهذه العبادة ومركزاً لإشعاعه إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط. وسرعان ما خُلعت على الإله الجديد الصفات الإلهية المتعددة فهو ***أوزيريس المنقذ وإله الشفاء والخصب والوحي والحياة الثانية، وشُبه بعدد من الآلهة اليونانية التي تتفق مع صفاته مثل اسكلبيوس وديونيسيوس وزيوس.***

وقد ألحقت بالإله سرابيس الزوجة ***إيزيس*** والابن ***حورس***، وأصبح هذا الثالوث يشكل القسم الرسمي للدولة البطلمية حيث كان يُذكر سرابيس وإيزيس باسميهما دون سائر الآلهة الأخرى على الصيغة التالية (***أقسم بسرابيس وإيزيس وبسائر الآلهة والآلهات الأخريات***). ولم يكن في ذلك صعوبة لأن هذا الثالوث مصري أصلاً، وفي الوقت نفسه كان اليونان قد اعتادوا أسر الآلهة مثل الأسرة الأولمبية. ومن ناحية أخرى كانت إيزيس منتشرة ومحبوبة لدى كثير من الشعوب، وكانت قد وصلت إلى اليونان حتى قبل أن يحضر الإسكندر[١٩].

---

(١٩) انظر: ***مصطفى العبادي***، ص ٥٢.



البحـــث الثالث عشـــر

الحيـــاة الاقتصاديـــة

أولاً: الزراعـــة :

اهتم البطالمة بالزراعة باعتبارها الركيزة الأولى للاقتصاد المصري، فوجهوا اهتماماً كبيراً إلى إصلاح نظام الري، وإقامة الجسور، وإدخال زراعات جديدة، وتحسين الثروة الحيوانية، واستيراد سلالات جديدة لكي تتلاءم مع حاجات البلاد. وبفضل تركيز الإدارة الاقتصادية في يد الحكومة، تم إقامة المنشآت العامة للتحكم في فيضان النيل، وإنشاء الطرق، وتشييد المباني، وتمهيد السبيل للأعمال الهندسية الكبرى التي تمت في أيام الحكم الروماني. إذ جفف بطلميوس الثاني بحيرة موريس، وحوّل قاعها إلى مساحات واسعة من الأراضي الخصبة وتم توزيعها على جنوده، وشرع في عام ٢٥٨ق.م بإعادة فتح القناة التي تصل النيل بالقرب من عين شمس بالبحر الأحمر قرب السويس. وكان نخاو ودارا قد حفرا هذه القناة من قبل، ولكن العوامل الطبيعية من رمال وأتربة قامت بطمر هذه القناة.

وشهد إقليم الفيوم على وجه الخصوص نشاطاً ملحوظاً في تحسين شبكة الري والصرف، وجرى استصلاح مساحات شاسعة من الأرض، وإقامة قرى جديدة من أجل استيعاب الأعداد الغفيرة التي وفدت إلى البلاد من اليونان. ومن أشهر تلك القرى قرية فيلادلفيا (***PHILADELPHIA***). كما تم إدخال المكننة الزراعية في الري والصرف، إذ عمل المهندسون اليونان الذين استخدمتهم الحكومة على تحسين

الأساليب القديمة، واستخدام وسائل أكثر انطباقاً على العلم والإنتاج الضيق الوفير، فتم استبدال الشادوف بالناعورة أو الساقية، وهي عجلة كبيرة يبلغ طول قطرها أحياناً أربعين قدماً يعلق عليها دلاء غير مشدود على حافتها الخارجية، فإذا وصل الدلو إلى أعلى مكان في العجلة أثناء دورتها مال على قضيب وأفرغ ما فيه من الماء في حوض، ويُذكر أن هذه الآلة لا زالت مستخدمة في بعض أنحاء من الريف المصري حتى الآن[1].

ودرج المؤرخون اعتباراً من النصف الأول من القرن العشرين على تقسيم أرض مصر في عصر البطالمة إلى قسمين أساسيين هما أرض الملك (***GEBASILIKE***) وأرض عطاء (***GE EN APHESEI***) ويقصد بالقسم الأخير أنواع مختلفة من الأرض مثل أرض المعابد، والإقطاعات العسكرية، والإقطاعات الكبيرة الموهوبة من الملك لكبار موظفيه. وهذا القسم الأخير من الأرض، يعني أن زراعة الأرض وما تغلّه من محصول خاضع لإرادة الدولة، ولا يجوز لصاحب الأرض أو مستغلها أن يتصرف في المحصول إلا بعد أن تأخذ الدولة نصيبها، ويكون الباقي من المحصول بعد ذلك بمثابة هبة (***APHESIS***) لصاحب الأرض أو مستغلها، أي أن هذا الاصطلاح يصيب محصول الأرض وليست الأرض نفسها[2].

وقد وجه سياسة البطالمة في مجال الزراعة عاملان اثنان: ***الأول هو العمل على بناء دولة قوية اقتصادياً تحت حكمهم المكي المطلق. والثاني هو إقامة عدد كبير من اليونان الذين حضروا إلى مصر، وكانوا العنصر الأساسي في بناء جيشهم وإدارتهم للبلاد.*** وبطبيعة الحال نفذت هذه السياسة على نحو يتلاءم وظروف مصر وتقاليدها، وتظهر الوثائق أن هذه السياسة قد تم تطبيقها منذ منتصف القرن الثالث ق.م.

---

(١) انظر: ***ول ديورانت، قصة الحضارة***، الجزء الثالث من المجلد الثاني، الكتاب الثامن، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٥٤، ص ٦٦.

(٢) حول نظام الأراضي الزراعية في مصر البطلمية انظر:

ROSTOVTZEFF, SOCIAL AND ECONOMIC HISTORY OF THE HELLNISTIC , WORLD 1953 , VOL 1, P 269 – 290 AND VOL II P, 726 - 733.

وتنقسم أرض مصر في عصر البطالمة إلى الأنواع التالية:

١ - *أرض الملك.*

٢ - *أرض المعابد.*

٣ - *إقطاعات الموظفين.*

٤ - *إقطاعات العسكريين.*

٥ - *الملكية الشخصية.*

٦ - *أرض المدن.*

١ - *أرض الملك (GE BASILIKE):*

أخذ البطالمة في مجال السياسة الاقتصادية بشكل عام بمبدأ ملكية الدولة الاشتراكية ممثلة في شخص الملك، ولهذا كانت أرض الملك تحتل الرقعة الكبرى من الأرض الزراعية في مصر، وقد تكونت من أملاك القصر الملكي سابقاً في العصر الفرعوني التي آلت إلى الملك البطلمي، وكذلك من أراضي الأمراء المصريين والكهنة السابقين. إضافة إلى ذلك جميع الأراضي التي هجرها أصحابها وسقطت عنها الملكية لأي سبب كان، ومجموع هذه الأراضي تتبع شخص الملك وتديرها هيئة بيروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين. وكان هؤلاء الموظفون يعينون لكل مزارع تقريباً قطعة الأرض التي ينبغي أن يزرعها والمحصولات التي يجب أن ينتجها، ويطلق على هؤلاء المزارعين (***فلاحو أو مزارعو الملك***) (***BASILIKOI GEOAGOI***) وكانوا يستأجرون الأرض نظير إيجار عيني يؤخذ من محصول الأرض، وذلك بموجب عقد يعقد لمدة محددة بين المزارع وممثل الملك من الموظفين. وكان هؤلاء المزارعون يخضعون لرقابة صارمة من رجال الملك، ولم يكونوا أحراراً في الانتقال من مكان إلى مكان آخر وبشكل خاص في مواسم العمل[٣]. ولم يكونوا أحراراً أيضاً في اختيار المحاصيل التي

---

(٣) أخذت الإدارة البطلمية والرومانية فيما بعد بنظام الموطن***IDIA***، وهو نظام يقضي بأن يكون لكل شخص موطن محدد لا يجوز له تركه إلا بعد الحصول على إذن من رجال الإدارة في موطنه. انظر: ***أبو اليسر فرح، الدولة والفرد في مصر في عصر الرومان،*** القاهرة ١٩٩٤ م، ص ٤١ ـ ٥٢.

يزرعونها في الأرض المستأجرة، بل كانت الدولة تلزمهم بزراعة محاصيل طبقاً للائحة محددة، ولا يجوز للمزارع حصاد المحصول قبل حضور موظفي الملك، من أجل تقدير قيمة المحصول لضمان تحصيل مستحقات الدولة.

وكان في وسع الدولة أن تجنّد المزارع هو ودوابه للعمل في المناجم، وإقامة المباني العامة، والصيد، وشق قنوات الري، وإنشاء الطرق، وكانت محاصيله الزراعية تُكال بمكاييل حكومية خاصة، ويدوّن الموظفون مقدارها، وتطحن في أجران الملك، ويحملها المزارعون أنفسهم إلى مخازن الحكومة.

ونظراً لأن الشروط التي تضمنها هذه العقود كانت مجحفة بالمزارعين، فكثيراً ما عجزوا عن تنفيذ شروط العقد ولجؤوا إلى الفرار من الأرض فيما يُعرف بظاهرة الهروب (***ANACHORESIS***) واتخذ أحياناً هروبهم شكل الالتجاء إلى المعابد، بأن يهب الفرد نفسه لخدمة الإله. وفي هذه الحالة لا تستطيع سلطة الدولة أن تناله بسوء، احتراماً لحق المعابد في الحماية(٤).

٢ - أرض المعابد *(GE HIERA)* :

كانت المعابد المصرية الكبرى واسعة الثراء لما تجمّع لها من هبات الملوك السنوية وأوقاف الأفراد على مر القرون. وقد لاحظ **كليومنيس** وزير مالية الإسكندر في مصر ضخامة أملاك المعابد في مصر، وحاول أن يضعف من مركزهم المالي. إذ لجأ البطالمة إلى سلب الكهنة سلطة السيطرة على أملاك المعابد، ووضعوا هذه الأملاك تحت إشراف الدولة المباشر. فكانت الدولة هي التي تقوم باستغلال الأراضي أو تأجيرها وتجبي عنها الإيجارات والمداخيل المختلفة بدلاً من المعابد، نظير أن تنفق هي على المعابد والكهنة. وتنقسم أرض المعابد إلى نوعين، ***الأول ما هو مخصص للكهنة لكي يقوموا بزراعتها ويكون دخلها بمنزلة راتب لهم. أما القسم الثاني فكان يخصص دخله للإنفاق على شؤون العبادة،*** وكانت المعابد تتمتع بثروة زراعية كبيرة، لذا فقد حرصت الدولة على إبقاء ثروات المعابد تحت رقابتها، ***إلا أن الشطر الثاني من عصر***

---

(٤) انظر: المرجع السابق، ص ٥٣ ـ ٧٧.

البطالمة شهد ضعف قبضة الدولة على المعابد، بسبب ضعف الملوك الذين حرصوا على استرضاء الكهنة.

٣ . إقطاعات الموظفين (*GE EN DOREAI*) :

وهي الأرض التي كان البطالمة يمنحونها لكبار موظفيهم بدلاً من منحهم رواتب نقدية منتظمة. وكان لهذه السياسة فائدة مزدوجة، ***فهي من ناحية توفر للدولة قدراً كبيراً من العملة الفضية، ومن ناحية أخرى كانت وسيلة ناجحة في زيادة رقعة الأرض المزروعة في مصر،*** لأن هذه الإقطاعات كانت تتكّون عادة من أرض بور في حاجة إلى استصلاح. وكانت هذه الإقطاعات منحة شخصية من الملك للموظفين يجوز له استردادها في حالة ترك صاحبها للمنصب الذي يشغله.

وخير مثال لمثل هذا النوع من الإقطاعات هي تلك الضيعة التي منحها بطلميوس الثاني لوزير ماليته المعروف أبولونيوس (***APOLLONIOS***) في قرية فيلادلفيا، وكان يقوم بإدارتها زينون (***ZENON***) الذي بينت بردياته، أن الجزء الأكبر من هذه الضيعة كان أرض بور ثم استصلحت عن طريق مد الترع والجسور[٥]. وقد ظل أبولونيوس يتمتع بهذا الإقطاع الكبير طالما كان في خدمة الملك، ثم صودر عندما فصل أبولونيوس من الخدمة، بعد ذلك آل هذا الإقطاع إلى موظف آخر. ويبدو أن عدداً كبيراً من كبار الموظفين تمتع بمثل هذه الإقطاعات (***DOREAE***) منذ عصر مبكر في الدولة البطلمية، يثبت ذلك بردية الدخل المشهورة من عصر بطلميوس الثاني حيث ورد فيها ذكر (***DOREA***) في أماكن متعددة.

٤ - الإقطاعات العسكرية (*GE KLEROUCHIA*) :

اعتمد البطالمة في تكوين جيوشهم على اليونان والأجانب، وقاموا بإقطاعهم مساحات من الأرض يكون دخلها بمنزلة راتب لهم. وكان يطلق على هذه

---

(٥) عن هذه الضيعة وشخصية زينون انظر:

ROSOVTZEFF. M: A LARGE ESTATE IN EGPT IN THE THIRD CENTURY B. C. MADISAN, 1922.

الإقطاعات اسم كليروس (***KLEROS***) ويسمى الشخص الذي في حوزته الإقطاع كليروخس (***KLEROUCHOS***) وهي أصغر من إقطاعات الموظفين، وكذلك اختلفت مساحات هذه الإقطاعات العسكرية حسب مراتب الجنود والضباط. وقد أرادت الدولة من هذا النظام أن تحقق عدة أهداف، ***أولها: تشجيع هؤلاء الجنود على البقاء في مصر، وثانيها: استغلال جهودهم في استصلاح مساحات جديدة من الأراضي الزراعية.***

ومنذ نهاية القرن الثالث ق.م، بدأ البطالمة في استخدام المصريين بأعداد كبيرة في جيوشهم، وعومل هؤلاء الجنود المصريون معاملة شبيهة بالجنود اليونان، فمنحوا إقطاعات (***KLEROI***) ولكن على شكل مساحات أصغر (خمس أو سبع المساحة من الإقطاعات السابقة) ولهذا أطلق على أصحاب هذه الإقطاعات الصغيرة من المصريين (***KLEROUCHOI***).

وقد اشتركت هذه الإقطاعات العسكرية بشكل عام مع إقطاعات الموظفين الكبرى في ناحيتين اثنتين: ***الأولى أنها من أرض بور على صاحبها القيام بمهمة استصلاحها، والثانية أنها منحة من الملك للجندي مدى الحياة، ويجوز للملك استردادها متى شاء لسبب أو آخر، مثل وفاة الجندي الذي في حوزته الأرض، أو إذا عجز عن دفع الضرائب المستحقة عن أرضه للدولة.*** ومع ذلك تحولت الإقطاعات العسكرية بمرور الزمن من كونها منحة مؤقتة من الملك إلى أن أصبحت في الواقع ملكية خاصة في نهاية القرن الثاني ق.م. ***وقد تم ذلك على مراحل ابتدأت بالسماح بتوريثها وانتهت بملكيتها الخاصة بالبيع والتوريث بالهبة.*** وقد تغيرت أوضاع أراضي الإقطاعات العسكرية في الشطر الثاني من عصر البطالمة في عدة مظاهر، ***لعل أبرزها ازدياد المساحات المخصصة للجنود المصريين على حساب أرض الملك، وكانت تنتهي في كثير من الأحيان إلى أن تصبح ملكية شخصية***[٦].

---

(٦) على ما يبدو أن مثل هذا الواقع لم يطبق في جميع أنحاء مصر، لأن ازدياد المساحات من الأراضي الزراعية التي منحت للجنود المصريين، كانت تنحصر في منطقة الفيوم لأن لها وضعاً خاصاً، إذ أن الإقطاعات البطلمية كانت في الفيوم أكثر من غيرها في مناطق مصر.

٥ - *أراضي الملكية الشخصية (**GE KTEMATA**) :*

ما زالت نشأة الملكية الشخصية للأرض في العصر البطلمي موضع خلاف بين المؤرخين، فمنهم من يرى أنها نشأت ونمت تحت حكم البطالمة، ومنهم من يرى أنها كانت موجودة من قبل منذ العصر الفرعوني. ولكن على الأرجح، كانت الملكية الشخصية موجودة عندما حضر البطالمة إلى مصر واستمرت ونمت تحت حكمهم. وقد ساعد على نموها عاملان: ***الأول هو تحول الإقطاعات العسكرية إلى ملكية شخصية كما أوضحنا سابقاً، رغم أن سياسة الدولة لم تهدف إلى ذلك أصلاً. أما العامل الثاني فكان نتيجة لبعض مشاريع استصلاح الأراضي البور التي انتهجها البطالمة وهي التي تعرف بنظام (EMPHYTEUSIS).***

ونتيجة لمثل هذه المشروعات التشجيعية، وكذلك بسبب تحول الإقطاعات العسكرية تدريجياً إلى ملكية خاصة، زادت أراضي الملكية الخاصة في مصر كثيراً في نهاية القرن الثاني ق.م. ويبدو أن هذه الزيادة كانت تطوراً طبيعياً لظروف القرنين الثالث والثاني ق.م. ولم تكن مثل هذه السياسة مقصودة من قبل البطالمة لخلق طبقة من ملاكي الأراضي الزراعية، لأننا في ضوء ما نعرفه أن الشخص الوحيد في مصر الذي كان يجوز له امتلاك ملكية خاصة من الأراضي الزراعية هو الملك فقط.

٦- *أراضي المدن (**GE POLITIKE**) :*

وهي الأراضي التي كانت الدولة تخصصها للمدن التي كانت تتمتع بوضع المدينة اليونانية (***POLIS***). فكان لمدينة بطلمية التي أنشأها بطلميوس الأول في صعيد مصر أرض خاصة سميت (***GE POLITIKE***)، أما في حالة الإسكندرية فسميت (أرض الإسكندريين) (***ALEXADREON CHORA***) ويبدو أن الإسكندر الأكبر هو الذي منح الإسكندرية هذه الأرض[٧]. وكان مواطنو هذه المدن يتمتعون بحق تملك

---

(٧) انظر وصف مساحة هذه الأرض في:

PSEUDO CALLISTHENES.

هذه الأراضي التي تمتعت بإعفاءات وامتيازات مختلفة فيما يتعلق بالضرائب وخاصة الإسكندرية.

ثانياً: الصناعـة:

إن الأساس الذي قامت عليه سياسة البطالمة هو سيطرة الدولة على اقتصاد البلاد، ولكن هذه السيطرة اختلفت درجتها بين الاحتكار التام والإشراف الجزئي(٨). فمن بين الصناعات التي خضعت لاحتكار الدولة الكامل ***صناعتا الزيت والملح***، ومصدرنا الأساسي عن ***سياسة الاحتكار*** التي مارستها الدولة في مجال الصناعة بردية هامة تُعد من أطول الوثائق البردية التي ترجع إلى عصر البطالمة تُعرف باسم (***بردية قـوانين الـدخل للملـك بطلميـوس فيلادلفيـوس) (REVENUE LAWS OF PTOLEMY PHILADELPHUS***)، وتطلعنا هذه الوثيقة على مدى تحكم الدولة الكامل في جميع مراحل إنتاج الزيت. فالدولة هي التي تحدد كل سنة مساحة الأرض التي يجب على كل (***نوموس***) (***محافظة أو مديرية***) أن تزرعها بالزيتون، وكانت إدارة كل نوموس تقوم بتنفيذ أوامر السلطة المركزية حسب القرى وأحوال الأرض الزراعية فيها. وكانت محاصيل الزيتون تنقل بواسطة ممثل الدولة إلى المعاصر الحكومية المنتشرة في القرى والمدن، علماً بأن الدولة لم تسمح بوجود المعاصر الخاصة باستثناء معاصر المعابد التي كانت تعمل في نطاق ضيق جداً وتحت إشراف دقيق من الحكومة. ورغم أن عمال المعاصر كانوا أحراراً من الناحية القانونية أي ليسوا رقيقاً، إلا أنهم يتبعون الحكومة وملزمون بالعمل في معاصرها حسب الشروط التي تمليها عليهم. وكان الزيت يعصر بعصارات من كتل الأخشاب الضخمة يحرّكها أقنان الأرض، ثم يخرج الزيت من المعاصر إلى حوانيت معينة في المدن والقرى المرخص لها ببيع الزيت بأسعار تحددها الدولة على نحو يحقق لها الربح الوفير الذي كان يتراوح عادة بين ٧٠ -٣٠٠٪(٩).

---

(8) ***CL, PREAUX***: L ECONOMIE ROYALE DES LAGIDES, 1939, P61.

(٩) انظر: ***ول ديورانت***، الجزء الثاني من المجلد الثاني، ص ٦٧.

وكذلك الأمر كانت الحكومة تجبي أرباحاً مماثلة لهذا الربح من **الملح والنطرون (كربونات الصودا المستخدمة في صناعة الصابون).**

لم يطلق البطالمة سياسة الاحتكار هذه على جميع الصناعات، ففي أحيان كثيرة سمحت الدولة بوجود مصانع خاصة تعمل تحت إشرافها فقط، ونلحظ تطبيق مثل هذه السياسة في صناعة ***المنسوجات الصوفية*** التي كانت تتمتع بقدر أكبر من الحرية، فلم تحتكرها الدولة احتكاراً كاملاً، بل سمحت للأفراد بإنتاج المنسوجات الصوفية نظير التزامات يؤدونها للدولة(١٠).

ومن الصناعات الهامة التي كانت مصر مركزها الوحيد في العالم القديم ***صناعة الورق من نبات البردي*** الذي سمحت الدولة بإنتاجه دون قيود على الأفراد، إلا أنها فرضت رقابة صارمة لحماية إنتاجها من ورق البردي، وكانت تفرض على الموزعين أن يقتصروا على الشراء من مصانع الحكومة وألا يستخدموا ما ينتجه الأفراد، ومعنى هذا أن البطالمة أقاموا احتكاراً جزئياً لإنتاج البردي وتوزيعه الداخلي في مصر. أما عن تصدير البردي للعالم الخارجي، فيبدو أن بطلميوس الثاني فيلادلفيوس قد أخضعه لسيطرة الدولة التامة، وأن الملوك من بعده اتبعوا نفس هذه السياسة.

إلى جانب هذه الصناعات، ازدهرت صناعات أخرى مثل ***الزجاج والفخار والخمور والعطور والتوابل وقطع الأثاث والأبسطة ومواد التجميل التي كانت تصّنع بكميات كبيرة والأدوات اللولبية والتروس.*** وكانت هذه الصناعات اليدوية تقوم بها هيئات من العمال يتوارث أعضاؤها صناعاتهم بحكم التقاليد المرعية. وكانوا بحكم هذه التقاليد مرتبطين بقراهم ومنازلهم أيضاً. وتقدمت ***كيمياء الصباغة*** تقدماً كبيراً إلى حد استطاعوا معه أن يعالجوا الأقمشة بالقواعد الكيميائية المختلفة بحيث إذا غمر القماش في صبغة واحدة نتج عن ذلك عدد من الألوان الثابتة. وقد اشتهرت الإسكندرية بمثل هذه الصناعة التي كان يديرها عادة العبيد، وكانت نفقاتهم القليلة

---

(10) ***CL, PREAUX***, P 96.

تمكّن البطالمة من أن يبيعوا هذا الإنتاج في الأسواق الأجنبية بأقل مما تباع به المصنوعات اليدوية اليونانية.

أما في ***صناعة المعادن***، فكانت الدولة هي التي تملك المناجم وتديرها بنفسها وتستولي على ما يخرج منها. واستغل البطالمة رواسب الذهب الغنية في بلاد النوبة وكانت لهم عملة ذهبية مستقرة، وكانوا يسيطرون على مناجم النحاس في قبرص وطور سيناء.

ثالثاً: التجارة :

طبق البطالمة في مجال التجارة المعايير نفسها التي طبقوها في مجال الزراعة والصناعة والتي تقوم على تدخل الدولة في جميع أوجه النشاط الاقتصادي. ***ففي مجال التجارة الداخلية*** أحكمت الدولة رقابتها على الأسواق وتدخلت في تحديد أسعار السلع، وخاصة تلك التي كانت تخضع لسياسة الاحتكار. فبائعو المفرّق عادة (***أي التجزئة***) كانوا وكلاء معينين من قبل الدولة لتوزيع البضائع المناطة بالاحتكار. وكانت الدولة تمتلك جميع طرق القوافل والطرق المائية، وقد أدخل بطلميوس الثاني ***الجمل*** في مصر وأقام مخفراً من راكبي الجمال في الجنوب يتولى إلى جانب نقل البريد الرسائل التجارية كلها تقريباً، وكان نهر النيل غاصاً بسفن الركاب والبضائع، ويبدو أن هذه السفن كانت ملكاً للأفراد، ولكنها خاضعة لأنظمة الدولة.

أما في مجال ***السياسة الخارجية***، فإن البطالمة الأوائل كانوا أقوياء إلى حد أنّهم تحكموا في جزء كبير من تجارة القمح الخارجية، نظراً لأنه كان السلعة الأساسية مع ورق البردي التي كان البطالمة يحصلون على نظيرها على ما يحتاجون إليه من فضة وحديد وخشب. وكان الملك البطلمي يُعد من أكبر تجّار الغلال في العالم حيث أنشأ أسطولاً كبيراً لتجارة البحر الأبيض المتوسط، وكان أعظم أسطول تجاري في ذلك الوقت، وكانت حمولة السفينة الواحدة منه تبلغ **٣٠٠** طن[١١]. وأصبحت

---

(١١) انظر: ***ول ديورانت***، ص ٦٨.

الإسكندرية من أهم المراكز التجارية في العالم، فكانت ترد إلى أسواق المدينة منتجات إفريقية مثل ***العاج والأبنوس والذهب والتوابل***، وكذلك منتجات الهند والصين، ومنتجات بلاد اليونان مثل ***زيت الزيتون والنبيذ والعسل والسمك المملح واللحوم والإسفنج***. وكان يوجد في الإسكندرية مندوبون تجاريون من بلاد كثيرة مثل بلاد الغال (***فرنسا***) وإيطالية وشمال إفريقيا وفارس. كما كانت الإسكندرية مركزاً لتصدير منتجات مصر، وأهمها ***القمح*** الذي كان ينقل من سائر أنحاء البلاد عن طريق القوارب في النيل، ويتم تجميعه في أسواق القمح العظيمة في الإسكندرية، كما كانت الإسكندرية تقوم بتصدير بعض المنتجات التي اشتهرت بصناعتها مصر مثل ***الزجاج ونسيج الكتان وأوراق البردي***. ولم تكن الإسكندرية هي المنفذ التجاري الوحيد، بل وجدت أيضاً العديد من الموانئ على البحر الأحمر حيث يذكر ***استرابون***، من أن الإسكندريين كانوا يستخدمون ما لا يقل عن عشرين سفينة في نقل بضائعهم في البحر الأحمر في العصر البطلمي(١٢). ويؤيد قول استرابون أيضاً عدد من النقوش التي عثر عليها في صعيد مصر ويثبت وجود تجارة نشطة مع الجنوب العربي، الذي كان بدوره نقطة الاتصال مع بلاد الهند.

وإذا تحكمت الدولة في تجارة بعض السلع مثل القمح والبردي، فهذا لا يعني أنه لم توجد تجارة خارجية حرة، فهناك من الأدلة الكافية ما يثبت وجود تجارة خارجية حرة تحت سيطرة البطالمة قام بها أفراد من رعايا الدولة إلى جانب تجار أجانب. ففي حوض البحر الأبيض المتوسط عثر على عدد من النقوش التي تثبت وجود علاقات تجارية حرة بين الإسكندرية وجزيرة ديلوس(١٣). ومما يدل على أهمية التجار الأجانب الذين حضروا لأجل التجارة في مصر، البيان الملكي الذي أصدره بطلميوس فيلادلفيوس (الثاني) يأمر فيه جميع التجار الأجانب بوجوب استبدال ما

---

(١٢) انظر: ***استرابون***، الجغرافية ٢، ٥، ١٢ ثم ١٧، ١، ١٣. ثم انظر:

FRASER, P, M: OP CIT, PP, 135.

(13) ***CL, PREAUX***, P 150.

يوجد معهم من عملة أجنبية ذهبية أو فضية بعملة فضية بطلمية جديدة ليستخدموها في عقد صفقاتهم التجارية في الإسكندرية وداخل البلاد[14]. ويمكننا أن نستنتج من هذا البيان ناحيتين اثنتين: ***الأولى تدلنا على وجود رقابة على النقد الأجنبي، والثانية: تدل على أن هؤلاء التجار الأجانب كانوا أحراراً في التنقل إلى داخل البلاد،*** مما يؤكد أن الدولة لم تتدخل في تحديد نشاطهم التجاري. ولقد شملت تجارة مصر الخارجية معظم الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل فلسطين وسورية وآسية الصغرى وبلاد اليونان وكذلك إيطالية وشمال أفريقية في الغرب.

وقد كان للتجارة الشرقية في البحر الأحمر أهمية خاصة، لأنها كانت المصدر الوحيد لأنواع من السلع مثل التوابل والعاج. ***وكان المصريون يقومون باستيراد هذه السلع لصنعها في مصر أولاً، ثم إعادة تصديرها بأسعار مرتفعة إلى مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط في الشمال ثانياً.*** وكانت قيمة هذه التجارة الشرقية تدفع عن طريق تصدير أنواع راقية وجيدة من المنسوجات الكتانية المصرية.

---

(١٤) انظر: ***مصطفى العبادي***، ص ١٤٢.

البحــث الرابـع عشــر

الحيـــاة الثقافيـــة

أولاً: الحياة العلمية العامة :

من الصفحات المشرقة في تاريخ الأسرة البطلمية، اهتمامهم البالغ بجعل الإسكندرية ***مركزاً ثقافياً عالمياً***، ولقد نجحوا في تحقيق ذلك وعلى نحو أثار إعجاب المهتمين بتاريخ الحضارات قديماً وحديثاً، على عكس السلوقيين الذين برز اهتمامهم في ***بناء المدن والمستعمرات وأهملوا الجانب العلمي من حياتهم***.

فمنذ عصر مبكر من حكم البطالمة في مصر وجدنا الإسكندرية تنتزع مركز القيادة الثقافية في العالم اليوناني من أثينة. أما الخطة التي انتهجها البطالمة في سبيل تحقيق هذه الغاية فهي إنشاء دار خاصة للدراسة والبحث أطلقوا عليه اسم الموسيون (***MOUSEION***) ومعناها (***دار ربات الفنون***) وألحقوا بها مكتبة كبيرة جمعوا فيها الكتب بكميات هائلة وبذلوا في سبيل ذلك بسخاء[1].

وبفضل انتشار اللغة اليونانية واتخاذها لغة عامة، وجدت وحدة ثقافية عامة دامت في بلاد البحر الأبيض المتوسط ما يقرب من ألف عام. فكان جميع المتعلمين في حوض هذا البحر يتعلمون اللغة اليونانية ويتخذونها وسيلة للصلات الدبلوماسية، ولنشر الآداب والعلوم. وكانت الكتب المؤلفة باللغة اليونانية يفهمها كل المتعلمون

---

(1) ***E. A. PARSONS:*** THE ALEXANDRIA LIBRARY (LONDON) 1952.

تقريباً من غير أبناء اليونان في مصر والشرق الأدنى حتى حدا بهم أن وصفوا العالم كله بأنه ذات حضارة واحدة. وبرزت إلى الظهور ثورة تقنية في الوسائل العلمية كإنشاء خط دارج لتسهيل الكتابة، ***ووجدت طرق الاختزال التي يستطاع بها (التغيير عن بعض الحروف والحركات بشروط مختلفة الأوضاع)*** وظلت الكتب تكتب على أوراق البردي المصري حتى حرّم بطلميوس الرابع تصدير هذه المادة من مصر، وشجع ***يومنس الثاني*** العمل في صناعة معالجة جلود الضأن والعجول على نطاق واسع، وكانت هذه الجلود تستعمل للكتابة في بلاد الشرق القديم منذ زمن بعيد.

وإذا كان القرن الخامس ق.م شهد ذروة مجد الآداب، والقرن الرابع شهد ازدهار الفلسفة، ***فإن القرن الثالث ق.م الذي نحن بصدد دراسته شهد ذروة مجد العلوم الطبيعية، فالملوك كانوا أكثر تسامحاً وتشجيعاً في البحث العلمي***. من ذلك أن الإسكندر أرسل إلى المدن اليونانية القائمة على ساحل آسية الصغرى جمالاً محملة بألواح الفلك البابلية لم تلبث أن ترجمت إلى اللغة اليونانية، وأنشأ البطالمة المتحف الذي كان معهداً للدراسات العلمية الراقية، وجمعوا علوم البحر الأبيض المتوسط وثقافاتها في المكتبة. ***وقد كان لزوال الحدود السياسية بين الأقطار، ووجود لغة واحدة مشتركة، وسهولة تبادل الكتب والأفكار، والقضاء على علم الميتافيريقا وضعف الديانات القديمة، وقيام طبقة من التجار ذات عقلية دنيوية في الإسكندرية ورودوس، وإنطاكية، وبرجموم، وسرقوسة، وازدياد عدد المدارس، والجامعات، والمراصد الفلكية، ودور الكتب. وكانت لكل هذه العوامل مجتمعة مع ازدياد الثروة وتقدم الصناعة، وتأييد الملوك أكبر الأثر في تحرير العلم من الفلسفة، وتشجيعه في العمل على تنوير الأذهان والأفكار.***

ومما لا شك فيه أن إنشاء دار العلم والمكتبة، كان له أبعد الأثر في اجتذاب العلماء والدارسين من شتى أرجاء العالم. وكان أعظم ما أحرزته العلوم من انتصار في العصر الهيللينستي كان في ***الهندسة النظرية***. فمن علماء ذلك العصر ***إقليدس*** (***EUCLIDES***) الذي ظل اسمه مرادفاً مدى ألفي عام لاسم هذه الهندسة، وهو

الذي أنشأ مدرسة في الإسكندرية وتفوق طلابه على غيرهم من طلاب هذا الفرع من العلوم، وكتب إقليدس كتابه الشهير المسمى (***العناصر***) وضمّن فيه أعمال فيثاغورس الهندسية، وأعمال أبقراط الطشيوزي وآراء علماء الهندسة الفيثاغوريين والأثينيين المتأخرين وأصول الرياضيات العليا. واقتصر في هذا الكتاب على الأشكال والبراهين التي لا تحتاج من الآلات إلى غير المسطرة والفرجار، واتبع طريقة في العرض والإثبات معروفة لمن سبقه من العلماء، ولكنه وصل بها إلى حد الكمال، وهي الطريقة التي تسير على النظام الآتي: ***الفرض، والعمل، والبرهان، والنتيجة.*** وكانت النتيجة الكلية لجهوده، رغم ما فيها من عيوب قليلة جداً، وأبدعت للعالم صرحاً رياضياً كبيراً ما زال حتى هذا القرن الكتاب المدرسي المعترف به في كل الجامعات الأوروبية تقريباً.

وكتب ***أبوللونيوس*** (***APOLLOIOS***) الذي ظل يدرس الهندسة النظرية في مدرسة إقليدس عدة سنين كتابه في (**المخروطات**) وبحث في ثمانية كتب و٣٨٧ نظرية في خواص المنحنيات التي تنشأ من تقاطع مخروط مع سطح مستو. وقد أطلق على ثلاثة من هذه المنحنيات (والدائرة هي رابعتها) أسماؤها المعروفة بها إلى الآن وهي: ***القطع المكافئ (PARBOLA) والقطع الناقص (WLLIPSE) والقطع الزائد (HYPORBOLA)*** وقد يسرّت اكتشافاته وضع نظرية (***القذائف***)، وكانت من أكبر العوامل فيما حدث في الميكانيكا والملاحة والفلك من تقدم عظيم. ولم يكن مؤلفه أقل من مؤلف إقليدس وضوحاً ودقةً. ولا تزال الكتب السبعة الباقية منه حتى اليوم أعظم كتاب علمي مبتكر في كل ما كتب في الهندسة النظرية.

أما ***أرخميدس*** (***ARCHEMEDES***) الذي ولد في سرقوسة حوالي ٢٨٧ ق.م، قد فعل ما فعله كثيرون غيره من اليونان الهيللينستيين الذين أولعوا بالعلوم حيث سافر إلى الإسكندرية ودرس على خلفاء إقليدس وشغف بالرياضيات والعلوم البحتة، الذي كان يتخذها مفتاحاً لفهم الكون لا أداة للمنشآت العملية أو زيادة الثروة، ولم يكن يكتب للطلاب، بل للعلماء المتخصصين ينقل إليهم في عبارات

قصيرة جامعة، النتائج المعقدة التي استخلصها من بحوثه. وقد افتتن كل من جاء بعده من الأقدمين بما تمتاز به رسائله العلمية من ابتكار، وعمق، ووضوح. وقد وصفها بلوتارخوس بقوله (***ليس من المستطاع أن نجد في الهندسة كلها مسائل أصعب وأعقد أو شروحاً أبسط وأوضح مما احتوته هذه الرسائل. ومن الناس من يعزو هذا إلى عبقريته الفطرية، ومنهم من يظن أن هذه الصحف السهلة الميسرة كانت ثمرة كدح وجهود لا يصدقها العقل***).

وقد بقي حتى الآن من مؤلفات أرخميدس عشرة مؤلفات كتبها بعد رحلات كثيرة في أوروبة وبلاد العرب وهي: ***الطريقة، مجموعة من القضايا العارضة، قياس الزوايا، تربيع القطع المكافئ، اللولبيات، الكرة والأسطوانة، أشباه المخروط وأشباه الكرة، حاسب الرمل، الموازنات المستوية، والأجسام الطافية***، وهو علم توازن السوائل الساكنة وضغطها (***الهيدروستاتيكا***) ومن خلالها تعرّف على قوانين رياضية عديدة لمعرفة مركز توازن الجسم الطافي.

وقد ارتكزت شهرة أرخميدس على قانون الأجسام الطافية وخلاصة قصتها: أن الملك هيرون أعطى لصائغ سرقوسي مقداراً من الذهب ليصوغه تاجاً له. فلما أعطاه التاج كان وزنه مساوياً لوزن الذهب، ولكن الملك أرتاب في أن يكون الفنان الصائغ (***أي أرخميدس***) قد استبدل ببعض الذهب مثل وزنه من الفضة، واحتفظ لنفسه بما أنقصه من الذهب. وأفضى هيرون بريبته هذه إلى أرخميدس وأعطاه التاج، ويبدو أنه اشترط عليه أن يبدد ارتيابه دون أن يلحق بالتاج أي أذى، وظل أرخميدس عدة أسابيع يقلّب الأمر في فكره، حتى إذا خطا يوماً في وعاء كبير في حمام عام، لاحظ أن ماءه قد فاض بقدر العمق الذي وصل إليه فيه، وخيل إليه أن وزن جسمه - أي ضغطه إلى أسفل - يقل تدريجياً كلما انغمس في الماء، فما كان منه وهو صاحب العقل الكبير، إلا أن وضع فجأة (***قانون أرخميدس***)، وهو أن الجسم الطافي يفقد من وزنه ما يساوي وزن الماء الذي يزيحه. وظن أن الجسم المغمور في الماء يزيح منه بمقدار حجمه، وأدرك أن هذا القانون يمكنه من حل مشكلة التاج، فخرج عارياً في الطريق وهرول إلى مسكنه وهو يصيح

باليونانية ***(يوريكا ، يوريكا)*** أي ***(وجدتها ، وجدتها)***. وسرعان ما أدرك وهو في بيته أن قدراً من الفضة ذا وزن معين إذا غمر في الماء يزيح منه مقداراً أكثر مما يزيحه ذهب مساو له في الوزن، لأن حجم الفضة يزيد على حجم لذهب المساوي له في الوزن. ولاحظ أيضاً أن التاج المغمور في الماء يزيح منه أكثر مما يزيحه مقدار من الذهب مساو له في الوزن. فاستنتج من هذا أن التاج قد وضع فيه معدن أقل كثافة من الذهب، فأخذ يستبدل في الذهب الذي كان يستخدمه للمقارنة فضة بذهب حتى أزاح الخليط قدر ما يزيحه التاج من الماء. وبذلك استطاع أرخميدس أن يعرف بالضبط مقدار ما أستخدم في التاج من الفضة، ومقدار ما أختلس من الذهب.

وبهذا الاختراع يكون أرخميدس قد كشف قانون الأجسام الطافية وطريقة تقدير الثقل النوعي للأجسام. إضافة إلى بعض القوانين الأخرى كقانون الرافعة والميزان ويلخصه بجملة من قوله (***إن الأجسام المتناسبة تتوازن إذا كانت على مسافات تتناسب تناسباً عكسياً مع جاذبيتها***) وذلك من خلال ما شاهده في الرافعة والبكرة من قوة، فأعلن أنه إذا أعطى مرتكزاً ثابتاً استطاع أن يحرك أي شيء يريد تحريكه ويروى عنه أنه قال (***أعطني مكاناً أقف عليه أحرّك لك الأرض***) وطلب منه هيرون أن يفعل ما يقول وأشار إليه إلى ما كان يلقاه رجاله من المشقة في رفع سفينة كبيرة من سفن الأسطول الملكي إلى شاطئ البحر. ***فما كان من أرخميدس إلا أن وضع عدداً من الأضراس والبكر بطريقة أمكنته بمفرده وهو جالس عند نهاية هذا الجهاز أن يرفع السفينة بكامل شحنتها من الماء إلى الأرض***. وسر الملك هيرون من هذا العمل وطلب منه أن يضع تصميمات لبعض عدد الحرب من أدوات القتال والحصار والمنجنيقات، وقد فعل ذلك أرخميدس في النزاع العسكري الذي دار بين سرقوسة ورومة في عام ٢١٢ ق.م.

ولمع اسم ***أرستارخوس*** (***ARISTARCHOS***) في علم الفلك، وكان هذا العالم شديد التحمس لهذا العلم، فلم يترك فرعاً منه إلا وبحث فيه. وترك لنا رسالته الوحيدة التي بقيت حتى الآن والمسماة (***في حجم الشمس والقمر وبعديهما***)[٢]،

---

(٢) قدّر ***أرستارخوس*** حجم الشمس قدر حجم الأرض ٣٠٠ مرة (وهي في الحقيقة أكبر منها بأكثر من مليون مرة) وتقديره هذا يبدو صغيراً جداً. وقدّر قطر القمر بثلث قطر الأرض، =

وافترض في هذه الرسالة أن الشمس والقمر يتحركان في دائرتين حول الأرض، ولكن أرخميدس في كتابه (**_حاسب الرمل_**) يعزو صراحة إلى **_أرستارخوس_** الفرضية القائلة (**_إن النجوم الثوابت والشمس تظل ثابتة لا تتحرك، وأن الأرض تدور حول الشمس في محيط دائرة، وأن الشمس في وسط هذا المدار_**)[٣].

وكان من أعظم علماء الفلك **هيبارخوس** (**_HIPPARCHOS_**) الذي كان عظيم الشغف بالمعرفة، وشديد العناية بالملاحظة، حتى أطلق عليه الأقدمون لقب (**_حبيب الحقيقة_**)[٤]. حيث ظلت النتائج التي وصل إليها في علم الفلك ثابتة سبعة عشر قرناً كاملة. وبقي لنا من مؤلفاته الكثيرة كتاب (**_PHAINOMENA_**) (**_الظواهر الطبيعية_**) وبحث في هذا الكتاب، الاسطرلابات وآلات قياس الزوايا وهي أهم الآلات الفلكية في زمانه، ولعله قد استعان على ذلك بنماذج الآلات البابلية، واخترع طريقة تعيين الأماكن على سطح الأرض بخطوط الطول والعرض. وحاول أن ينظم الفلكيين في بلاد البحر الأبيض المتوسط ليقوموا بأعمال الرصد والقياس التي يستطيعون بها تحديد مواضع البلاد الهامة بهذه الطريقة. لكن الاضطرابات السياسية حالت دون تنفيذ هذه الخطة حتى استتب النظام في عصر بطلميوس. واستطاع هيبارخوس بفضل دراساته الرياضية للعلاقات الفلكية أن يضع جداول جيوب الزوايا، وأن يبتكر بذلك حساب المثلثات. ومما لا ريب فيه أنه استعان بالسجلات المسمارية التي جيء بها من بابل، فحدد أطوال السنين الشمسية والقمرية والنجمية، تحديداً لا يكاد يختلف عن أطوالها الصحيحة، **_فقد قدّر السنة الشمسية بمقدار ٣٦٥ يوماً وربع يوم إلا أربع دقائق و٤٨ ثانية ـ وهو يختلف عن تقدير هذه_**

= ولا يزيد خطأ هذا التقدير على ٨٪، كما قدّر بعد الأرض عن الشمس بقدر بعدنا عن القمر عشرين مرة (وهو يكاد يبلغ قدره أربعمائة مرة). ويقول في إحدى نظرياته (**_أنه حين يحدث كسوف كلي للشمس تقع الشمس والقمر وقتئذ داخل مخروط واحد_**) انظر:

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA , 14 TH ED N. Y 1929 , XI , 583 .

(3) ***HEATH, SIR. T***: ARISTARCHUS OF SAMOS, OXFORD, 1913, P 310 - 383.

(4) ***WILLIAMS H. S***: HISTORY OF SCIENCE 5 V, N. Y 1909, I , 233.

الأيام بست دقائق لا أكثر - وكان تقديره للشهر القمري الوسطي ٢٩ يوماً و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة وثانيتين ونصف الثانية - وهو يختلف عن التقدير المعترف به اليوم بأقل من ثانية(٥). وحسب أزمنة اقتران الكواكب وميل مدار القمر عن فلك الأرض، وحدد أكبر بعد بين الشمس والأرض، واختلاف موقع القمر بالنسبة للنجوم باختلاف موضع الراصد على سطح الأرض(٦). وقدّر بعد القمر عن الأرض بمائتي وخمسين ألف ميل، فلم يخطئ إلا في خمسة بالمائة. ***وأوشك هيبارخوس أن يكون أعظم أصحاب النظريات الفلكية، وأعظم الراصدين بين علماء الفلك الأقدمين على بكرة أبيهم.***

وكان ***إراتوستينس*** (***ERATOSTHENES***) من الذين ذاعت شهرتهم في كثير من فروع العلم المختلفة قبل أن يبلغ الأربعين من عمره، حتى جعله بطلميوس الثالث ***أمين مكتبة الإسكندرية***، وحاول في كتابه ***الكرونوغرافيا*** (***CHRONOGRAPHY***) أن يحدد أوقات الأحداث الكبرى في تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط. وقد كتب أيضاً رسائل في الرياضيات، واخترع طريقة آلية لإيجاد نسب وسطية متناسبة تناسباً مطرداً بين خطين مستقيمين، وقاس ميل مستوى الفلك وحدد هذا الميل ٢٣٥١ درجة، فلم يخطئ إلا في نصف بالمائة. لكن أعظم أعماله هو تقديره طول محيط الأرض ٢٤٦٦٢ميلاً، ونحن نقدره الآن ٢٤٨٤٧ ميلاً(٧).

أما في علم النبات فلم يبلغ أحد ما بلغه ***ثيوفراستوس (THEOPHRASTOS)*** في كتابه (***تاريخ النبات***) إذ قسّم النباتات جميعها إلى أشجار، وشجيرات، وأعشاب، وحشائش، وميز أجزاء النبات بعضها من بعض، وقسّمها إلى ***جذر، وساق، وغصن، وعساليج، وأوراق، وأزهار، وفاكهة*** - وهو تقسيم لم يدخل عليه أي تحسين حتى عام ١٥٦١م(٨). ويقول في ذلك (***للنبات قدرة على التوالد سارية في***

---

(5) ***HEATH , SIR T***: P. 311.

(6) ***ENC, BRIT***: XI, 583.

(7) ***HEATH. SIR T***, P 339 - 340.

(8) ***GARRISON F. H***: HISTORY OF MEDICINE. 1929, P 102.

جميع أجزائه لأن فيه حياة تسري فيها جميعاً... وطرق توالد النبات هي: الطريقة التلقائية من بذرة، أو جذر، أو قطعة تقطع منه، أو غصن، أو عسلوج، أو قطع من الخشب تقسّم أقساماً صغيرة، أو الجزع نفسه). ولم يعرف شيئاً عن التكاثر بالتزاوج الجنسي في النباتات، إلا عن عدد قليل من أنواعه كأشجار التين، ونخل البلح، ***وهنا سار على نهج البابليين فوصف عمليتي التلقيح والتختين لإنضاج الفاكهة قبل الأوان بوسائل اصطناعية.*** وبحث في التوزيع الجغرافي للنبات، وفي فوائده للصناعة وفي أنسب الأحوال الجوية لنمائه وقوته، ودرس التفاصيل الجزئية لنحو خمسمئة نوع من أنواع النبات دراسة دقيقة في جميع أجزائها دقة تثير الدهشة. وكان يتصف بما يتصف به العلماء من حب البحث، ولم يكن يرى أن مقامه بوصفه فيلسوفاً ينقص منه أن يكتب رسائل كل واحدة منها في موضوع واحد ***كالحجارة، والمعادن، والجو، والرياح، والسأم، والهندسة النظرية، والفلك، ونظريات الطبيعة التي كانت منتشرة عند اليونان قبل أيام سقراط. وفي ذلك يقول سارتون (SARTON) (لو لم يكن أرسطو من رجال ذلك العصر لسمي عصر ثيوفراستوس)***[٩].

وقام ***هيروفيلوس الخالكيدوني*** الذي كان يعمل في الإسكندرية نحو عام ٢٨٥ق.م، بتشريح العين ووصف الشبكية وأعصاب النظر وصفاً طبياً، وشرّح المخ ووصف مقدم المخ والمخيخ والسحايا وسمى باسمه ***معصار هيروفيلي***[١٠]، وأعاد للمخ مكانته السامية بأن جعله ***مركز التفكير، وفهم وظيفة الأعصاب***، وكان البادئ بتقسيمها إلى أعصاب حس وأعصاب حركة، وفصل أعصاب الجمجمة عن أعصاب النخاع الشوكي، وميز الشرايين من الأوردة، وحدد وظيفة الشرايين بأنها هي الأوعية التي تحمل الدم من القلب إلى مختلف أجزاء الجسم، وكشف في واقع الأمر الدورة الدموية قبل أن يكتشفها ***هارفي (HARVEY)*** بتسعة عشر قرناً[١١]. وضم جس

---

(9) ***SARTON, G***: INTORDUCTION TO THE HISTORY OF SCIENCE, BALTIMOR 1930, P 126.

(١٠) هو مصب تجاويف الدماء في الأم الجافة أو الغشاء الخارجي للمخ.

(11) ***BOTSFORD, G. W***, AND SIHLER, E. G: HELLENIC CIVILIZATION, N. Y 1920. P 631.

النبض إلى وسائل تشخيص الأمراض، واستخدم ساعة مائية لقياس عدد ضربات القلب، وشرّح المبيض والرّحم والحويصلات المنوية، وغدة البروستاتة ووصفها وصفاً كاملاً، ودرس الكبد والبنكرياس، وسمى الأمعاء الاثني عشر بالاسم الذي لا يزال يعرف به إلى اليوم[١٢].

وكما كان هيروفيلوس أعظم علماء التشريح في العصر الهيللينستي، كان ***إرستراتوس الكوسي (من كوس)*** من أعظم علماء وظائف الأعضاء، ودرس في أثينة، ومارس مهنة الطب في الإسكندرية نحو عام ٢٥٨ ق.م، وقد استطاع أن يميز المخ من المخيخ تمييزاً أدق من هيروفيلوس، وأجرى تجارب على الأجسام الحية لدراسة عمليات المخ، ووصف وشرح عمل ***(لسان المزمار)*** والأوعية اللمفاوية في غشاء الأمعاء، والصمامين الأوسطي والرئوي في القلب. وكان لديه فكرة ما عن التمثيل الأساسي للأغذية لأنه ابتدع مسعراً لقياس حرارة الزفير[١٣]. ويقول إرستراتوس، ***إن كل عضو يتصل بسائر أجزاء الكائن الحي بثلاث طرق الشريان، والوريد، والعصب.*** واجتهد أن يعلل جميع الظواهر الفسيولوجية بعلل طبيعية. وكان يرى ***أن الطب هو فن منع المرض بمراعاة قواعد الصحة، وليس هو علاج المرض بالدواء. وكان يقاوم كثرة استعمال العقاقير، والحجامة***، ويعتمد على تنظيم الأغذية والاستجمام والرياضة[١٤].

هؤلاء العلماء جعلوا من الإسكندرية في العصر البطلمي أشبه بأرقى المدن المتقدمة في عصرنا الحاضر. إذ حققت مدرسة الإسكندرية في الطب مكانة عالمية، وكان يكفي أن يعرف الطبيب أنه تعلم الطب في الإسكندرية ليكسبه ذلك مكانة رفيعة بين الناس[١٥].

وإلى جانب هؤلاء العلماء وجدت أيضاً حركة أدبية عمت شهرتها العالم على أيدي ***كاليماخوس وثيوكريتوس وأبوللونيوس،*** وأصبح لزاماً على كل مثقف في

---

(12) ***SARTON***, P 159, GARRISON, 153.

(13) ***GARRISON***, P 103.

(14) ***SARTON***, 159 - 160.

(15) ***AMMIANUS MARCELLINUS*** XXII, 16.

العالم المتحضر أن يلم بتطور الإنتاج الأدبي في الإسكندرية، حتى أطلق على الأدب اليوناني بأسره في هذه الحقبة اسم ***الأدب الإسكندري***[١٦]. ويمكن القول، ***إن علماء مدرسة الإسكندرية هم الذين وضعوا أسس النقد الأدبي حسب منهج علمي صحيح. وكانت أعظم إنجازاتهم نشر ملاحم هوميروس وتاريخ هيرودوت، وكذلك أعمال شعراء أثينة الكبار في التراجيدية والكوميدية. وكان هؤلاء العلماء متفرغين للأبحاث العلمية، ولا يمارسون عملاً آخر، فقد كانت الدولة تجري عليهم الرواتب لكي تمكنهم مؤونة البحث العلمي عن لقمة العيش.***

ثانياً: مكتبة الإسكندرية:

في النصف الثاني من القرن الرابع ق.م، قام الإسكندر بفتوحاته الكبرى وأسس إمبراطوريته العالمية. ولكن سرعان ما انقسمت هذه الإمبراطورية إلى ممالك ودويلات يحكم كلاً منها أحد قادته الذين أسسوا ممالك مستقلة. ***وهي دولة البطالمة في مصر والسلوقيين في سورية والأنتيجونيين في مقدونية واليونان،*** ثم بعض الدويلات الصغيرة ومن أشهرها مدينة (**برجامة**) في غرب آسية الصغرى. وقد دبّ الصراع عنيفاً بين هذه القوى المختلفة، وحرص كل ملك على أن يجعل دولته أعظم الدول جميعاً في عصره. ومن بين مظاهر التنافس كان في الرقي الثقافي والعلمي، فتنافسوا في تأسيس المكتبات والمراكز الثقافية، فنشأت في عواصم هذه الدول الإسكندرية وإنطاكية وبرجامة، مكتبات كبرى وسرعان ما انتشرت بعد ذلك المكتبات العامة في أكثر المدن صغيرها وكبيرها في دول شرق البحر الأبيض المتوسط. ويدل على وجود هذه الظاهرة عبارة للمؤرخ ***بوليبيوس*** الذي عاش في القرن الثاني ق.م، يعيب فيها على الكتّاب الذين يقتصر اهتمامهم على مجرد قراءة الكتب فيقول ***(إن البحث في الكتب ميسّر دون خطر ومشقة، إذا أنت أقمت في مدينة غنية بالوثائق وكنت قريباً من مكتبة عامة)***[١٧].

---

(١٦) انظر: محمد حمدي إبراهيم، الأدب الإسكندري، القاهرة ١٩٨٥م.

(17) ***POLIBIUS***, XII, 27, 5.

وعلى الرغم من عدد المكتبات الكبير الذي نشأ في هذه العواصم، فلا نعرف مكتبة من هذه المكتبات جميعاً اكتسبت من الشهرة أو شغل بأمرها رجال الفكر والعلماء واهتم بمصيرها الدارسون والمثقفون عامة كما حدث ***لمكتبة الإسكندرية القديمة.*** فقد اعتبرها القدماء أكبر مكتبة في العالم القديم على الإطلاق وقصدها العلماء من كل صوب. وبعد اندثارها بأكثر من ألف وخمسمئة عام فهي المكتبة الوحيدة التي ما زال العلماء يبحثون تاريخها، ويؤلفون عنها الكتب المطوّلة، ويختلفون أشد الاختلاف حول مصيرها ومسؤولية تدميرها(١٨). ***ولعل السبب في ذلك أنها لم تكن مكتبة فحسب، ولكنها كانت مشعلاً للحضارة ومعهداً للبحث، والأساس الذي قامت عليه جامعة الإسكندرية القديمة، وظلت كذلك طوال سبعة قرون عملت فيه الإسكندرية لواء الثقافة العالمية في ذلك الوقت.***

١ - نشأتها:

يعود تاريخ نشأة مكتبة الإسكندرية إلى ***مطلع القرن الثالث ق.م*** في عصر الملك ***بطلميوس الأول الملقب (بسوتير)*** وهو مقدوني الأصل وكان من رفقاء الإسكندر في صباه وأحد قادته أثناء الحملة في الشرق. ***ولم يكن بطلميوس قائداً عسكرياً فحسب، بل كان رجلاً مثقفاً على جانب كبير من الثقافة والذكاء، حتى إنه كتب أعظم كتاب عن سيرة الإسكندر الأكبر***(١٩). وبعد وفاة الإسكندر آلت إليه ولاية مصر، فاستقل بها وأسس الدولة البطلمية التي دامت ثلاثة قرون. وكان طوال حكمه الطويل (٣٢٣

---

(١٨) حول هذا الموضوع انظر:

E. A. PASONS: THE ALEXANDRIAN LIBRARY, LONDON, 1952.

وبه أكمل قائمة المراجع الخاصة بمكتبة الإسكندرية، ولكن آراءه والنتائج التي توصل إليها يجب أن تقرأ بحذر شديد، ففيها الكثير من التعنت والبعد عن الموضوعية العلمية.

(١٩) لم يصلنا كتاب بطلميوس عن سيرة الإسكندر إلا مقتبساً في كتاب أريانوس عن الإسكندرية، ويخبرنا أريانوس نفسه أنه اعتمد على كتاب بطلميوس اعتماداً كبيراً انظر:

ARRIANUS, I, 1, 2.

- ٢٨٤ ق.م) يحرص على استقدام أعداد كبيرة من اليونانيين ليعتمد عليهم في إقامة دولته الجديدة. ومن بين الشخصيات التي وفدت عليه أو لجأت إليه ***ديمتريوس الفاليري*** (٣٥٠ - ٢٨٣ ق.م)[٢٠]. وهو من الشخصيات الفذة التي عملت بالسياسة والفلسفة معاً وكان في الوقت نفسه رجل دولة كبيراً، وإلى جانب ذلك كان خطيباً في الإنشاء الأتيكي الرائع. ***وكانت نزعته في السياسة مقدونية، وفي الفلسفة والعلوم أرسطية،*** عينه ***كاساندر*** ملك مقدونية، حاكماً على أثينة سنة ٣١٧ ق.م، فأجرى فيها إصلاحات تشريعية لصالح الطبقة الوسطى حسب تعاليم أستاذه أرسطو، ونعمت أثينة في زمنه بفترة سلم تحسنت فيها أحوالها وتطور ازدهارها، وأحبه الشعب حباً جماً، فأعاد انتخابه تسع مرات متتالية، وأقام له ٣٦٠ تمثالاً تخليداً لميراثه، إذ أنه هو الذي منح ***(الليقيون)*** مدرسة أرسطو شخصية معنوية أبان حكمه (٣١٧ - ٣٠٧ق.م) وساعد معلمه ***ثيوفراستوس*** على اقتناء قطعة من الأرض لإنشاء مركز ثابت للمعهد الأرسطي ولرصد المداخيل اللازمة له. وحقق ثيوفراستوس ما كان يصبو إليه من مد ***(الليقيون)*** من أروقة وردهات توضع فيها تعاليم أرسطو[٢١]، وقاعات لنسخ مؤلفاته وشرحها، ومكتبة ضخمة لإكمال البرنامج الذي وضعه أرسطو للتبحر وللسير قدماً في الأبحاث وجمع المستندات التاريخية والعلمية.

وعندما احتل ديمتريوس بن أنتيجونوس - ***الملقب بمستلب المدن*** - أثينة سنة ٣٠٧ ق.م، ترك ديمتريوس المدينة، ثم هجر بلاد اليونان عام ٢٩٥ ق.م ملبياً دعوة صديقه الحميم بطلميوس الأول **(سوتير)** وأصبح من أعز المقربين إليه.

وعندما أعلن بطلميوس نفسه ملكاً على مصر عام ٣٠٥ ق.م، أسوة ببقية خلفاء الإسكندر، كان ديمتريوس خير مساعد له في الإدارة، وخير مؤازر ومشير في كل ما يطمح إليه، فجعل من الإسكندرية أثينة جديدة، ومركزاً عالمياً للفلسفة

---

(٢٠) انظر موجزاً لسيرة ديمتريوس الفاليري في:

OXFORD CLASSICAL DICTIONARY. S. V.

(21) ***DIOGENES. LAERES***. VIE DOCTRINES…1 (GARNIER FLAMMARION) P 246.

والعلوم والفنون، وأشار ديمتريوس على بطلميوس بإنشاء مكتبة تجمع فيها كنوز معارف العصور والأمم السالفة من جميع أقطار الأرض، ومجمع أبحاث علمي (*الموسيون MOUSEION*) على غرار الليقيون في أثينة[٢٢]. ورحب الملك المثقف بهذه الفكرة وشرع في تنفيذها، مستفيداً من خبرة ديمتريوس وما حققه مع معلمه ثيوفراستوس في المدرسة الأرسطية في أثينة. ***وعين ديمتريوس الفاليري مشرفاً ورئيساً للموسيون،*** وسخّر له من المال ما شاء من أجل شراء الكتب وجذب العلماء إلى الإسكندرية، وخاصة أن طموح بطلميوس الأول ومآربه السياسية وحبه للشهرة والمجد ورغبته في أن يحذو حذو الإسكندر، جعله يغدق المال دون حساب في تحقيق أمنيته من جعل الإسكندرية تنافس أثينة كمركز للثقافة والعلم في العالم القديم، وأن ما حققه في هذا المضمار يفوق بأشواط كل ما عرف قبله في العصور القديمة.

وسرعان ما تم بناء (***الموسيون***) بشكل رائع وجميل في منطقة القصور الملكية المعروفة (***بروخيون BRUCHEION***)، وقد رأى ***استرابون*** الموسيون حين حضر إلى الإسكندرية في نهاية القرن الأول ق.م، وأقام بالموسيون خمس سنوات عاكفاً على تأليف كتابه الخالد في ***الجغرافية***، ووصفه بهذه العبارة (***الموسيون جزء من القصور الملكية، ويشتمل على منتزه ورواق به مقاعد، وبيت كبير به قاعة لاجتماع العلماء أعضاء الموسيون***)[٢٣]. وألحقت بالموسيون مكتبة خاصة كبرى وأطلق عليها المؤرخون اسم المكتبة الكبرى أو الأم تميزاً لها عن المكتبة الصغرى التي ألحقت بمعبد السرابيوم بعد ذلك[٢٤]. وقد أنشىء هذا المعبد في عصر الملك بطلميوس الثالث للإله (***سرابيس***)[٢٥]،

---

(٢٢) كلمة (***موسيون***) كلمة يونانية تعني (***معهد ربات الفنون والعلوم***) ومن هذه الكلمة اليونانية اشتقت الألفاظ الأوروبية (***MUSE-MUSSEUM***) والتي نترجمها اصطلاحاً بكلمة متحف.

(٢٣) انظر: ***استرابون*** ١٧، ١، ٨.

(٢٤) انظر: المصدر السابق ١٩، ١.

(٢٥) المصادر القديمة لا تتفق حول تاريخ تأسيس معبد السرابيوم الكبير في الإسكندرية. فبعضها يرجعه إلى بطلميوس الثاني، وبعضها يرجعه إلى الإسكندر الأكبر نفسه. في حين أن الحفائر الحديثة قد أخرجت لوحات تأسيس المعبد البطلمي وهي تحمل اسم بطلميوس الثالث =

الإله الرسمي الجديد للدولة البطلمية، وكان في الحي الشعبي من المدينة، حيث يقيم أكثر السكان من المصريين، وهو الذي يطلق عليه الآن اسم حي (***كوم الشقافة***) في غرب المدينة. وكان هذا المعبد من الضخامة والروعة بحيث طغت شهرته العالم القديم بأسره، ويقال أنه كان أكبر المعابد القديمة على الإطلاق باستثناء معبد الكابيتول في روما[٢٦].
وبطبيعة الحال ضم المعبد مكتبة كما كانت العادة قديماً. ولكن مكتبة السرابيوم لم تبق مكتبة عادية، بل سرعان ما تطورت كثيراً، ووضعت فيها الكتب التي ضاقت بها مكتبة الموسيون، وأقبل الناس تدريجياً على مكتبة السرابيوم، وامتدت إليها الحركة العلمية والثقافية من الموسيون، وأصبحت المحاضرات والدروس تلقى في أروقة المعبد والغرف الملحقة به.

٢ - ***تجميع الكتب***:

أما عن جهود البطالمة في سبيل تجميع الكتب في الإسكندرية، فقد أثار دهشة وإعجاب القدماء والحديثين على السواء. وبالرغم من أن (***الموسيون***) معهد يوناني أساساً، إلا أن جهود البطالمة وعلماء الموسيون كانت تهدف إلى أن تضم مكتبتهم أكبر قدر ممكن من تراث الإنسانية الفكري. وقد أكد على هذا الاتجاه أكثر من كاتب قديم، فيقول ***بوستينوس*** وهو أحد كتّاب القرن الثاني الميلادي (***بينما كان بطلميوس ملك مصر يؤسس مكتبته، اجتهد في أن يضم مجموعة من كتابات جميع الشعوب***)[٢٧]. إذ لم تقتصر مكتبة الإسكندرية على الكتب اليونانية، بل ضمت كتباً بلغات أخرى مثل ***الفينيقية، وربما ضمت أيضاً كتباً بالهندية***، بعد أن أرسل أسوكا(***ASOKA***) حاكم الهند

= يوارجيتيس. وقد أثبت ***آلان رو*** أنه وُجِدَ معبد صغير قديم في (***راقودة***) حتى قبل الإسكندر، أما المعبد البطلمي فقد أسسه بطلميوس الثالث انظر:

ALAN ROWE: DISCOVERY OF THE FAMOUS TEMPLE AND ENCLOSURE OF AT ALEXANDRIA, PP, 1, NOTE 1.

(26) ***AMMIANUS MARCELLINUS*** XX, 16. 12.

(27) ***JUSTINUS***, APOLOGY, I, 31.

رسالة إلى بطلميوس الثاني داعياً إياه إلى اعتناق الديانة البوذية[٢٨]. ولابد أنها ضمت أيضاً قدراً كبيراً من الأدب المصري. ويدل على ذلك أن البطالمة اهتموا بنقل بعض تراث المصريين إلى اللغة اليونانية ليقرأها علماء الموسيون من اليونان. ومن أمثلة هذا العمل تكليف الكاهن المصري ***مانيتون*** بتأليف كتاب باللغة اليونانية عن تاريخ مصر الفرعونية. ورغم أن الكتاب الأصلي قد ضاع، إلا أن أجزاء منه ما زالت باقية، ولا يزال تقسيم مانيتون للتاريخ المصري إلى ثلاثين أسرة معمولاً به إلى الآن. وهناك تاريخ العراق القديم الذي ألفه باللغة اليونانية بيروسوس (***PEROSOS***) كاهن الإله (**بعل ـ مردوك**) من مدينة بابل، وهو ممن عاصروا الإسكندر الأكبر وعاش في إنطاكية في القرن الثالث ق.م وعلّم في أثينة ويقال إنه أسس مدرسة في جزيرة كوس في بحر إيجة، ولكن لسوء الحظ ضاع هذا الكتاب أيضاً.

ويذكر أحد الشرّاح القدماء لإحدى روايات أريستوفانس وهي (**بلوتوس**) في بعض هوامشه التي وجدت في مخطوطة عثر عليها في مكتبته معلومات قيمة عن بداية المكتبتين في الإسكندرية وترجمة النص ما يأتي:

(... لأن ذلك الملك بطلميوس فيلادلفيوس الذي كان على معرفة بالفلاسفة وغيرهم من المؤلفين المشهورين، بعد أن اقتنى الكتب ودفع ثمنها بالأموال الملكية من جميع أرجاء العالم قدر المستطاع، مستعيناً في ذلك بديمتريوس الفاليري، أنشأ مكتبتين: واحدة خارج القصر (مكتبة السرابيوم) والأخرى داخل القصر (مكتبة الموسيون) وكان بالمكتبة الخارجية ٤٢٨٠٠ مجلد وفي مكتبة القصر ٤٠٠٠٠٠ مجلد مختلط و٩٠٠٠٠ مجلد مفرد ومختصرات، كما ذكر كاليماخوس، أحد رجال القصر وأمين المكتبة الملكية... وإراتوسنيس أمين المكتبة نفسها من بعده بقليل)[٢٩].

تعد هذه الوثيقة على جانب كبير من الأهمية، لأن كاتبها يستمد مادته من كاليماخوس الذي كان من بين أعضاء الموسيون في عصر بطلميوس الثاني. ومن أهم

---

(٢٨) انظر: ***بل، آيدرس: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي***، ص ٧٢.

(29) ***PARSON***: ALEXANDRIAN LIBRARY, P 106.

أعماله وضعه فهرس للمكتبة لا يوجد من يفوقه علماً بمحتويات المكتبة. ***ولكن الذي يثير الدهشة والاستغراب، أنه كيف أمكن تجميع مثل هذا القدر الهائل من المخطوطات في وقت قصير وفي عصر لا يعرف المطبعة والكتب المطبوعة في شتى صورها، وأن كل نسخة من كتاب كانت تكتب باليد؟.***

الواقع أن البطالمة لم يدخروا جهداً ولا مالاً في سبيل الحصول على الكتب حيث وجدت، وكانت أكبر أسواق الكتب في ذلك الوقت ***أثينة ورودوس***(٣٠). وقد أدى ديمتريوس الفاليري - تلميذ أرسطو - دوراً كبيراً في توجيه المكتبة ***توجيهاً أرستطالياً.*** وأول عمل قام به في هذا الاتجاه هو شراء ***مكتبة أرسطو*** التي كانت في اللوقيون في أثينة. فبعد موت أرسطو خلفه على رأس مكتبة اللوقيون تلميذه ***ثيوفراستوس*** الذي خلفة ***نيلوس*** تلميذه ووريثه. وقد استطاعت مكتبة الإسكندرية - بفضل ديمتريوس الفاليري - أن تشتري من نيليوس مقابل مبلغ ضخم مكتبة أرسطو، التي كانت تعتبر أكبر مكتبة في عصره والتي أنشأها بمساعدة الإسكندر المقدوني الذي صرف له ما يزيد على **٨٠٠** وزنة لأجل بناء هذه المكتبة. ***وكانت هذه المكتبة من دون شك أعظم مقتنيات مكتبة الإسكندرية،*** ومن أكثر ما جلب لها شهرتها العالمية في العالم القديم، وجعل كثيراً من الناس يقصدون الإسكندرية ليطالعوا في مكتبة أرسطو بعد انتقالها إليها(٣١). حتى عدّ المؤرخون القدماء أن أرسطو ***كان الأب الروحي لمكتبة الإسكندرية***، كما يتضح من عبارة ***لاسترابون*** يصف فيها أرسطو بأنه ***(أول من جمع الكتب، وهو الذي علّم ملوك مصر كيف يؤسسون مكتبة)***(٣٢).

وفي سبيل الحصول على الكتب لجأ البطالمة إلى وسائل تعسفية للحصول عليها، فأقاموا ما يمكن أن يسمى حجراً على الكتب التي في السفن. فكانت كل سفينة تأتي إلى الميناء تُفتش ويُصادر أي كتاب يعثر عليه فيها، ويؤخذ إلى المكتبة فإن

---

(30) ***ATHENAEUS***, 1. 10.

(٣١) حول مصير مكتبة أرسطو انظر: ***أثينايوس*** ١، ٣ ب ثم ***استرابون*** ١٣، ١، ٥٤.

(٣٢) انظر: ***استرابون***، ١٣، ١، ٥٤.

كانوا في حاجة إليه احتفظوا به، وكتبوا منه نسخة تُقدم إلى صاحب الكتاب مع بعض التعويض المالي.

ولم يقتنع البطالمة والمشرفون على المكتبة بتجميع الكتب فحسب، بل حرصوا كل الحرص على أن يحصلوا على المخطوطات الأصلية للكتب، إدراكاً منهم لمدى الخطأ أو التحريف أو النقصان أو الزيادة التي يمكن أن تقع في النسخ على مدى أجيال. ويروي الطبيب اليوناني الشهير **جالينوس**، أن بطلميوس الثالث بعث إلى أثينة بطلب المخطوطات الأصلية لمسرحيات ***أيسخيلوس وسوفوكليس ويوروبيدس*** التي كانت مودعة بصفة رسمية في خزائن المدينة، ليقوم بنسخها في الإسكندرية وإعادتها ثانية. ونظير تسليمه تلك الأصول أودع في أثينة مبلغ ١٥ تالنت من الفضة ضماناً على سلامة المخطوطات. ولكن الذي حدث أنه أخذ المخطوطات ونسخها ورد النسخ واحتفظ بالأصل في الإسكندرية، وخسر بذلك مبلغ ١٥ تالنت من الفضة(٣٣). ونضيف إلى هذه الكتب أشهر جهود الإسكندريين في مجال ترجمة الكتب غير اليونانية إلى اللغة اليونانية، وهي ترجمة التوراة المعروفة باسم ***الترجمة السبعينية*** (كما أشرنا من قبل).

يتضح من كل ما سبق الجهود التي بذلت في تكوين أكبر مكتبة في العالم القديم على الإطلاق. وتشير الأرقام التي أوردها الكتّاب القدماء إلى أن عدد الكتب في نهاية العصر البطلمي أي في القرن الأول ق.م بلغ ٧٠٠,٠٠٠ مخطوطة(٣٤)، التي كانت كلها عبارة عن لفافات من ورق البردي، إذ لم تكن البشرية قد توصلت إلى الكتاب في شكله المألوف حالياً إلا مع القرن الرابع الميلادي. وكان ورق البردي يُصنع في شكل لفافة طويلة تنتهي عادة بأسطوانة خشبية تلف عليها عند طرفيها. وكانت اللفافة من البردي محدودة الطول ليمكن استخدامها دون كبير مشقة. وتبلغ أطوال اللفائف البردية التي عثر عليها حتى الآن نحواً من خمسة وثلاثين قدماً ***(أي ما يعادل أكثر من أحد***

---

(33) GALENUS, IN HIPP, DE NATURA HOMINUM, 1, 44, 105.

(34) ***AMMIANUSMARCELLINUS***, XX, II, 16. 13.

عشر متراً) ولكن أكثرها أقصر من ذلك. ***ومعنى هذا أن اللفافة الطويلة تعادل نحواً من أربعين صفحة من القطع المتوسط في الكتب الحديثة.*** وهذا هو السبب في تقسيم المؤلفات القديمة إلى كتب صغيرة، فالإلياذة والأوديسة تنقسم كل منهما إلى ٢٤ كتاباً بمعنى أنها كانت تُكتب على ٢٤ لفافة بردية. وهكذا بالنسبة لكتب أرسطو وأفلاطون وغيرهما من أعمال اليونان. فعلماء الإسكندرية هم الذين حققوا هذه النصوص وقاموا بتبويبها أو تقسيمها إلى كتب أي لفائف بردية.

أما عن طريقة تنظيم هذا العدد الضخم من الكتب، فقد خضع لعدد من علماء الموسيون، وأشهرهم ***كاليماخوس*** الذي كان من أبرز شعراء القرن الثالث ق.م، وهو الذي وضع كتابه المشهور باسم (***PINAKES***) وهو عبارة عن فهرس أو سجل بمحتويات المكتبة (وهو شبيه جداً بفهرست ابن النديم) وقد وردت معلومات جزئية عن هذا الكتاب في كتابات الكتّاب اللاحقين[٣٥]، تشير إلى أنه وضع أسساً وقواعد لتنظيم الكتب على النحو التالي:

١ - ***شعر الملاحم والشعر الغنائي.***
٢ - ***الشعر التمثيلي بنوعيه الكوميدي والتراجيدي.***
٣ - ***كتب القانون.***
٤ - ***كتب الفلسفة.***
٥ - ***كتب التاريخ.***
٦ - ***أدب الخطابة.***
٧ - ***كتب الطب.***
٨ - ***كتب العلوم الرياضية.***
٩ - ***كتب العلوم الطبيعية.***
١٠ - **متفرقات.**

---

(35) ***ATHENAEUS***, II, 10.

تحت هذه الأقسام أو أكثر أثبت كاليماخوس في فهرسه اسم المؤلف ومكان ميلاده واسم والده وأساتذته أو المدارس التي تعلم فيها ثم كنيته أو اسم شهرته. وبعد ذلك مختصراً يسيراً عن حياته وقائمة بمؤلفاته، ثم ملاحظات حول صحة نسبة الكتب إلى مؤلفيها، وأخيراً كلمات من بداية كل كتاب، وعدد أسطر المخطوطة، وكل ذلك أتبعه بأسلوب الترتيب الهجائي بصفة عامة لأسماء المؤلفين ويكون بذلك كاليماخوس ***هو مؤسس علم المكتبات***[٣٦].

٣ - علماء الإسكندرية:

لقد أدرك البطالمة أهمية جذب العلماء من جميع أرجاء العالم اليوناني للحضور إلى الإسكندرية وتعيينهم أعضاء في الموسيون. وكانوا يقدمون لهم شتى وسائل التشجيع ليتفرغوا للدراسة والبحث، فكانت إقامتهم مكفولة في بناء الموسيون الذي أوقف عليه الملك ملكية خاصة[٣٧]. فكان كل عالم من أعضاء الموسيون يمنح راتباً أو معاشاً سخياً منتظماً، بالإضافة إلى هبات الملك في المناسبات المختلفة. كما تمتع هؤلاء العلماء ببعض الامتيازات مثل الإعفاء من الضرائب أو من تولي الأعمال العامة التي كان يلزم بها المواطنون في ذلك الوقت[٣٨]. بل يبدو أنهم لم يُلزموا بالتدريس، وكان عملهم الأساسي هو البحث العلمي، وما من شك أنهم عقدوا الندوات والمناقشات العلمية في أروقة الموسيون، ولكنها كانت قاصرة على العلماء. ولكن حين ساءت أحوال الدولة المالية وقلت الرواتب أو المعاشات وجدنا هؤلاء العلماء يتحولون أكثر فأكثر عن البحث العلمي إلى التدريس في مدارس المدينة ومعاهدها.

كان من نتيجة جهود البطالمة الأوائل في جذب خيرة العلماء والأدباء والباحثين إلى الإسكندرية، أن أصبحت هذه المدينة في عهدهم أهم مراكز للثقافة

---

(٣٦) انظر: ***استرابون*** ١٣، ١، ٥١.

(٣٧) يذكر استرابون أن أعضاء الموسيون يتمتعون بملكية مشتركة بينهم انظر: ***استرابون*** ١٧، ١، ٨.

(49) ***ATENAEUS***, XVI, P 494.

والعلم في العالم، ولعلها فاقت أثينة نفسها. وأصبح منصب أمين المكتبة أكبر المناصب مرتبة عند الملك، وأصبح من اختصاصاته أن يكون المعلم الخاص لولي العهد. ***وكان من أبرز هؤلاء الأمناء: زنودوتس الأفسوسي، وأبولونيوس الرودوسي، وأرستينس القوريني، وأبولونيوس الإسكندري، وأرسطوفان البيزنطي، وأرستارخوس الساموسي. وأن اختلاف أصولهم ليوحي لنا بوحدة الثقافة الهيللينية***. ولا يقل عن هذه الأسماء أهمية الشاعر ***كاليماخوس*** والعالم الذي صنف هذه المجموعة ونظمها في فهرس عام بلغ عدد ملفاته مئة وعشرين ملفاً. وإلى جانب العلماء كانت طائفة كبيرة من النساخين الذين يظن أنهم كانوا من العبيد ينسخون صوراً ثانية من أصول الكتب القيّمة، ومعهم عدد لا يحصى من العلماء يقسمون هذه الكتب مجموعات. وكان بعض هؤلاء يكتبون تواريخ مختلف الآداب والعلوم، وبعضهم يخرجون للناس (***طبعات***) من الروائع الإنسانية القيّمة، ومنهم من كانوا يكتبون تعليقات وشروحاً للنصوص التي تحتاج إلى ذلك. وقد أحدث ***أرسطوفان البزنطي*** انقلاباً عظيماً في الأدب بفضل الجمل المستقلة والمتبعة في المخطوطات القديمة بعضها عن بعض بالحروف الكبيرة (***CAPITALS***) وبعلامات الترقيم. وقد بدأ ***زنودوتس*** تهذيب الإلياذة والأوديسة، وواصل ***أرسطوفان*** عمله، وأتمه ***أرستارخوس*** وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالي لهاتين الملحمتين، وهم الذين شرحوا ما غمُض فيها شرحاً يدل على غزارة الاطلاع. ولم ينقض القرن الثالث ق.م حتى أضحت الإسكندرية بفضل متحفها ومكتبتها وعلمائها العاصمة الفكرية للعالم اليوناني في الشرق وفي كل نوع من فروع العلم والأدب ما عدا الفلسفة.

٤ - *مصير المكتبة*:

الواقع أن مكتبة الإسكندرية (***أو مكتبتي الإسكندرية***) لم تلق مصرعها دفعة واحدة، ولكن تلاحقت عليها الكوارث الواحدة بعد الأخرى على مدى أربعة قرون أو أكثر.

وكانت ***الكارثة الأولى*** التي أصابت مكتبة الموسيون وقعت في سنة ٤٨ ق.م، حين حضر ***يوليوس قيصر*** إلى الإسكندرية التي وجد فيها حرباً أهلية بين الملكة ***كليوباترة وأخيها الملك بطلميوس الرابع عشر***. وحين اتخذ قيصر جانب كليوباترا، تورط في الحرب القائمة، وأعلن عليه المصريون الحرب بقيادة ***أخيلاس***. ويورد يوليوس قيصر نفسه في كتابه عن (***الحرب الأهلية***) وصفاً للمواقف الحرجة وأسباب قيامه بحريق هائل في السفن التي كانت بالميناء وبالترسانة البحرية، وامتداد الحريق إلى ما وراء أرصفة الميناء حتى إلى أجزاء المدينة المتاخمة للميناء أو الترسانة البحرية. وكانت الخسائر الناجمة عن الحريق يبعث على الأسى والأسف حتى في قلب يوليوس قيصر نفسه المنتصر الذي يورد اعتذاره عن أسباب قيامه بهذا الحريق ***من أنه كان المنقذ الوحيد له ولجيشه، على أساس أن هدفه هو تدمير السفن حتى يفوّت على خصومه فرصة تحقيق السيطرة البحرية المطلقة، وأن كل ما فعله هو عن غير قصد منه.***

وتورد المصادر الأدبية بأن هناك ٤٠٠,٠٠٠ كتاب احترقت في الإسكندرية (***بسبب النار التي أضرمها قيصر في السفن***) ويقول ***بلوتارخوس*** الذي عاش بين عامي ٤٦ - ١٢٧م تقريباً، وهو من أكثر الكتّاب إطلاعاً (***فلما أوشك أسطول قيصر أن يقع في أيدي أعدائه أضطر إلى أن يدرأ الخطر بالحريق، وانتشرت النار من الترسانة البحرية ودمرت المكتبة الكبرى)***[٣٩]. وفي نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلاديين نجد المؤرخ ***ديون كاسيوس*** يروي حادثة الحريق فيقول (... ***ونشبت النار في أماكن كثيرة، كما احترقت مخازن الغلال والكتب، ويقال إن هذه الكتب كانت كثيرة العدد عظيمة القيمة)***[٤٠]. ويؤكد المؤرخ ***أميانوس مركللينيوس*** عبارة ديون كاسيوس بقوله (***كان هناك مكتبة لا تقدّر قيمتها بثمن والتي يجمع الكتّاب على أنها ضمت ٧٠٠,٠٠٠ كتاب، قد احترقت بالنار في حرب الإسكندرية، حيثما دمرت المدينة زمن***

---

(٣٩) انظر: ***بلوتارخوس***، قيصر ٤٩.

(40) ***DIO CASSIUS***, XL II, 38.

الدكتاتور قيصر)[٤١]. وهكذا تؤكد جميع المصادر على ***احتراق مكتبة الإسكندرية***. ولكن ينبغي ألا يتبادر إلى الذهن أن المكتبة الكبرى كانت المكتبة الوحيدة في الإسكندرية. فقاعات الموسيون نفسه ***(الذي لم يكن جزءاً من المكتبة، وإنما كان في الداخل وسط منطقة القصور الملكية)*** كانت تشتمل على رفوف محملة بأمهات الكتب وكبرى المراجع، ثم كانت هناك مكتبة ***السرابيوم*** التي استمر نموها على مر السنين، بحيث أصبحت أهم مكتبة في الإسكندرية بعد احتراق المكتبة الكبرى الأولى، ثم هناك معبد ***القيصريون الجديد*** الذي أنشأته ***كليوباترا***، ثم أتم بناءه الإمبراطور ***أغسطس***، وأصبح من أكثر منشآت الإسكندرية روعة وجمالاً، ثم ما وصل مدينة الإسكندرية مكتبات مدينة ***(برجامة)*** التي يبلغ عدد كتبها ٢٠٠,٠٠٠ كتاب[٤٢]. وكانت جميعها في متناول العلماء والدارسين في المدينة.

وقد ظلت الإسكندرية وما فيها من معاهد للعلم ومكتبات تتمتع بازدهار وسلام نسبي طيلة القرنين الأول والثاني الميلاديين، حتى إذا كان القرن الثالث بدأت فترة من الفتن والمحن دامت طيلة القرنين الثالث والرابع الميلاديين. وكان من أكبر أسبابها ***تعاقب موجات الاضطهاد ضد المسيحيين أولاً ثم ضد الوثنيين ثانياً***. وفي ظل هذه الفتن والمحن لم يسلم ***الموسيون*** ودور الكتب من تحمّل نصيبها من الأذى. ففي مطلع القرن الثالث الميلادي تعرضت الإسكندرية لغضب الإمبراطور ***كاراكلا*** الذي حضر إلى الإسكندرية على إثر ثورة فيها وحارب أهلها وقتل كثيراً من شبابها وألحق بالموسيون دماراً جزئياً أثّر على هيبته ومستقبل نشاطه، وعامل علماء الموسيون معاملة قاسية، فأوقف الإعانة المالية لهذا المجمع، وألغى مكافآت أو رواتب العلماء وجميع امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها وطرد العلماء الأجانب[٤٣].

---

(41) ***AMMIANUS MARCELLINUS***, XXII, 16, 13.

(٤٢) انظر: ***بلوتارخوس***، ماركوس أنطونيوس، ٥٨.

(43) ***DIO CASSIUS*** LXXVII, 7.

وفي عام ٢٦٥م تعرضت المدينة مرة أخرى للاضطهاد على يد الإمبراطور ***جالينوس*** ضد المسيحيين، ويقال إن ما أصاب المدينة من تدمير كان شديداً جداً، وخاصة في الحي الملكي الذي يقع فيه الموسيون.

وبعد عشر سنوات من ذلك تلت موجة أخرى من الاضطهاد والتدمير على يد الإمبراطور ***أوريليانوس*** عام ٢٧٢م وفيها أصيب الموسيون بتدمير آخر، ثم تلا ذلك الاضطهاد الأكبر ضد المسيحيين على يد الإمبراطور ***دقلديانوس*** الذي هاجم الإسكندرية عام ٢٩٦م فقتل كثيراً من مواطنيها واحترقت أجزاء كبيرة من المدينة، ويصف يوحنا الأنطاكي بقوله (***جمعت الكتب القيّمة وأعملت فيها النيران دون شفقة***).

نلحظ من هذا العرض أن أحداث القرن الثالث الدامية، ***من حملة كاراكلا إلى حملة دقلديانوس ضد الإسكندرية،*** تركزت حول الحي الملكي من المدينة الذي عُرف باسم (***بروخيون***) والذي يقع فيه مجمّع الموسيون، ولذا فإن هذه الكوارث جميعها التي أصابت الحي الملكي لا بد أنها أثرت أيضاً على الموسيون الذي لم يكن مجمّعاً علمياً فحسب، وإنما هو معبد ديني أيضاً لربات الفنون التسع (***MUSES***) وبسبب ذلك، فإن الموسيون نجا من التدمير الكامل لأن أحداً من الأباطرة لم يقدم على تدميره لأنهم حرصوا على أن يظهروا بمظهر المدافعين عن الآلهة والعقائد القديمة أثناء حملاتهم العاتية ضد المسيحية والمسيحيين. ولذلك لا نستبعد أن يكون مجمّع الموسيون قد استمر وجوده بعد تلك الأحداث حتى نهاية القرن الرابع الميلادي بشهادة ***سينيسيوس*** (***SYNESIEUS***) أحد الذين تعلموا في الإسكندرية في نهاية القرن الرابع الميلادي (***وأصبح فيما بعد أسقفاً لقورينة في برقة***) حيث يذكر الموسيون ويصف تماثيل العلماء فيه[٤٤].

ولكن في عام ٣٨٠م، انقلبت الأحوال وتبدلت حيث انتصرت المسيحية على الوثنية، ***وأصبح لها الكلمة العليا في الإمبراطورية***، وتحوّل ضعف المسيحيين الأسبق

---

(44) ***SENYSIUS***, CALVITI ENCOMIUM, 6.

إلى قوة كبيرة وقاموا بتهديم كل المعابد الوثنية وتحويلها إلى كنائس، ولا بد في خضم هذه الأحداث أن معبد الموسيون نفسه قد لقي مصرعه في تلك الأيام العصيبة.

ولكن حين ازدادت المسيحية سلطة وقوة في الدولة، ازدادت معها موجات الاضطهاد لخصومهم الوثنيين ومعابدهم. وبلغت موجات الاضطهاد ذروتها في عصر الإمبراطور ***تيودوسيوس الأول*** (٣٧٩ - ٣٩٥م) الذي شن حملة شديدة ضد الوثنية وجميع معابدها في أرجاء الإمبراطورية ومن ضمنها معبد ***السرابيوم*** ومكتبته الذي دمرّه الإمبراطور بإيحاء من ***تيوفيلوس (أسقف الإسكندرية)*** تدميراً كاملاً وتحويله إلى كنيسة.

يتضح من العرض السابق أن جميع الأدلة تشير إلى أن ***مكتبة السرابيوم*** ختمت تاريخها في نهاية القرن الرابع الميلادي، وأن الموسيون نفسه أغلق رسمياً أيضاً في وقت تدمير السرابيوم. لذلك فإن العرب حينما دخلوا مصر كانت مكتبة الإسكندرية أثراً بعد عين، ولا صحة للرواية التي تُنسب إلى العرب المسلمين حريق مكتبة الإسكندرية وهو أمر يتفق عليه الباحثون[٤٥].

وفي النهاية يمكن أن نقول، إنه من المدهش أن نجد تاريخ تدمير مكتبة الإسكندرية يمتد على فترة تقارب خمسة قرون فيالها من مكتبة أسطورية يتم تدميرها على مدى هذه الفترة الطويلة، ولكننا نجد أن هذه المكتبة الأسطورية التي اندثرت منذ أكثر من ١٦٠٠ عام عادت كأنما لتستأنف أسطورتها في أيامنا المعاصرة. ***إذ أعيد افتتاح المكتبة رسمياً في الثالث والعشرين من شهر نيسان (أبريل) عام ٢٠٠٢ م في الإسكندرية مواكبة مع يوم الكتاب العالمي. وذلك في أعظم مهرجان ثقافي في التاريخ بحضور مختلف رؤساء وملوك العالم وممثلي المنظمات الثقافية والدولية من جميع أنحاء المعمورة.***

---

(٤٥) حول مصير مكتبة الإسكندرية وفتح العرب لمصر وقصة حرق المكتبة انظر: ***مصطفى العبادي*** ١٦٨ - ٢٠٥.

البحث الخامس عشر

نهاية الدولة البطلمية

تمهيد :

يعتبر الفصل الأخير من تاريخ الدولة البطلمية في مصر من أغرب الفصول في تاريخ الإنسانية. فلم يشهد التاريخ امرأة تستخدم أنوثتها بهذه القوة وهذه المهارة كما استخدمتها ملكة مصر الجديدة ***كليوباترة السابعة***. فحين اعتلت كليوباترة السابعة العرش بعد وفاة والدها بطلميوس الثاني عشر الذي اشتهر (***بلقب الزمّار (AULETES) لأنه يهوى العزف على المزمار، غير أن لقبه الرسمي ديونيسيوس الصغير (NEOS DIONYSIOS) وكان قد تزوج من شقيقته كليوباترة السادسة)*** كان عمرها سبعة عشر عاماً[1]. وكانت مصر دولة ضعيفة جداً، وقد فقدت جميع ممتلكاتها لصالح روما، وكانت تخضع خضوعاً تاماً للرومان.

على الرغم من كل هذا حاولت كليوباترة السابعة أن تبعث الحياة في مملكتها، وتسيطر على روما، القوة العالمية الضاربة آنذاك والمتحكمة في الدولة البطلمية عن

---

(١) انظر: ***زكي علي، كليوباترة***، سيرتها وحكم التاريخ عليها، القاهرة، بلا تاريخ. إضافة إلى كثير من المراجع الأجنبية مثل:

A. WEIGALL, THE LIFE AND TIMES OF CLEOPATRA, QUEEN OF EGYPT 1962.

H. VOLKMANN, CLEOPATRA A STUDY IN POLITICS AND PROPAGANDA 1953.

طريق غزو قلوب وعقول أشهر القادة الرومان في زمنها بجمالها، وذكائها، وفتنتها، واستخدامهم كأدوات لتحقيق مطامحها السياسية. واستطاعت أن تمد نفوذها الملكي عن هذا السبيل إلى آفاق أبعد كثيراً من آفاق مصر، وكادت أن تصبح إمبراطورة العالم القديم بأسره ممثلاً في الإمبراطورية الرومانية ذاتها.

أولاً: كليوباترة وأخوها:

عند وفاة ***بطلميوس الزمّار*** في عام ٥١ ق.م، كانت كليوباترة في سن السابعة عشرة (كما ذكرنا سابقاً) وكان والدها قد أوصى بأن يؤول العرش لها ولأخيها الأكبر الذي أصبح فيما بعد ***بطلميوس الثالث عشر***، على أن ترعى روما تنفيذ هذه الوصية التي نفذتها بسهولة ويسر، وأصبحت العقبة الأولى أمام كليوباترة بعد اعتلائها العرش مواجهة أخيها الشريك لها في الحكم ومن حوله عصابة من المتآمرين من رجال القصر والجيش. وقد تأزمت العلاقات بين كليوباترة ورجال القصر في عام ٤٨ ق.م، وأرادت بذكائها الفذ وشخصيتها الطموح أن تكون هي المتصرفة في شؤون السياسة والحكم. وأشاعت عصابة القصر إشاعة فحواها أنها ***تسعى إلى قتل أخيها والتفرد بالعرش مخالفة بذلك إرادة ووصية والدها.*** ولما كان قائد الجيش من بين عصابة القصر فقد استطاعوا أن يثيروا عليها الجيش والسكان معاً في الإسكندرية، حتى اضطرت كليوباترة إلى الفرار من المدينة، ولجأت إلى الحدود الشرقية للدولة حيث جمعت لنفسها جيشاً لاسترداد عرشها. وفي الوقت نفسه سار الجيش بقيادة أخيها الملك إلى بلوزيوم ليسد عليها طريق العودة.

ثانياً: كليوباترة ويوليوس قيصر:

في هذه الأثناء كانت تدور على الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط (أي في روما نفسها) معركة أخرى بين الحزب الجمهوري بقيادة ***بومبي*** والحزب الديمقراطي بقيادة ***يوليوس قيصر***. ووقعت بين الطرفين معركة فاصلة في بلاد اليونان هي معركة ***فارسالوس*** (*PHARSALOS*) في عام ٤٨ ق.م التي أحرز فيها يوليوس

قيصر نصراً باهراً على خصمه، وفر بومبي إلى مصر آملاً أن يجد فيها ملجأً وعوناً، خاصة أنه صاحب الفضل في إعادة وتثبيت بطلميوس الزمّار على عرشه. وتوجه بومبي إلى بلوزيوم حيث يعسكر بطلميوس الثالث عشر، ولكنها حدثت خيانة إذ أغتاله أحد الجنود الرومان أثناء نزوله إلى الشاطىء.

بعد فارسالوس لحق يوليوس قيصر بومبي إلى مصر، واتجه إلى الإسكندرية فدخلها وكان يعلم قصة الخلاف بين الملك والملكة. فأعلن نفسه حكماً في الخلاف تنفيذاً لإرادة الملك الراحل والدهما، وطلب أن يمثلا أمامه، فحضر الملك من بلوزيوم، أما الملكة فكانت جيوش أخيها الملك تقف حائلاً بينها وبين دخول الإسكندرية. ويقال إنها انتحلت لذلك حيلة بارعة، ***وهي أنها ركبت قارباً ودخلت المدينة عن طريق البحر يحملها رجل وهي مختبئة داخل سجادة ملفوفة، ثم ذهب بها إلى قيصر، فلما بسطت السجادة خرجت منها كليوباترة ذات حسن ودلال.*** هذه البداية المرحة جعلت العلاقة بين قيصر وكليوباترة تقوم على أساس العلاقة بين رجل وامرأة لا بين دكتاتور وملكة. وبطبيعة الحال أقر قيصر الملكة على عرشها على أن يشاركها أخوها في الحكم.

وعلى الرغم من نجاح يوليوس قيصر في التوفيق بين كليوباترة وشقيقها، إلا أن جماعة القصر ساءهم أن يتم هذا التصالح، فأخذوا في إثارة سكان الإسكندرية في وجه يوليوس قيصر وجنوده، فأصدروا الأوامر إلى الجيش الذي كان مرابطاً عند الحدود الشرقية في بلوزيوم، بأن يزحف إلى الإسكندرية. وتحرّج موقف قيصر الذي حوصر في الحي الملكي، واضطر إلى إحراق سفنه التي كانت ترسو في الميناء، حتى لا يستولي عليها أعداؤه، مما تسبب في إحراق مكتبة الإسكندرية العظيمة (كما رأينا سابقاً) التي كانت تقع بالقرب من الميناء.

وهكذا بدأت تلك الحرب المعروفة ***بحرب الإسكندرية***[٢]. وفي بعض مراحل هذه الحرب فقد يوليوس قيصر أربعمئة من جنوده وكاد هو أن يهلك معهم لولا أنه

---

(٢) عن حرب الإسكندرية انظر:

CARY, M: THE GEOGRAPHIC BACKGROUND OF GREEK AND ROMAN HISTORY, OXFORD 1949 PP 273 - 275.

ألقى بنفسه إلى الماء وسبح إلى سفينة ، ومن جهة أخرى وصول الإمدادات من حلفائه في الشرق عن طريق سورية التي حاصرت الإسكندرية واستطاع أن يقضي على خصومه ويستولي على المدينة. وبعد الهزيمة حاول الملك البطلمي الصغير بطلميوس الثالث عشر أن يهرب إلى الشرق ولكنه غرق أثناء عبوره نهر النيل.

انتهت حرب الإسكندرية في عام ٤٧ ق.م ، بانتصار يوليوس قيصر الذي حسم مسألة العرش البطلمي بأن أعلن كليوباترة من جديد ملكة على مصر ، على أن تتزوج من شقيقها الصغير بطلميوس الرابع عشر. وقضى يوليوس قيصر الشتاء في مصر مستمتعاً بصحبة كليوباترة ، وقاما معاً برحلة نيلية إلى صعيد مصر حتى الحدود الجنوبية. ولما كانت الأحوال في روما تتطلب عودة قيصر على وجه السرعة ، فقد اضطر إلى الرحيل تاركاً خلفه ثلاث فرق لمساندة كليوباترة. ومن المحتمل أن يوليوس قيصر قد تنازل لها في هذه المناسبة عن جزيرة قبرص.

وفي صيف عام ٤٧ ق.م ، أثمرت علاقة يوليوس قيصر بكليوباترة ، حين أنجبت طفلاً من علاقتها غير الشرعية مع يوليوس قيصر وأطلقت عليه اسم ***بطلميوس***، ولكن أهل الإسكندرية أسموه ***(قيصرون) وهو تصغير قيصر على سبيل السخرية***. وفي العام التالي أرسل يوليوس قيصر إلى كليوباترة لكي تلحق به ، فذهبت إلى روما ومعها بطلميوس الرابع عشر وقيصرون وحلّت في قصر يوليوس قيصر ، وحرصت على أن تحيط نفسها بمظاهر الأبهة الشرقية ، مما أثار امتعاض الرومان الذين نظروا إليها باعتبارها محظية ليوليوس قيصر ، وليست زوجة له ، لأن زوجته كانت على قيد الحياة. وفي الوقت نفسه أحاطها يوليوس قيصر بكل رعاية وتكريم ، فأعلن اعترافه ببنوة ابنه قيصرون من كليوباترة ، كما أقام لها تمثالاً من الذهب في معبده الجديد للآلهة **فينوس**. إلا أن أعداء يوليوس قيصر المتآمرين والخائفين من تحويل الإمبراطورية إلى مملكة من نوع الممالك الهيللينستية الشرقية ، يكون هو ملكها وكليوباترة ملكتها ، ***دبروا مؤامرة أودت بحياته في داخل مجلس الشيوخ الروماني في ١٥ مارس (آذار) سنة ٤٤ ق.م***، مما ألقى بالإمبراطورية في أتون الفوضى والحرب الأهلية من جديد.

وأدركت كليوباترة أن روما لم تعد مستقراً لها بعد ذلك فغادرتها خفية وعادت إلى مصر. وبعد عودتها بفترة وجيزة تخلصت من شقيقها بطلميوس الرابع عشر، وأشركت معها في الحكم ابنها قيصرون الذي ادعت أنها أنجبته من ***الإله آمون، الذي تمثل لها في شخص قيصر وسمي قيصرون فيما بعد باسم بطلميوس الخامس عشر قيصرون***(٣).

ثالثاً: كليوباترة وماركوس أنطونيوس:

بعد أن انتهت الحرب الأهلية التي أعقبت مصرع يوليوس قيصر بانتصار أوكتافيوس وماركوس أنطونيوس سنة ٤٢ ق.م، اقتسم القائدان المنتصران الإمبراطورية فيما بينهما، فآلت الولايات الغربية ***لأوكتافيوس***، والولايات الشرقية ***لماركوس أنطونيوس***. وكانت مصر في ذلك الوقت الدولة الوحيدة التي لا تزال مستقلة عن الإمبراطورية الرومانية في الشرق، فكان لا بد لأنطونيوس من أن يحدد علاقته معها. فبعث إلى كليوباترة يدعوها لمقابلته في ***إفسوس*** أعظم مدن آسية الصغرى آنذاك. وأدركت كليوباترة في الحال أنه ربما كانت دعوة إلى مغامرة أخرى تعوّضها عن فقد قيصر. ***فلبت الدعوة وذهبت في موكب رائع بدت فيه وكأنها الآلهة إيزيس الجديدة يحيط بها خدمها***(٤). واستطاعت كليوباترة بما تحمله من أسلحة فتاكة وهي أنوثتها وذكاؤها وعقلها اللماح، أن توقع أنطونيوس أسير غرامها وسحرها. فكان لها منذ اللقاء الأول مع أنطونيوس النصر التام. وفي الشتاء التالي سنة ٤١ - ٤٠ ق.م حضر أنطونيوس إلى مصر بدعوة من كليوباترة للإقامة في الإسكندرية. وفي الإسكندرية أطلق أنطونيوس العنان لشهواته مع كليوباترة، وفي الأعوام التالية توطدت العلاقة بينهما وأنجبت كليوباترة من أنطونيوس أطفالاً ثلاثة ولدين وبنتاً، حتى إذا كان عام ٣٥ ق.م. أعلن أنطونيوس طلاقه من زوجته ***أوكتافيا*** أخت

---

(3) ***BAWMAN. A. K***: EGYPT AFTER THE PHARAOHS. LONDON 1986. P 35.

(٤) انظر: ***بلوتارخوس*** ٢٦، ١ ـ ٤.

أوكتافيوس، كما أعلن شرعية علاقته بكليوباترة. وبعد ذلك حضر إلى مصر وأعلن تقسيم الولايات الشرقية بين أبنائها جميعاً، بينما أصبحت كليوباترة نفسها ملكة على الولايات الشرقية كلها. وأصبحت تؤرخ وثائق الحكم التي كانت تؤرخ بتاريخ اعتلائها العرش، بتاريخ آخر هو تاريخ اقترانها بأنطونيوس.

رابعاً: موقعة أكتيوم ونهاية دولة البطالمة:

ما كاد أنطونيوس يعلن طلاقه من ***أوكتافيا*** حتى شن ضده أخيها أوكتافيوس الحاكم في روما وفي غرب الإمبراطورية، حملة شعواء من الدعاية والتشهير به وبمسلكه مع كليوباترة. ثم اتخذ من أعمال أنطونيوس دليلاً على أنه قد حوّل الولايات الشرقية إلى مملكة هو ملكها وكليوباترة ملكتها وأولادها ورثتها، وخاصة إعلان أنطونيوس أن قيصرون هو الابن الشرعي ليوليوس قيصر وارتكاب المزيد من الحماقات، ومنها على سبيل المثال أنه في أعقاب النصر الذي أحرزه في أرمينية عام ٣٤ق.م، ***خالف العرف الذي يقضي بإقامة مهرجان النصر في روما، وتمت إقامته في الإسكندرية إضافة إلى ذلك قيام أنطونيوس بسك نقود يحمل أحد وجهيها رأس كليوباترة مع لقب (ملكة الملوك)، بينما يحمل الوجه الثاني صورة أنطونيوس ولقب (قاهر أرمينية). وأخطر من ذلك كله أن أوكتافيوس تمكن من الحصول على صورة من وصية لأنطونيوس تتضمن رغبته في أن يدفن في الإسكندرية بعد وفاته.*** كل ذلك زاد من سخط الرومان على أنطونيوس واعتباره خائناً لروما وللمثل الرومانية، مماحذا بهم لخوض الحرب ضده كونه أصبح أداة طيعة في يد امرأة أجنبية كانوا يرون فيها نموذجاً مجسّداً للفجور. وراح أوكتافيوس يستعد للحرب، وأخذت كليوباترة من ناحيتها تشجع أنطونيوس. وركز أوكتافيوس دعايته على القول إنه لا يحارب أنطونيوس، المواطن الروماني، ولكنه يحارب كليوباترة الملكة الأجنبية، وبذلك عبأ الرأي العام في روما ضد أنطونيوس، ثم أعلن عليه الحرب باسم إنقاذ الإمبراطورية، ودارت المعركة الفاصلة في منطقة ***أكتيوم*** (***ACTIUM***) على الشواطئ الغربية لبلاد

اليونان في الثاني من أيلول/سبتمبر من العام ٣١ ق.م. وعلى الرغم من أن ميزان القوى العسكرية كان متعادلاً تقريباً بين الفريقين المتحاربين، إلا أن أنطونيوس لقي هزيمة ثقيلة، أما كليوباترة التي كانت على رأس أسطولها إلى جانب أنطونيوس فقد انسحبت بأسطولها إلى الإسكندرية وهربت من ميدان القتال وفي أثرها أنطونيوس عندما اتضح لها تفوّق أوكتافيوس في المعركة. وبينما هما يحاولان وضع خطط جديدة لمواجهة الموقف الصعب، إذا بأوكتافيوس يفاجئهما من سورية ويستولي على مصر بأسرها ثم يتجه إلى الإسكندرية ويدخلها في أول أغسطس/آب سنة ٣٠ ق.م، فلم يجد أنطونيوس حيلة سوى الانتحار، وبعده بقليل وجدت كليوباترة ميتة في قصرها سواء منتحرة كما هو شائع أو بفعل أوكتافيوس كما يشك بعض الكتّاب. وأعقب أوكتافيوس ذلك بقتل ابن كليوباترة وقيصر بطلميوس قيصر، وأعلن ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية وجعلها ولاية رومانية.

ويحاول المؤرخ بلوتارخوس إلقاء تبعة الهزيمة على كليوباترة، لأنها هي التي أقنعت أنطونيوس بخوض معركة بحرية على الرغم من تفوّقه في البر[٥]. ويمعن هذا المؤرخ في توجيه سهام الاتهام إلى كليوباترة، فيقول إنها نظمت سفن الأسطول في شكل يجعلها قادرة على الفرار في أي لحظة[٦]. ولكننا لا نستطيع قبول هذه الاتهامات على علاتها، والقول بمسؤولية كليوباترة عن الهزيمة.

وهكذا سقطت دولة البطالمة إلى الأبد، وتخلصت روما من هذا الكابوس الذي جثم على صدرها. والحقيقة أن كليوباترة تعد من أكثر الشخصيات إثارة للجدل، وخاتمة عصر بأسره في التاريخ المصري هو ***عصر الأسرة البطلمية***، ورغم أن نشاطها في مجال السياسة الداخلية كان محدوداً جداً، إلا أن نشاطها في مجال السياسة الخارجية يعتبر من أغرب مغامرات التاريخ[٧]. وقد وصفها المؤرخ ***تارن*** (***TARN***) وهو من

---

(5) ***PLUTARCHOS***, LXIV, 1–2.

(6) ***PLUTARCHOS***, LXIII, 5.

(٧) انظر: ***استرابون*** ١٧، ٧٩٧ ـ ٧٩٨.

أعظم الأساتذة المتخصصين في العصر الهيللينستي بأنها أعظم خلفاء الإسكندر. وقد تأثر المؤرخون في حكمهم على كليوباترة بالدعاية الرومانية التي راحت تلصق بها كل ما هو مشين. ولكن كليوباترة كانت تتمتع بالذكاء وقوة الشخصية، وكانت تتقن الكثير من اللغات، حتى إنها لم تحتجْ إلى مترجمين، وتعد الوحيدة من ملوك البطالمة التي تعلمت اللغة المصرية، وكانت على دراية بالكثير من العلوم، ولم تكن قدرتها على التأثير على الرجال نابعة من جمال خارق إذ أن مظهرها كان عادياً، ولكنها كانت تستمد قوتها من ذكائها، فنجد الشاعر الروماني ***هوراتيوس (HORATIUS)*** الذي هاجمها كثيراً ما يصف موتها ***بأنه كان موقفاً نبيلاً***(٨). ويمكن القول في خاتمة هذا الحديث أن عهد كليوباترة كان يمثل صحوة الموت لدولة البطالمة.

---

(8) ***HORATIOS***, ODESI, 37, 21-32.

القسم الرابع

تاريخ الشرق القديم

وقيام دولة روما



البحث السادس عشر

الشرق القديم وقيام دولة روما

أولاً : المفهوم التاريخي والحضاري للشرق القديم :

إن تاريخ الشرق القديم هو ***أول فصل من تاريخ البشرية*** ، فقد أرسيت في الشرق القديم الأسس التي حددت إلى أمد بعيد المسيرة اللاحقة للتاريخ العالمي. فتمت في تلك المرحلة بالذات اكتشافات مهمّة جداً في ميدان الحضارة المادية، ونشأت المدن والمجتمعات الطبقية الأولى وظهرت الكتابة والآداب والعلوم. ***وقد كان لحضارات الشرق القديم أعظم التأثير على الحضارة الإغريقية ـ الرومانية والحضارة العربية الإسلامية، وأثّرت أيضاً من خلالهما في الحضارة العالمية في العصور الحديثة.*** وبالنسبة للعديد من بلدان الشرق لا تزال التقاليد العريقة في القدم حية حتى الآن، وهي تواصل تأثيرها الملحوظ على حياة الملايين من البشر. ولذلك يبدو مفهوماً الاهتمام الجاد الذي توليه أوسع الأوساط العلمية لتاريخ وحضارة شعوب الشرق القديم.

وليست دراسة الشرق القديم وليدة الأمس. فمنذ أكثر من ألفي عام كان الإغريق يتطلعون باهتمام إلى جيرانهم الشرقيين. ***وقد تضمنت أعمال المؤرخين اليونان والرومان القدماء معلومات قيّمة جداً حول تاريخ وحضارة وديانات المصريين القدماء والبابليين والفرس والهنود وشعوب أخرى.*** ولكن الدراسة العلمية الحديثة

للشرق القديم لم تبدأ في أوروبا، بالطبع، إلا في عصر التنوير. ***وطوال القرن التاسع عشر كان العلماء الأوروبيون يعكفون على فك رموز الكتابات الشرقية القديمة الواحدة تلو الأخرى - (المصرية) الهيروغليفية والفارسية القديمة والبابلية والحثية. وقد جرت في مصر وبلاد ما بين النهرين وإيران اكتشافات أثرية مدهشة.*** وجاء القرن العشرون بنجاحات جديدة في مجال دراسة حضارات الشرق القديم، إذ تطورت طرق وأساليب القيام بالحفريات الأثرية وارتقى المستوى النظري للدراسات والأبحاث المكتبية. كما اكتشفت مراكز جديدة لحضارات الشرق القديم (***أورارتو، ماري، أوغاريت إلخ***)[1]. ***واتسع إلى حد كبير، نطاق المناطق التي كانت تجري فيها أعمال التنقيب الأثري بحيث شملت وادي السند (منذ العشرينيات) والصين وفيتنام وبلدان جنوب شرق آسية والجزيرة العربية والقارة الإفريقية،*** ومع تراكم المادة الوثائقية كان يزداد عمقاً فهم العمليات التاريخية التي كانت تجري في الشرق القديم. وللمرة الأولى أصبح عالم الشرق القديم الضخم والمتنوّع للغاية يمثل وحدة كاملة متماسكة العناصر. وغدا واضحاً أنه حتى المراكز المتباعدة لمختلف الحضارات كانت مرتبطة بعضها ببعض بعلاقات ووشائج ثقافية واقتصادية وثيقة.

إن الأبحاث التي جرت خلال العقود الأخيرة، أحدثت تعديلات مهمّة جداً في لوحة حياة مجتمعات الشرق القديم التي كان العلماء يعيدون رسمها. وفي تلك السنوات لم تظهر اكتشافات ذات أهمية بالغة فحسب، بل أجريت بعض التعديلات في مجمل العلوم التي تتناول الشرق القديم. كما اتسعت، إلى حد ملحوظ قاعدة المراجع والموضوعات العلمية نفسها. وظهرت مسائل وإمكانيات جديدة لحلّها.

---

(١) تُعد حضارة (***أورارتو***) من أقدم الحضارات في أراضي الاتحاد السوفيتي سابقاً، إذ نشأ كيان الدولة على الهضاب الأرمنية في أواخر الألف الثاني ق٠م، حيث ظهرت هنا أولى الدويلات الصغيرة (***توشبا، موساسير***) وغيرهما. وفي القرن التاسع ق٠م، توحدت هذه الدويلات وتشكلت منها مملكة (***أورارتو الكبرى***). ومنذ البدايات الأولى غدت مملكة (***أورارتو***) أهم القوى السياسية في منطقة غربي آسية كلها. وكانت الدولة الآشورية القوية أقرب جارة ومنافسة لها، إذ أن تاريخ (***أورارتو***) مشبع كله بالصراع مع الدولة الآشورية.

وأصبح علماء الآثار والمؤرخون وعلماء اللغة يستعملون طرقاً جديدة تماماً لمعالجة المصادر الأثرية والتاريخية ويستخدمون بصورة واسعة منجزات العلوم الطبيعية وغيرها مما أتاح لهم تناول المادة على نحو جديد واستخلاص معلومات غزيرة من أدلّة الماضي التي لم تُؤخذ سابقاً بعين الاعتبار إطلاقاً أو لم يؤبه بها. فإن علم النباتات القديمة مثلاً، يتيح استرجاع الظروف البيئية التي كانت تعيش فيها القبائل الزراعية الباكرة. كما أن استخدام الوسائل التكنيكية الحديثة لدراسة الأدوات الحجرية القديمة يعطي إمكانية تحديد وظائف هذه الأدوات تبعاً لدرجة تحات أطرافها القاطعة إلخ.

في كل عام تنطلق عشرات البعثات الأثرية الكبيرة من مختلف بلدان العالم بحثاً عن معطيات جديدة حول الماضي القديم للبشرية، وتجري دراسة المواد التي تحصل عليها هذه البعثات في أحدث المختبرات. أما نتائج المعالجة فتنشر في عدد لا يحصى من المجلات العلمية.

إن هدف هذه الدراسة يكمن في تعريف القارئ غير المختص بوضع الأمور الحالي في مجال علم تاريخ الشرق القديم وإطلاعه على آخر وأهم اللُّقى الأثرية والاكتشافات للعلماء العاملين في هذا الميدان، وإعطائه صورة واضحة عن القضايا التاريخية ـ الحضارية التي يجري حلها في المرحلة الراهنة والمهام التالية التي تنهض اليوم أمام الباحثين.

وليس (***الشرق القديم***) في تصوّر العلماء المعاصرين مفهوماً جغرافياً ولا زمنياً، ***بقدر ما هو مفهوم تاريخي وحضاري***. وإن هذا المفهوم الذي لم يحصل حتى الآن على صيغة دقيقة متعارف عليها لدى الجميع، فتاريخه الطويل يجري تناوله عادة في إطار قضية أوسع، ***وهي قضية العلاقات بين الغرب والشرق***.

إن التصورات حول انقسام المعمورة إلى جزءين غربي وشرقي قد تشكلت على ما يبدو، في عصر الحروب اليونانية ـ الفارسية عندما سيطرت بشدة على العقول في اليونان فكرة تصارع الهيلليين والبرابرة، ***الشرق والغرب***. وهكذا فإن التعارض بين (***الشرق والغرب***) ظهر كمحاولة لتفسير الفروق الحضارية من خلال الاختلافات

الأثنية - الجغرافية. وفيما بعد كانت حدود مفهوم (***الشرق***) تتغير تبعاً للجهة التي كانت تتحدث عن (***الشرق***) فبالنسبة للرومان كان (***الشرق***) في البداية، ***يعني كل ما كان يقع شرق إيلليرية (ILLYRIA) (وهي مقاطعة واقعة على الجانب الشرقي للبحر الأدرياتيكي، أي سواحل يوغسلافيا سابقاً)*** ثم أصبحوا في عصر الإمبراطورية يقصدون الشرق (***ORIENS***) ***مصر والأقاليم الواقعة في الشرق الأدنى القديم ،أي (منطقة الشرق الأوسط) وكذلك جزءاً من تراقية***، ثم انحصر هذا المفهوم في وقت لاحق، ***بسورية*** فقط. ولكن مثل هذا المفهوم كان لا يزال إبان القرون الوسطى حتى في العصر الحديث، حيث كان يختلف من شعب لآخر. فعند الإغريق كان يُقصد به شيء آخر مما لدى الفرنسيين، وكان مفهومه عند الروس مختلفاً عما عليه عند الإنكليز.

وبمرور الزمن ومع توسع الآفاق الجغرافية، أصبح مفهوم (***الشرق***) يتسع شيئاً فشيئاً وبصورة علمية حتى شمل حدوداً جغرافية وزمنية جديدة بحيث شمل ***مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين وفلسطين وفينيقية وإيران***. وبنتيجة الاكتشافات الأثرية التي جرت في مطلع القرن الحالي توسعت هذه الحدود على نحو ملحوظ، ***وأصبحت تضم أيضاً هضبة الأناضول والقفقاس والجزيرة العربية. وأُدخلت وللمرة الأولى في علم التاريخ العالمي، مجتمعات الهند والصين القديمة في مؤلفات العالم السوفيتي فاسيلي ستروفة***. والآن أصبح بإمكاننا أن نسوق مسوّغات كافية لكي ندرج في مفهوم ***(الشرق القديم) بعض بلدان جنوب شرق آسية وآسية المركزية ومنغوليا ورحاب آسية الوسطى وسهوب شمال البحر الأسود وعالم بحر إيجة، حتى المناطق الواقعة غرب وشمال حوض البحر الأبيض المتوسط.***

وتبدلت مع مرور الوقت، ***الحدود الزمنية لهذا المفهوم***، حيث لا يوجد الآن اتفاق في الرأي حول ***الحد الزمني الأعلى*** لتاريخ الشرق القديم، وبمثابة خط فاصل لهذا الحد الأعلى، ***تجري الإشارة إلى احتلال الإسكندر المقدوني بلدان الشرق الأدنى القديم (أواخر القرن الرابع ق.م) وإلى بداية انتشار المسيحية (القرن الأول الميلادي)، وأخيراً الفتوحات العربية الإسلامية في القرنين السابع والثامن للميلاد.***

أما ***الحد الزمني الأسفل*** لهذا التاريخ فقد كان يعتبر في السابق ***الألف الخامس ق.م، بل حتى الألف العاشر ق.م.*** وقد جرت العادة على اعتبار أن التاريخ في المعنى الحقيقي للكلمة يبدأ بظهور النصوص الكتابية الأولى، أي في تخوم الألفين الرابع والثالث ق.م. أما جميع المراحل قبل هذا الزمن فيطلق عليها (***عصور ما قبل التاريخ***)، ولكن منطقة الشرق الأدنى القديم، كانت قد شهدت سلسلة طويلة من الحضارات الأثرية الرائعة التي تخلو من أية كتابات ولكنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً مع الحضارات (***التاريخية***) اللاحقة بحيث يستحيل فصلها بعضها عن بعض. وفي الآونة الأخيرة تزداد معلوماتنا أكثر فأكثر عن حياة مجتمعات (***الشرق الأدنى القديم***) بفضل تطوير طرق ووسائل الدراسة الأثرية واللغوية للتاريخ. زد على ذلك أن الكتابة نفسها، كما اتضح مؤخراً، قد جاءت بعد مرحلة تمهيدية تاريخية طويلة تمتد جذورها إلى الألفين الثامن والسابع ق.م. وفي الأعمال الأخيرة للعلماء السوفييت، نجد أن عرض أحداث تاريخ الشرق الأدنى القديم يبدأ من (***ثورة العصر الحجري الحديث***) في الآلاف ١٠ ـ ٨ ق.م[٢].

ثانياً : قيام دولة روما :

١ - الظروف الطبيعية :

تمتد شبه الجزيرة الإيطالية في وسط البحر الأبيض المتوسط على شكل لسان مكوّنة جزمة سوقاء تتهيأ لقذف كرة ليست إلا جزيرة صقلية. وتجتاز شبه الجزيرة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي سلسلة (***جبال الأبنين***) مقسمة إياها إلى قسمين متساويين. ويحيط بإيطالية من جهاتها الثلاث : ***البحر الأدرياتيكي***[٣]، مشكلاً في

---

(٢) انظر : ***مجموعة من المؤلفين السوفييت، الجديد حول الشرق القديم***، ترجمة خيري الضامن، جابر أبي جابر، إصدار دار التقدم، موسكو ١٩٧٧، ص ٣-٩.

(٣) كلمة (***أدرياتيك***) تُنسب إلى مدينة (***ADRIA***) في منطقة (***البندقية***). ولقد كانت مطلة على الخليج، أما اليوم فإن طمي نهر (***البو***) على مر العصور قد أبعدها إلى داخل البر. ونهر (***البو***) يسقي السهل =

أقصاه الشمالي خليج البندقية، ***والبحر التيراني***[٤]، الذي يحيط به من الجنوب إلى الشمال الغربي جزر : صقلية وساردينية وكورسيكة محوّلة إياه إلى شبه بحيرة، ثم ***البحر الأيوني***[٥]، الذي يمتد بين إيطالية في قسمها الجنوبي الغربي وألبانيا وبلاد اليونان.

أما ***السواحل الإيطالية*** فهي شبه مستقيمة ولقد كانت في القدم أقل صلاحية للملاحة البحرية من شواطئ اليونان الغنية بالخلجان العميقة. وأكثر المرافئ الطبيعية القابلة للملاحة والصالحة لرسو السفن تقع في القسم الجنوبي من إيطالية وفي الجزر.

وكون شبه الجزيرة بحرية من ناحية وشبه منعزلة عن القارة الأوروبية من ناحية أخرى يجعلها شبيهة في بعض صفاتها الجغرافية ببلاد اليونان القارية، إذ تتميز بمناخ لطيف وحرارة معتدلة مما يسمح للماشية أن ترعى في العراء طوال أيام السنة. وتكاد تكون نسبة الأمطار وتوزيعها السنوي كافية لزراعة مختلف أنواع الحبوب والأشجار المثمرة.

وجاءت تربية المواشي في المرتبة الأولى قبل الزراعة عند الإيطاليين القدماء، وإن كانت هذه الظاهرة فريدة من نوعها لدى كثير من الشعوب القديمة، ***إلا أنها تفسّر أن مظاهر الثراء والغنى والمجد قد ارتبطت أول ما ارتبطت بملكية الماشية. فالصراع العنيف الذي نشب في القرون الأولى للعهد الجمهوري بين طبقة النبلاء (PATRES) وطبقة العوام(PLEBS) لم يكن إلا صراعاً على الأرض بين كبار ملاكي قطعان الماشية وفلاحين صغار يحرثون الأرض.***

= الشمالي ويصب في الأدرياتيك بعد تشكيله شبه دلتا عند مصبه. طوله (**٦٧٠** كم) وهو أطول وأهم نهر في إيطالية.

(٤) نسبة إلى البطل الأسطوري (***TYRRHENOS***). ولقد نُسب إليه دور كبير في تأسس (***تيرينية***) وهو الاسم الذي أطلق على (***أترورية***) القديمة، وتُرجع الأسطورة أصل البطل إلى (***ليدية***) في آسية الصغرى.

(٥) يسمى البحر الأيوني، نسبة إلى (***أيون***) (***ION***) أحد الأبطال الخرافيين الذين انحدر منهم الشعب اليوناني.

وهكذا تظهر لنا أهمية تربية المواشي في إيطالية وروما منذ بداياتها الأولى. ولقد اعتنى سكان شبه الجزيرة بمختلف أنواع الماشية : ***كالخرفان والماعز والخيول والحمير والخنازير،*** كما أنهم ربوا ***البقر*** وشربوا حليبه، إلا أنهم لم يستهلكوا لحمه، إذ حمت بعض القوانين البقر، وكان الموت جزاء من يجرؤ على قتل بقرة، بسبب شعائر دينية معينة.

ولقد اعتنى الإيطاليون بزراعة بعض أنواع الحبوب (***القمح ـ الشعير***) والخضار (***العدس والفول والملفوف والكرات والبصل وإلخ***) أما ***الكرمة*** فيظهر بأنها كانت قديمة في إيطالية، وكذلك بعض أنواع الثمار (***التفاح***) خاصة، ولقد أدخل اليونانيون والكنعانيون فيما بعد ***الزيتون والرمان*** وكذلك ***النحل*** في بعض المناطق الجنوبية[٦].

٢ - *السكان* :

في مطلع الألف الأولى ق.م، كان التركيب البشري في إيطالية عبارة عن خليط مبرقش، يتألف من عناصر بشرية متعددة كانت قد توافدت إلى شبه الجزيرة هذه من جهات مختلفة تتضارب آراء المؤرخين على تحديدها.

ففي القسم الجنوبي من إيطالية، استقرت مجموعة بشرية أطلق اليونانيون عليها اسم (***إيطالي***) (***ITALI***) ***ومن هنا أشتق فيما بعد اسم إيطالية والإيطاليين***. كما سكن بجوارها ***البريتون*** (***BRUTTII***)[٧] ***والأوسكيون*** (***OSCI***)[٨] ***والأوسونيون***[٩]. وعلى الشاطىء الأدرياتيكي استقرت الشعوب ***الأومبرية ـ السابلية*** (OMBRI - ***SABELLI***). وإلى الغرب منهم استوطن ***المسابيون*** (***MESSAPII***) ***والبوكتيون*** (***PEUCETII***)

---

(٦) انظر : ***محمد محفّل، تاريخ الرومان***، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٧٤م، ص ٣٨-٤٩.

(٧) نسبة إلى مقاطعة (**بروتيوم**) في إيطالية الجنوبية.

(٨) ***الأوسك*** : شعب قديم سكن المنطقة الممتدة بين كامبانية واللاتيوم.

(٩) ***الأوسونيون*** : شعب قديم عاش في إيطالية الوسطى وتنسبه الأسطورة إلى (***AUSON***) ابن بطل ملحمة الأوديسة أوديسيوس (***ODYSSEOS***). الملك الأسطوري لجزيرة (***إيثاكا***) أحد أبطال حرب طروادة.

والدونيون (DAUNII). ولقد اعتقد القدماء بأن جميع هذه الشعوب قد تدفقت على إيطالية على شكل موجات بشرية آتية من البحر. واستناداً إلى الكتابات والنقوش العديدة التي تم العثور عليها في المنطقة المعنية في الأمر والمسطرة بأحرف يونانية، ***استنتج العلماء المختصون بأن لغة أولئك السكان كانت ضرباً من الهندية ـ الأوروبية،*** ولكنها تختلف عن اللهجات الإيطالية، وتقترب بالعكس من لهجة النقوش التي تم العثور عليها في إيلليرية. ***مما يؤكد لنا الأصل البلقاني المنسوب إلى هذه الشعوب من قبل القدماء.*** ومن الطبيعي أن تؤثر حضارة المستعمرات اليونانية في أولئك السكان، ولقد كان لمدينة ***تارنتوم (TARENTUM)*** النفوذ الأشد في هذا المضمار، وتنعكس آثار النفوذ اليوناني في شكل القبور وفي عدم حرق جثث الموتى، وكذلك في انتشار نوع من الخزف ذي الرسوم الهندسية. ورغم أن المنطقة قد خضعت حضارياً لنفوذ المستعمرات اليونانية، فلقد تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها السياسي.

أما بالنسبة لأواسط شبه الجزيرة فلقد سكنتها شعوب عديدة كان لبعضها دور حاسم في تاريخ إيطالية. فغير ***اللاتين*** الذين استقروا عند مصب نهر التيبر[١٠]. نجد الأتروسكيون استوطنوا منطقة ***إترورية (ETRURIA)***[١١]، وشغل تاريخ كل من هذين الشعبين حيزاً كبيراً في تاريخ شبه الجزيرة. ويطلق **هيرودوت** على الأتروسكيين اسم التيرينيين (***نسبة إلى تيرنوس ابن ملك ليدية آتيس الذي أمر ابنه أن يقود قسماً من شعبه إلى إيطالية بسبب القحط في بلاده، فاستقروا في إترورية فأصبحوا يُعرفون فيما بعد باسم الأتروسكيين***). أما في شمال إيطالية فقد استقر (***الليغوريون***) وقد امتزج هؤلاء (***الليغوريون***) ***بالكلتيين*** نتيجة لاجتياح القبائل الكلتية مناطق سكناهم، ونتج عن هذا الامتزاج العرقي مجموعات بشرية جديدة أصطلح على تسميتها

---

(١٠) ***نهر التيبر***: يروي مدينة روما ويصب في البحر التيريني بالقرب من مرفأ (***OSTIA***) طوله ٤٠٣ كم، يطلق عليه الإيطاليون اليوم (***TEVERE***) ولفظه اللاتيني القديم هو (***TIBERIS***).

(١١) ***أترورية*** اسمها الحالي توسكا (***TOSCANA***). موطن الأتروسكيين، تنحصر هذه المنطقة بين البحر التيريني ونهر التيبر وسلسلة جبال الأبنين ونهر (***الأرنو***) الذي يروي مدينة (***فلورنسة***).

(***بالكلتيين الليغوريين***). وإلى الشرق من مناطق الليغوريين نجد ***الريتيين*** (***RHAETI***) الذين سكنوا وديان نهر الأديج الأعلى[١٢]. وإذا اتجهنا إلى أقصى الشرق نجد ***الفينيتيين*** (***VENETI***) ومن اسمهم اشتق اسم مدينة ***البندقية*** (***VENETIA***) الواقعة في وسط البقعة التي سكنوها. ويُرجع القدماء أصل هؤلاء إلى إيلليرية وترتبط لغتهم بعائلة اللغات الهندية ـ الأوروبية. وفي القرن الرابع ق٠م، أغار ***الكلتيون*** على شمال إيطالية واصطدموا **بالأتروسكيين** وسيطرا على سهل (***البو***) بقوة أسلحتهم الحديدية[١٣]. كما أنه اعتباراً من القرن الثامن ق٠م، أخذ بعض اليونانيين يتوافدون إلى جنوب إيطالية وإلى صقلية ويؤسسون المستعمرات هناك.

٣ ـ ***لمحة عن التاريخ السياسي*** :

في القرن السابع ق٠م، كان الأتروسكيون يسيطرون على منطقة إترورية، وقد أسسوا فيها عدة مدن، ثم أخذوا يتوسعون في المناطق المجاورة، فسيطروا على سهل (***اللاتيوم***) ومدينة روما وتقدموا جنوباً نحو السواحل فاصطدموا باليونانيين الذين كانوا قد أسسوا مستعمرات لهم في تلك المناطق. ***وتحالف الأتروسكيون مع القرطاجيين فانتصروا على اليونانيين في معركة بحرية عام ٥٣٥ ق.م وأجلوهم عن بعض المناطق.*** كذلك سيطر الأتروسكيون على منطقة سهل (***البو***) في شمال إيطالية، وهكذا أصبحت معظم إيطالية خاضعة لسيطرتهم في القرن السادس ق٠م. وقد حكم في مدينة روما ثلاثة ملوك من الأتروسكيين بين ٦١٦ ـ ٥٠٩ ق٠م، وكان قد حكمها قبلهم ملكان من السابينيين وملك من اللاتينيين هو مؤسسها الأول (**رومولوس**) الأسطوري.

إذن يمكن القول، إن للإتروسكيين دوراً حاسماً في تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية اعتباراً من القرن السابع ق٠م، وكادوا أن يوحدوا شبه الجزيرة الإيطالية لصالحهم.

---

(١٢) ***نهر الأديج الأعلى*** : ويصب في البحر الأدرياتيكي وطوله ٤١٠ كم.

(١٣) انظر : **محمد محفّل**، ص ١٠٢ -١٠٥ .

ولكن الإغريق والرومان فيما بعد أحبطوا مساعيهم، وستقوم روما بتنفيذ هذه المهمة لصالح الشعب اللاتيني، فإذا انهزم الأتروسكيون سياسياً وعسكرياً، إلا أن التراث الذي خلّفوه كان كبيراً جداً، وكم هو ثقيل دين روما تجاه هذا الشعب.

كل هذه الأمور أدت إلى ضعف الأتروسكيين وطردهم من مدينة روما وسهل اللاتيوم على يد اللاتينيين الذين خلعوا آخر ملك أتروسكي في روما عام ٥٠٩ق٠م، ***وأعلنوا النظام الجمهوري عام ٥٠٨ق.م***. وهكذا بعد أن استطاع الأتروسكيون أن يوحدوا تقريباً شبه جزيرة إيطالية تحت سيطرتهم طوال قرن ونصف من الزمن، انحسرت سيطرتهم تلك، واضطروا أخيراً إلى الانزواء في منطقة إترورية التي كانت مهدهم الأصلي.

إن نسيان الماضي الأتروسكي وإسدال الستار على مآثر هذا الشعب ناتجان كما يقول (***بيير غريمال***)[١٤] عن (***مؤامرة الصمت***) تلك المؤامرة التي حدثت بالرومانيين منذ مطلع العهد الإمبراطوري، إلى طمس دور الأتروسكيين ونكرات أثرهم بالنسبة لإيطالية القديمة ولروما بالذات. ولقد أشار إلى ذلك الإمبراطور ***كلوديوس*** (٤١ - ٥٤م) والذي اشتهر بأبحاثه اللغوية والتاريخية ووضع مؤلفاً عن الأتروسكيين بقوله في أحد خطبه (***إنه ليس حبيس الأساطير التي نسجها مؤرخو الحوليات الرومان، ويتجرأ على النطق بالحقيقة بالنسبة للأتروسكيين، رغم كون هذا الأمر لا يروق للكثيرين***) ولكن بعد كلوديوس يسود الصمت المطبق من جديد.

٤ - اللاتيوم ونشوء روما الأسطوري :

يقول ***تيتوس ليفيوس*** (***يمتاز العالم القديم بإشراك الآلهة في تأسيس المدن ليضفي عليها هالة من المجد والجلال***). إذ لم يكن في حوزة علم التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقبل تطور بعض العلوم المساعدة

---

(14) ***GRIMAL PIERRE*** : ALA RECHERCHE DE ITALIE ANTIQUE HACHETTE, PARIS 1961, P 241 .

للتاريخ، وقبل أجراء بعض الحفريات الأثرية التي ألقت ضوءاً جديداً على تاريخ اللاتيوم وروما حتى القرن الخامس ق٠م. نقول لم يكن في أيدي المؤرخين سوى الروايات الأسطورية القديمة التي سردها الكتّاب اللاتينيون واليونانيون عن منشأ روما.

وتقول الأسطورة : ***(إنه بعد سقوط مدينة طروادة بيد اليونانيين الذين حاصروها مدة عشر سنوات ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إلا بالخدعة، ارتحل عنها المحارب الطروادي آينياس (AINEIAS) وحط ترحاله على شواطئ اللاتيوم. وكان لآينياس حفيدان هما (ريموس ورومولوس) حيث قررا وهما في سن الثامنة عشرة تأسيس مدينة جديدة على تل (البالاتيوم) حيث رسا مهدهما وهما وليدان.***

وتزيد الرواية أنه بعد استشارة الآلهة، وقع اختيار الأخوين على منطقة (البالاتيوم) لتأسيس المدينة. واختارت الآلهة (رومولوس) لوضع أسس المدينة المقبلة، فأخذ محراثاً، سلاحه نحاسي، وراح يشق أخدوداً حول تل (البالاتيوم) مختطاً بذلك سور المدينة. ولما بلغ الأمكنة المخصصة لأبواب مدينته رفع محراثه بعناية دون أن يمسها، وبعد انتهاء الشعائر الدينية، أمر رومولوس أتباعه من اللاتينيين والألبيين أن يُشرعوا فوراً ببناء السور الذي سيحيط بمدينته ويحميها وأصبح ذلك السور مقدساً، ولم يعد في مقدور أي إنسان أن ينتقل من خارج مدينته إلى داخلها، إلا من الأبواب، ومن هنا أطلق على كل باب من أبواب المدينة اسم (PORTA) من الفعل اللاتيني (PORTARE) أي محل.

واستشاط (ريموس) غضباً لأن اختيار الآلهة لم يقع عليه، وكان واقفاً بالقرب من أخيه عندما بدأ حائط السور يرتفع أمامه، فغلى مرجل غيظه وقفز عبر الحائط صائحاً : (هل لمثل هذه الحواجز أن تصون مدينتك ؟). مما أحنق (رومولوس) على قتل أخيه صائحاً : (هكذا سيهلك كل من يمتهن أسوار مدينتي) وكان ذلك في العام ٧٥٣ ق.م.

قُتل (**ريموس**) وظل (**رومولوس**) السيد الوحيد، وارتفعت أسوار روما على الدماء، تلك الدماء التي سيسفحها الرومان بغزارة طوال قرون عديدة قبل أن

يتمكنوا من إخضاع الشعوب الإيطالية ومن مد سلطانهم على مختلف أرجاء البحر الأبيض المتوسط.

ومهما يكن من أمر هذه الأساطير، ***فإن مدينة روما نشأت في منتصف القرن الثامن ق.م من اتحاد سبع قرى شامخة فوق سبعة تلال على ضفتي نهر التيبر الذي يخترق سهل اللاتيوم ليصب بعد ابتعاده عن روما خمسين ميلاً في البحر الأيوني المتصل بالبحر المتوسط وقد كان يسكن في أربع من تلك القرى السابينيون وفي ثلاث منها اللاتينيون سميت بالاتحاد السباعي (SEPTIMONTIUM)***[١٥].

---

(١٥) ***التلال السبعة هي*** :

AVENTINUM, PALTIUM, QUIRINALIS, VININALIS, ESQUILINUS, CAELIUS , CAPITOLIUM .

ربما لورود العدد (**سبعة**) في تحديد عدد التلال التي نشأت عليها روما وعدد الملوك ـ حسب الرواية ـ علاقة بالأتروسكيين وأصلهم الشرقي البعيد ؟. فمن المعروف أنه كان لهذا العدد منزلة لا تدانيها منزلة أي عدد آخر في معتقدات شعوب الشرق الأدنى القديم، وانعكس سحر هذا العدد في الأساطير اليونانية وفي العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية لدى العرب قبل الإسلام وبعده. فمن المعروف أن سكان بلاد الرافدين القدماء قد اشتهروا بالتنجيم، ويُعتقد بأنه كان لعدد السموات السبع والكواكب السيارة علاقة باشتهار هذا العدد وبمنزلته المقدسة لدى القدماء.

ولقد أصبح جلياً الآن أن بعض المعتقدات الدينية للشرق الأدنى القديم، قد انعكس بصورة أو بأخرى في أسفار (التوراة)، مثلاً جاء في سفر التكوين (الإصحاح السابع، الفقرة ١ ـ ٤) : (خذ من جميع البهائم الطائرة سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً، وخذ أيضاً من طير السماء سبعة سبعة ذكوراً وإناثاً ليحيا نسلها على وجه الأرض، فإنني بعد سبعة أيام ممطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وماح كل قائم عن وجه الأرض).

والأسبوع يضم سبعة أيام، واعتبر اليوم السابع مقدساً، ويظهر العدد (سبعة) من جديد في قصة يوسف (سبع بقرات سمان، وسبع بقرات عجاف، وسبع سنابل دقاق، وسبع سنابل حسان إلخ). وكان لمدينة بابل سور تفصل بين جداريه سبعة أمتار، وكان للمدينة سبعة أبواب. وحكماء اليونان سبعة وعجائب العالم سبع. =

بعد أن طُرد الملوك الأتروسكيون الأجانب من روما عام ٥٠٩ ق٠م، تسلمت زمام الحكم فيها العناصر اللاتينية والسابينية التي أصبحت تسمى بالرومان، أي سكان مدينة روما الأصليين. وقد أقام الرومان في روما نظاماً جمهورياً أرستقراطياً امتد من عام ٥٠٨ حتى عام ٣٠ ق٠م.

بعد ذلك أخذت مدينة روما تعمل على مد سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطالية كلها، ولكنها تعرضت لمقاومة تحالف بعض المدن اللاتينية في سهل اللاتيوم، ودار الصراع طويلاً في حروب عُرفت باسم (***الحروب اللاتينية***) التي كانت في نهاية المطاف لصالح مدينة روما. وقد تعرضت مدينة روما أيضاً لضغط (***الغاليين***) الذين انحدروا من الشمال واقتربوا من جدران روما بالذات. ولكن الرومان استطاعوا أن يردوهم على أعقابهم ويسيطروا على شمال إيطالية ووضعوا حاميات رومانية هتاك لتتصدى لأي هجوم أجنبي يهددها في المستقبل. وفيما بعد أنكفأ الرومان نحو الجنوب وشنوا حرباً شعواء ضد المستعمرات اليونانية في جنوب إيطالية وفي صقلية، واستطاعوا أن يُخضعوا تلك المنطقة إلى سيطرتهم. وهكذا استطاعت روما أن توّحد إيطالية تحت زعامتها فأخذت تمتد ببصرها للتوسع الخارجي.

= ويظهر سحر العدد في الإنجيل في كتاب (رؤيا القديس يوحنا) (الفصل الأول، الفقرة ٤) : (من يوحنا إلى الكنائس السبع التي في آسية، النعمة لكم والسلام من الكائن والذي كان والذي سيأتي ومن الأرواح السبعة الذين أمام عرشه).

ومن أخبار العرب قبل الإسلام، أن قبيلة (عاد) أُهلكت في سبع ليال بعد أن أذاقها الله مرّ العذاب، والمعلقات الشهيرة هي (السبعة) من شعراء الجاهلية. وكان للعدد (سبعة) عند العرب صلة وثيقة بدلالته اللفظية. فالجمل (السباعي) هو العظيم، والرجل هو (سباعي) عندما يكون تام البدن وشجاع.

واحتل العدد (سبعة) مركزاً مرموقاً في الإسلام، كقوله تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض). والأراضي هي سبع، كما أن هناك سبعة بحار. وجاء في الحديث النبوي (أوتيت السبع المثاني)، والقرّاء المشهورون هم سبعة، وكذلك كبار الفقهاء، وتقوم مناسك الحج على الطواف سبع مرات حول الكعبة المشرّفة.

وحول تفاصيل أوفى بصدد العدد (سبعة) انظر : محمد محفّل، ص ١٧٧ ـ ١٧٩

٥ - *البدايات الأولى للتوسع الروماني الخارجي* :

بعد أن قامت روما وانهمكت في توحيد شبه الجزيرة الإيطالية، لم تكن تهتم كثيراً بالعالم الخارجي، ولكن الأمر تغيّر بعد أن تحولت إلى قوة دولية، وأخذت تنظر إلى خارج حدودها وتتابع الأحداث التي تدور في العالم الذي يحيط بها كالقوى الكبرى في شرقي البحر الأبيض المتوسط كدولة البطالمة في مصر، ودولة السلوقيين في سورية وبلاد ما بين النهرين، ودولة مقدونية في بلاد اليونان. **أما في غربي البحر الأبيض المتوسط، فكانت توجد دولة قرطاجة، التي فرضت نفوذها على غرب البحر الأبيض المتوسط من جزيرة صقلية شرقاً حتى مضيق جبل طارق غرباً.**

وقرطاجة هي في الأصل مستعمرة أسسها فينيقيون من مدينة صور، وكان موقع هذه المستعمرة على الساحل الشمالي لإفريقيا (***بالقرب من تونس الحالية***) وكان ذلك في أواخر القرن التاسع ق.م. فأخذت هذه المستعمرة في النمو والتطور، ولم تلبث أن بسطت سيطرتها على مناطق واسعة في شمال أفريقيا، وامتدت هذه السيطرة إلى جنوب إسبانيا، التي أقام فيها القرطاجيون مستعمرات جديدة، لعل أشهرها مدينة ***قرطاجة الجديدة*** ***(NOVA CARTHAGA)*** وكانت قرطاجة تملك أسطولاً عظيماً، وأشاد أرسطو بدستور قرطاجة ونظامها السياسي، ونوه بما كانت تتمتع به من استقرار سياسي وثروة اقتصادية[١٦].

وباعتبار قرطاجة ذات قوة بحرية كبيرة، كان هدفها الأول السياسة الخارجية، هو الحفاظ على مصالحها التجارية. ففي هذا الإطار قامت بعقد معاهدات مع بعض المدن الساحلية في إقليم إترورية، كما أبرمت معاهدتين تجاريتين مع روما عند

---

(١٦) جاءت تسمية (***دستور قرطاجة***) في كتاب أرسطو (***السياسة***) تحت عنوان (***دستور كرخذون***)، ويشيد أرسطو بدستور قرطاجة بقوله : (***ولقد أجاد الكرخذونيون في قسط كبير من نظمهم، والدليل على حسن انتظام دستورهم، أنه مع ما يشرك الشعب في السياسة، لا يبرح ذلك الدستور على منهجه السياسي، ولم تطرأ عليه ثورة ولم يقاومه طاغية، وذلك أمر جدير بالذكر***).
أنظر : أرسطو، السياسة ٢، ٨، ١، ١٢٧٢ ب.

منتصف القرن الرابع ق.م، بالإضافة إلى معاهدة عسكرية في عام ٢٧٩ ق.م، ولكن مع ازدياد قوة روما، لم يعد هناك مفر من وقوع الصدام بين هاتين القوتين، عُرف هذا الصدام فيما بعد (***بالحروب البونية***) بين قرطاجة وروما حيث مرّت هذه الحرب في ثلاث مراحل رئيسية الأولى، والثانية، والثالثة.

آ ـ الحرب البونية الأولى ٢٦٣ - ٢٤١ ق.م :

كان مسرح الصدام في هذه الحرب هو جزيرة صقلية في العام ٢٦٣ق.م، وهو بداية لصراع طويل الأمد بين روما وقرطاجة، حين أرسل الرومان جيشاً إلى صقلية، لمحاصرة مدينة سيراكوزة، وتمكن هذا الجيش من إجبار **هيرون** (***HIERON***) ملك سيراكوزة على فض تحالفه مع قرطاجة والتحالف مع الرومان، وبادرت قرطاجة بإرسال قواتها إلى صقلية لمناهضة هذا التحرك الروماني، إلا أن هذا التحرك القرطاجي باء بالفشل، مما شجع الرومان على إحكام قبضتهم على صقلية والتخلص من النفوذ القرطاجي في صقلية، بل ذهب الرومان إلى أبعد من ذلك، بأن هاجموا قرطاجة في عقر دارها، مما أضطر قرطاجة إلى طلب الصلح، وفرض عليها الرومان شروطاً جائرة رفضتها قرطاجة للمرة الأولى. أما في المرة الثانية وفي العام ٢٤١ ق.م فقد تم إجبار قرطاجة على توقيع الصلح مع الرومان. وقد وضع هذا الصلح حداً للحرب البونية الأولى. ***وكان من شروطه تنازل قرطاجة عن جميع ممتلكاتها في صقلية، وأن تدفع تعويضاً مالياً كبيراً للرومان.***

حقق هذا الصلح سيطرة الرومان على غرب البحر الأبيض المتوسط، أما قرطاجة فقد انكمشت قوتها وكانت تعاني من مشاكل داخلية، وكانت أخطر هذه المشاكل تمرد جنودها المرتزقة[١٧]. وقامت روما بتحويل ممتلكاتها في جزيرة صقلية إلى ولاية رومانية، كما استولت على جزيرتي سردينية وكورسيكة.

---

(١٧) ***POLIB*** : II , 75 FF.

ب - الحرب البونية الثانية ٢١٩ - ٢٠٢ق٠م :

في عام ٢٢١ ق٠م، تولى قيادة قرطاجة **هانيبال**(*HANIBAL*)، وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، وقد ورث عن أبيه **هاميلكار بركة *HAMILCAR)* *BARACA*)** كراهيته للرومان، وقد عجلت الأحداث بالصدام بين هانيبال والرومان، حيث قرر هانيبال إعداد خطة جريئة لمهاجمة الرومان في عقر دارهم.

قامت خطة هانيبال على الاتجاه إلى إيطالية مباشرة وعبور جبال الألب ثم الانقضاض على شمال إيطالية، إلا أنه فشل في الحصول على مساعدة أعداء روما في إيطالية، مثل الغال. ولكن في عام ٢١٨ ق٠م، تمكن هانيبال من عبور جبال الألب، واستطاع أن يهزم الرومان الذين اضطروا إلى إخلاء شمال إيطالية. وهذا مما حدا بهانيبال إلى الاستعداد للتوغل إلى داخل إيطالية حيث تمكن من إحراز بعض الانتصارات التي فتحت الطريق أمامه إلى روما، وقرر الاتجاه إلى جنوب إيطالية لكي يتخذ منها قاعدة لعملياته. وإزاء استشعار الرومان للخطر الذي بات يهددهم، قرروا أن يحشدوا جيشاً كبيراً في عام ٢١٦ ق.م، بعد أن كادت الهزيمة تلحق بهم وتسقط روما في يد هانيبال، ***وقد جرت معركة فاصلة بين الطرفين عند سهل كاناي (CANNAE)، وعلى الرغم من أن الرومان كانوا يتفوقون على هانيبال من حيث عدد الجيش، إلا أن هذا القائد العبقري استطاع أن ينزل هزيمة ساحقة بالرومان***[١٨].

أدى هذا النصر إلى تعزيز مكانة هانيبال، وعلى الرغم من ذلك لم يتعظ الرومان من النكبات التي حلت بهم، وأخذ هانيبال يتحداهم إلى الدخول في مواجهة مباشرة، فزحف باتجاه روما وأقام معسكره على مقربة من المدينة على أمل وصول نجدة عسكرية إليه من أسبانيا، وعندما خفّ شقيقه على رأس جيش لنجدته، استطاع الرومان هزيمة هذا الجيش وقُتل شقيق هانيبال، ***وكانت الطريقة التي أُبلغ بها هانيبال بنبأ الهزيمة شديدة الوحشية، إذ أنه فوجئ بمن يلقي برأس شقيقه داخل***

---

(١٨) انظر : ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٢٣ - ٢٣٢.

معسكره. بعد ذلك أخذ هانيبال يفكّر جدّياً في الانسحاب من إيطالية، وخاصة بعد أن صدرت إليه الأوامر بالعودة إلى قرطاجة في عام ٢٠٣ ق.م.

واستؤنف القتال في عام ٢٠٢ ق.م، حيث التقى الجيش الروماني تحت قيادة (***بوبليوس كورنليوس سكبيو***) وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره، وكان والده قنصلاً لقي حتفه مع القرطاجيين، إذ أثبت هذا الشاب كفاءة نادرة عندما استولى على جميع ممتلكات قرطاجة في أسبانيا، مع جيش قرطاجة الذي كان يتولى قيادته هانيبال عند ***زاما*** (***ZAMA***). وقد أحرز (***سكبيو***) نصراً باهراً على خصمه، إثر معركة لقي فيها القرطاجيون هزيمة منكرة، وأفلت هانيبال من الموت بصعوبة.

على إثر الهزيمة قبلت قرطاجة صاغرة إلى توقيع صلح مهين مع الرومان للمرة الثالثة، ***تنازلت فيه عن جميع ممتلكاتها الخارجية، وتعهدت بدفع غرامة مالية للرومان وتسليمهم جميع سفنها الحربية مع الاحتفاظ بعشر سفن فقط، واحتفل الرومان بهذا النصر المبين، وكرّموا (سكبيو) وأطلقوا عليه لقب (الأفريقي)، وأصبح للرومان اليد العليا في غرب البحر الأبيض المتوسط.***

ج ـ الحرب البونية الثالثة ١٥٠ - ١٤٦ ق.م :

كان من بين شروط الصلح الذي أبرمه الرومان مع قرطاجة عقب الحرب البونية الثانية عام ٢٠٢ ق.م، شرطان أساسيان هما :

أولهما : ألا تقوم قرطاجة بشن أي حرب إلا بعد موافقة الرومان.

ثانيهما : كان هذا الشرط يفرض على قرطاجة أن تعيد كل ممتلكات أسلاف ماسينيسا (MASSINISA) ملك نوميدية (الجزائر حالياً) .

وبعد عقد هذا الصلح بشروطه المهينة لقرطاجة، حرِص القرطاجيون على عدم استثارة الرومان، وأخذت تعمل على استرضائهم في كثير من الأحيان. ***وكان ذلك بهدف أن تنعم قرطاجة بفترة من السلام والاستقرار والرخاء الاقتصادي وإعادة قوتها العسكرية مرة أخرى.*** إلا أن (***ماسينيسا***) ملك نوميدية كان يحمل حقداً دفيناً

على قرطاجة، وأخذ يحرّض الرومان ضدهم ويتحرش بممتلكات قرطاجة. مما دعا (**السناتو**) أي مجلس الشيوخ الروماني في عام ١٥٥ ق.م لإرسال بعثة للتحقيق بقيادة أحد السياسيين البارزين، وهو ***كاتو الأكبر (CATO)*** وعندما وصلت البعثة إلى قرطاجة، أثار انتباه أعضاء البعثة حالة الثراء التي وجدوا عليها قرطاجة، على الرغم من تعرّضها للهزيمة مرتين، كما ساورتهم الشكوك حول تفكير قرطاجة في إعادة بناء قوتها العسكرية، وأخذ (**كاتو**) يحرّض الرومان، إضافة إلى تحريض (**ماسينيسا**) ضد قرطاجة، وأخذ (**كاتو**) يردد عبارته الشهيرة أمام (***السناتو***) ***قرطاجة يجب أن تدمر (DELENDA EST CARTHAGA)***.

أخذت هذه المطالب والتحريضات من قبل (**كاتو**) و (**مسينيسا**) تشجع الرومان في عام ١٤٨ ق.م على مهاجمة قرطاجة، وعهدوا بالقيادة العسكرية إلى شاب بارع هو (***سكيبيو إيميليانوس***) ***(SCEPIO AEMELIANUS)*** الذي أظهر نبوغاً في القيادة العسكرية، ***فهزم القرطاجيين واقتحم مدينتهم في عام ١٤٦ ق.م***، وخاض جنوده حرباً في شوارع المدينة ومنازلها، إلى أن سقطت المدينة بعد مقاومة باسلة، وانتقم الرومان من أهل قرطاجة انتقاماً بشعاً، فقاموا ببيع خمسين ألفاً من مواطنيها في أسواق النخاسة، وتم تسوية مباني المدينة بالأرض. وهكذا انتهت أسطورة قرطاجة إلى الأبد، وتم تحويلها إلى ولاية رومانية هي ***ولاية أفريقيا*** (***PROVENCIA AFRICA***).

ثالثاً: أنظمة الحكم السياسية في روما:

١- نظام الحكم في العهد الملكي (٧٥٣ - ٥٠٩ ق.م):

أ- الملك (IMPERIUM):

كان الملك في روما يمثّل السلطة العليا (***IMPERIUM***) في النواحي السياسية والعسكرية والدينية والقضائية. فهو يعين الشيوخ ويترأس مجلسهم ويدعو مجلس الشعب للانعقاد ويترأس جلساته، كذلك يقود الجيش ويترأس القضاء العسكري

وينظر في الجرائم التي تمس أمن الدولة كالخيانة العظمى والعصيان وما شابه ذلك من الجرائم. والملك هو نائب الإله على الأرض والوسيط بين الشعب والآلهة. وليس هناك من قوانين تحد من سلطة الملك التي هي ليست سلطة وراثية، وعليه أن يتقيد بأعراف وتقاليد البلاد. ويُنتخب الملك لمدى الحياة من قبل مجلس الوحدات ويوافق على انتخابه مجلس الشيوخ ويساعده في الحكم. ومن رموزه ارتداء الثياب الأرجوانية اللون والجلوس على كرسي من العاج .

ب . مجلس الشيوخ (SENATUS) :

يتألف مجلس الشيوخ من رؤساء الأسر الكبيرة (***PATRES***) أي شيوخها (***SENES***) . وكانت سلطاته استشارية ومن مهماته المحافظة على أعراف وتقاليد الأجداد (***MOS MAGORUM***) وممارسة السلطة الملكية مؤقتاً عند وفاة الملك ***(كل خمسة أيام يحكم عضو من أعضائه كملك مؤقت ريثما يتم اختيار ملك جديد دائم)***. ومجلس الشيوخ هو الذي يقترح على مجلس الوحدات اسم المرشح للمنصب الملكي كي ينال موافقته ويمنحه السلطة التنفيذية العليا (***IMPERIUM***). كما أن الملك هو الذي يعّين أعضاء مجلس الشيوخ على أن لا يقل عمر أحدهم عن خمسة وأربعين عاماً. ويُطلق على أعضاء المجلس اسم (***PATRES CONSCRIPTI***) أي ***(الآباء المسجلين على اللائحة). فالملك كان يمثل الظاهر الملكي، ومجلس الشيوخ الظاهر الأرستقراطي، أما الظاهر الديمقراطي كان يتمثل في الجمعيات الشعبية أو مجلس الجماعات.***

ج . مجلس الجماعات (COMITIA CURIATA) :

انقسم سكان روما الأوائل إلى ثلاث قبائل، وجاء في الروايات المتأخرة أن الملك اللاتيني (***رومولوس***) هو الذي وزّع هذه القبائل، وتنقسم كل قبيلة إلى عشر وحدات، يُطلق على كل واحدة منها اسم (***CURIA***) وكانت كل وحدة تنتخب ممثلاً عنها لهذا المجلس حتى أصبح الشعب (***POPULUS***) يتألف من ثلاثين وحدة. وتضم

هذه الوحدات أفراد الأسر النبيلة من (***الجماعات الكبر***) إضافة إلى أتباعهم، بينما حُرِم من ذلك أفراد طبقة العوامّ (***MALTITUDO***) تلك الطبقة التي أطلق على أفرادها اسم (***PLEBS***) بمعنى (**جمهور غير منتظم**). وكانت تلك الجمعيات توافق بالهتاف، أي من دون تصويت فعلي للشخص الذي اختاره مجلس الشيوخ ليكون ملكاً وتمنحه باسم الشعب (***السلطان المطلق***).

ومن مهمات هذا المجلس، انتخاب الملك أو بالأحرى الموافقة على الشخص المرشح لهذا المنصب من قبل مجلس الشيوخ، كما أنه يشارك في سن القوانين وإعلان الحرب أو السلم، وله الحق في مراجعة الأحكام الصادرة عن الملك أو بعض نوابه. أما قراراته فتقر بالأكثرية ولكنها لا تعتبر نافذة ما لم يوافق عليها مجلس الشيوخ.

وهكذا كانت صلاحيات هذا المجلس أضعف من صلاحيات الملك ومجلس الشيوخ، كما سيتضاءل دوره أكثر عند تشكيل المجلس المئوي الذي نُسب إلى الملك الأتروسكي سرفيوس توليوس على أساس الثروة فيما بعد.

وكان المجلس يجتمع بناءً على دعوة موجهة إليه من الملك ويحق للكاهن الأعظم (***PONTIFEX MAXIMUS***) أن يرأس اجتماعاته عندما يُطرح أمامه مناقشة الأمور المتعلقة بالدين.

د - التركيب الاجتماعي في العهد الملكي :

انقسم المجتمع الروماني في العهد الملكي إلى عدة طبقات :

١ - طبقة النبلاء أو الأشراف (PATRICII) :

وهم أفراد العشائر أو الجماعات سكان روما الأصليين من العناصر اللاتينية والسابينية ثم الأتروسكية فيما بعد. ***وقد وجد في العهد الملكي حوالي مائة جماعة في روما عُرفت (بالجماعات الكبر)*** وتضم أفراد الطبقة الثرية، ولهم الحق في امتلاك الأراضي الزراعية ويتمتعون بالحقوق العامة كحق الانتخاب والترشيح للمجالس والمناصب، وبالحقوق الخاصة كحق الزواج الشرعي من طبقة النبلاء وحق التقاضي

في المحاكم وحق امتلاك الأموال المنقولة وغير المنقولة، ومن واجباتهم الخدمة العسكرية وتقديم الضرائب للخزينة العامة.

٢ - طبقة الأتباع (CLIENTES) :

وهم أفراد (الجماعات الصغر) بلغ عدد أفرادها ١٦٠ جماعة في القرن الخامس ق.م، ويتألفون من عناصر سابينية ولاتينية ***افتقرت وأفلست نتيجة تفتت أملاك العشيرة المشاعية واستئثار الأفراد الأقوياء بمعظم الأراضي.*** وقد اضطر هؤلاء الأفراد المفتقرون إلى تقديم تبعيتهم إلى أحد الأسياد الأغنياء (***PATRONUS***) والدخول تحت حمايته، فهو الذي يدافع عنهم أمام القضاء ويمنحهم الأراضي ليستثمروها بالحصة دون أي حق لهم في ملكيتها. وعلى هؤلاء الأتباع خدمة حماتهم من الأسياد ومرافقتهم في الحرب ودفع الفدية إذا وقع سيدهم أسيراً، كما يشاركون في تقديم البائنة لبنات أسيادهم عند زواجهنّ، وفي القيام بالطقوس الدينية للآلهة التي يعبدها سيدهم وجماعته.

وهؤلاء الأتباع الذين يعيشون حياة طفيلية عند أسيادهم، يشكلون القوة الضاربة بيد النبلاء ضد طبقة العوّام فيما بعد.

٣ - طبقة العوامّ (PLEBS) :

بخلاف النبلاء الذين كانوا يفاخرون بأجدادهم وبنسلهم ويمارسون مختلف الصلاحيات الدينية والسياسية، ***فلم يكن لأفراد طبقة العوّام ذوي النسب المجهول، أي حق سياسي أو ديني.*** إذ أنه لم يكن لعائلات العوام جد أول، ذو نسب إلهي يعبدونه، كما الحال بالنسبة للنبلاء. بل أن التقاليد والأعراف التي كانت سائدة، لم تكن تعترف على عقد زواج أفراد طبقة العوّام بأفراد من طبقة النبلاء.

وكانت طبقة العوّام من أوسع الطبقات وأكثرها عدداً، ***وتشكلت من الغرباء الذين ارتحلوا إلى روما فيما بعد، وأخذوا يعملون في الصناعة والتجارة، ومن افتقر واستضعف من سكان روما الأصليين، ومن الأتباع الذين تحرروا من تبعيتهم***

لأسيادهم القدماء، وسكان المناطق المجاورة الخاضعة لمدينة روما. وهؤلاء العوّام لا يتمتعون بالحقوق العامة ولا الخاصة، ولكنهم أعفوا من الخدمة العسكرية ودفع الضرائب مما أدى إلى ازدياد ثروة بعضهم من العمل في الصناعة والتجارة. وقد سكن العوّام في روما في أحياء خاصة وناضلوا طويلاً للحصول على حقوق المواطنة الرومانية التي حُرِموا منها، ***فحصلوا على شيء من هذا بعد إصلاحات الملك سرفيوس توليوس وتشكيل المجلس المئوي على أساس الثروة، وليس على أساس الحسب والنسب وعراقة الأصل والنبالة.***

وأخيراً بقي لنا أن نذكر، أن كثيراً من طبقة النبلاء، كانوا يؤجرون إقطاعاتهم الزراعية لأفراد من طبقة العوّام، وإذا ما عجز هؤلاء المستأجرون من الطبقة المذكورة عن الوفاء بالتزاماتهم تجاه النبلاء مالكي الأراضي، كان يحق لمالك الأرض أن يستولي على كيان المستأجر المفلس، وبتعبير آخر، يحكم عليه بفقدان حريته ويجعله عبداً له.

٤ - طبقة العبيد والمعتقين (*LIBERTUS*):

ويأتي هؤلاء في أسفل درجات السلم الاجتماعي، وتشكلت طبقة العبيد من الأحرار المباعين كعبيد بسبب الفقر، والأطفال الذين لا يعترف بهم والدهم الحر، ومن الأشخاص المرهونين للعمل لدى الدائن من أجل تسديد دينه، والمتخلفين عن تأدية الخدمة العسكرية، ومن أسرى الحروب والقرصنة. ولكن السيد كان يُطلق أحياناً عبده على الحرية فيصبح العبد عتيقاً (***LIBERTUS***)، ولكنه لا يتمتع بالحقوق العامة أو الخاصة، بل يسمح له فقط بممارسة الأعمال الاقتصادية لحسابه الخاص وأولاده كذلك الأمر من بعده.

<u>ويقي لنا أن نقول، أن إصلاح الملك الأتروسكي سرفيوس توليوس (٥٧٨ - ٥٣٤ ق.م) القاضي بتوزيع أفراد المجتمع الروماني على خمس فئات بحسب الثروة لا بموجب الحسب والنسب، قد أحدث ترتيباً اجتماعياً جديداً، بل نصل إلى حد القول</u>

(ثورة اجتماعية حقيقية) أحدثها الملك الأتروسكي - ويقول في هذا الشأن الفيلسوف الإنكليزي (فريدريك أنجلس) : (وفي روما أيضاً وقبل إلغاء النظام الملكي المزعوم، جرى تقويض الترتيب الاجتماعي القائم على قرابة الدم، وحلّ عوضاً عنه تنظيم دولة جديدة، ولقد أقيم هذا التنظيم استناداً إلى مناطق السكنى وإلى التباين في الثروات)[١٩].

ولا شك في أن الدافع الأساسي الذي حدا بالأتروسكيين إلى سن التشريع الجديد، كان احتداد الصراع بين طبقة العوّام التي ازداد دور أفرادها الاقتصادي في المجتمع، وبين النبلاء الذين فقدوا كثيراً من سطوتهم أبّان السيطرة الأتروسكية، ***إذ شكّل هذا التشريع الجديد خطوة ثورية تقدمية وضربة عنيفة للطبقات القديمة التي تستمد نفوذها، وإلى درجة كبيرة من حسبها ونسبها.***

٢ - نظام الحكم في العهد الجمهوري (٥٠٨ - ٣٠ ق.م) :

أ - القناصل (CONSUL) :

أطلق الرومان على نظام الحكم الجمهوري الجديد اسم (***RES PUBLICA***) وهي كلمة تترجم حرفياً (***الشيء العام***) ولكن الترجمة الشائعة لهذه الكلمة في اللغة العربية هي (***الجمهورية***). وهذا يعني أن الحكم من الآن فصاعداً لم يعد من شأن فرد بعينه، كما كان الحال في ظل النظام الملكي، بل أصبح عاماً ومن شأن جميع المواطنين. ***ولكن مثل هذا النظام الجمهوري من الحكم الذي ساد روما طوال خمسة قرون لم يكن نظاماً ديمقراطياً، وإنما كان جمهورياً أرستقراطياً حيث مارس فيه السلطات بصورة فعلية أفراد الطبقة الأرستقراطية من البطارقة النبلاء***[٢٠]. ولم يكن ذلك الحكم الجمهوري يستند إلى دستور مدّون، وإنما يعتمد على الأفراد والتقاليد

---

(19) ***ENGELS*** , ***F*** : L ORIGINE DE LA FAMILLE , DE LA PROPRIETE PRIVEE ET DE L ETAT , EDITIONS SOCIALES , PARIS , P. 120 .

(20) ***CRAWFORD***, ***M*** : the ROMAN REPUPLIC , LONDON, 1992 , P 23 .

الرومانية القديمة. كذلك لم يلغ الجمهوريون منصب الملك، بل جرّدوه فقط من سلطاته السابقة تاركين له سلطة دينية رمزية، إذ لم يكن في استطاعة الطبقة الأرستقراطية التفكير في الاستغناء عن ملك، كان لا بد من ملك للديانة من أجل المدينة، فلذلك لم يمسوا سلطة الملك الكهنوتية، وإنما اكتفوا بأن ينتزعوا منه السلطة السياسية. وفي هذه الحالة أصبح الملك كاهناً فقط يمثل السلطة الكهنوتية لا غير، بعد أن كان قبل ذلك هو الكاهن، والقاضي، والقائد العسكري يمثل بين يديه السلطتين الكهنوتية والسياسية. حوفظ إذن على الملكية، لكنها بعد أن جرّدت من سلطانها، لم تعد إلا كهنوتاً ويقول أرسطو بهذا الشأن: ***(كان للملوك في الأزمنة الغابرة سلطة مطلقة في السلم والحرب، لكن بعضهم تنحى فيما بعد عن هذه السلطة من تلقاء نفسه، وانتزعت عنوة من الآخرين، ولم يُترك لهؤلاء غير العناية بالقرابين)***[٢١].

إذK، لقد حلّ محل الملك من الوجهة السياسية وبصورة فعلية Rنصلان ينتخبان من قبل المجلس المئوي ويحكمان معاً لمدة سنة واحدة فقط غير قابلة للتجديد[٢٢]. ولكلٍ من القنصلين جميع سلطات الملك، وجرت العادة أن يُطلق اسماهما على تلك السنة. وكان هذان القنصلان يعتبران من أكبر رجال الإدارة والحكم في العهد الجمهوري وذلك بعد منحهما ***(السلطان المطلق)***، أي السلطات العسكرية والمدنية عدا السلطة الدينية التي بقيت في يد الملك. وكان القنصل كالملك يرتدي الثياب الأرجوانية الخاصة والتاج الذهبي ويحمل صولجاناً عاجياً وله حرسه الخاص وأربعة وعشرون تابعاً يحملونه على كرسي عاجي ويسيرون معه وبأيديهم العصي والفؤوس دلالة على تمتعه بالسلطة المطلقة (***IMPERUM***)[٢٣].

وكان كلٌ من القنصلين مسؤولاً عن أعماله يُحاسب عليها بعد انتهاء مدته من قبل مجلس الشيوخ، ولكلٍ منهما حق الاعتراض (***VETO***) على أعمال زميله، فكل

---

(٢١) انظر: ***أرسطو، السياسة***، ٣، ٩، ٨.

(22) ***CARY*** , ***M*** : OP. CIT . P 62 .

(٢٣) انظر: ***محمد محفّل***، ص ٤٣٤.

عمل يقوم أحدهما دون موافقة الثاني يعتبر لاغياً من الناحية القانونية. ***ومن أسباب انتخاب شخصين لمنصب القنصلية، تخوّف النبلاء الأرستقراطيين من أن يستأثر قنصل واحد بالسلطة ويعيد النظام الملكي السابق.*** كما أن حرصهم على توجيه دفة الحكم بما يتناسب مع مصالح طبقتهم الأرستقراطية دفعهم إلى حصر منصب القنصلية بأشخاص من طبقتهم فقط. ولكن العوّام بالنضال الطويل والتهديد استطاعوا عام ٣٦٧ق٠م نوال تعيين أحد القنصلين من طبقتهم بمساعي ***نقيب العوّام (LICINIUS STOLO)*** فعارض النبلاء وتوترت العلاقات بين الطبقتين، فكانت الأخطار الخارجية تحيق بروما، ***فاضطر النبلاء آخر الأمر إلى أن يكون أحد القنصلين من العوّام، وهكذا تم إفساح المجال لممثلي العوّام أن يشغلوا منصب القنصلية***[(٢٤)].

وكان القنصلان هما اللذان يدعوان مجلس الشيوخ أو المجلس المئوي أو المجلس القبلي للانعقاد ويترأسان اجتماعاتها، كما أن القنصلان يضعان مشاريع القوانين ومن ثم يعرضانها على المجلس المئوي للتصويت عليها كاملة (**بنعم**) أو (**لا**) فقط دون حق مناقشتها أو تعديلها، فإذا صوّت المجلس عليها (**بنعم**) تعتبر نافذة حكماً، وإذا صوّت (**بلا**) تعتبر لاغية حكماً، وتسمى القوانين النافذة باسم القنصلين اللذين اقترحاها.

ومع أن قانون عام ٣٦٧ ق٠م، قد سمح للعوّام بأحد منصبي القنصلية، فالإحصاءات لم تشر إلى أكثر من خمسة عشر قنصلاً من العوّام، طوال الفترة الممتدة من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الأول ق.م.

ب - الدكتاتور (DICTATOR) :

لقد كان النظام الجمهوري الذي يترأسه قنصلان يتحوّل أحياناً إلى حكم دكتاتوري. فعندما تتعرّض البلاد لخطر خارجي أو هزة داخلية نتيجة تأزم الصراع الطبقي بين العوّام والنبلاء من الأرستقراطيين، كان مجلس الشيوخ الأرستقراطي

---

(24) ***LIVIUS*** : 1, 1 - 2 .

المنتخب يعلن حالة الطوارئ ويطلب من القنصلين الاستقالة وتعيين دكتاتور واحد يكون غالباً من القناصلة السابقين وتُمنح له جميع السلطات لمدة ستة أشهر. ولكن هذا الدكتاتور لا يستمد سلطانه من القنصل الذي عيّنه، بل من الإله جوبيتر (***JUPITER***)، وبذلك كان يتمتع بسلطان لا حدود له[25]. ولا يُحاسب على أعماله بعد انتهاء مدة حكمه. ولقد لجأ الرومان إلى مثل هذه الإجراءات الطارئة في القرنين الخامس والرابع ق٠م، أما في القرن الثالث ق٠م، لم تُعلن حالة (***الدكتاتورية***) إلا نادراً، كما حدث مثلاً عندما اجتاحت القوات القرطاجية إيطالية وهددت روما في عقر دارها. وحدث في القرن الأول ق٠م، أن استأثر بالسلطة بعض الزعماء أو قادة الجيش وأعلنوا نوعاً من الحكم الدكتاتوري العسكري الاستبدادي الدائم ونذكر منهم (***ماريوس وسللا وبومبيوس ويوليوس قيصر***) الذي اغتيل في قاعة مجلس الشيوخ من قبل أحد الزعماء الأرستقراطيين المتعلقين بالنظام الجمهوري الأرستقراطي.

ويختلف الدكتاتور الروماني عن الدكتاتور اليوناني بكونه له صفة دستورية، أي يعينه القنصل باقتراح من مجلس الشيوخ ولمدة محدودة فقط، بينما دكتاتور المدن اليونانية كان يستولي على السلطة بطرق مختلفة ولمدة غير محدودة قد تنتهي بقتله أو توريث منصبه لابنه مثلاً. ومن ناحية ثانية كان دكتاتور روما غالباً ما يعّين للدفاع عن مصالح الطبقة الأرستقراطية ضد طبقة مصالح العوّام، بينما دكتاتور(TYRANOS) أثينة أو إسبارطة الذي يعني بعرف اليونان (طاغية) أو (مستبد)، كان غالباً على العكس من دكتاتور روما، يدافع عن مصالح الشعب ضد استغلال الطبقة الأرستقراطية لهم. وخلاصة القول يمكن وصف الدكتاتورية اليونانية (بالدكتاتورية المتنورة).

وقد ظلت معظم المؤسسات الدستورية والسياسية التي كانت سائدة في العهد الملكي قائمة في العهد الجمهوري أيضاً.

---

(25) ***CF . D . COHEN***, THE ORIGINS OF ROMAN DICTATORSHIP, MNEMOSYNE X (1957) 300 - 318 .

ج - *المجالس المئوية* *(COMITIA CENTURIATA)* :

وكانت صلاحيات هذه المجالس عديدة ومتنوعة من انتخابية وتشريعية وقضائية، وإليها يعود إعلان الحرب وعقد السلم. كما كانت هذه المجالس هي التي تنتخب القناصل والقائمين على الشؤون القضائية والحامين العسكريين (**ذوي *الصلاحيات القنصلية***). أما بالنسبة إلى المناصب الاستثنائية، فكانت تلك المجالس تنتخب (***مراقبي الإحصاء والأخرق العامة***)، بينما كان الدكتاتور يتم اختياره عن طريق التعيين وليس عن طريق الانتخاب.

ومع أنه كان للمجالس المئوية الحق في التصويت على بعض القوانين التشريعية التي تقيّد جميع المواطنين، فلم تكن تلك المجالس لها أي حق في اقتراح أي (**مشروع *قانوني***) كما أنه لم يكن من صلاحياتها تعديل أو تنقيح المشاريع القانونية المقترحة عليها، فحق اقتراح هذه المشاريع كان من صلاحيات قضاة المناصب العليا الذين يتمتعون بحق السلطان

وكانت هذه المجالس تضم (**١٩٣ *وحدة مئوية***) منها (***١٨ وحدة مئوية***) من الفرسان و (***٥ وحدات مئوية***) ضمت اثنتان منها العمال واثنتان الموسيقيين وواحدة الفقراء المعدمين. وكانت هذه الوحدات المئوية موزعة على الفئات الخمس التي أوجدها التصنيف المنسوب إلى سرفيوس توليوس وهي كالتالي :

أ - تضم الفئة الأولى، ويملك كل من أفرادها مبلغ (١٠٠ ألف) (AS LIBRALIS) أي آس[٢٦] (١٨ وحدة مئوية) من الفرسان، وينتمي إليها أعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء فئة الفرسان. أما مجموعات المشاة فكانت تنقسم إلى قسمين : الأولى تضم (٤٠ وحدة مئوية) من الشبّان عمر أفرادها من ١٨ - ٤٦ سنة، وتضم المجموعة الثانية (٤٠ وحدة مئوية) من كبار السن (SENIORES) أي ما بعد ٤٦ سنة.

---

(٢٦) وحدة نقدية برونزية على شكل سبيكة تزن ٢٧٢ غ. وكان يطلق على هذه الوحدات اسم (***LIBRALIS***) وهي وحدة قياسية للأوزان : انظر ***محمد محفّل*** حاشية ١، ص ٢٤٦.

ب ـ وتضم الفئات : الثانية (٧٥ ألف آس) والثالثة (٥٠ ألف آس) والرابعة (٢٥ ألف آس) وتضم هذه الفئات الثلاث (٦٠ وحدة مئوية) بمعدل (٢٠ وحدة مئوية) لكل فئة. وأفراد هذه الوحدات المئوية كانوا من المشاة المسلحين سلاحاً أخف من سلاح أفراد الفئة الأولى.

ج ـ وتضم الفئة الخامسة (١٠ آلاف آس) وتضم (٣٠ وحدة مئوية) وكان أفرادها من المشاة المسلّحين سلاحاً خفيفاً وكانت كل وحدة مئوية تقدم (١٠٠ محارب). وبذلك يكون عدد المحاربين المشاة (١٧ ألف) جندي يضاف إليهم (١٨ألف) فارس[٢٧] .

أما من يملك أقل من (١٠ آلاف آس) فلا يدخل ضمن هذا التنظيم ويُعفى من الخدمة العسكرية والضرائب وهؤلاء كانوا من الطبقة الكادحة الفقيرة (PROLETARII) الذين يكسبون قوتهم بعمل أيديهم.

ولكن من يملك أكثر من (١٠٠ ألف آس) بكثير، أي الأغنياء من الدرجة الممتازة صُنفوا في فئة خاصة هي فئة (الفرسان).

وقد كان لهذا التقسيم الاجتماعي الجديد أثره في تغيير النظم العسكرية والسياسية السائدة. ففي الجيش أصبحت فئة الفرسان لها القيادة العليا ، وتأخذ من خزينة الدولة ثمن الجياد لها حيث فرضت ضريبة خاصة لهذه الغاية. أما بقية الفئات الخمس فتخدم في الجيش كمشاة وتتسلسل مراتبها العسكرية حسب تسلسل تصنيفها من حيث الثروة.

---

(٢٧) لدينا (١٧٠ وحدة مئوية) من المشاة موزعة كالتالي : (٨٠ وحدة) الفئة الأولى + (٦٠ وحدة مئوية) لمجموع الفئات الثانية والثالثة والرابعة + (٣٠ وحدة مئوية) للفئة الخامسة وبذلك يكون لدينا (١٧٠× ١٠٠ = ١٧٠٠٠) جندي من المشاة. أما وحدات الفرسان فعددها (١٨ × ١٠٠ = ١٨٠٠) وبذلك يصبح عدد الوحدات المئوية المحاربة (١٧٠ + ١٨ = ١٨٨). يضاف إليها (٥ وحدات مئوية) من العمال والموسيقيين والمعدمين. وبذلك نحصل على مجموع الوحدات المئوية وهو (١٩٣ وحدة مئوية).

د . مجلس الشيوخ (*SENATUS*) :

يمثّل مجلس الشيوخ الظاهر الأرستقراطي في العهد الجمهوري، وهو أقوى عنصر في الحياة السياسية الرومانية في الفترة الجمهورية. وكان يتألف في بادىء الأمر من رؤساء الأسر الكبيرة (***PATRES***) وهو الذي كان يقوم في انتخاب الملوك في العهد الملكي. ولكن في العهد الجمهوري ومنذ نهاية القرن الرابع ق٠م، أخذ مراقبو الإحصاء والأخلاق العامة هم الذين يعينون أعضاءه، وكانوا عادة يختارون من بين القناصل والقضاة وغيرهم من كبار الموظفين. وبموجب قانون (***OVINIA***) الذي نص على تعيين الحكام القدماء أعضاء في مجلس الشيوخ، ***تمكن بعض ممثلي طبقة العوّام المنتخبين لمختلف مناصب القضاة من التسرّب إلى داخل مجلس الشيوخ،*** ولكن عددهم ظل محدوداً، إذ أن الأغلبية الساحقة كانوا من الحكام المنتخبين، كما رأينا في العهد الملكي من فئة النبلاء.

ولقد أخذوا يميزون بين الشيوخ العوّام، فأطلقوا عليهم اسم (***CONSCRIPTI***) أي (***المسجلين على اللائحة***)[٢٨]. بينما احتفظ الشيوخ النبلاء بلقب (***PATRES***) أي (***الآباء***).

وقد ازدادت سلطة مجلس الشيوخ في العهد الجمهوري، فهي وإن كانت سلطة استشارية، إلا أنه كان في الواقع المسيطر الرئيسي على السلطة والموجه الأول لدفة الحكم، فهو الذي يعدّل أو يلغي أو يوافق على قرارات المجالس الأخرى ويستقبل ويعين السفراء ويشرف على المفاوضات السياسية الخارجية ويسهر على المحافظة على التقاليد والأعراف ويشرف على الاتصالات والطقوس الدينية، ويقرر الأعياد، وإليه تُرفع تقارير وشكاوى حكام الأقاليم.

وقد توضّع في العهد الجمهوري جهاز إداري من الموظفين ازداد عددهم تدريجياً ونذكر منهم :

(28) ***LIV***, II,I ,11 .

(المحامين عن الشعب) أو نقباء العوّام ***(TRIBUNUS PLEBIS)*** وكان المرشح لهذا المنصب يشترط فيه أن يكون من طبقة العوّام حصراً، ***وتنحصر مهمتهم في الدفاع عن طبقة العوّام.*** وكان هذا الجهاز الإداري نتيجة لاتفاق ***(الجبل المقدس)*** في عام ٤٩٤ ق.م، عندما كان الخطر على أشدّه، وانسحب العوّام على جبل يقع على بعد خمسة كيلو مترات من روما وأعلنوا عن عزمهم في الانفصال عن روما وفي تشكيل مدينة جديدة. فارتاعت الطبقة النبيلة للخبر وأسرع مجلس الشيوخ إلى إرسال وفد للتفاوض مع العوّام. وأسفرت المفاوضات عن عقد اتفاق بين الطرفين المتنازعين نتج عنها هذا الجهاز الإداري مهمته الدفاع عن العوّام. وقد أدى هذا الجهاز دوراً كبيراً في القرون الأولى للعصر الجمهوري، قبل أن يتمكن مجلس الشيوخ والنبلاء من شل دورهم بدسائسهم ومناوراتهم.

(ومراقبو الإحصاء والأخلاق العامة) ***(CENSOR)***، ***ومهمة هذا الجهاز تنحصر بوضع لوائح بأسماء أعضاء مجلس الشيوخ. وكان من صلاحياتهما، إقصاء أولئك الذين يبدو لهما سلوكهم حتى من بين طبقة النبلاء موضع انتقاد وشبهة.*** وكان يحق للمراقبين أن يوجها إلى مختلف المواطنين، إرشادات وتوصيات خلقية وأدبية. وقد أحدثت هذه المؤسسة حسب قول تيتوس ليفيوس في عام ٤٤٣ ق.م[٢٩].

(والقضاة العدليون) ***(PRAETOR)*** وكان هؤلاء القضاة من أكبر رجال الحكم في أول عهد الجمهورية قبل إنشاء مناصب القناصل، فأصبحوا يحتلون المرتبة الثانية في جهاز الإدارة والحكم بعد القناصل.

(ونظّار الشؤون البلدية) ***(AEDILES)*** وتنحصر مهمة هؤلاء في تنظيم حراسة الأبنية العامة وصيانة الشوارع ومراقبة سير الأعمال في الأسواق والأشراف على الحمامات العامة والينابيع والقنوات ومجاري المياه، ومراقبة المواد الاستهلاكية في الأسواق وتأمين المؤن الضرورية من الحبوب وغيرها من المواد الغذائية لسكان العاصمة.

---

(29) ***LIV***, VIII, 7 .

(***وخزان المالية*** ***(QUAESTORES)*** ويأتي هؤلاء في أدنى مرتبة من (***هرم الإدارة والحكم***) وهم وكلاء الشؤون المالية ويتولون الإدارة المادية لصناديق الأموال العامة، ويتألفون من اثنين من العوّام واثنين آخرين من النبلاء.

وباختصار يمكن القول، ***إن فترة العهد الجمهوري اتصفت باستمرار وتوتر الصراع الطبقي بين العوّام والنبلاء الذين يمثلهم مجلس الشيوخ.*** وقد ناضل العوّام طويلاً مطالبين بسن قوانين عامة تخضع لها جميع الطبقات على حد سواء، ثم تدوين هذه القوانين كي يطّلع عليها الجميع، ولا تبقى وقفاً على بعض رجال الدين الذين كانوا يفسرونها كما يريدون. كما طالب العوّام بتوزيع الأراضي عليهم ومنع المدين من أن يسجن أو يعمل لدى الدائن حتى يسدد دينه، ومن مطاليبهم أيضاً السماح لهم بتولي المناصب الدينية والزواج من الأشراف والمساواة السياسية بهم، واعتبار قرارات مجالسهم كقوانين تسري على جميع المواطنين دون استثناء.

٣- نظام الحكم في العهد الإمبراطوري (٣٠ ق.م - ٤٧٦ م) :

(***عظمة السلام الروماني التي لا حد لها***) هذا ما قاله المؤرخ الكبير ***بلينيوس*** في معرِض حديثه عن الإمبراطورية الرومانية. فمن خلال هذه العبارة الرائعة بإمكاننا أن نصف العالم الروماني في أوائل عهد الإمبراطورية وعن حدود ذلك العالم الذي خضع لسلطان السلام الروماني على الشكل التالي :

فمن الناحية السياسية الجغرافية : فقد امتدت تلك الإمبراطورية من اسكتلندا شمالاً إلى السودان جنوباً، ومن البرتغال غرباً إلى نهر الفرات شرقاً حيث بلغ أطول قطر لهذا الامتداد من الشرق إلى الغرب ما يقرب من ٤٥٠٠ كم، وأطول قطر بلغ من الشمال إلى الجنوب ما يقرب من ٢٥٧٥ كم. ***ويكون بذلك قد شمل مساحة من أوروبا وآسية وأفريقية ليصبح بذلك أكبر إمبراطورية في العالم القديم حتى ذلك الوقت.*** ولا يمكن لنا معرفة عدد سكان العالم الروماني إلا على وجه التقريب، ***والآراء تتفق بوجه عام على أن عدد السكان بلغ نحو السبعين مليوناً من الأنفس.***

وكان هناك كثير من اللغات تتحدث بها شعوب الإمبراطورية على الرغم من أنها لا تبلغ الكثرة ما هي عليه اليوم، ***ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال اللغة الكلتية في بريطانيا وبلاد الغال***[٣٠]***، وبعض أراضي نهر الدانوب، واللغة الجرمانية على طول نهري الراين والدانوب الأعلى، واللغة البونية في شمال أفريقية، واللغة المصرية القديمة في مصر، واللغة الآرامية في سورية.*** بيد أن ثمة لغتين كانتا تحتلان مركز الصدارة وهما : ***اللغة اللاتينية واليونانية في الشرق***، وكان إلمام الفرد بهاتين اللغتين يكفل له الانتقال إلى أي مكان. وسادت عملة واحدة وقانون واحد في كافة هذه الأقطار. ولم تكن هناك أية حدود أو قيود جمركية كبيرة داخل حدود الإمبراطورية ذاتها. والسفر كان يتميز على قدر كبير من السرعة بطريق البر يفوق كل وسائل الانتقال الأخرى. وكان مبدأ التسامح الديني سائداً، ولم تتعرّض سوى ثلاث عقائد دينية للاضطهاد. وهذه العقائد (***الدرودية***) في بلاد الغال و (***اليهودية***) و (***المسيحية***). ولم تكن هناك تفرقة عنصرية. وعلى الرغم من وجود أحقاد ومنازعات بين بعض الشعوب، فلم تكن ثمة تفرقة بين الأجناس بالمعنى الحديث. ***وجملة القول، إن الإمبراطورية خلال القرون الأولى من عهدها، كانت تمثل أقرب المحاولات إلى إقامة دولة عالمية حتى وقتنا الحاضر، ويُعد هذا من أعظم ما تستند إليه في إثبات حقها في الاستحواذ على اهتمام العالم الحديث***[٣١].

ومن الناحية السياسية : فقد سيطر قادة الجيش في منتصف القرن الأول ق.م على زمام الأمور، ونسفوا النظم الجمهورية وعبثوا بالتقاليد الرومانية ومارسوا

---

(٣٠) شغل فتح ***يوليوس قيصر*** لبلاد الغال الأعوام الواقعة ما بين ٥٨ - ٥٠ ق.م، وكان ذلك آخر حروب الفتح التي خاضتها روما الجمهورية. ***وتشمل تلك البلاد التي فُتحت على يد قيصر كلاً من فرنسا باستثناء القسم الجنوبي منها الذي كان أصلاً مقاطعة رومانية ـ والقسم الجنوبي من هولندة وبلجيكا والقطّاع الألماني المتوضّع إلى الغرب من نهر الراين، إضافة إلى القسم الأكبر من سويسرا.***

(٣١) انظر : ***محمد محفّل، محمد زين، دراسات في تاريخ الرومان***، الجزء الثاني، محمد زين، إصدار جامعة دمشق ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

دكتاتورية عسكرية، تمثلت في أول الأمر بتشكيل أول حكومة ثلاثية عام ٦٠ ق.م تزعمها القادة الثلاثة (***بومبيوس ويوليوس فيصر وكراسوس***)، ثم انفرد يوليوس قيصر بالحكم وبمقتله عام ٤٤ ق.م تشكلت حكومة ثلاثية ثانية عام ٤٣ ق.م تزعم السلطة فيها القادة (***أوكتافيوس وأنطونيوس ولبيدوس***)، ثم انفرد ***أوكتافيوس*** بالحكم بعد أن قُتل أنطونيوس ***وأُعتبر مؤسس النظام الإمبراطوري في روما عام ٣٠ ق.م***.

وقد حافظ النظام الإمبراطوري على بقاء معظم المؤسسات والمجالس التي كانت قائمة في العهد الجمهوري مع تغيير في مهماتها وصلاحياتها، بالإضافة إلى إحداث مؤسسات ومناصب جديدة، وجمع الإمبراطور أوكتافيوس بيده كل السلطات، وأبقى في الوقت نفسه على منصب القنصلين ونقيبي العامة ومجلسي الشيوخ والوحدات.

واقتبس الأباطرة الرومان عن مصر وفارس نظام وراثة العرش، ولكنهم لم يضعوا نظاماً ثابتاً للوراثة، مما جعل تولي المنصب الإمبراطوري سبباً للفتن والخلافات في المستقبل. فأحياناً كان الإمبراطور يشرك ابنه في الحكم ليتولى المنصب الإمبراطوري من بعده، وأحياناً يتبنى أحد أقربائه ليورِّثه الحكم من بعده، وأحياناً أخرى تتدخل قوى الجيش لتقتل أو تعزل هذا الإمبراطور أو ذاك.

وكانت قوى الجيش تتألف من عدة فرق: ***فرقة الحرس الإمبراطوري الخاص، وفرقة حرس مدينة روما، وفرق الجيوش الإقليمية التي يرابط قسم منها في الشرق، وقسم في الغرب، وقسم آخر على ضفاف نهر الدانوب في الشمال.*** وغالباً ما كان يدور الصراع بين تلك الفرق حيث تريد كلٍ منها إيصال مرشحها إلى العرش الإمبراطوري، فذهب ضحية ذلك الصراع معظم الأباطرة قتلاً[٣٢].

---

(٣٢) للمزيد حول تفاصيل القوة العسكرية للجيش الروماني انظر: ***بيتي راديس، فتح بلاد الغال (يوليوس قيصر)***، ترجمة علي زيتون، إصدار دار علاء الدين، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م، ص ٢٠- ٢٢.

وظل مجلس الشيوخ يمارس حق تعيين الأباطرة، ولكن كان ذلك شكلياً، ***حيث أدّت الدور الأكبر في ذلك القوة العسكرية***. وأحياناً يسود التفاهم بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ فيدعم كلٍ منهما الآخر، وأحياناً أخرى يسود بينهما الخصام، فيحد الإمبراطور من صلاحيات مجلس الشيوخ بينما يأخذ هؤلاء بمحاربته والتآمر عليه.

ولما استلم العرش الإمبراطور ***ديوقليسيان*** (٢٨٤ - ٣٠٥ م) عمل على تقوية السلطة المركزية، وإقامة جهاز إداري منظم، وفصل بين السلطتين العسكرية والإدارية، والحد من سلطة مجلس الشيوخ، وتنظيم العلاقات بين الإدارة المركزية والإدارات في المقاطعات. وأوجد ***ديوقليسيان*** نظام المساعدين الأربعة الذي يقوم بموجبه أربعة أشخاص (***اثنان بلقب أغسطس، واثنان بلقب قيصر***) بمساعدة الإمبراطور في إدارة البلاد. وكان الأغسطسان يشرفان على إدارة النصفين الشرقي والغربي من الإمبراطورية بالتناوب، ويساعد كلٍ منهما قيصر يخلف الأغسطس عندما ينسحب من العمل، ويصبح القيصر أوغسطساً ويعين لمساعدته قيصراً جديداً وهكذا.

ولما جاء الإمبراطور ***قسطنطين الأكبر*** (٣١٠ - ٣٤٠ م) أكمل إصلاحات ديوقليسيان، ***ونقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية التي أمر ببنائها على ضفاف البوسفور***، وأضعف من دور مجلس الشيوخ في منح السلطة للإمبراطور. ومنذ ذلك الحين تقريباً، ***انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وعاصمته القسطنطينية (أي الإمبراطورية البيزنطية) التي سيطرت على أجزاء واسعة من أوروبا الشرقية وعلى معظم مناطق الشرق الأدنى القديم، وغربي وعاصمته روما (أي الإمبراطورية الرومانية الغربية)***.

<u>ومن الناحية الحضارية</u>: وصلت روما خلال العهد الإمبراطوري إلى أقصى درجات قوتها وازدهارها واتساعها، فظهر فيها الكتّاب والأدباء والمؤرخون والفنانون الكبار أمثال: الشاعر ***فرجيليوس*** (***VERGILIUS***) (٧٠ - ١٩ ق.م)،

وكان الشخصية الرئيسية في الأدب الأوغسطي ، كما أنه يكمن في قلب تراث الغرب الحضاري ، إذ نشر عدداً من القصائد أهمها (***الرعويات***) (***ECLOGAE***) التي تصف حياة الريف و (***الزراعيات***) (***GEORGICA***) التي هي في الواقع قصيدة تعليمية يتحدث فيها عن نمو القمح والكرمة والزيتون والأبقار والخيول والنحل و (***الآينيادة***) (***AENEIS***) وهي ملحمة عن البطل الطروادي (***آينياس***) وعندما توفي فرجيليوس عام ١٩ ق.م ، لم تكن (***الآينيادة***) قد اكتملت بعد ، ولهذا أوصى فرجيليوس بحرقها وهو على فراش الموت. ولكن الإمبراطور ***أوغسطس*** تدخل في الأمر وحال دون ذلك ، وأمر بأن تنشر على حالها دون أي تغيير ، وهكذا تم إنقاذ أحد أعظم الآثار الأدبية العالمية.

وهوراتيوس (HORATIUS)(٦٥ - ٨ ق.م) الذي كان صديق فرجيليوس ، وأصدر مجموعة من القصائد أشهرها (***إيبوديس***) (***EPODES***) و (***الهجائيات***) (***SATIRES***) وهذه القصائد تعكس الفلسفات الشائعة المنتشرة وهي الفلسفة الرواقية والأبيقورية ، و (***الأناشيد***) والتي كان يقوم فيها بدور المعلم للشباب الروماني في ميادين الأخلاقيات والوطنية ، وكتابه (***الرسائل***) (***EPISTULAS***) وهو في الواقع عظات عن تصرّف الإنسان وأخلاقه في شكل رسالة يرسلها إلى رجل أصبح على وفاق تام مع الحياة وعثر على السعادة في معرفته لحدوده والعيش في نطاقها. وقد توفي عام ٨ ق.م بعد أن كانت أعماله قد أصبحت كلاسيكية في أثناء حياته.

وأوفيديوس (OVIDIUS) (٤٣ - ١٨ م) وكان هذا الشاعر من أعظم شعراء الرومان قاطبة. إذ أصدر كتابه الرائع في ***فن الحب*** (***ARS AMATERIA***) وأصبح أستاذاً في هذا الميدان ، وفيه دفاع فلسفي عن الحب ، إذ أن الحب برأيه ، ***هو المصدر الحق الوحيد للتقدم بالحياة الإنسانية.*** وله كتاب آخر يكمل هذا الفن هو ***علاج الحب*** (***REMEDIA AMERIS***) ***وفي هذا الكتاب ينصح باثنتين وأربعين وسيلة لإفساد الحب ، مثل إنشاء علاقات حب جديدة ، والعمل بالزراعة وإحجام النفس عن***

الشهوات والقيام بأسفار خارجية. ومع ذلك اتجه ***أوفيديوس*** إلى ***الأساطير*** ونشر مجموعة من القصص تدور حول موضوع تغيير الأشكال وهي ما تسمى ***بالتحوّلات*** (***METAMORPHOSES***) التي تتبدى بتحول (***الفوضى***) إلى (***عالم منظم***) وأصبحت هذه القصص المنهل العذب لدراسة الأساطير الكلاسيكية. وكانت آخر أعماله هي (***الأعياد***) (***FASTI***) التي نشرت بعد موته، وهي تتناول أعياد التقويم الروماتي والأساطير المرتبطة بها، وهذا عمل أدبي يجذب القارئ لدراسة الفلكلور والدين.

وتيتوس ليفيوس (***TITUS LIVIUS***) (٥٩ ق.م- ١٧ م) ***وهو من المؤرخين العظام في العهد الإمبراطوري،*** ويتألف عمله الضخم من (**١٤٢**) كتاباً سرد فيها تاريخ روما منذ إنشائها حتى موت (دروسوس) في عام (٩ ق.م) والنتيجة المؤسفة لهذا العمل الكبير أنه لم يبق منه سوى (٣٥) جزءاً فقط. وهو في هذا العمل التاريخي الرائع يعتبر (***تاريخ روما***) تاريخاً ملحمياً تلعب فيه (***دور البطولة***) ويتعرّض في هذا التاريخ إلى الانتصارات والهزائم التي أصابت روما، فلذلك كان عمله يعيد بناء ماضي شعب عظيم بصورة خيالية ليساعد الرومان على فهم مصيرهم السامي، وقد نجح في ذلك، فإيمانه بأن البشر هم الذين يصنعون التاريخ وقدرته الفائقة على السرد القصصي، نتج عنها عرض رائع للتاريخ الروماني.

أما ديونيسيوس الهاليكارناسي (***DIONYSIES HALICARNASSOS***) الذي قام بالتدريس في روما من عام (٣٠ - ٨ ق.م) فقد كتب عن الخطابة والنقد الأدبي والتاريخ. وقد وصلنا نصف كتابه (***التاريخ الروماني القديم***) وهو يبدأ من الأزمنة الأولى حتى الحروب البونية.

وديودور الصقلي (***DIODORUS SICULUS***) الذي عاش في القرن الأول ق.م، كتب تاريخاً للعالم منذ أقدم العصور حتى حروب قيصر في بلاد الغال بعنوان (***المكتبة التاريخية***) يتألف من (**٤٠**) جزءاً، وصلنا بعضها كاملاً والبعض الآخر على شكل جذرات. وهو يتتبع أسلوب الكتابة التاريخية الهللينستي، وتختلف قيمته التاريخية باختلاف المصادر التي اعتمد عليها.

واسترابون (STRABON) (٦٤ ق.م - ١٩ م) كان جغرافياً ممتازاً في الشؤون الجغرافية العامة، واهتم بمراجعة الجغرافية الهللينستية على ضوء الغزوات الرومانية في الغرب. وتشمل كتبه السبعة عشر على جغرافية العالم من بريطانيا حتى الهند، ومن بحر البلطيق حتى بلاد الحبشة. ويُعتبر ***هذا المؤلف الجغرافي العظيم الذي كتبه استرابون باللغة الإغريقية، أحد أهم المصادر الرئيسية لمعرفة تاريخ الفكر الجغرافي في العالم القديم***[٣٣].

<u>ومن ناحية الترف والفنون</u> : بلغ الترف الروماني درجة عالية وعظيمة في العهد الإمبراطوري خاصة، حين بلغت حضارة روما مرحلة النضج الأخير، واهتم الأباطرة بمظاهر الترف ليشغلوا الشعب عن السياسة، وكانت قاعدتهم في الحكم (***السلم في الولايات والخبز والألعاب في روما***). وتمّثل الترف في تلك الكثرة الهائلة من الملاهي العامة التي وجدت في روما. فهناك الحمامات العامة وأشهرها حمامات ***ديوقليسيان*** التي لم تكن للاستحمام فقط، بل للاستجمام والرياضة، وفيها حدائق للنزهة وقاعات للمطالعة والمحاضرات وعمال لتقليم الأظافر وتمشيط الشعر وصنع الحلوى وبيع الخمور. وهناك أيضاً ميادين لسباق العجلات والركض يتراهن فيها المتفرجون على المتسابقين ويتحزبون ويتصايحون ويقتتلون. وعدا هذا وذاك أقيمت الملاعب الكبرى التي تتسع لآلاف المتفرجين. وقد خصص للألعاب ١٧٥ يوماً من كل عام تمضي بين تمثيل وصراع بين الأسرى والأسود، ويتلذذ الرومان بمنظر الدم المهراق في الملاعب، وأحياناً يقيم الإمبراطور حرباً حقيقية بين قطع الأسطول يكون وقودها الآلاف من أسرى الحروب.

ولعل العمران كان من متممات الترف، إذ اهتم الرومان به كثيراً واتخذوه واسطة لإظهار عظمتهم فتعلقوا بكل ما هو فخم وضخم. وكانت أهم آثارهم العمرانية هي المباني العامة، ***وتظهر في الأبنية الرومانية عناصر فنية يونانية وسورية ومصرية واضحة تتميز باستعمال القبة الحجرية والأقواس النصف دائرية والأعمدة***

---

(٣٣) انظر : ***محمد محفّل، محمد زين***، ص ٧٦- ٩٦.

الكثيرة وبضخامة الجدران وتزيينها بالنقوش. ونعلم أن الإمبراطور (***تراجان***) (٩٨ - ١١٧ م) فقد استقدم المهندس المعماري ***أبوللودور الدمشقي*** ليبني له سوقاً في روما وداراً للعدلية وغير ذلك من الأبنية. ***واقتبس الرومان عن اليونانيين أيضاً الأعمدة الدورية والأيونية والكورنثية ، وعن آسية الصغرى العقود والأقواس والقباب.*** ولكن رغم ما اقتبسه الرومان عن غيرهم من الشعوب فقد برهن فنانوهم عن قوة ابتكار وعبقرية في هذا المجال.

وأعظم ما بقي لنا من المباني الرومانية هياكل روما وبعلبك وتدمر وجرش بالإضافة إلى الملاعب والحمامات والأسواق والشوارع الرئيسية في روما وغيرها من المدن الرومانية. كذلك اهتم الرومان بالطرق العامة فأنشؤوا منها شبكة كبيرة وأقاموا عليها الجسور ورصفوها بالحجارة والحصى وذلك لتسهيل الاتصال بالولايات وتحرّكات الجيوش وتنقل القوافل التجارية ولا تزال بعض آثارها في بلادنا سورية حتى اليوم.

وقد برع الرومان ***بفن النحت*** أيضاً رغم تلمذتهم على يد أساتذة من اليونان واقتباسهم الشيء الكثير من ملامح الفن اليوناني. ومن آ ثار فن النحت الروماني (***مذبح السلم***) الذي أقيم عام ١٣ ق.٠م، بمناسبة عودة أوغسطس ظاهراً من أسبانيا ، وكذلك (***قوس النصر***) الذي يخلّد قمع ثورة اليهود في القدس أواخر القرن الأول الميلادي. وأهم التماثيل النصفية (***رأس قيصر***) المصنوع من البازلت والمحفوظ حالياً في متحف برلين. كما عثر على (***تمثال نصفي لبومبيوس***) وأكثر من مائة تمثال ***لأوغسطس*** وأجملها تمثاله وهو غلام المحفوظ في متحف الفاتيكان. وغير تماثيل الملوك صنع النحاتون الرومان تماثيل أخرى أشهرها تمثال (***الغلام***) المحفوظ في متحف نيويورك ، وتمثال (***الطفلة البريئة***) المحفوظ في متحف الكابيتول في روما. هذا بالإضافة إلى وجود بعض التماثيل الحيوانية أيضاً.

كذلك انتشر التصوير والرسم في روما أكثر من انتشار النحت ، ورُسمت الصور لتزيين جدران الهياكل والمنازل. ***وعلى الرغم من نبوغ الرومان في فن الرسم***

فقد سيطر فن الرسم اليوناني على عقول الرسامين الرومان، وأصبحت معظم المواضيع الفنية في روما يونانية بحتة، وخاصة صور آلهة أثينة وغيرها من المدن اليونانية. ولم تكن ممارسة الرسم وقفاً على طبقة دون أخرى، بل أسهمت في هذا المجال جميع الطبقات من أرستقراطيين وعوّام وعبيد.

<u>أما من الناحية الدينية</u> : فقد سجلت الإمبراطورية الرومانية أهم حدث عالمي في تاريخ الإنسانية وهو ***<u>الاعتراف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية</u>***. فقد لاقت المسيحية في البدايات الأولى لانتشارها في فلسطين معارضة ومقاومة واضطهاد من قبل اليهود الذين لم يؤمنوا برسالة السيد المسيح، ***وعندما شدد اليهود الملاحقة والاضطهاد على المسيحيين الأوائل خرج هؤلاء معظمهم من فلسطين وطفقوا ينشرون تعاليمهم المسيحية في سورية وآسية الصغرى وغيرها من البلدان.*** أما في روما، فالمسيحية نشأت في خضم مجتمع العبودية الروماني الذي خيّم فيه الظلم والاستبداد والاستغلال وتعمقت فيه جذور الفوارق بين طبقاته، ووجدت الطبقات الفقيرة الكادحة في التعاليم المسيحية تعزية لها في الحياة الدنيا وأملاً بالسعادة في الحياة الآخرة. أما الطبقات الغنية والسلطات الرومانية المسيطرة فقد رأت في البدء في هذه التعاليم خطراً على سلامتها ومصالحها، وخشيت أن تنبثق عنها حركة ثورية تطيح بالأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة، ولذلك أمرت بقتل السيد المسيح وبملاحقة المسيحيين واضطهادهم، ***إذ يشير المؤرخون عادة إلى عشرة اضطهادات كبيرة تعرّض لها المسيحيون بين عامي (٦٤ - ٣١٣م)، حيث كانت أولى هذه الاضطهادات في عهد الإمبراطور نيرون عام ٦٤م وكان من ضحاياها قتل الرسولين المسيحيين للمسيح عليه السلام بطرس وبولس في روما.*** وكانت ذريعة نيرون الظاهرية لإقامة تلك المجازر بحق المسيحيين الأوائل هي الحريق الذي التهم روما في العام ٦٤م، وفي تلك الملاحقات استخدم الرومان ضد المسيحيين أكثر وسائل القتل فظاعة : ***أدخلوا بعضهم في جلود الحيوانات ورموا بهم للكلاب الضارية، وأحرقوا بعضهم الآخر، وصلبوا بعضهم الثالث، وساقوا بعضهم الرابع إلى حلبات السيرك لتمزّقه الأسود.***

وأمر ***نيرون*** بإعدام الرسولين ***بطرس وبولس***، فقادوهما إلى السجن، وأعدموا في بادئ الأمر زوجة ***بطرس*** أمام عينيه، ثم أعدموا ***بطرس*** نفسه صلباً، وهو أكثر ضروب القتل إذلالاً عند الرومان. أما ***بولس*** (***سنتكلم عنه لاحقاً***) فلم يكن القانون الروماني يجيز قتله بتلك الطريقة المهينة، لأنه كان مواطناً رومانياً، ولذلك أنعموا عليه بقطع رأسه بالسيف.

كما أعدم أيضاً الإنجيليان ***لوقا ومرقس*** وأعدم كذلك الرسل الآخرون، ومنهم ***أندراوس*** أحد أبرز من دعاهم المسيح عليه السلام حيث امتد احتضاره على الصليب عدة أيام لإطالة أمد آلامه لم يغرزوا مسامير في يديه وقدميه، بل قيّدوه إلى الصليب بالحبال. أما ***يوحنا الإنجيلي*** فقد تعرّض لشتى ضروب التعذيب، ثم نفي إلى جزيرة ***باتموس*** الصحراوية حيث عاش عمراً مديداً ومات عجوزاً كهلاً في أوائل القرن الميلادي الثاني، ومات ***برنابا*** تحت التعذيب في جزيرة ***سلامين***.

ولكن تلك الاضطهادات لم تكن جميعها عامة وشاملة. وتجدر الملاحظة إلى أن التعاليم المسيحية لم تكن تمثّل نظرية ثورية تدعو إلى تحريض الجماهير الكادحة على الثورة ضد الطبقات المستغلة والسلطات الحاكمة المستبدة، فأقوال السيد المسيح واضحة في هذا المجال بقوله: (***أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله***) وقوله لرسوله بطرس (***لا سلطة إلا من الرب، فمن يعارض السلطة يقاوم النظام الذي أقرّه الرب***). بيد أن دعوة المسيحية إلى المساواة كانت تتناقض كلياً مع وجود الفوارق الطبقية والامتيازات والاستغلال، كما كانت مناداتها بالكفاف الاقتصادي بمثابة إنذار موجه إلى الطبقات الثرية للكف عن استغلال جهود الكادحين الفقراء. ***أما نبذ المسيحية للأوثان وعدم اعترافها بتأليه الإمبراطور، فهذا كان من الأمور المفككة للرابطة التي تربط بين شعوب الإمبراطورية الرومانية***. وشكّلت هذه المبادئ التي نادت بها المسيحية خطراً كبيراً على الطبقات العليا والسلطات الرومانية، مما جعلها تشن ضد اتباعها الاضطهادات المتكررة، خشية أن يتحول المؤمنون المسيحيون إلى قوة عسكرية فيستولوا على السلطة.

ولما تبوأ ***ديوكليسيانوس*** عرش الإمبراطورية الرومانية (٢٨٤ - ٣٠٥ م) سكت عن انتشار المسيحية فلم يلاحق اتباعها قرابة ثمانية عشر عاماً من حكمه لأن الظروف الخارجية (***الحروب مع الفرس والبرابرة***) تفرض تحاشي الاضطراب في الداخل. ولكن ***ديوكليسيانوس*** ما لبث أن لمس في الديانة المسيحية خطراً يهدد سلامة الدولة، ورأى فيها عامل تفكك في الداخل، كما ظن أنها ستشكل خطراً خارجياً في المستقبل لأنها أخذت تنتشر في بلاد ***الفرس، والبارثيين، والمصريين، والنوميديين، والأسبان، والبريطانيين، والألمان في أواخر القرن الثاني الميلادي*** . ولم يكن بإمكان ***ديوكليسيانوس*** أن يبيد جميع المسيحيين لأنه لو فعل ذلك لخلت معظم المناطق الشرقية من السكان، ولذا آثر في بداية الأمر، التضييق على المسيحيين وهدم كنائسهم على اللجوء إلى العنف وسفك الدماء. وهكذا أمر ***ديوكليسيانوس*** في الثالث والعشرين من شباط عام ٣٠٣ م بتهديم الكنائس المسيحية وإحراق الكتب الدينية ومنع المسيحيين من الاجتماعات واعتبارهم خارجين عن القانون لا يجوز لهم الدفاع عن حقوقهم أمام المحاكم. ولكن قرار ***ديوكليسيانوس*** لم يردع المسيحيين عن إيمانهم، بل دفعهم إلى التحدي والاستمرار في ممارسة شعائرهم الدينية ونشر عقائدهم، فاضطر هذا الإمبراطور إلى إصدار قرارات لاحقة تنص على وجوب اضطهاد المسيحيين وتعرضهم للقتل والتعذيب، وبهذا تعرّض المسيحيون للتنكيل (***وخاصة في المقاطعات الشرقية***) طوال السنوات العشر اللاحقة، وأقيمت لهم مذابح على أيدي السلطات الرومانية. ويذكر القديس (***يوسيبيوس***) وهو شاهد عيان على تلك الأحداث بقوله : (***لقد قُطعت الرؤوس والسيقان، وإن المؤمنين قد عُلّقوا على الأخشاب وأُحرقوا في بلاد ما بين النهرين، كما أن عمال ديوكليسيانوس قطعوا الأنوف والآذان والألسن وغرزوا القصب تحت الأظافر ودقوا الحديد في البطون***). وكان من بين هؤلاء من نال حق الشهادة وصفة القدسية (***القديس جاورجيوس، والقديسة باربرة في سورية***) وغيرهم كثير في بلدان أخرى كبلاد ما بين النهرين، وفلسطين، وصور، وصيدا، وطرسوس.

وعلى الرغم من سياسة الاضطهاد هذه، لم تعق هؤلاء عن متابعة نشاطاتهم التبشيرية، ولمست السلطات النتائج السلبية لهذه السياسة، فرأت العدول عنها، وهكذا حتى عام ٣١١ م أصدر الإمبراطور (**غاليريوس**) (***بالاتفاق مع القياصرة الثلاثة قسطنطين وليكينيوس ومكسمينيوس***) براءة من مدينة (***سارديكة***) تنص على الاعتراف بوجود المسيحيين وعلى السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية شرط ألا يخلّوا بالنظام وأن يصلّوا لإلههم من أجل الإمبراطور والدولة وأنفسهم، وبعد مرور شهرين من صدور هذه (***البراءة***) توفي الإمبراطور **غاليريوس**، ***فأوقف القيصران ليكينيوس وقسطنطين اضطهاد المسيحيين في ولاياتهما، بينما استمر القيصر مكسيمينيوس بالاضطهاد في ولايتيه (مصر وسورية)***، فكان من ضحاياه شخصيات دينية مهمة من مدينة **حمص** مثل الأسقف ***سلوانس*** والشماس ***لوقا*** والطبيب ***يوليانوس***. إلا أن مثل هذا الأمر لم يلق ارتياحاً من القيصر ***قسطنطين*** الذي شن في عام ٣١٢ م حرباً قاسية ضد ***الإمبراطور مكسنيوس بن مكسيمينيوس*** فانتصر عليه في معركة دارت رحاها قرب مدينة روما وفر الإمبراطور **مكسنيوس** من المعركة ولكنه غُرق في نهر التيبر.

بعد أن نظّم الإمبراطور قسطنطين أموره في روما انتقل إلى مدينة **ميلانو** في مطلع عام ٣١٣م ليجتمع بزميله ***ليكينيوس*** للتشاور في أمور الدولة، ***وقررا إعلان حرية المعتقد في جميع أنحاء الإمبراطورية وتنفيذ براءة (سارديكة) التي أصدرها الإمبراطور غاليريوس قبيل وفاته عام ٣١١ م، والتي تنص على أن يمارس المسيحيون شعائرهم الدينية.*** وعندما عاد ***ليكينيوس*** إلى مدينة (***نيكوميدية***) أعلن حرية المعتقد بنص رسمي يطلق عليه بعض المؤرخين اسم (***براءة ميلانو***). ولكن وبعد فترة وجيزة لم يكن مثل هذا الأمر يرضي إمبراطور الشرق ***ليكينيوس*** الذي كان وثنياً، ونقض (***براءة ميلانو***) وأخذ يضايق المسيحيين ويبعدهم عن قصره وعن الوظائف الكبرى، ثم تطورت هذه المضايقة إلى اضطهاد سافر، فلاقى الكثيرون من المسيحيين

حتفهم ومنهم (***الشهداء الأربعون***) الذين قُتلوا في سبسطة من أعمال أرمينية الصغرى (***حيث لا تزال الكنيسة تحتفل سنوياً بعيد ذكرى الأربعين شهيداً***) ***ورداً على ذلك شن الإمبراطور قسطنطين حرباً ضد ليكينيوس واتخذت هذه الحرب طابعاً دينياً تميز بالصراع بين المسيحية والوثنية. وبنتيجة هذا الصراع انتصر حامي المسيحية على خصمه حامي الوثنية،*** فقتل ***ليكينيوس*** في عام ٣٢٤م، وأصبح ***قسطنطين*** الحاكم الوحيد في الإمبراطورية الرومانية وبنى لنفسه عاصمة جديدة دعاها القسطنطينية، ***وأصدر في عام ٣٢٤م قرارين ينصان على وجوب إنهاء اضطهاد المسيحيين وعلى منح حرية المعتقد للمسيحيين والوثنيين على حد سواء من غير أن يتسبب أحدهما للآخر أو للدولة بأي أذى . إلا أن الإمبراطور قسطنطين كانت ميوله نحو المسيحية، أقوى من ميوله نحو الوثنية،*** وقدّم الأموال والمواد اللازمة لإنشاء الكنائس المسيحية وأمر بأن تعاد لهم معابدهم القديمة التي انتزعت منهم في مرحلة الاضطهاد، فبنيت على نفقة الدولة كنائس القسطنطينية ونيكوميدية وإنطاكية والقدس وبيت لحم والخليل.

لقد أدرك قسطنطين بوضوح أن التعاليم المسيحية وحدها المؤهلة لتجديد الإمبراطورية في الميدان الأخلاقي. وثمة كثير من القرائن التي توحي بتأثير تعاليم المسيحية على إدارة قسطنطين الذي درس هذه التعاليم دراسة وافية، ***وألغى الإعدام صلباً، وألغى العروض الدموية في السيرك، وأخذ اليتامى والأطفال المرمين تحت رعايته، وأظهر رحمة نحو المعوقين والفقراء.***

وفي عام ٣٣٧ م مرض ***قسطنطين*** بالحمى وشعر بدنو أجله ***فتقبّل المعمودية في المسيحية على يد يوسيبيوس أسقف نيكوميدية.*** وفي الثاني والعشرين من أيار العام نفسه فارق ***قسطنطين*** الحياة في مدينة نيكوميدية، ونُقل جثمانه في تابوت من ذهب إلى القسطنطينية، ودفن في كنيسة الرسل في ناووس من الرخام السماقي، وأقيم له تمثال نُصب فوق عمود من الرخام في فوروم القسطنطينية.

وبعد **قسطنطين** جاء عدد من الأباطرة الرومان، حتى كان عهد الإمبراطور ***تيودوسيوس الأول الكبير*** (٣٨٧ - ٣٩٥ م) ***الذي أصدر في عام ٣٩٢ م، مرسوماً حظّر بموجبه على الوثنيين ممارسة شعائرهم الدينية. وهكذا رسمت الديانة المسيحية في عهد تيودوسيوس الأول صورتها النهائية التي تتمثل بالمذهب الأرثوذكسي النيقوي، كما أصبحت هي الديانة الرسمية للدولة البيزنطية، بينما اختفت الديانات والمذاهب الأخرى***[٣٤].

---

(٣٤) حول انتشار الديانة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية بالتفصيل أنظر : **نعيم فرح، *تاريخ بيزنطة (القرن الرابع حتى القرن الثامن الميلاديين)*،** الأمالي الجامعية، ١٩٧٦ - ١٩٧٧، ص ٥ - ٣٠.

القسم الخامس

الشرق الأدنى القديم
في العصر الروماني

مصر - بلاد الشام

(٣٠ ق.م - ٢٨٤ م)



البحث السابع عشـــر

مصر فـي العصر الرومانـي

أولاً : المفهوم التاريخي والحضاري لتاريخ الشرق الأدنى القديم:

كنا قد تحدثنا في الفصل السابق عن المفهوم التاريخي والحضاري للشرق القديم عام، وشرحنا جغرافيته السياسية والبلدان التي انضمت تحت لواء مفهوم الشرق القديم.

أما في هذه الدراسة: يتوّجب علينا، ***أن نبين المفهوم التاريخي والحضاري للشرق (الأدنى) القديم أو ما يسمى بمصطلح (آسية الأمامية)***، وهذا المصطلح الجديد، ليس إلا جزءاً من بلدان الشرق القديم التي شملت – بحسب **الأطر** ***الكلاسيكية ـ المجتمعات القديمة لمصر وبلاد الشام (كسورية وفينيقية وفلسطين) وبلاد ما بين النهرين (كالحضارة السومرية والآكادية والبابلية والآشورية والكلدانية أو البابلية الحديثة)، ومجتمعات آسية الصغرى (كالحضارة الحثية القديمة والحضارة الفارسية)***.

أما فيما يخص الشرق (الأدنى) القديم في العصر الروماني : فيقول الأستاذ **ميللر** (***MILLAR***) من جامعة أوكسفورد في أحدث دراساته عن الشرق الأدنى في العصر الروماني[1] : (***أنه يعنى بتعبير الشرق الأدنى الروماني، تلك المنطقة التي تمتد***

---

(1) ***MILLAR, FERGUS*** : THE ROMAN NEAR EAST , 31 B . C - A . D 337 , HARVARD , 1994 .

ما بين جبال طوروس في الشمال، حتى حدود مصر جنوباً، وهي منطقة يحدّها من الغرب البحر الأبيض المتوسط، أما حدودها في الشرق فلم تكن ثابتة، فإن الوجود الروماني في الشرق كان يتمدد وينكمش حسب الظروف. فإن وادي الفرات الأوسط الذي كان يمثّل دوماً الحدود الفاصلة ما بين الإمبراطورية الرومانية والدولة البارثية، لم يكن كذلك خلال القرن الثاني الميلادي، وفي نهاية القرن الثالث امتدت السيطرة الرومانية إلى الجزء الأعلى من أواسط نهر دجلة، وفي الجنوب كان هناك وجود عسكري روماني على السواحل الشرقية للبحر الأحمر لبعض الوقت. ويمكن القول، إن منطقة الهلال الخصيب كانت تمثّل الجزء الأكبر من الشرق الأدنى الروماني).

ومن الناحية الحضارية، سيطر الطابع الإغريقي على هذه المنطقة، بالإضافة إلى مجموعة اللغات السامية، ***مثل الآرامية بلهجاتها المختلفة، وهناك الفينيقية والعبرية والتدمرية، وفي الجنوب سادت اللغة العربية***[٢].

ولكننا في هذه الدراسة لا نستطيع أن نتمكن من معالجة كل التفاصيل المتعلقة بتاريخ هذه المنطقة خلال العصر الروماني، وذلك نظراً للتداخل الشديد بين الجماعات العرقية والحضارية المختلفة، وسنقتصر على الخطوط العامة للسياسة الرومانية في هذه المنطقة. ***ومن جهة أخرى، ينبغي أن نشير إلى أننا لا نعني بذلك أن كل بلدان الشرق الأدنى القديم قد خضعت للحكم الروماني، فقد ظل الكثير منها بمنأى عن الحكم الروماني المباشر، ولكنها تأثرت بالوجود الروماني في المنطقة بشكل أو بآخر.***

ثانياً: بدايات التدخل الروماني في مصر:

اضطر الرومان إلى خوض غمار حروب مريرة، من أجل الحفاظ على مصالحهم والذود عن دولتهم، مثل ***الحروب البونية*** التي انتهت بانتصار الرومان على

---

(٢) يمكن أن نلاحظ هذا التنوع الثقافي والعرقي في مدينة سلوقية على سبيل المثال، والذي انعكس في الصراعات التي شهدتها المدينة بين الإغريق واليهود، كما رواها **يوسيفوس** اليهودي أنظر: ***JOSEPHUS***, ANT : 18 , 372- 5 .

قرطاجة، والقضاء على هذه الدولة قضاءً مبرماً (***كما رأينا سابقاً***) وتحويلها إلى ولاية رومانية. وقد كانت الحروب البونية سبباً مباشراً في جذب اهتمام الرومان لمنطقة البحر الأبيض المتوسط ومتابعة ما يدور فيها. وقد دفعهم إلى هذا الأمر، تورط فيليب الخامس ملك مقدونية في التحالف مع هانيبال، عدوّهم اللدود، واضطر الرومان إلى خوض سلسلة من الحروب عُرفت باسم (***الحروب المقدونية***) انتهت بتدمير مملكة مقدونية أيضاً وتحويلها إلى ولاية رومانية.

لم يعد أمام الرومان بعد أن تفتّحت شهيتهم إلا المزيد من التوسع، ووضعوا سياسة قوامها العمل على إضعاف الدولتين ***البطالمة في مصر والسلوقية في سورية.*** وقد تحققت مآرب الرومان في إسقاط الدولة السلوقية في عام ٦٤ ق.م، وأخذوا بعد ذلك يتربصون بدولة البطالمة ويتحينون الفرصة للانقضاض عليها، إلى أن تمكنوا في النهاية من إسقاط دولة البطالمة وتحويل مصر إلى ولاية رومانية في عام ٣٠ ق.م.

وتعود بداية العلاقات بين مصر وروما إلى عهد ***بطليموس فيلادلفيوس*** (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م) الذي كان أول من بادر إلى إرسال بعثة إلى روما في عام ٢٧٣ ق.م[٣]، وردّت روما على المبادرة المصرية بإرسال بعثة إلى مصر في العام نفسه. وقد ثار جدل بين الباحثين حول الغرض من تبادل هذه البعثات بين الطرفين، ولكن مما لا شك فيه، أن هناك اعتبارات اقتصادية وسياسية أملت على الطرفين السعي نحو إقامة علاقات بينهما.

فمن الناحية الاقتصادية : يذكر المؤرخ ***بوليبيوس***، أنه في فترة ما بين عامي (٢١٥- ٢١٠ ق.م)، تهددّت روما بالمجاعة، بسبب قيام هانيبال بتدمير حقول القمح في إيطالية، مما دفع الرومان إلى إرسال طلب إلى ***بطليموس الرابع فيلوباتور*** (٢١٢ - ٢٠٥ ق.م) ملك مصر لتزويدهم بشحنات من القمح[٤]. وفي النصف الثاني من القرن

---

(٣) انظر: ***عبد اللطيف أحمد علي، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية***، القاهرة ١٩٦٥، ص ١ ـ ٣٠ (***فيما يتعلق بموضوع العلاقات المصرية الرومانية***).

(4) ***POLYB***, IX, 11. A.

الثاني ق.م، ازدادت العلاقات التجارية بين مصر وروما توثقاً، ***وكان ذلك في مرحلة الضعف عند البطالمة***، وخاصة عندما تولى العرش البطلمي ***بطليموس الثامن الملقّب بيوروجيتيس الثاني*** (١٤٤ - ١١٦ ق.م) الذي كان صنيعة للرومان وخادمهم المطيع. وأخذ الساسة الرومان في عهد هذا الملك يتقاطرون إلى الإسكندرية، ***في زيارات ظاهرها توطيد أواصر الصداقة بين البلدين، وباطنها التعرّف على أحوال مصر الداخلية.*** فقد شهد عام (١٤٠ - ١٣٩ ق.م)، وصول بعثة رومانية، على رأسها القائد الشهير ***سكبيو إيمليانوس*** (***SCIPIO AEMILIANUS***) الذي دمر قرطاجة. وخلافاً لقواعد البروتوكول سارع الملك البطلمي باستقبال القائد الروماني في الميناء، ***وإن دلّ ذلك على شيء، فإنه يدل على المكانة العالية التي أصبحت للرومان في مصر.*** وكان ***بطليموس الثامن*** من ناحيته حريصاً أشد الحرص على استرضاء الرومان، نظراً لمواقفهم المساندة له في السابق، كما أنه كان يعوّل كثيراً على دعمهم له في البقاء على العرش بسبب كراهية الشعب له، لأن الدولة البطلمية في عهده كانت عاجزة عن الإصلاح الحقيقي. وعلى الرغم من كل الإصلاحات التي قام بها، وخاصة فيما جاء بوثيقة (***العفو العام***) (***PHILANTHROPA***)[٥]، إلا أنه كان عاجزاً كل العجز عن وقف التدهور وتوجيه الدولة نحو التقدم والازدهار، كما كانت في عصر القوة عند البطالمة الأولين.

لم يكتف الضيف الروماني بزيارة الإسكندرية ومقابلة المسؤولين فيها، بل حرِص على الإبحار في النيل حتى مدينة منف. ***وكان الباطن الحقيقي لهذه الزيارة هو تفقد أحوال مصر الاقتصادية والحقول الغنية بمحاصيل القمح***، إذ كانت روما دائماً

---

(٥) تضمنت هذه الوثيقة إعادة الاستقرار للبلاد، وأن يطمئن الشعب على أرضه أو بيته أو أسرته حتى يقبل على العمل والإنتاج، وإعلان عفو شامل عن جميع الجرائم التي ارتكبت حتى صدور الوثيقة في آذار عام ١١٨م باستثناء جرائم القتل وسرقة المعابد، وتنازل الدولة عن معظم الضرائب على المزارعين ومنحهم امتيازات كبيرة لعدة سنوات. وتحظّر هذه الوثيقة على الموظفين استغلال نفوذهم وأخذ الرشاوى من الأهالي، ومنع استخدام وسائل العنف والتعذيب لأجل تقاضي حقوق الدولة من المزارعين والعمال. انظر: ***مصطفى العبادي، العصر الهللينستي***، ص ٩٢.

تترقب الموقف في الشرق الأوسط وتتدخل عند الضرورة بما يكفل مصالحها، وخاصة في مصر التي كانت تعتمد عليها روما اعتماداً تاماً على استيراد القمح المصري منذ عهد بطليموس الثاني في القرن الثالث ق.م، إضافة إلى القمح المستورد من شمالي أفريقية وصقلية. ومن أجل ذلك كانت روما تحرص دائماً على أن يستتب الأمن في مصر في ظل ملك صديق لها. إذ كان الضيوف الرومان لمصر يقدّمون تقارير وافية عن أوضاع مصر الداخلية والاقتصادية إلى **(السناتو)** الروماني، لكي يساعدوه في رسم سياسته تجاه مصر(٦).

ومن المرجح أن مثل هذه الزيارات، أدت إلى زيادة معرفة الرومان بثروات مصر، وأزكت رغبتهم في الاستيلاء عليها، فأخذوا في اختلاق المعاذير للتدخل في شؤونها الداخلية.

أما من الناحية السياسية : فقد انتقلت العلاقة بين مصر وروما إلى طور جديد، ***وهو الطور السياسي***، إذ نصب الرومان أنفسهم أوصياء على مصر(٧)، وأعطوا لأنفسهم الحق في التدخل في شؤونها الداخلية، وعلى رأسها الصراعات بين أبناء البيت المالك التي فتحت الباب على مصراعيه أمام التدخل الخارجي (***وما أكثر ما كان يثور في ذلك الوقت)***(٨)، فقد صارت روما هي الملاذ الذي يحتمي به أبناء البيت المالك كلما واجهتهم مشكلة. إذ أصبحت المسألة المصرية من هذه الناحية تظهر

---

(٦) انظر : ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٤١، ثم ***لطفي عبد الوهاب يحى، دراسات في العصر الهللينستي***، بيروت ١٩٨٨ م، ص ٢٢٥.

(٧) انظر: ***بل، آيدرس، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي***، ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، بيروت ١٩٨٨ م • إذ كانت الأساليب الدبلوماسية الرومانية تجاه مصر تفتقر إلى الذوق والكياسة في بعض الأحيان، إن لم توصف بالشراسة، ولكن قوتها كانت أخطر من أن يتحداها إنسان، ص ٨٤.

(٨) يصعب علينا في هذه الدراسة أن نتعرّض إلى تفاصيل ***(النزاعات بين أبناء البيت المالك البطلمي)*** نظراً لتعقيداتها وصعوباتها واستحواذها على حيز كبير في هذه الدراسة. ولكن لمن يود الإطلاع بشكل عام على تلك النزاعات انظر بالتفصيل المراجع الواردة في هذه الدراسة : ***أبو اليسر فرح، لطفي عبد الوهاب يحى، مصطفى العبادي، عبد اللطيف أحمد علي.***

بشكل واضح في السياسة الرومانية، ***وبدأت تدخل كعنصر هام في برامج الأحزاب المتصارعة على الحكم داخل روما،*** كلٍ يحاول أن يكون له السبق في الاستيلاء على مصر. إذ أن توسيع الإمبراطورية الرومانية والمحافظة على حدودها أصبح رهناً بكفاية القادة العسكريين، الذين أصبحت كفاية كلٍ منهم العسكرية تنحصر في المجد الذي يكسبونه في ميدان القتال، كدعامة يقوم عليها ظهورهم السياسي داخل روما. ***فالتعبئة العسكرية في روما كانت تقوم أساساً على عاتق القائد بصفته الشخصية، وليس على عاتق الدولة،*** وهكذا انتقل ولاء الجندي من الدولة إلى القائد، وتحت هذه الظروف أصبح ضم دولة مثل مصر إلى ولايات الإمبراطورية عملاً يحقق المجد العسكري للقائد الذي يقوم به، كما يؤدي إلى التفوق السياسي له وللحزب الذي ينتمي إليه[٩].

وظلت هذه الأحوال في تدخل السياسة الرومانية في شؤون مصر حتى عهد ***كليوباترة السابعة*** (٥١ - ٣٠ ق.م) حيث وقع نزاع أسري على خلافة العرش بين كليوباترة السابعة وأخيها بطليموس الثالث عشر، واستغل الرومان هذا النزاع، وكان ***أنطونيوس*** على رأس الساسة الرومان للقيام بحل هذا النزاع. إلا أن كليوباترة السابعة أثّرت في أنطونيوس واستطاعت بما تحمله من أسلحة فتّاكة وهي أنوثتها وذكاؤها وعقلها اللماح، أن وقع أنطونيوس في أسر غرامها وسحرها. وعلى إثر ذلك توطدت العلاقة بينهما وأنجبت كليوباترة السابعة من أنطونيوس أطفالاً ثلاثة ولدين وبنتاً، حتى إذا كان عام ٣٥ ق.م، أعلن أنطونيوس طلاقه من زوجته ***أوكتافيا*** أخت ***أوكتافيوس***، كما أعلن شرعية علاقته بكليوباترة السابعة. ***وبموجب ذلك أصبحت كليوباترة نفسها ملكة على الولايات الشرقية كلها كمنحة لها من أنطونيوس،*** وأصبحت تؤرخ وثائق الحكم التي كانت تؤرخ بتاريخ اعتلائها العرش، بتاريخ آخر هو تاريخ اقترانها بأنطونيوس.

ونتيجة لذلك وقعت حرب ضروس ***بين أنطونيوس وأوكتافيوس*** التي كانت تؤول إليه الولايات الغربية من الإمبراطورية. ***وكان سخط الرومان قوياً على***

---

(٩) انظر: ***لطفي عبد الوهاب يحى***، ص ٢١٧.

أنطونيوس واعتبروه خائناً لروما وللمثل الرومانية، مما حذا بهم لخوض الحرب ضده لأنه أصبح أداة طيّعة في يد امرأة أجنبية كانوا يرون فيها نموذجاً مجسداً للفجور (كما رأينا في فصل نهاية الدولة البطلمية سابقاً). وراح أوكتافيوس يستعد للحرب وركّز دعايته على القول إنه لا يحارب أنطونيوس، المواطن الروماني، ولكنه يحارب كليوباترة الملكة الأجنبية، وبذلك عبأ الرأي العام في روما ضد أنطونيوس، ثم أعلن عليه الحرب باسم (***إنقاذ الإمبراطورية***)، ودارت المعركة الفاصلة في منطقة (***أكتيوم***) على الشواطئ الغربية لبلاد اليونان في الثاني من أيلول / سبتمبر من العام ٣١ ق.م، وانتصر أوكتافيوس في المعركة واستولى على مصر بأسرها، ثم اتجه إلى الإسكندرية ودخلها في أول آب / أوغسطس عام ٣٠ ق.م، وقال عبارته المشهورة (***لقد أضفت مصر إلى سلطان الشعب الروماني***) (***AEGYPTUM IMPERIO POPULI POMONI ADIECI***). ***وبهذه الموقعة سقطت دولة البطالمة في مصر إلى الأبد، وأصبحت ولاية رومانية تتبع إمبراطور روما،*** وأصدر مجلس الشيوخ الروماني قراراً باعتبار ذلك اليوم عيداً وطنياً، وأمر بسك عملة نقدية تخليداً لهذه المناسبة نُقشت عليها عبارة (***فتح مصر***)(***AEGYPTO CAPTA***)[١٠].

ثالثاً : مصر في عصر أوكتافيوس (أوغسطس)[*] :

بانتصار أوكتافيوس، واندحار أنطونيوس، وانتحاره بعد ذلك طويت صفحة دامية من تاريخ الرومان، وانتهت الحرب الأهلية، وعمّت الفرحة الرومان، وعبّر أحد شعرائهم عن مشاعر الفرح قائلاً : (***لقد أسكن قيصر عاصفة الحرب، وأسكت قعقعة الدروع، وجاء مبتهجاً إلى أرض النيل، حاملاً القانون والنظام والخير العميم، مثل زيوس إله الحرية***)[١١].

---

(١٠) انظر : ***أبو اليسر فرح***، ص ٢١٦ ، حاشية ٣ . ثم ***عبد اللطيف أحمد علي*** ، ص ٢٧ . ثم ***لطفي عبد الوهاب يحى*** ، ص ٩ وما بعدها .

(❖) في العام ٢٧ ق.م أنعم السناتو على أوكتافيوس بلقب ***أوغسطس*** (***AUGUSTUS***) هو لقب يعني (***الجليل***) كما منح لقب (***الإمبراطور***) ويعني (***القائد المنتصر***). ومنذ ذلك الحين حرص ***أوكتافيوس*** على أن يذكر اسمه مشفوعاً بهذا اللقب . انظر : ***سيد الناصري ، التاريخ السياسي والحضاري للإمبراطورية الرومانية*** ، القاهرة ١٩٧٥ م ، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(١١) المقصود بقيصر هنا هو ***أوكتافيوس*** إلى جانب لقبه الآخر ***أوغسطس.***

ففي اليوم الأول من شهر أوغسطس من عام ٣٠ ق.م، دخل أوكتافيوس مدينة الإسكندرية. وعلى خلاف ما كان سائداً في العالم القديم، فإن أوكتافيوس منع جنوده من نهب المدينة احتراماً لذكرى مؤسسها الإسكندر الكبير، وألقى على الإسكندريين خطاباً باللغة اليونانية، أعلن فيه العفو عن الإسكندريين، وأعلمهم بأنهم لم يعودوا مواطنين في عاصمة دولة مستقلة، بل مجرّد سكان في إحدى مدن ولايات الإمبراطورية الرومانية. وخوفاً من أعمال الشغب التي اعتاد عليها الإسكندريون، وضع أوكتافيوس فرقة رومانية كاملة ((***LEGIO*** يبلغ عدد أفرادها ستة آلاف جندي في ضاحية النصر ((***NICOPOLIS*** بالقرب من الإسكندرية، وحرّم أوكتافيوس على الإسكندريين ممارسة أي نشاط سياسي، ورفض أن يكون لمدينتهم مجلسٌ للشورى ((***BOULE***، ولكنه أصدر قراراً بإعفائهم من دفع ضريبة الرأس التي فرضت على جميع الفئات الأخرى، في الحين نفسه أقر لليهود كل الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها (***حيث سار في هذا الاتجاه في إطار سياسة فرّق تسد التي اتبعها الرومان***)، فسمح لليهود بتطبيق قوانينهم الخاصة وبتشكيل مجلس الشيوخ (***GEROUSIA***)[١٢]. ويذكر الكاتب اليهودي فيلون (***PHILON***) أن أوغسطس (***أي أوكتافيوس***) أصدر قراراً جاء فيه، أن يهود الإمبراطورية قد أثبتوا ولائهم للشعب الروماني في الماضي والحاضر، لذلك فإنه قرر السماح لهم بممارسة عاداتهم طبقاً لشريعة آبائهم[١٣]. ولكن أوكتافيوس في إطار رغبته في إيجاد نوع من التوازن بين اليهود والإسكندريين، قرر أن يفرض على اليهود دفع ضريبة الرأس، التي كان قد أعفى منها الإسكندريين، وحرص أوكتافيوس على تأمين مصر، بأن وضع فرقة ثانية بالقرب من مدينة منف وسط البلاد، وفرقة ثالثة بالقرب من مدينة طيبة في جنوب مصر، بالإضافة إلى كتائب أخرى رابطت في مواقع مختلفة من مصر،

---

(١٢) انظر : ***مصطفى كمال عبد العليم ، اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان*** ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ١٤٤.

(13) ***PHILON*** : IN FLACCUM . TR . COLSON L . C . L , 1979 , 50 ..

حيث بلغ عدد القوات الرومانية في مصر ٢٢٨٠٠ جندي، وهذا يعكس مدى خوف أوكتافيوس على مصر، ومدى إحساسه بأهمية هذه الولاية[١٤].

بعد أن فرغ أوكتافيوس (**_أوغسطس_**) (**_والذي سنطلق عليه من الآن فصاعداً لقب أوغسطس_**) من تنظيم ولاية مصر، قفل عائداً إلى روما، حيث أدخل تعديلات جذرية على نظام الحكم، معتقداً أنه آن الأوان لوضع نظام سياسي جديد، ولكنه آثر الإبقاء على النظام الجمهوري من حيث الشكل، إلا أنه أقام نظاماً جديداً كان ملكياً في جوهره. وحصل من (**السناتو**) على سلطة الإمبريوم العسكري، وهي سلطة تتيح له الحق في قيادة القوات العسكرية، وأخذ يوعز إلى (**_السناتو_**) بمنحه المزيد من السلطات، حتى يُحكم سيطرته على الحكم في روما، وأطلق على نفسه لقب المواطن الأول (**_PRINCEPS_**).

وبمقتضى الاتفاق الذي تم بين أوغسطس والسناتو، تم تقسيم ولايات الإمبراطورية بين الطرفين، **_فأعطى للسناتو الحق في إدارة الولايات التي استقرت تحت الحكم الروماني من فترة، وهي الولايات التي عُرفت باسم (الولايات السناتورية). أما الولايات التي كانت تتطلب حزماً في إدارتها، أو تلك التي تتمتع بأهمية خاصة، فقد كانت خاضعة لإدارة الإمبراطور أوغسطس، إلا أنه كان يعطي لنفسه الحق في التدخل في الولايات السناتورية إذا ما تتطلب الأمر ذلك_**[١٥].

أما فيما يخص مصر، ونظراً لأهميتها الشديدة، فقد عهد السناتو الروماني إلى الإمبراطور بأن يقوم بإدارتها نيابة عنه باعتباره المواطن الأول، ولأن أوغسطس بدوره كان يدرك مدى أهمية هذه الولاية، لذا فقد ميزها بنظم خاصة[١٦]. **_وهكذا أصبحت مصر ولاية رومانية متميزة._**

---

(١٤) انظر : **_بل ، آيدرس_** : ص ٩٢ .

(١٥) انظر : نفس المرجع السابق ، ص ٦١.

(١٦) عن وضع مصر في عصر الإمبراطور أوغسطس انظر : **_محمد السيد عبد الغني ، لمحات من تاريخ مصر تحت الحكم الروماني_** ، الإسكندرية ١٩٩٩م ، ص ٦٥ ـ ٨٠ .

عيّن أوغسطس والياً على مصر من طبقة الفرسان (***EQUITES***) الموالين له، وليس من طبقة السناتو لأنه لم يكن يثق في أفراد هذه الطبقة، ومنح الوالي سلطة ***الإمبريوم - أي السلطان المطلق*** - مع العلم أن هذه السلطة لم تكن تُمنح إلا لرجال طبقة السناتو. وكان اللقب الرسمي لوالي مصر هو (***PRAEFECTUSAEGYPTI***).

ويرجع الاهتمام الشديد الذي أولاه أوغسطس لمصر ***لأسباب اقتصادية***، حيث كانت مصر تمد روما بثلث احتياجاتها السنوية من الغلال، إذ ظلت مصر لمدة ٣٥ عاماً حتى إنشاء مدينة القسطنطينية، تقوم بدور المصدّر الرئيسي للغلال لروما، وأنها كانت في عصر أوغسطس تمد روما بعشرين مليون مديمنوس من الغلال ***(المديمنوس عند اليونان = ٥٢ ليتر من القمح)***(١٧).

وإمعاناً في الحرص على مصر، أصدر أوغسطس قراراً يحرّم بمقتضاه على رجال السناتو والمسؤولين البارزين من الرومان، دخول مصر إلا بعد الحصول على إذن مسبق من الإمبراطور، لأن هؤلاء يعدّون من المكانة الرفيعة من الرومان، التي يُعد واليها في مرتبة أدنى منهم، وإن ذلك قد يؤدي إلى إحراج الوالي وإضعاف مكانته بين مرؤسيه، لذا أراد أوغسطس أن يمنع هذا الحرج(١٨).

كان ***كورنيليوس جاللوس*** ***(CORNELIUS GALLUS)*** أول الولاة الرومان على مصر، وهو أحد القادة الذين أبلوا بلاءً حسناً في فتح مصر، وكان يتولى قيادة القوات التي اقتحمت حدود مصر الغربية، إذ استولت على برايتونيون (***مرسى مطروح***)، وكان من الرجال المقرّبين إلى أوغسطس. ولم يكد يمر وقت طويل على الحكم الروماني في مصر، حتى هبت ثورة عارمة في طيبة، بسبب التنظيمات المالية الجديدة التي طبقها الرومان. وقد انفجر غضب الأهالي عند ظهور جباة الضرائب الرومان، وقد بلغت ثورة طيبة حداً من العنف جعل الوالي الروماني يتوجه بنفسه

---

(17) ***BOWMAN, A. K*** : EGYPT AFTER THE PHARAHS , LONDON , 1983 . P 38 ..

(18) ***LEWIS . N*** : LIFE IN EGYPT UNDER THE ROMAN , OXFORD 1983 , P 15 .

على رأس قواته لإخمادها[١٩]. وعندما نجح في تحقيق هذه المهمة، يبدو أن هذا الوالي قد أسكرته نشوة النصر، ونسى حساسية منصبه، فقام بتسجيل انتصاره على الأهرام، وأقام لنفسه تماثيل في أماكن متفرقة من مصر، ولما كان أوغسطس شديد الحساسية تجاه ولاية مصر، فإنه عندما تناهى إلى سمعه، ما قام به واليه في مصر، توجس خيفة من طموح هذا الوالي، فأمر بعزله، وتقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، ولما علِم كورنيليوس بهذا القرار أقدم على الانتحار في عام ٢٦ ق.م[٢٠].

وكان ثاني الولاة الرومان على مصر في عهد أوغسطس هو ***إيليوس جاللوس*** (***AELIUS GALUS***) الذي شغل هذا المنصب فيما بين عامي ٢٦ ـ ٢٤ ق.م. وكانت أهم الأحداث في عهده هي حملته على جنوب شبه الجزيرة العربية[٢١].

رابعاً: حملة إيليوس جاللوس على جنوب شبه الجزيرة العربية:

ورث الرومان عن البطالمة الاهتمام بالجزيرة العربية، والحرص على تأمين طرق التجارة الشرقية، حيث أقاموا العديد من الموانئ على شاطئ البحر الأحمر لهذا الغرض. وبعد أن سيطر أوغسطس على مصر عام ٣٠ ق.م، أصدر أوامره إلى الوالي الروماني في مصر بتجريد حملة على بلاد العرب السعيدة (***اليمن***). ويذكر ***استرابون***، ***أن الهدف من وراء هذه الحملة كان إخضاع مداخل البحر الأحمر للسيطرة الرومانية والاستيلاء على الثروات التي تتمتع بها بلاد العرب الجنوبية من طيوب وتوابل وعطور وبخور ومر ولبّان وما شابه ذلك***[٢٢]. ***وهناك سبب آخر، ألا وهو الرغبة في تأمين طرق التجارة مع الهند***[٢٣].

---

(19) ***STRABON*** , XIII , 53 .

(20) ***DIO CASSIUS*** , 53 ,23 , . 5 .

(٢١) عن هذه الحملة انظر : ***لطفي عبد الوهاب يحى ، تاريخ العرب في العصور القديمة*** ، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٩ م ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٩.

(22) ***STRABON*** , XVI , 4 , 22 .

(23) ***ROSTOVTZEF, M*** : SOCIAL AND ECONOMIC HISTORY OF THE ROMAN EMPIRE . PP 66 – 94.

وقد سارت الحملة وقوامها جيشٌ كبير مؤلف من عشرة آلاف جندي، وأرسل ملك الأنباط عبادة الثالث (٣٠ ـ ٩ ق.م) ألفاً من جنوده للمشاركة في الحملة، وعلى رأسهم وزيرهم سيلايوس (***SYLAIUS***) أي (***صالح***)، لكي يقوم بمهمة إرشاد القوات الرومانية داخل بلاد العرب[٢٤]. كما أرسل هيرود (***HEROD***) ملك اليهود خمسمائة من جنوده للمشاركة في الحملة. وأعدّ الوالي الروماني أسطولاً كبيراً في ميناء أرسينوى (***الفيوم الحالية***) الذي يقع عند الطرف الشمالي لخليج السويس لنقل الجيش إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر في ميناء ليوكة كومي (***LEUKE KOME***) (***المدينة البيضاء***)[٢٥] وهو ميناء تابع للأنباط على ساحل الحجاز (***ميناء ينبع حالياً***) وعندما وصلت الحملة إلى لويكة كومي، تابعت سيرها نحو الجنوب حتى وصلت إلى مدينة تدعى نجراني (***NEGRANI***) (***نجران حالياً***) وكانت المسافة طويلة إذ قطعت المسافة حتى نجران في خمسين يوماً. فقد واجه الجيش الروماني خلالها مصاعب جمة، لأن الرومان كانوا يجهلون حروب الصحراء، وعانوا من نقص المياه، كما فتكت الأمراض بأعداد كبيرة من الجنود، حتى وصلت إلى أراضي دولة (***سبأ***) في اليمن حيث كان الجنود أصابهم الكثير من الإنهاك وأدركهم اليأس، وأثناء حصارهم (***المأرب***) عاصمة السبئيين الذي دام ستة أيام فقط، أدرك ***إيليوس جاللوس*** عدم جدوى الحصار، لعدم توافر إمدادات المياه والغذاء، فقرر فك الحصار والعودة من حيث أتى فغادر إلى نجران، ومنها بحراً إلى ميناء نيجرا (***NEGRA***) (***الحجر النبطي***) واستغرقت عودته ستين يوماً. وانتقل من هناك عبر البحر الأحمر إلى البر المصري، ثم إلى الإسكندرية، ودامت مدة الحملة منذ خروجها حتى عودتها ستة أشهر.

---

(24) ***STRABON*** , XVI , 4 , 23 .

(٢٥) ***ليوكة كومي*** : ميناء الأنباط الرئيسي على ساحل الحجاز، منه كانت تنقل البضائع الواردة عن طريق البحر إلى البتراء، ومن هناك إلى ***رينوكولورا (RHINOCOLURA)*** في فينيقية القريبة من مصر، وكذلك إلى الساحل المصري حيث تنقلها القوافل إلى نهر النيل ومنه إلى الإسكندرية.
انظر: ***عيد سعيد مرعي، موجز في تاريخ الشرق الأدنى في العصرين الهللينستي والروماني،*** بيشة، مكتبة الخبتي الثقافية ٢٠٠٦ م، حاشية ٢، ص ١٩٦.

إن الحملة حققت نجاحاً من الناحية السياسية والتجارية، إلا أنها أخفقت من الناحية العسكرية. ويرى ***استرابون*** الذي كان معاصراً للحملة، أن مسؤولية فشلها تقع على رأس الوزير النبطي (**سيلايوس**)، الذي تعمّد تضليل الحملة، وكان حريصاً على ألا تحقق أهدافها، وحينما تكّشف أمر هذا الوزير وأضاليله وخيانته، حكم عليه الرومان بالإعدام كما يذكر ***استرابون***(٢٦).

وربما يكون سبب خيانة الوزير النبطي للرومان، بأن الأنباط كان لهم مصلحة في بقاء طريق التجارة القادمة من بلاد العرب الجنوبية في أيديهم، ولكن بعيداً عن سيطرة الرومان، لأن بلاد الأنباط تقع عند النهاية الشمالية لهذه الطريق وتتحكم فيها، وتجني فوائد كثيرة جرّاء ذلك(٢٧).

وشهد عصر أوغسطس حملة رومانية أخرى على بلاد اليمن، ويذكر المؤرخ الروماني ***بلينيوس*** (***PLENIUS***)، أن الرومان أرسلوا حملة بقيادة جايوس rيصر، حفيد أوغسطس، ولكن هذه الحملة لم تدم طويلاً، لأنها اقتصرت على إلقاء نظرة على بلاد العرب(٢٨). ويؤكد مؤرخ كتاب (***الطواف***) (***PERIPLOS***) لمؤلف مجهول، أن قيصر أخضع ميناء عدن واستخدموه محطة على طريقهم إلى الهند وشرقي أفريقية، وتم عقد تحالف مع الدولة (***الحميرية***) التي كانت تسيطر على مناطق واسعة من سواحل بلاد العرب الجنوبية على البحر الأحمر وعلى ساحل المحيط الهندي حتى حضرموت، كما كانت تسيطر على ساحل عزانيا في أفريقية، وحصل الرومان بموجب هذه المعاهدة على حق المرور في مضيق باب المندب، وفي استخدام الموانئ العربية الجنوبية(٢٩).

وفي ظل هذه التحالفات والمعاهدات، تم ضم بلاد العرب رسمياً إلى الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور ***ترايانوس*** (***TRAiANUS***) (٩٨ - ١١٧ م)

---

(26) ***STRABON*** , XVI, 4 , 24 .

(٢٧) انظر : **عيد سعيد مرعي**، ص ١٩٨ .

(28) ***PLINY*** . N . H . VI , 141.

(٢٩) نظر : **عيد سعيد مرعي**، ص ١٩٨.

في عام ١٠٦ م، الذي قرر فتح قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر، من أجل تسهيل الاتصال بين الممتلكات الرومانية في المنطقة(٣٠).

وفي عهد ثالث الولاة الرومان في عصر أوغسطس، وهو جايوس بترونيوس (***GAUS PETRONIUS***) (٢٤ - ٢١ ق.م) قاد حملة جديدة صوب الأثيوبيين الذين كانوا يغيرون على المناطق الجنوبية في مصر. وتمكن من إلحاق الهزيمة بالأثيوبيين واستولى على عاصمتهم نباتا (***NABATA***) وأجبر ملكتهم (***كنداكي***) على توقيع معاهدة صلح، أعاد بترونيوس من خلالها ما استولى عليه الأثيوبيون من أرض مصر. وأقام الرومان استحكامات قوية على الحدود، وكان هذا كفيلاً بتحقيق السلام لفترات طويلة. ويُعد بترونيوس آخر الولاة الرومان في مصر الذين قاموا بحملات عسكرية(٣١).

تميزت السنوات العشر الأخيرة من حكم ***أوغسطس*** بتعاون متزايد بينه وبين خليفته المنتظر ***تيبريوس***، الذي اعتمد عليه في المهمات العسكرية، وخاصة في جرمانيا وعلى نهر الراين.

وفي صيف عام (١٤ق.م) حضرت الوفاة ***أوغسطس*** فقال لذويه المجتمعين حوله (***لقد نجحت في الدور الذي مثلته فصفقوا واصرفوني من المسرح مصفقين مهللين***). وبعد أيام قليلة حمله أعضاء مجلس الشيوخ على أكتافهم إلى حقل (***مارس***) واحرقوا جثته وسط ترانيم الوداع الحزينة، وفي أيلول من العام نفسه رفعه مجلس الشيوخ إلى مصاف الآلهة وأصبح ***الإله أوغسطس*** ***(DI VUS AUGUSTUS)*** أسوة بسلفه العظيم قيصر(٣٢).

---

(٣٠) انظر : ***أبو اليسر فرح ، النيل في المصادر الإغريقية*** ، ص ١٦٦.

(٣١) انظر : حول مصر كولاية رومانية متميزة ***أبو اليسر فرح ، الشرق الأدنى في العصرين الهللينستي والروماني*** ، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٠ .

(٣٢) انظر : ***محمد محفل ، محمد الزين*** ، ص ٦٩.

خامساً : مصر في عهد خلفاء أوغسطس :

١ - الإمبراطور تيبيريوس (TIBERIUS) (١٤ - ٣٧م) :

بعد وفاة الإمبراطور أوغسطس في عام ١٤م، تولى العرش ابنه بالتبني **تيبيريوس**، إذ كانت مشكلة الخلافة من أهم الأمور التي واجهت أوغسطس، الذي كان حريصاً على أن يُبقي الحكم في أسرته، رغم أنه تجنب استخدام لقب ملك، وحاول أن يوحي للآخرين بأن حكمه مؤقت. لقد كان ينظر إلى حكمه الرئاسي (***PRINCIPATUS***) على أنه ملك لعائلته، فهو نفسه ورث الحكم عن خاله الأكبر **يوليوس قيصر**، ولذلك فإن من اختارهم لخلافته أو لمشاركته في الحكم كانوا من أقربائه وأصدقائه المخلصين. ***ولكن للأسف أن من وقع عليهم اختياره لكي يكون خليفته في الحكم توفوا جميعاً واحداً تلو الآخر في حوادث مختلفة.*** فأوغسطس نفسه لم ينجب ولداً ذكراً يخلفه، وأنجب ابنة واحدة من زوجته الأولى هي **جوليا** (***JULIA***) ولكنه طلّقها في عام (٣٨ ق.م) وتزوج للمرة الثانية من(***ليفية دروسللا***) ***LIVIA DRUSELLA***) وكانت امرأة بارعة الجمال وفائقة الذكاء، بعد أن أرغم زوجها ***تيبيريوس كلاوديوس نيرو*** على تطليقها ليتخذها زوجة له.

بيد أن ليفية هذه لم تنجب منه أولاداً، ولكن كان لها ولدان من زوجها السابق وهما ***تيبيريوس ودروسوس***. ولم يقع اختيار ***أوغسطس*** على أي من هذين الولدين من أبناء زوجزه لكي يكون أحدهم خليفة له. ***ولكن بعد النكبات التي حلّت به إثر وفاة من وقع الاختيار عليهم خليفة له، اضطر صاغراً إلى تبني الابن الأكبر لزوجته وهو تيبيريوس،*** إذ أن أخاه ***دروسوس*** توفي هو الآخر في عام (٩ ق.م) عندما وقع عن ظهر حصانه في إحدى جولاته العسكرية الموفقة في جرمانيا وفارق الحياة على إثرها.

ولذا فإن ***تيبيريوس*** ينتمي في الأصل إلى عائلة والده الحقيقي، وهي (***العائلة الكلودية***)، كما ينتمي في الوقت نفسi إلى عائلة أبيه بالتبني وهي (***العائلة اليولية***). ومن هنا جاء مصطلح عصر (***العائلة اليوليوكلودية***)[٣٣].

---

(٣٣) انظر : ***سيد الناصري*** ، ص ٩٠-٩٦.

كان ***تيبيريوس*** حين استلامه العرش في الثانية والخمسين من عمره، لذا كان متمرّساً وخبيراً في الأعمال الإدارية قبل أن يتولى العرش، وقد عُرِف بالشدة والحزم، ووقف موقفاً حازماً من واليه في مصر(٣٤)، التي شهدت في عهده حالة من الرخاء والاستقرار، مثل سائر ولايات الإمبراطورية الرومانية التي نعمت جميعها بالسلام، فلذلك سميت هذه الفترة (***بعصر السلم الأوغسطسي***) (***PAX AUGUCTA***)، لذلك تقرر سحب واحدة من الفرق الرومانية، التي كانت ترابط في مصر منذ عهد ***أوغسطس***، لأن مصر في عهد السلم الأوغسطي لا تستدعي مثل وجود هذه القوات الكثيرة، فلذلك ظهرت بشائر الرخاء الاقتصادي متمثلة في إصدار عملة جديدة في مصر.

وأهم الأحداث التي شهدتها مصر في عهد الإمبراطور ***تيبيريوس***، هي زيارة ***جرمانيكوس*** (***GERMANICUS***) للإسكندرية، إذ كان والده قد أحرز انتصارات في بلاد الجرمان، لذلك خلع عليه السناتو لقب (***جرمانيكوس***)، أي قاهر الجرمان في عام (٩ ق.م)، وحملت ذريته اللقب من بعده. ***وجرمانيكوس*** هو ابن شقيق الإمبراطور ***تيبيريوس (أي ابن أخيه الأكبر دروسوس)***، وكان الإمبراطور قد تبّناه بعد وفاة والده، وكان ينظر إليه باعتباره ولياً للعهد، وقد تمتع بحب الرومان نظراً لكفاءته العسكرية، وأسندت إليه مهمة تنظيم شؤون بعض الولايات الشرقية. وزار بلاد اليونان واستقبل فيها بحفاوة بالغة، وأحبه الناس لبساطته وتواضعه، وأقيمت تماثيله، وسُكت عملة تحمل اسمه، وخُلعت عليه الألقاب. ***ولا شك أن جميع هذه الأمور كانت تثير حساسية الإمبراطور تيبيريوس وغيرته.***

وقام بزيارة أخرى لمصر بحجة مشاهدة معالمها في عام (١٩ق.م)، دون أن يستأذن الإمبراطور مخالفاً بذلك التقاليد والبرتوكولات الإمبراطورية التي وضعها أوغسطس(٣٥). وقد برر ***جرمانيكوس*** زيارته لمصر، رغبته في معالجة أزمة اقتصادية

---

(34) ***DIO CASSIUS***. 57 , 10 , 5 .

(35) ***TACITUS*** . ANN , II, 59 - 61.

كانت تمر بها، بسبب انخفاض فيضان النيل في ذلك العام، ولم يتقيد **جرمانيكوس** أثناء وجوده في مصر بالتقاليد التي تكفل هيبة الإمبراطورية، ***فكان يسير بين الناس، ويزور صوامع الحبوب، وتوزيع القمح على الناس، حتى يخفف من وطأة المجاعة، مما جعل الناس يحبونه، ويبالغون في إظهار تقديرهم له. وفي تقدير بعض الباحثين، أن السبب الحقيقي في محبة المصريين لجرمانيكوس، وهو أن الإسكندريين في مصر كانوا يحملون في أعماقهم كراهية للإمبراطور، وكانوا يعلمون بوجود جفوة بينه وبين ابن شقيقه، لذلك بالغوا في الترحيب بجرمانيكوس نكاية في عمه***(٣٦).

كل ذلك أدى إلى غضب الإمبراطور ***تيبيريوس***، مما دفعه إلى الشكوى عليه إلى السناتو، وبعد انتهاء **جرمانيكوس** زيارته مصر، قرر زيارة **سورية** وكان على خلاف مع واليها (**بيزو**) وتشاجر معه وأمره بأن يخرج من سورية. ولكن الموقف كان ينبئ بكارثة كبيرة وقد حدثت بالفعل، ***إذ أن جرمانيكوس توفي فجأة في مدينة إنطاكية.*** وقد ثارت الشكوك في أن يكون (**بيزو**) قد دس له السم، تلك الشكوك التي أدت به إلى أن يُحاكم في روما، إلا أن (**بيزو**) انتحر على إثر ذلك، وقد اعتبر انتحاره دليلاً على إدانته، ورددت شائعات أخرى، ***بأن الإمبراطور نفسه كان ضالعاً في المؤامرة التي أودت بحياة ابن شقيقه***(٣٧).

أما الإمبراطور ***تيبيريوس*** قد قضى السنوات الباقية من حكمه في عزلة تامة، وتوفي في عام (٣٧م)، وابتهج الشعب الروماني لوفاته، حتى مجلس الشيوخ رفض أن يغدق عليه ألقاباً مقدسة، نظراً لآثاره السلبية في إدارة الحكم وكانت بداية (**للإرهاب**) بسبب قانون الخيانة (***MAIESTAS***) الذي أصدره، وظهور طبقة جديدة من الوشاة المحترفين (***DELATORES***) الذين يحققون مكاسبهم من هذا القانون، إذ أن تيبيريوس كان يُحكم زمام الأمور في قبضته من خلال هذا القانون.

---

(٣٦) انظر: ***عبد اللطيف أحمد علي***، ص ٨٠.

(٣٧) انظر: ***آمال الروبي، مصر في عصر الرومان***، القاهرة ١٩٨٨ م، ص ٧٨.

٢ - *الإمبراطور غايوس كاليغولا (CALIGULA) (٣٧ - ٤١م)* :

هو ابن الأمير **جرمانيكوس** الذي أسلفنا الإشارة إليه. واسمه الكامل (***غايوس يوليوس قيصر جرمانيكوس***). وقد تولى العرش وهو في الخامسة والعشرين من عمره. وكانت أهم الأحداث التي وقعت في مصر زمن هذا الإمبراطور هي (***فتنة اليهود في عام ٣٨م***). ***والسبب في هذه الفتنة أن الإسكندريين كانوا يضمرون حقداً دفيناً على اليهود بسبب مواقفهم المؤيدة للرومان، وحازوا الامتيازات التي منحها لهم أوغسطس الذي سمح لهم بتطبيق قوانينهم من أهمها إقامة مجلس للشيوخ خاص بهم. في الوقت نفسه حرّم على الإسكندريين أن يكون لهم مجلس للشورى.*** فلذلك راح الإسكندريون ينفّسون عن مشاعر غضبهم تجاه اليهود. وكانت الشرارة الأولى التي أطلقت الصراع بين اليهود والإسكندريين، هي زيارة أمير يهودي إلى الإسكندرية، ويدعى هذا الأمير (***أجريبا***) (***AGRIPPA***) وهو حفيد هيرود الملك اليهودي المعروف. وكان (***أجريبا***) قد قضى شطراً من حياته في روما، وعاش في القصر الإمبراطوري مع أبناء الأسرة الحاكمة، وتوثّقت علاقته بالإمبراطور كاليغولا.

وهلل يهود الإسكندرية لزيارة (***أجريبا***)، واستقبل استقبالاً ملكياً، مما أثار غيظ الإسكندريين، مما أضطرهم إلى إفساد حفل هذا الاستقبال. وفي الوقت نفسه أرادوا أن يتجنبوا غضب الإمبراطور كاليغولا باعتبار (***أجريبا***) صديقاً له.، وسوّغوا تصرفهم هذا، ***بأن اليهود رفضوا وضع تماثيل الإمبراطور في معابدهم،*** ودللوا على صدق مقولتهم، بأنهم اقتحموا معابد اليهود ووضعوا فيها تماثيل الإمبراطور، وهذا مما يسيء إلى الديانة اليهودية التي ترفض مظاهر الوثنية. ***وقد وقف الوالي الروماني في مصر موقف المؤيد للإسكندريين والمعارض لليهود،*** وأمر بسحب الامتيازات المسموحة لهم، وقام بمحاكمة زعمائهم. وذلك شجع الإسكندريين على التمادي في عدائهم لليهود، فقاموا بنهب حوانيتهم وحصرهم في أحد أحياء الإسكندرية، وأضرموا النار في معابدهم. ***ويذكر الكاتب اليهودي فيلون، أن شوارع الإسكندرية***

شهدت مذابح رهيبة بحق اليهود[٣٨] ، ولكننا ينبغي علينا أن نأخذ كلام ***فيلون*** على جانب كبير من الحيطة والحذر، لأن ***فيلون*** بحسب طبيعته الفطرية كيهودي، يميل في عواطفه إلى محاباة بني جنسه من اليهود.

إزاء هذه الأحداث التي تعرّض لها يهود الإسكندرية، دفعهم إلى الشكوى للإمبراطور كاليغولا من الهوان الذي حاق بهم وانحياز الوالي ضدهم. وقد اقتنع الإمبراطور بشكواهم، واعتقل الوالي وتم اقتياده إلى روما حيث قُدّم للمحاكمة، وصدر الحكم بنفيه ومصادرة ممتلكاته، ثم أعدِم بعد ذلك[٣٩].

وبعد فترة وجيزة انقلب الإمبراطور على اليهود (***على عكس ما كان سابقاً***)، حين تلقى أنباء تفيد بقيام اليهود بتدمير معبد أقامه الإغريق لعبادته في فلسطين، فثار ثورة عارمة، وأمر الوالي الروماني في سورية بعمل تمثال ضخم له في قلب معبد اليهود في أورشليم[٤٠]، وبادر بتوجيه اللوم لليهود، ونعتهم بأنهم كفرة، لأنهم لا يؤمنون بألوهيته. وكان في هذا الموقف شديد الغضب على اليهود، وكان على حد وشك التنكيل بهم، ولم ينقذهم من غضبه، سوى اغتياله على يد جنوده في عام ٤١ م.

٣ - الإمبراطور كلوديوس(CLAUDIUS) (٤١ - ٥٤م) :

يُعد كلوديوس الأخ الأصغر لجرمانيكوس، أي أنه كان ابن شقيق تيبيريوس (***أي دروسوس***). وقد عمِل جاهداً على وضع نهاية للصراع بين اليهود والإسكندريين الذي ما زالت آثاره بادية للعيان في عهد كلوديوس الذي أعاد كل التقاليد السياسية بين اليهود والإسكندريين إلى طبيعتها السابقة في عهد أوغسطس. إذ

---

(38) ***PHILON*** : IN FLASS . 62 - 72 . □

(39) ***IBID*** : 147 FF .

(٤٠) كان الإمبراطور ***كاليغولا*** قد أصابته حالة من الجنون، مما جعله يعتقد بأنه إله، وأن على رعاياه أن يعبدوه ويقيموا من أجله المعابد – وهو الذي صرّح قائلاً : (***كم أتمنى أن يكون للإنسانية رقبة واحدة فقط، حتى يمكنني فصلها بضربة واحدة***).٠ فلذلك كان مضطرباً ذهنياً، وكانت كل أعماله ومشاريعه السياسية ـ كما نقلتها المصادر ـ تبدو وكأنها صادرة عن رجل مجنون.

أكد الامتيازات التي كانت لليهود قبل فتنة عام ٣٨م. ومن ناحية أخرى أقّر للإسكندريين الامتيازات التي سبق للإمبراطور أوغسطس أن منحهم إياها، ولكنه لم يستجب لطلبهم بإنشاء مجلس للشورى، وناشد الإسكندريين أن يكفّوا عن التحرّش باليهود، وألا ينتهكوا شعائر عباداتهم. وحذّر كلاً من الطرفين من إثارة الاضطرابات مرة أخرى في رسالة بعثها إلى والي الإسكندرية.

وتنقسم رسالة الإمبراطور إلى قسمين :

الأول يتعلق بمطالب الإسكندريين. والثاني يتعلق بمطالب اليهود.

ففيما يخص القسم المتعلق بمطالب الإسكندريين، قبل الإمبراطور تكريمهم وولاؤهم له، ووافق على أن يقام له تمثال من الذهب في روما يعبر عن السلام الذي حققه ***أوغسطس وكلوديوس*** (***PAX AUGUSTA CLAUDIANA***)، ولكنه رفض مطلب الإسكندريين في إقامة المعابد له من أجل عبادته، معتبراً ذلك أن تلك المعابد من حق الآلهة فقط.

أما فيما يخص القسم المتعلق بمطالب اليهود، فإنه حذّرهم من محاولة الحصول على امتيازات أكثر من تلك التي يتمتعون بها (***أي في عهد أوغسطس***)، وألا يقحموا أنفسهم في معاهد الجمنازيوم، التي تقتصر عضويتها على الإغريق فقط، وألا يستجلبوا يهوداً آخرين إلى الإسكندرية.

ولكن هذه الرسالة لم ترض أحداً من الطرفين، ***فاليهود لم يستطيعوا تحقيق أية آمال في الحصول على المزيد من الامتيازات. وبالنسبة للإسكندريين فإن الإمبراطور لم يستجب إلى طلبهم في إقامة مجلس للشورى.*** فلذا لجأ الإسكندريون للتعبير عن غضبهم بطريقة غير مباشرة، خوفاً من تحذير الإمبراطور لهم، وذلك بلجوئهم إلى كتابة ***الأدب الشعبي، عُرِف بأعمال الإسكندريين (ACTA ALEXANDRINORUM)*** عبروا فيه عن كراهيتهم للرومان واليهود، وصوّروا في هذا الأدب زعماء الإسكندريين في صورة الأبطال الذين يتحدون الأباطرة الرومان، وقد ظهر هذا الأدب تحت عناوين أخرى مثل (***أعمال الإسكندريين وأدب الشهداء***) [٤١].

---

(٤١) انظر : ***أبو اليسر فرح*** ، ص ٢٧٦.

وقد عمدت أغربينا (*AGRIPPINA*) زوجة كلوديوس على قتل زوجها في عام ٥٤ م، بسبب عدم قناعتها بالمجد الذي أغدق عليها كإمبراطورة، والذي يفوق أي مجد أغدق على ليفية دروسللا. وقد ضمنت خلافة العرش لابنها (**نيرون**) الذي كانت تأمل من خلاله بسط سيطرتها على شؤون الحكم في روما.

٤- الإمبراطور نيرون(*NERON*) (٥٤ - ٦٨م) :

كان **نيرون** (***على عكس سلفه***) شاباً أرعن تولى العرش في السادسة عشرة من عمره، إذ كان مولعاً في الفن والشعر والموسيقى والرياضة ولاعب قيثارة وسائق عربة حربية، وكان يجول كثيراً في بلاد اليونان سعياً وراء كل مناسبة يقام فيها مهرجان أياً كان نوعه، حتى يُذكر أنه شارك بنفسه في الأعياد الأولمبية بالعزف على القيثارة والغناء. كل ذلك جعله ينصرف عن شؤون الحكم في أغلب الأحيان تاركاً الأمر في يد مستشاريه، كما أن والدته (***كما لاحظنا من قبل***) كانت حريصة جداً على التدخل في شؤون الحكم والإمساك بزمام الأمور، مما جعله يقدم على قتلها في عام ٥٩م، فكان حكمه مضطرباً وكابوساً من المؤامرات والاغتيالات التي أصبح (**عصر نيرون**) بسببها مضرباً للأمثال.

ولعل من أشهر الأحداث التي وقعت في عهد الإمبراطور **نيرون** هو (**حريق روما**) الشهير وما ترّتب عليه من أحداث مأساوية والذي شبّ في ليلة ١٨ تموز/ يوليو من عام ٦٤م. إذ شبت النيران في المقاعد الخشبية في (***السيرك الأعظم***) ***(CIRCUS MAXIMUS) واندلعت بقوة لمدة أسبوع كامل، وخُرِّبت عشر مناطق من مناطق المدينة البالغ عددها أربع عشرة منطقة.*** ويقال أن **نيرون** هو الذي دبّر هذا الحريق حتى يتخلص من الأحياء القذرة في العاصمة، وتذكر الروايات أن **نيرون** أثناء مشاهدته الحريق، كان يمسك بقيثارته ويعزف عليها أغنية حزينة (**طروادة تحترق**)، ولكن النيران، ما لبثت أن انقضّت على قصر **نيرون** نفسه الذي فرغ لتوّه من بنائه.

انعكست حالة الاضطراب التي كان يعاني منها الإمبراطور، على جميع نواحي الحياة في الإمبراطورية، فاندلعت حركات التمرد في الولايات. ***وكان أخطرها***

ثورة اليهود في فلسطين التي كان تأثيرها على الأحوال في مصر، وفي الإمبراطورية الرومانية بأسرها.

إذ أن الرومان كانوا قد نجحوا إلى حد كبير في صهر الشعوب التي انضوت تحت لوائهم، باستثناء اليهود، الذين استعصوا عليهم، ورفضوا الاندماج في البوتقة الرومانية، وإزاء ذلك ثارت خلافات حادة بين اليهود أنفسهم الذين انقسموا إلى قسمين : ***قسم يمثّل معسكر المتشددين الذين يتمسكون بتعاليم التوراة بحذافيرها، وكانوا ينظرون إلى الرومان نظرة اشمئزاز لأنهم وثنيون. والآخر يمثّل اليهود المتحررين الذين أقبلوا على الثقافة الإغريقية، وكان لدى هؤلاء الرغبة في التقارب مع الرومان.*** وانفجر الموقف في العام ٦٦م في أورشليم، حين قام الحاكم الروماني بمصادرة مبالغ كبيرة من أموال هيكل أورشليم، وفاءً لضرائب متأخرة على اليهود، وتحوّلت أحداث الشغب إلى ثورة عارمة، تولى قيادتها أحبار اليهود. وفي شباط /فبراير من عام ٦٧م، قام الإمبراطور ***نيرون*** بإرسال أحد القادة وهو ***فلافيوس فسباسيانوس (FLAVIUS VESPASIANUS)*** للقضاء على هذه الثورة.

وبينما كان ***فسباسيانوس*** يحاصر اليهود في أورشليم، توالت الأنباء بوقوع اضطرابات في روما، وعلى إثرها أقدم ***نيرون*** على الانتحار، وأصبح الجيش في حالة من الفوضى والتمرّد، وكان ذلك في العام ٦٨م.

٥- فسباسيانوس وعام الأباطرة الأربعة (٦٨ - ٦٩م) :

كان ***نيرون*** آخر أباطرة (***العائلة اليوليوكلودية***) وفي عام ٦٩م، جلس على عرش الإمبراطورية الرومانية أربعة أباطرة، ***لذا عُرف هذا العام بعام الأباطرة الأربعة.*** إذ عقب انتحار ***نيرون***، حدثت أزمة حرجة، إذ لم يكن هناك وريث من (***العائلة اليوليوكلودية***)، وأصبح المجال مفتوحاً أمام من يدّعي عرش الإمبراطورية، حيث استخدمت في هذا المجال القوة العسكرية. ونتج عن ذلك حوادث بشعة ومؤسفة وقعت في عام ٦٩م، حيث انجرّت الجيوش الرومانية في جميع ولايات الإمبراطورية

إلى سلسلة معقدة من الحروب الأهلية، ظهر فيها لأول مرة وبصورة واضحة التنافس الحاد بين وحدات الجيش الروماني للاستيلاء على عرش الإمبراطورية. إذ سارع السناتو إلى تعين أحد القادة ويدعى ***(جالبا)*** ***(GALBA)*** في منصب الإمبراطور. ولكن قوات الحرس البريتوري ***(وهي القوات التي تتولى حراسة الإمبراطور)*** فتكت بهذا الإمبراطور، وأعلنت مناداتها بقائد آخر وهو ***أوتو*** ***(OTTO)*** إمبراطوراً، ولكن القوات الرومانية المرابطة على نهر الراين رفضت الاعتراف ***بأوتو***، ونادت بقائدها إمبراطوراً وهو ***فيتيللوس*** ***(VETELUS)***، وزحفت في اتجاه العاصمة، فأقدم ***أوتو*** على الانتحار بعد أن استسلم لليأس. ودخل ***فيتيللوس*** روما، وأعلن نفسه إمبراطوراً في نيسان / أبريل من عام ٦٩م. ولكن ذلك لم يضع حداً للصراع على العرش، فإن القوات العسكرية أصبحت هي التي تتدخل في تحديد من يشغل العرش. ***ولكن الكلمة الأخيرة كانت للفرق العسكرية المرابطة في الشرق، حيث نادت القوات الرومانية والوالي الروماني في مصر بفسباسيانوس (VESPASIANUS) إمبراطوراً.*** وكان ذلك في اليوم الأول من شهر تموز/يوليو عام ٦٩م، ولم تلبث القوات الرومانية في فلسطين أن حذت حذوها في يوم ٣تموز/يوليو، وأخذت القوات الرومانية في مناطق أخرى تعلن تأييدها ***لفسباسيانوس***، وزحف بعضها على العاصمة، ودارت بينها وبين قوات ***فيتيللوس*** معارك شرسة، انتهت بهزيمة ***فيتيللوس*** والقبض عليه وجرى فيه تنفيذ حكم الإعدام في كانون الأول /ديسمبر من عام ٦٩م، وفي يوم ٢٢ كانون الأول/ديسمبر أي بعد إعدام ***فيتيللوس*** بيوم واحد، أصدر السناتو قراراً بتنصيب ***فسباسيانوس*** إمبراطوراً.

وقد وصِفت أحداث هذا العام وصفاً بديعاً في كتب التاريخ ***(HISTORIAE)*** التي وضعها ***تاكيتوس***، ورسم فيها صوراً لا تنسى لمن قاموا بالأدوار الرئيسية في هذه المسرحية وهم **(جالبا)** و **(أوتو)** و **(فيتيللوس)**. كما وصف ***تاكيتوس*** المستوى البديع للمعارك الوحشية والقتال الذي دار في روما بين ***فيتيللوس*** وجنود ***فسباسيانوس*** من اجل الاستيلاء على الكابيتول.

ويُعد حكم ***فسباسيانوس*** بداية لأسرة حاكمة جديدة هي (***الأسرة الفلافية***) التي ينتمي إليها ***فسباسيانوس***، وقد أدّت مصر دوراً أساسياً في تنصيبه إمبراطوراً. فعلى الرغم من أن السناتو أصدر قراره بتنصيب ***فسباسيانوس*** في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر من عام ٦٩ م، إلا أن ***فسباسيانوس*** اعتبر أن تاريخ حكمه يبدأ من اليوم الأول من شهر تموز /يوليو، وهو اليوم الذي أعلن فيه والي مصر اعترافه به إمبراطوراً [٤٢].

ولقيت زيارة ***فسباسيانوس*** للإسكندرية ترحيباً بالغاً من شعب الإسكندرية، فلم تشهد المدينة زيارة إمبراطور روماني من قبل، ***فيما عدا أوغسطس***، فأخذت الجماهير تهتف بحياته، وأخذت الدعاية المصرية في الترويج للإمبراطور الجديد، الذي لم تكن تهمه - في واقع الحال - مثل تلك المظاهر الباذخة والإعلاء من شأنه الفاخر، بل فوجئت جماهير الإسكندرية، بأن ***فسباسيانوس*** هو رجل دولة في المقام الأول، وأنه كان حريصاً جداً على جباية مستحقات الدولة، بل إنه لجأ إلى فرض ضرائب جديدة[٤٣]. وكان ذلك نتيجة لبذخ ***نيرون*** والحروب الأهلية التي أفلست الدولة تقريباً، فأصبح حكم ***فسباسيانوس*** يتميز كله بالتقشف والإصلاح المالي. وفي عام ٧٤م قام بتعديل نظام الضرائب كله، فألقيت أعباء جديدة على الأفراد والمجتمعات، وارتفعت الجزية التي كانت تدفعها الولايات، وأصبح البلاط الإمبراطوري يعيش حياة بسيطة، وأصبح الموظفون الماليون مطالبين باتباع الأمانة والاستقامة. وكانت هذه الإصلاحات ناجحة بما فيه الكفاية، حتى إنها لم تجعل الدولة تقف على قدميها فحسب، بل مكّنت الإمبراطور أيضاً من تنفيذ مشاريع البناء في روما.

---

(42) ***TACITUS***, II, 79 .

(٤٣) لم تكن تتمتع أسرة ***فسباسيانوس*** بمكانة أكثر من مكانة محلية ، فوالده كان جامعاً للضرائب في ولاية آسية أثناء حكم (***أوغسطس***) . وكان ***فسباسيانوس*** أحد الرجال الذين نالوا نجاحهم عن طريق خدمتهم في سلك الوظائف العامة ، وكان قائداً للفرقة الثانية أثناء غزو (**كلاوديوس**) لبريطانيا ، وتولى القنصلية عام (٥١م) ، وأصبح حاكماً لأفريقية عام (٦٣م) .

وأثناء حصار ***فسباسيانوس*** اليهود في أورشليم (***كما ذكرنا سابقاً***) واعتلائه العرش الإمبراطوري، كان قد ترك ابنه تيتوس (***TITUS***) لكي يواصل حصار أورشليم الذي أسقطها بعد حصار دام ١٣٩ يوماً وقام بتدمير الهيكل في ٢ أيلول /سبتمبر من العام ٧٠ م. وبعد ذلك ذهب ***تيتوس*** إلى الإسكندرية وأظهر مشاعر طيبة تجاه سكان المدينة، وألغى ضريبة الرأس التي كان والده ***فسباسيانوس*** قد فرضها على الإسكندريين، وشمل عطفه المصريين أيضاً وحرِص على حضور بعض أعيادهم الدينية.

وعلى الرغم من إسقاط أورشليم على يد ***تيتوس***، إلا أن الرومان كانوا ينظرون إلى تحركات اليهود بكثير من التوجس، لذا أصدرت السلطات الرومانية في مصر قراراً بإغلاق معبد أونياس (***ONIAS***) في ليونتوبوليس (***LEONTOPOLIS***) (***تل اليهودية***)، وذلك خوفاً من أن يتحول هذا المعبد إلى بديل لهيكل أورشليم الذي تم تدميره ويصبح قبلة لليهود(٤٤). كما فرض الإمبراطور ***فسباسيانوس*** على اليهود أن يدفعوا ضريبة، كانت تذهب إلى معبد الإله جوبيتر (***JUPITER***) في روما، وهي ذات الضريبة التي كانوا يؤدونها لمعبد أورشليم(٤٥).

كان ***فسباسيانوس*** مؤسس (***الأسرة الفلافية***) مهتماً بتنظيم سياسته على غرار أوغسطس، فأغدقت الرعاية على الفنون والأدب والبلاغة في روما، وقد استند كثيراً في حكمه إلى ابنه الأكبر ***تيتوس*** الذي نصّبه بالفعل شريكاً له في الحكم وعيّنه

---

(٤٤) يرجع تاريخ إنشاء هذا المعبد إلى عهد ***بطليموس السادس (١٨٠ ـ ١٤٥ق٠م)***، وكان هذا الملك يعطف على اليهود، فمنح واحداً من أحبارهم، وهو (***أونياس الرابع***) قطعة أرض على الفرع الشرقي لنهر النيل في ***ليونتوبوليس***، وبنى فيها معبد لكي يكون صورة طبق الأصل من معبد أورشليم: انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٨١.

(٤٥) وصف المؤرخ اليهودي (***يوسيفوس***) أحداث الحصار وصفاً حيوياً في كتاب (***الحرب اليهودية***). على الرغم من أن ***يوسيفوس*** كان موالياً للرومان وشاهد سقوط أورشليم وهو واقف بجوار ***تيتوس***، مع أنه كان يهتم اهتماماً كبيراً بالحضارة والدين اليهودي. انظر: ***محمد محفل، محمد الزين***، ص ١٢٢.

خليفة له. بينما قدّر لأبنه الأصغر (**دوميتيانوس**) (***DOMITIANUS***) أن يحافظ على كيان (***الأسرة الفلافية***) لتصبح الأسرة الثانية الحاكمة. وقد عامل ***فسباسيانوس*** مجلس الشيوخ بكل احترام. وبعد وفاته في عام ٧٩ م أصدر السناتو أمراً بتأليهه، ***ويُعد هو ثاني إمبراطور بعد أوغسطس يحظى بمثل بهذا التكريم.***

٦ - الإمبراطور تيتوس (TITUS) (٧٩ - ٨١ م) :

يُعد الإمبراطور **تيتوس** ثاني إمبراطور من (***العائلة الفلافية***). وقد ولد عام (٣٩م)، وفاق والده في شعبيته أثناء حكمه القصير الأمد، وكان معروفاً باسم (***حبيب الجنس البشري***) ***لأن روما تمتعت خلال حكمه القصير الأجل بإمبراطور أصيل وسخي وعطوف على كل الناس.*** ومن هنا ظهرت شعبيته الكبيرة، وأشركه والده في الحكم منذ عام (٧٠م)، وعلى الرغم من أن مدة حكمه كانت قصيرة، إلا أنها تميزت بحدوث مصائب وكوارث طبيعية مثل : ***انتشار الطاعون، وحريق روما الثاني، وثورة بركان (فيسوف) وما نتج عنه من آثار مدمرة على بعض المدن الرومانية، وكان من أبرز ضحايا هذا البركان، العالم الروماني الشهير (بلينيوس الأكبر) مؤلف موسوعة (التاريخ الطبيعي).***

وكانت حكمة تيتوس ظهرت من خلال اهتمامه بأحوال رعيته خلال هذه الأحداث الطبيعية المأساوية. ***وخاصة في مصر حين أظهر تيتوس احتراماً كبيراً للآلهة المصرية،*** وعلى رأسها الربة (***إيزيس***) عند ارتقائه العرش عام ٧٩م، وحرِص على حضور احتفال تقديم القرابين للعجل المقدس (**آبيس**). وكان تيتوس منذ البداية ميالاً إلى احترام العبادات المصرية، وقد استمر هذا الاحترام في عهد تيتوس حتى وفاته في عام (٨١م).

٧ . الإمبراطور دوميتيانوس (DOMITIANUS) (٨١ - ٩٦م) :

يُعد الإمبراطور **دوميتيانوس** ثالث إمبراطور من (***العائلة الفلافية***)، وكان عدواً لدوداً للطبقة الأرستقراطية الرومانية، وطاغية مستبداً متقلّب الأطوار (**على عكس**

سلفيه السابقين)، ونتج عن ذلك حكم (***الإرهاب***)، إذ حدّ من سلطات مجلس الشيوخ حتى أصبح لا حول له ولا قوة، وذلك عندما حصل ***دوميتيانوس*** على (***السلطة الكنسورية***) لمدى الحياة، تلك السلطة التي تمكنه من السماح للأعضاء بدخول المجلس أو طردهم منه. فلذلك بعد موته دمرت تماثيله، ومحو اسمه من فوق النقوش، ولُعنت ذكراه.

أما في مصر نجده (***على العكس من ذلك***) فقد استمر الاهتمام بالآلهة المصرية، وكان مديناً جداً للربة (***إيزيس***)، وفي عام ٩٤ م، أعاد بناء معبد إيزيس في ساحة الإله (***مارس***) في قلب روما، الذي تعرّض للتدمير إثر حريق في عام ٨٠ م، وأقام كذلك معبداً للإله (***سيرابيس***). وقد شكل موقف الإمبراطور ***دوميتيانوس***، السياسة الرسمية للدولة تجاه العبادات المصرية، على الرغم من المعارضة الكبيرة لقطّاع واسع من الرومان لهذه السياسة، لأنهم كانوا يستهجنون بعض مظاهر العبادات المصرية التي تقدّس الحيوان[٤٦].

سادساً : مصر في عصر الازدهار في الإمبراطورية الرومانية (٩٦ ـ ١٨٠ م) :

١ - الإمبراطور نيرفا (NERVA) (٩٦ - ٩٨ م) :

بموت الإمبراطور ***دوميتيانوس*** انتهى عصر (***العائلة الفلافية***)، ولم يكن لهذا الإمبراطور وريث شرعي له. ***لذا قرر الرومان إيجاد نظام جديد لتولي العرش يقوم على الاختيار، وليس الوراثة، فوقع اختيارهم على نيرفا.*** وهكذا حلّت فاتحة عصر جديد، وذلك باختيار عضو من مجلس الشيوخ ليصبح إمبراطوراً، ***ويرجع هذا الخيار إلى خصائص نيرفا الطيبة، وافتقاره إلى المساوئ لأنه رجلٌ مسنٌ في السادسة والستين من عمره.*** لذا كان ***نيرفا*** رجلاً حكيماً، ورجلاً مدنياً يليق بمجلس الشيوخ. وقد كان حكمه بمثابة فترة نقاهة للدولة استطاع الناس فيها أن يتنفسوا الصعداء بعد الإرهاب

(٤٦) انظر : ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٨٢ .

الذي حلّ بهم. ***ولكن عهده لم يشهد أحداثاً ذات أهمية بالنسبة لمصر،*** وإدارته كانت ضعيفة، وتحاشياً في الوقوع في مشاكل جدّية، فقد اختار ***نيرفا*** أحد القادة من ذوي الكفاءة لكي يكون خليفة له وهو (***تراجان***)، الذي كان أول أباطرة الرومان الذين ينحدرون من سكان الولايات.

٢- الإمبراطور ترايانوس (TRAIANUS) (٩٨ - ١١٧ م) :

كان ترايانوس مواطناً أسبانياً من عائلة رومانية حديثة العهد بإدارة الدولة، وقد ولد عام (٥٣م) في مستعمرة إيتاليكا الواقعة في جنوب أسبانيا من أب روماني وأم أسبانية، ***فلذلك كان أول إمبراطور ينتمي إلى ولاية خارج إيطالية يعتلي العرش.*** وقد اعتبره معاصروه وخلفاؤه من أقدر الأباطرة الرومان، ووضعوه في مرتبة ***أوغسطس*** بسبب تميزه بحكمة فريدة في إدارة روما وولاياتها، واكتسب أعلى درجة من درجات توسع النفوذ الروماني بعد أن قام بحروبه التوسعية في كلٍ من داكيا وبارثيا.

وفي عهد ***ترايانوس*** حدثت مجاعة في مصر، بسبب انخفاض فيضان النيل، وبذل ***تراجان*** قصارى جهده لتخفيف المجاعة وذلك بإرساله أسطولاً محملاً بالغلال إلى مصر. وفي عهده عادت الفتنة بين اليهود والإسكندريين بعد أن سادها الهدوء لمدة أربعين عاماً تقريباً بعد سقوط أورشليم. وفي العام ١١٣م قام الإمبراطور **ترايانوس** بحملة إلى الشرق، واضطر خلالها إلى سحب بعض القوات الرومانية المرابطة في الشرق ومنها مصر، فانتهز اليهود هذه الفرصة، وأخذوا ينفّسون عما في صدورهم من غضب وكراهية للرومان. وكانت البداية الأولى لهذه الأحداث، وقوع صراع بين اليهود والإغريق في قورينائية، لم تلبث أن تحولت إلى حرب شاملة ضد الإمبراطورية الرومانية، وامتدت تلك الحرب إلى مناطق أخرى مثل مصر وبرقة وقبرص وبلاد ما بين النهرين، امتدت فيها أعمال اليهود العدوانية إلى الريف المصري، وزحف يهود برقة على الأراضي المصرية في عام ١١٦ م، ولكنهم عجزوا عن اقتحام الإسكندرية. ***وفي هذه الأحوال الصعبة اضطرت السلطات الرومانية لمقاومة اليهود وتسليح الشعب***

المصري، وتمكنت أخيراً من إخماد الفتنة في عام ١١٧ م، ولكن بعد أن تركت آثاراً مدمرة على مرافق البلاد.

وأثناء عودة ***ترايانوس*** من حملاته في الشرق في العام ١١٧ م، توفي وهو على طريق العودة في كيليكية. وكان مجلس الشيوخ قد أصدر قراراً بإطلاق لقب ***(الأول والأعلى)*** (***OPTIMUS***) على ***ترايانوس***، وهو لقب لم ينله أحد من قبله، وكان حتى ذلك الوقت مقتصراً على (**جوبيتر**) نفسه رئيس مجّمع الآلهة الرومانية[٤٧].

٣ ـ الإمبراطور هادريانوس (*HADRIIANUS*) (١١٧ ـ ١٣٨م) :

كان ***هادريانوس*** ذات مواقف إنسانية واضحة وطاقة عقلية وجسمانية خارقة، وذات طموح لمعرفة كل شيء عن العالم. ولما كان طوال حياته نصيراً ومتحمساً للحضارة الإغريقية، وباعتباره راعياً للفنون ومهندساً معمارياً مرموقاً ومبدعاً، ***فقد كان من أعظم بناة المدن،*** لذا ارتبطت باسمه قائمة كبيرة من الأبنية التي أشادها في كلٍ من مدينتي أثينة وروما.

وشهدت مصر في عهده ثالث زيارة يقوم بها إمبراطور روماني لهذه الولاية بسبب فضوله الشديد لمشاهدة آثارها الخالدة. وكان يرافق الإمبراطور في هذه الزيارة، أحد غلمانه ويدعى ***أنتينوس*** (***ANTINOUS***) وقد ألقى بنفسه في النيل فداءً لسيده الإمبراطور، وحزِن ***هادريانوس*** لموته، وأمر بإقامة مدينة في الموقع الذي غَرِق فيه تخليداً لذكراه، وحملت هذه المدينة اسم ***أنتينوبوليس*** (***ANTINOPOLIS***) وهي حالياً (***الشيخ عبادة بمحافظة المنيا***)، وأصبحت المدينة الإغريقية الرابعة في مصر. وأظهر ***هادريانوس*** تقديراً واحتراماً كبيرين لعلماء مكتبة الإسكندرية ودار العلم (**الموسيون**) بالإسكندرية.

لم يرزق ***هادريانوس*** أطفالاً، وأصبح وجود خليفة له لا بد أن يتم عن طريق التبني، إذ وقع اختياره على رجل قدّر له أن يتمتع بأكبر نصيب من التقدير والاحترام في كل أنحاء الإمبراطورية دون غيره من كل الحكام الرومان وهو ***أنطونينوس بيوس***.

---

(٤٧) انظر : ***نفس المرجع السابق***، ص ٢٨٤ .

٤ - الإمبراطور أنطونينوس بيوس (ANTONINUS PIUS) (١٣٨ - ١٦١م):

كان ***أنطونينوس*** في سن الواحدة والخمسين عندما تبناه هادريانوس، ***وكانت فترة حكمه هي أوج مجد السلام الإمبراطوري الطويل الأمد (١٤ - ١٩٢م)،*** حيث كان العالم الروماني في هذه الفترة يحكمه رجل مستقيم كرّس حياته لخدمة رعاياه، صارم في ميوله، يجد متعة في الحياة العائلية التي يقضيها في المقاطعات الريفية، كما أنه لم يقم برحلات إلى الولايات باستثناء ولاية مصر، وكانت علاقاته بمجلس الشيوخ علاقة توافق وانسجام، أما فترة حكمه فلم تتخللها وقوع أحداث مهمّة، فيما خلا الأنباء التي تواترت عن وقوع ثورة في الإسكندرية، راح ضحيتها الوالي الروماني في عام ١٥٣ م، وتلى ذلك حضور الإمبراطور إلى مصر، حيث أقام فيها بعض المنشآت، واختار انطونينوس ***ماركوس أوريليوس*** لكي يكون خليفة له.

٥ - الإمبراطور ماركوس أوريليوس(MARCUS AURELIUS) (١٦١ - ١٨٠م).

ولد ***ماركوس أوريليوس*** في عام (١٣١م) من عائلة تنتمي إلى طبقة العامة، وكان محباً وشغوفاً بالعلم، إذ لم يحدث أن تربّع على العرش حاكم قد تسلّح بالعلم بصورة أقدر منه حتى إنه دعي ***(الفيلسوف على العرش)***[٤٨]، إذ تشيّع تماماً بطابع الفلسفة الرواقية التي تقتصر في جوهرها على (***علم الأخلاق***). ومن هذه الفلسفة تعلّم ***أوريليوس*** المثل العليا في خدمة الآخرين، والمشاركة الوجدانية والابتهاج في لحظة الاكتئاب، والنظرة السامية لما يقوم به الجنس البشري من أعمال.

ولكن في عهده طفح الكيل بالمصريين، إذ أثقلت كواهلهم الأعباء التي فرضها عليهم الرومان من ضرائب وخدمات إلزامية، فشهدت مصر في عهده قيام ثورة

---

(٤٨) انظر : ***محمد محفل ، محمد الزين*** ، ص ١٣٨ .

عنيفة في عام ١٧٢م، تحت زعامة أحد الكهنة ويدعى ***إيزيدور***، وهي الثورة المعروفة (***بثورة الرعاة***)، وكان مركز الثورة في منطقة شمال الدلتا. ولم تستطع السلطات الرومانية من قمع هذه الثورة، إلا بعد أن استعانت بالحامية الرومانية في سورية، التي جاءت بقيادة ***أفيديوس كاسيوس*** (***AVIDIUS CASIUS***) وهو من أصل سوري وتمكّن من القضاء على الثورة، وأعلن هذا القائد نفسه إمبراطوراً على إثر أنباء كاذبة بموت الإمبراطور ***ماركوس أوريليوس***، وحصل على تأييد جنوده في عام ١٧٥م، كذلك الأمر على تأييد المصريين الذين كانوا على استعداد لتأييد أي منشق ضد السلطة في روما. إلا أن تمرّد ***كاسيوس*** سرعان ما فشل بعد أن تعرّض للاغتيال على يد أحد ضباطه. وفي العام التالي لتمرّد ***كاسيوس*** قام الإمبراطور ***ماركوس*** بزيارة للولايات الشرقية، ومنها ولاية مصر، وكان رحيماً بالجميع، فأصدر عفواً شاملاً عن كل من تورطوا في تأييد التمرّد، ***وأعلن سياسة التسامح مع جميع المصريين***. إلا أن بعض الروايات تقول، أن الإمبراطور ***ماركوس*** رفض أن يرى رأس المتمرّد ***كاسيوس*** وأمر بدفنها[٤٩].

٦ - ***الإمبراطور كومودوس (COMMODUS) (١٨٠ - ١٩٢م)*** :

يُعد ***كومودوس*** ابناً للإمبراطور الفيلسوف ماركوس، ولم يكن على مثال والده في التسامح والأعمال الصالحة. ***وكأن الآباء الصالحين أنجبوا أبناءً فاسقين، تلك هي أشهر الأمثلة المعروفة في التاريخ***. فكانت فترة حكم ***كومودوس*** كارثة على الإمبراطورية، فتخلى عن غزوات والده ومشاريعه على حدود الدانوب، لكي يوفر لنفسه حرية التمتع بالملذات في روما، إذ كان يتمتع بشعبية كبيرة بين غوغاء الرومان بوصفه رجلاً يشاركهم ملذاتهم الوضيعة، ولم يجرؤ أحد على اغتياله إلا في عام (١٩٧م). ونشبت من بعده سلسلة من الحروب الأهلية جلبت الدمار والخراب على روما. ***وكان العام (١٩٢م) أي نهاية حكمه، هو نهاية لعهد السلام الروماني***.

---

(٤٩) انظر: ***آمال الروبي***، ص ١٣٣.

أما في مصر فلم يتبع **كومودوس** سياسة التسامح التي اتبعها والده مع المصريين، فقد كان ميالاً للعنف، وقام بمحاسبة كل الذين أيدوا تمرد **كاسيوس** ونكّل بهم أبشع تنكيل، وتأثرت مصر في عهده بإنتاجها القليل من الغلال، فاتجهت روما إلى الاعتماد على مصدر آخر للغلال، وقام الإمبراطور **كومودوس** ببناء أسطول جديد لنقل الغلال من شمال أفريقية إلى روما، ***وهو الذي عُرِف بالأسطول الأفريقي.***

سابعاً: مصر في القرن الثالث الميلادي (عصر الاضطراب):

سادت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي، حالة من الاضطراب، وأخذ الجيش يتدخل في المنازعات السياسية، وفي الصراع على العرش. وبعد عام ١٩٣م، ***أي بعد انتهاء فترة السلم الإمبراطوري، استلم الجيش زمام المبادرة في تعين الأباطرة وخلعهم.*** فعلى سبيل المثال، نادت القوات الرومانية في بريطانيا بقائدها إمبراطوراً، وكذلك الأمر فعلت قوات الدانوب، وحذت حذوها القوات الرومانية في سورية.

وكان المنتصر في النهاية هو قائد قوات الدانوب **سبتيميوس سيفيروس** ***(SEPTIMIUS SEVERUS)*** بفضل قواته الكثيرة العدد، والمولود في **ليبتس مغنا** ***(LEPTIS MAGNA) (لبدة في ليبيا)*** من السيطرة على روما في العام ١٩٣م. وقام هذا الإمبراطور بزيارة مصرفي عام ١٩٩م، وبقي فيها عاماً كاملاً وأجرى بعض الإصلاحات: ***أهمها تعديل النظم الإدارية، إذ منح الإسكندرية بمقتضاها مجلساً تشريعياً.***

وفي العام (٢١١ - ٢١٧م) تولى العرش ابنه **كركلا** ***(CARACALLA)*** الذي أقدم على إصلاح خطوة مهمّة في نطاق الإمبراطورية الرومانية، ***وهي منح حقوق المواطنة الرومانية لجميع رعايا الإمبراطورية، بما فيهم المصريون.*** وزار **كركلا** مصر أيضاً، ولكن الناس كانوا يكرهونه فيها بحجة أنه قتل شقيقه ليستولي على العرش وسخروا منه. وانتقاماً لذلك، قتل **كركلا** عدداً كبيراً من الشبّان المصريين في إستاد

مدينة الإسكندرية بعد أن نهبها، وطرد جميع المصريين منها الذين وفدوا إليها من مواطنهم في الريف المصري، حتى يتهربوا من أداء التزاماتهم تجاه الدولة.

وفي منتصف القرن الثالث الميلادي، بلغت الإمبراطورية الرومانية أوج (***أزمة الاضطراب***) حين اعتلى العرش **ديكيوس** (***DECIUS***) ***الذي اضطهد المسيحية في بداياتها الأولى، ولم يكتف بذلك الأمر، بل ألزم الأهالي بأن يقدّموا شهادات تفيد قيامهم بتقديم القرابين للآلهة الوثنية***[٥٠]، وشهدت مصر في هذه الفترة محاولة الاستقلال عن الإمبراطورية الرومانية، ولكن تم القضاء عليها.

وفي عام ٢٦٩م تعرّضت مصر لغزو ***مملكة تدمر*** التي تقع في الصحراء بين سورية وبابل، وكانت تدمر خلالها تابعة للإمبراطورية الرومانية، ولكنها تمتعت بالاستقلال الذاتي، ***وكانت مملكتها تشمل سورية وشمال شبه الجزيرة العربية وأجزاء من آسية الصغرى،*** واستطاع أحد حكامها ويدعى ***أذينة*** ***(ODENEATHUS)*** أن يقدّم خدمات للرومان، وحصل على لقب قائد (***DUX***)، وبعد وفاته تولت زوجته (**زنوبيا**) الوصاية على ابنه الطفل ***وهب اللات***.

وكانت (**زنوبيا**) امرأة طموحة ترغب في تكوين إمبراطورية، فاستولت على مصر في عام ٢٦٩م بمساعدة بعض زعماء الإسكندرية والناقمين على الرومان، مما اضطر الإمبراطور الروماني، إلى الاعتراف بوهب اللات شريكاً له في الحكم. ولكن الإمبراطور الروماني (***أوريليانوس***) (**٢٧٠ - ٢٧٥م**) استطاع الانتصار على (***زنوبيا***) وقواتها، وأخذها أسيرة إلى روما، وفي الوقت نفسه تمكن من استعادة مصر في عام ٢٧١م.

وبعد ذلك قامت ثورة ضد الحكم الروماني في مصر، بقيادة أحد تجار الإسكندرية، ويدعى ***فيرموس (FIRMUS)***، وهو أحد أشهر من ساعدوا (***زنوبيا***) على احتلال مصر، واضطر الإمبراطور ***أوريليانوس*** لقمع الثورة. ولكن بعد وفاته انتهزت القوات الرومانية في مصر هذه الفرصة، ونادت بقائدها ***بربوس*** ***(PROBUS)***

---

(٥٠) انظر: ***بل***، ص ١٣٠.

إمبراطوراً الذي ظل على العرش مدة خمسة أعوام إلى أن اغتيل على يد أحد جنوده في عام ٢٨٢م. وعمت الفوضى أرجاء الإمبراطورية لمدة عامين، حتى تمكن (**دقلديانوس**) من تولي العرش في عام ٢٨٤م. ***ويُعد عهده بداية لمرحلة جديدة في تاريخ البشرية جمعاء. إذ أن (دقلديانوس) أدخل تعديلات جذرية على نظام الإمبراطورية الرومانية فقسمها إلى قسمين أو إلى دولتين : إحداهما هي الدولة الرومانية في الشرق (الدولة البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية. أما الأخرى، فقد ظلت عاصمتها روما القديمة في الغرب. ويعتبر المؤرخون عهد (دقلديانوس) نهاية للعصور القديمة، وبداية للعصور الوسطى (أي مع ظهور الدولة البيزنطية)***[٥١] .

---

(51) ***JONES . A . H . M*** : THE DECLINE OF THE ANCIENT WORLD, LONDON, 1977 . PP . 28 - 38 .

البحث الثامن عشر

حضارة مصر في عصر الرومان

أولاً : نظام السلطة المركزية :

عمل الرومان على إصلاح الجهاز الإداري الذي ورثوه عن البطالمة والذي تفشى فيه الفساد والتسيب، وأدخلوا على نظامهم الجديد تعديلات جديدة تلائم أهداف الحكم الجديد.

وبموجب النظام الإداري الجديد، كان الوالي الروماني يأتي على قمة الإدارة العسكرية والمدنية، ويستمد سلطاته المباشرة من الإمبراطور الذي أعطى الوالي سلطة ***(الإمبريوم)، إذ كان بموجب هذه السلطة يتولى الوالي قيادة القوات الرومانية المرابطة في مصر، وإصدار الأحكام بالإعدام ومصادرة الممتلكات، ويرأس أعلى محكمة في البلاد وهي محكمة الوالي.***

وكان الأباطرة يحرصون أشد الحرص على أن يكون تعين الوالي من حقهم، نظراً لحساسية ولاية مصر الاقتصادية، لأنها ولاية متميزة عن غيرها من الولايات. ولكن بعد أن قلّت موارد مصر الاقتصادية، لم يعد يُنظر إلى والي روما في مصر باعتباره متميزاً عن غيره من الولاة في الإمبراطورية، بل أصبح هذا المنصب يسند إلى رجل من طبقة السناتو. ووصل الأمر إلى حد الشطط، أن السناتو الروماني كان يرسل الولاة إلى مصر الذين كانوا يشكلون مصدر إزعاج في الإمبراطورية الرومانية

للتخلص منهم على حد قول ***ديون كاسيوس***[1] ، كما فعل الإمبراطور ***سيفيروس الإسكندر*** حين رغب في معاقبة أحد قادة الحرس البريتوري ، قام بتعيينه والياً على مصر.

كان الوالي يترأس الجهاز الإداري في البلاد ، وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم ، وعلى رأس كل إقليم من هذه الأقاليم موظف يدعى ***إبستراتيجوس*** (***EPISTRATEGOS***) وهو مواطن روماني ، وكانت الأقاليم بدورها تنقسم إلى وحدات أصغر وهي المديريات (***NOME***) وعلى رأس كل مديرية موظف حمل لقب ***الإستراتيجوس (STRATEGOS)***. ويعاون الوالي مجموعة من المعاونين ، يختص كل واحد منهم بأحد القطّاعات ، ويُختارون من الرومان المنتمين إلى طبقة الفرسان.

وكان الوالي يشرف إشرافاً كاملاً على الشؤون الدينية ، وكانت موارد المعابد تخضع لرقابته ، ولكن لم يلبث الإشراف أن انتقل إلى موظف حمل لقب الكاهن الأعلى (***ARCHIEREUS***) مع أنه لم يكن كاهناً ، بل كان موظفاً مدنياً روماني الجنسية. وامتدت سلطة الوالي على الأفراد ، حيث كان يشرف على دخول وخروج الأفراد من وإلى داخل مصر. فقد كانت مداخل مصر ومخارجها تخضع لرقابة شديدة ، ومسألة السفر لأي مواطن لن تحصل دون موافقة الوالي. وكان الوالي يتلقى تقارير مفصلة عن كلّ مظاهر النشاط في أرجاء مصر عن طريق المراسلات ، ***كتقارير الضرائب ، والتعداد ، وتسجيل الملكية ، وسجلات المواليد والوفيات ، وعن دخل الدولة.***

وكان من حق الوالي إصدار المراسيم التي كانت تصدر باللغة الإغريقية ، أما قراراته فكانت عادة ما تتضمن ***افتتاحية بروتوكولية*** مثل (***طبقاً لمشيئة أوغسطس الإله***) أو (***إن أوغسطس المؤله قد أمر***). حيث كان الأباطرة ينظرون في مثل هذه القرارات. ***وكان من أهم واجبات الوالي ، الإشراف على الشؤون المالية لأن مصر تمثل أهمية قصوى كمصدّر للغلال للإمبراطورية ،*** وكان يتمتع بسلطة مطلقة في تقدير الضرائب داخل مصر ، ويقوم بجولات تفقدية في أقاليم مصر ، بشكل دوري ، يعقد خلالها جلسات المحكمة التي كانت تُعد أعلى سلطة قضائية وهي محكمة الوالي

---

(1) ***DIOS CASSIUS***, 80 . 2 .

(**CONVENTUS**) وكانت تنعقد ثلاث مرات في العام، وكل مرة في أحد الأقاليم المصرية الثلاثة للنظر في الشكاوى والدعاوى المرفوعة أمامها.

ثانياً: النظام المالي:

قام نظام الضرائب في مصر في عصر الرومان على قواعد محكمة، حتى تستطيع الدولة بمقتضاها أن تحصل على مستحقاتها الضريبية من الأفراد. وكانت هذه المستحقات تشمل: ***ضرائب ورسوم مختلفة عن الممتلكات والأفراد، والنشاط المالي والتجاري،*** وكانت الضرائب تجبى إما عيناً وإما نقداً. أما فيما يتعلق بالضرائب العينية التي تؤديها مصر للرومان، ***فهي الغلال***. فكانت مصر تمد روما بثلث احتياجاتها السنوية من الغلال، وكان يتحتم عليها إطعام القوات الرومانية المرابطة في مصر، وللوفاء بذلك كان يتحتم على كل مزارع أن يدفع أردباً عن كل أروة (***الأروة أربعة أخماس الفدّان***) كضريبة نوعية على الأرض التي تزرع حبوباً.

وكانت الإدارة الرومانية في مصر تحرص على عدم بقاء أي قطعة أرض دون زراعة حتى لا تحرم من دفع الضريبة المستحقة عليها. ***فلذلك فإن الأراضي التي لم تكن تُستأجر، أو أن يهرب مزارعوها، فكانت الدولة تلزم سكان القرية بزراعتها، على أن تسدد الضرائب عليها إجباريا من قبل الأهالي بشكل تضامني.*** وكان المزارع يقوم بتسليم ما عليه من مستحقات للدولة إلى أمناء مخازن الغلال (**SITOLOGOI**) الذين يقومون بدورهم بتسليم الغلال إلى معسكرات الجيش، أو إلى المخزن العام بالقرب من الإسكندرية. وغير الكميات التي كان يتم تسليمها إلى معسكرات الجيش، كان يتم تحصيل مقدار هذه الضرائب نقداً.

ولم تكن الحيوانات تسلم من تحصيل الضرائب عليها، ***وكان يتوجب على كل مزارع أن يقدّم تقريراً سنوياً عن عدد الحيوانات التي بحوزته حتى يدفع الضريبة المستحقة عليها***[٢].

---

(٢) حول الضرائب في مصر في عصر الرومان انظر بالتفصيل:

WALLACC. S. L: TAXATION IN EGYPT FROM AUGUST TO DIOCLETIAN . PRINCETON . 1938 .

وإلى جانب ضرائب الزراعة والحيوانات، كانت هناك ضرائب تجبى على الأفراد، لعل أشهرها ***ضريبة الرأس*** (***LAOGRAPHIA***) [٣]. وكان يجب على جميع سكان مصر من الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والستين أن يؤدوها، باستثناء بعض الفئات، ***مثل الذين يتمتعون بحق المواطنة الرومانية، ومواطني مدينة الإسكندرية، وأعضاء المعهد العلمي في الإسكندرية، وخريجي معاهد (الجمنازيوم)، وعدد من الكهنة من ذوي المكانة الخاصة، وبعض أصحاب المهن.***

وكانت هناك ضريبة أخرى تقع على عاتق الأفراد، وهي ***ضريبة الجسور*** (***CHOMATIKAN***)، وكان الهدف من جبايتها، الإنفاق على صيانة الجسور، وتنظيم عمليات الري. وضريبة أخرى هي ***ضريبة الخنازير*** ومقدارها دراخمتان لكل فرد، وكان الغرض من تحصيلها إمداد المعابد الإغريقية بالحيوانات اللازمة للأضاحي.

وفرضت الإدارة الرومانية، ***ضرائب على أصحاب الحرف الصناعية***، بالإضافة إلى ضريبة أخرى وهي ***ضريبة المعدمين*** (***APOROI***) التي كانت تُفرض على الأشخاص الذين يعجزون عن دفع الضريبة لأسباب شتى، أو بسبب هروب البعض الآخر، دون أن يتركوا وراءهم ممتلكات يمكن للدولة مصادرتها. وكان مقدار العجز الذي يترتب على وجود مثل هذه الحالات، يجري توزيعه بالتضامن على باقي سكان القرية، ويختلف مقدار هذا العجز حسب أعداد الهاربين.

وقد خضعت ***الأنشطة المالية والتجارية للضرائب أيضاً***، فكانت هناك ضرائب يتم تحصيلها عن عمليات البيع بواقع ١٠٪ وعن الرهن بنسبة ٢٪. إضافة إلى ذلك، كان يتوجب على الأهالي أن يقوموا بتمويل زيارات كبار الزوار الرومان لمصر، بما في

---

(٣) تُعد هذه الضريبة من أهم الضرائب التي فرضها الرومان في مصر، لأنها كانت ذات مدلولات سياسية واجتماعية على قدر كبير من الأهمية، إضافة إلى كونها من المصادر الرئيسية لدخل الدولة. حول ذلك انظر : ***محمد فهمي عبد الباقي، ضريبة الرأس في مصر الرومانية***، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٧٩م.

ذلك زيارات الأباطرة وأفراد عائلاتهم، وتمويل زيارات الوالي الروماني وحاشيته في أرجاء البلاد.

وكانت الإدارة الرومانية في مصر تلجأ إلى وسائل قاسية وصارمة جداً للغاية، حتى إن بعضها يصل إلى حد الوسائل الوحشية لتحصيل الضرائب من الأهالي. وقد أشار الكاتب اليهودي **فيلون** إلى بعض هذه الوسائل التي كان يلجأ إليها الجباة في القرن الأول الميلادي قائلاً (***إن جابي الضريبة في إحدى المناطق حين وجد أن بعض دافعي الضرائب قد هربوا، دون أن يدفعوا ما عليهم، اتجه إلى زوجاتهم وأطفالهم وأقاربهم فسامهم سوء العذاب، وطرح بعضهم أرضاً، وأخذ يضربهم ويطؤهم بأقدامه، بل أنه لم يتورّع عن قتل بعضهم، فإذا لم يجد أقارب للهارب، فإن الأذى ينتقل إلى الجيران، وقد يشمل سكان القرية جميعاً)***[٤].

ويستطرد **فيلون** في موضع آخر، فيصف بشاعة الأساليب التي كان يلجأ إليها جباة الضرائب، الذين لم يرحموا حتى الموتى، ودفعتهم صفاقتهم إلى الاعتداء على جثث الموتى، حتى يجبروا أقاربهم على دفع ما هو مستحق عليهم من ضرائب[٥]. وإزاء بشاعة هذه الأساليب وعجز الأهالي عن الوفاء بالتزاماتهم، فلا عجب أن يؤدي ذلك إلى هروب الأهالي من مواطنهم، وخلو بعض القرى من السكان[٦].

ثالثاً : النظام الاقتصادي :

١ - الزراعــة :

يوجد هناك اختلاف جذري ما بين السياسة الاقتصادية للبطالمة والرومان، إذ حرص البطالمة على السيطرة على النشاط الاقتصادي وتجربتهم الواسعة فيما هو أشبه

---

(4) ***PHILON*** : DE SPECIALIBUS LEGIBUS , L 11 , 159 - 163 .

(5) ***IBID*** : 94 - 95 .

(٦) حول الضرائب باعتبارها من أسباب هروب الأهالي من مواطنهم انظر : ***أبو اليسر فرح، الدولة والفرد في مصر في عصر الرومان*** (عين للدراسات) القاهرة ١٩٩٥ م، ص ١٥٢ - ١٥٤.

(***بالاشتراكية الشيوعية***)، فالأرض كانت كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة، وكان الملك هو محور الحياة الاقتصادية، والفلاحون أنفسهم كانوا يحملون محاصيلهم إلى مخازن الملك، وقد تطور مثل هذا النظام الاشتراكي الحكومي، ***لأن أحوال الزراعة في مصر كانت تتطلب من التعاون ووحدة العمل في الزمان والمكان، أكثر مما تستطيع أن تهيئه الملكية الفردية،*** وأن مقدار ما يزرع من الغلات ونوعها يقفان على مقدار فيضان النيل السنوي، وكفاية نظام الري والصرف. وهذه كلها مسائل تتطلب أن تشرف عليها هيئة مركزية قوية. وقد سارت ***الصناعة*** في مثل هذه الظروف، إذ لم تكن الحكومة تمتلك المناجم فحسب، بل كانت تديرها بنفسها أو تستولي على ما يخرج من المعادن، ***وكانت الحكومة تحتكر مختلف أنواع الصناعات،*** وهي التي تديرها وتشرف على إنتاجها وتصريفها، وتفرض الأسعار التي تريدها، وتمنع المنافسة الأجنبية بالضرائب الجمركية العالية. وكذلك الأمر كانت الحكومة تشرف على ***التجارة*** بأجمعها وتنظّم شؤونها، فكان بائعو الأشتات عادة وكلاء معينين من قبل الدولة لتوزيع بضائعها، إذ كانت الدولة تمتلك جميع طرق القوافل والطرق المائية.

ولكن البطالمة كانوا يجيزون الملكية الخاصة في بعض الحالات، ***كالسماح للمزارع بأن يمتلك مسكنه وحديقته، ويؤجرون قطعاً من الأرض الزراعية للجنود كمكافأة لهم على ما قدموا للدولة من خدمات.*** ولكن هذه الأرض المستأجرة لم يكن يُسمح للمستأجر بأن يورّثها إلى أبنائه أو أن يوصي بها لمن يشاء. وكان من حق الملك أن يلغي حق الإيجار متى أراد. ولما تحسنت أحوال الأراضي الزراعية التي يشترك في ملكيتها الفرد والدولة، بدأ أصحابها يطالبون بأن يكون لهم حق توريثها لأبنائهم، وكان العرف الاجتماعي لا القانوني يجيز مثل هذا التوريث في القرن الثاني ق.م، ثم اعترف به القانون في القرن الأول ق.م، وتم بذلك التطور المألوف من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة(٧).

---

(٧) حول النظام الاقتصادي في مصر في عصر البطالمة انظر : ***ول ديورانت، قصة الحضارة،*** الجزء الثالث من المجلد الثاني، حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، إصدار جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٣م، ص ٦٥ ـ ٧٢.

أما السياسة الاقتصادية عند الرومان فكانت (**على العكس من سياسة البطالمة**)، **إذ أن الرومان حرصوا على تشجيع الاستثمارات الفردية**، وكانت سياسة الإمبراطور **أوغسطس** ترمي إلى تشجيع الطبقة الوسطى على ممارسة النشاط الاقتصادي. **والهدف من ذلك هو خلق طبقة قوية تكون قادرة على مساعدة الدولة في تحمّل بعض الأعباء.** وكان الاتجاه نحو تشجيع الملكية الفردية يُعتبر تحولاً مهماً في تاريخ مصر الاقتصادي.

وقد أولى **أوغسطس** اهتماماً كبيراً للزراعة في مصر، باعتبارها عماد الاقتصاد المصري عبر العصور، ويذكر الجغرافي **استرابون** أن **أوغسطس** عهد إلى جنوده بإصلاح نظام الري في مصر[٨]، ونتيجة لهذه الجهود تحسّن الإنتاج وأصبح المحصول وفيراً.

وانقسمت الأراضي الزراعية في مصر في عصر الرومان إلى قسمين رئيسيين: **أولهما الأراضي العامة العائدة ملكيتها للدولة، وثانيهما الأراضي الخاصة العائدة ملكيتها للأفراد.**

أ - الأراضي العامة:

١ - الأراضي الملكية (*GE BASILIKE*):

وهي الأرض التي كانت تحمل الاسم نفسه في عصر البطالمة واستمر حتى عصر الرومان، وقد آلت ملكيتها للدولة بعد فتح مصر. وكانت هذه الأراضي تؤجر في شكل مساحات صغيرة إلى مزارعين يطلق عليهم **المزارعون الملكيون** (***GEORGOI BASILIKOI***) وكان هؤلاء المزارعون يدفعون إيجاراً عينياً يمثّل نسبة من المحصول، ويشرف على هذه الأراضي مدير الحساب الخاص (**الإديوس لوجوس**).

---

(8) ***STRABON*** : XVII , 788 .

٢ ـ الأراضي العامة (GE DEMOSIA) :

لا يُعرف على وجه التحديد معنى هذه التسمية، ولكن يبدو أنها تطلق على الأراضي الرملية، أو الأراضي المتاخمة للصحراء، فلذلك فإن إنتاجية هذه الأراضي كانت منخفضة، وإيجارها منخفضاً. فلذلك كان المزارعون يتهربون من زراعة هذه الأراضي، فلجأت الدولة إلى إرغامهم على زراعتها، وأن يؤدوا قسم الإمبراطور بأنهم سوف يقومون بزراعة هذه الأرض، وتأدية الالتزامات المستحقة عليها. وكان يطلق على هؤلاء المزارعين اسم ***مزارعي الدولة*** (***DEMSIOI GEORGOI***).

٣ - أراضي الضياع (GE OUSIA) :

لم يكن أصحاب الضياع في عصر الرومان يقيمون في مصر كما كان في عصر البطالمة، بل كانوا يقيمون في روما. وكانت الضياع تؤول إلى أصحابها عن طريق الشراء، وليس الهبة كما كان في عصر البطالمة أيضاً. ***فالرومان حين صادروا أراضي الإقطاعات العسكرية البطلمية، وأراضي الهبات، أضافوا إليها تلك الأراضي التي توفي أصحابها دون أن يكون لهم ورثة.*** وكان يتم عرض هذه الأراضي في مزاد علني، حيث يتقدم لشرائها أثرياء الرومان ***كالأمير جرمانيكوس، وليفية زوجة أوغسطس، ومايكيناياس وزير الثقافة في عصر أوغسطس*** [٩].

وكان يتم استغلال هذه الأراضي عن طريق تأجيرها إلى مزارعين يطلق عليهم ***مزارعي الضياع*** (***OSIAKOI GERGOI***). وقد فرضت على أراضي الضياع نوعان من الضرائب : ***أولهما ضرائب عينية كانت تُفرض على الأرض التي تزرع غلالاً. وثانيهما : ضرائب نقدية كانت تُفرض على حدائق الفاكهة.***

٤ - أراضي المعابد (GE HIERATIKE) :

صادر الرومان في عصر ***أوغسطس*** كل الأراضي الزراعية التي كانت تتمتع بها المعابد في عصر البطالمة، وذلك خوفاً من تعاظم دور الكهنة في المجتمع. وجعل

(٩) حول أراضي الضياع انظر بالتفصيل : ***آمال الروبي***، ص ١٦٨ ـ ١٨٠

أوغسطس هذه الأراضي ملكاً للدولة، وقرر وضعها تحت إدارة مدير الحساب الخاص، الذي تولى منصب رئيس الكهنة في مصر. ولكن الدولة أعطت بعض المساحات الصغيرة من الأراضي الزراعية للكهنة لأجل الإنفاق على شؤون العبادة.

٥ - أراضي المستنقعات (GE LIMINTIKE):

تتصف هذه الأراضي بإنتاجية منخفضة وتقع غالبيتها في الدلتا. ونظراً لانخفاض إنتاجيتها، فإن الضرائب والإيجارات المقررة عليها كانت منخفضة أيضاً.

٦ - أراضي الدخل (GE PROSODOS):

أراضي الدخل هي تلك المساحات التي تقوم الدولة بمصادرتها، بسبب فشل أصحابها في أداء التزاماتهم، حيث كان يتم وضعها تحت إشراف مدير الحساب الخاص لبعض الوقت، حتى يتم حسم أمرها، وتوضع تحت تصنيف آخر من الأراضي. ومما يستلفت النظر، أن الضرائب المستحقة عليها كانت مرتفعة نسبياً، على غرار تلك الأراضي الملكية.

ب - الأراضي الخاصة (GE IDIOTIKE):

تُعد هذه الأراضي ملكية خاصة للأفراد، ومن حقهم التصرّف فيها بالبيع والرهن والتوريث، وكانت الضريبة المقررة عليها مقدارها أردب عن كل أروة، وكان من حق أصحاب هذه الأراضي أن يؤجروها للآخرين، طبقاً لعقود يتم إبرامها بين الطرفين، تحدد فيها حقوق كل طرف. بالإضافة إلى هذه الأراضي كانت هناك أراضٍ خاصة بالمدن (**GE POLITIKE**) وهي التي كانت تتمتع بها المدن الإغريقية الأربعة في مصر، ويخصص دخل هذه الأراضي للإنفاق على شؤون هذه المدن.

أما عن المحاصيل الزراعية، فكان ***القمح*** أهم هذه المحاصيل، وقد أولت الدولة عناية خاصة لهذا المحصول نظراً لحاجة روما الشديدة له. ويأتي ***الشعير*** في المرتبة الثانية حيث كان يستخدم كعلف للخيول، كما كانت تصّنع منه الجعة المشروب الرئيسي

للمصريين، كما انتشرت زراعة ***البقوليات*** بأنواعها المختلفة، إضافة إلى ***الخضر والفاكهة***، كذلك مزارع ***الزيتون والكروم وأشجار النخيل ومزارع القطن***.

وكانت الأراضي الزراعية تختلف من منطقة لأخرى حسب وصول مياه النيل إليها، حيث فُرضت ضرائب أعلى على تلك الأراضي التي يكون حظها أوفر من مياه النيل. وكانت الإدارة الرومانية في مصر تحتفظ لديها بسجلات دقيقة حول أوضاع هذه الأراضي.

٢ - *الصناعة والتجارة*:

عمل الرومان على تشجيع الملكية الفردية في مجالي الصناعة والتجارة على غرار تشجيع الزراعة. فلم يتّبع الرومان سياسة الاحتكار كما فعل البطالمة، بل تركوا الصناعة في أيدي الأفراد، ولكنهم حرِصوا على إبقاء الصناعات الأساسية خاضعة لسيطرة الدولة، مثل الأشراف على المناجم والمحاجر، كما تدخّلت الدولة بشكل جزئي في بعض الصناعات مثل: ***صناعة النسيج والبردي والجعة والطوب***.

وأدّت مدينة الإسكندرية دوراً مهماً في مجال الصناعة، فبفضل موقعها المتوسط في قلب الإمبراطورية الرومانية، استطاعت هذه المدينة أن تحتل مكانة عظيمة في اقتصاديات العالم القديم، إذ كانت الإسكندرية مركزاً مهماً لصناعة ***الزجاج والبردي والنسيج***. أما صناعة ***أوراق البردي*** فهي صناعة مصرية خالصة، انفردت بها مصر دون سائر بلدان العالم القديم. ونظراً لأهمية أوراق البردي في الصناعة والتجارة الدولية، فقد فرضت الدولة ضرائب نقدية ونوعية على صناعة البردي.

ثم تأتي بعد ذلك ***صناعة النسيج***، التي كانت تقوم على الإنتاج المنزلي إلى جانب المصانع الكبيرة، ويقول **بليني** ***(إن المصريين كانت لديهم طريقة سرية لتكوين وصباغة الملابس)*** [10].

وإلى جانب الصناعات الأساسية عرفت مصر صناعات أخرى مثل: ***صناعة العطور والمستحضرات الطبية، وكذلك الأدوات الموسيقية والخمور والفخار.***

---

(10) ***PLINY***, NH , XXXV, 150 . ☐

أما في مجال **التجارة**، فقد كان دور مدينة **الإسكندرية** عظيماً في هذا المجال، وكان ذلك نتيجة حتمية لحالة الازدهار التي عمّت الإمبراطورية الرومانية بعد أن عمّ السلام وتطهير البحر من القراصنة، حيث توافد التجار على الإسكندرية من جميع أنحاء المعمورة، وسيطر التجار الإسكندريون على تجارة البحر الأحمر والشرق، وأصبحت الأساطيل الكبرى قادرة على جلب التجارة من الهند وأقاصي أثيوبيا.

ولكن مثل هذه الأحوال لم تستمر بفعل الأحوال السياسية التي شهدتها مصر والإمبراطورية الرومانية، **إذ تدهورت الصناعة والتجارة في القرن الثالث الميلادي نتيجة تأثرها بهذه الأحوال. وخاصة أن سياسة الرومان الاقتصادية في مصر كانت ترتكز على الاستغلال ووصلت إلى حد الظلم الكبير بحق المصريين.** ويعلق على هذه الناحية الأستاذ **روستوفتزف** في مقالة له بعنوان (**الاستغلال الروماني لمصر في القرن الأول الميلادي)** [11]، أدان فيه الأساليب التي كانت تمارسها الإدارة الرومانية في مصر. أما الأستاذ **ميلن**، فقد اختار عنواناً أكثر دلالة لبحثه في هذا المجال وهو (**تدمير مصر بسبب سوء الإدارة الرومانية**) [12]، أوضح فيه مدى مسؤولية الرومان عما لحق بمصر من تدهور وانحطاط.

رابعاً : النظام الاجتماعي :

يذكر المؤرخ اليهودي **يوسيفوس**، **أن سكان مصر في عهد الإمبراطور نيرون كان يصل عددهم إلى سبعة ملايين ونصف** [13]. **وكان يوجد في الإسكندرية ما يقارب نصف مليون بحيث يصبح مجموع السكان ثمانية ملايين نسمة تقريباً.** ولكن هذا الرقم لم يكن ثابتاً، وإنما كان يتغير مع تغير الظروف زيادة أو نقصاناً.

---

(11) ***ROSTOVTZEFF***, ROMAN EXPLOITATION OF EGYPT IN THE FIRST CENTURY A . D . JURNAL OF ECONOMIC AND BUSINESS HISTORY. VOL, 1, 1929 . PP . 355 FF .

(12) ***MILNE*** , THE RUINE OF EGYPT BY ROMAN MISMANAGEMENT. JRS V11, 1927. PP . 1FF.

(13) ***JOSEPHUS*** , BELL . JUD . II . 16 . 4 .

ويتألف النظام الاجتماعي في مصر من ثلاث فئات رئيسية :

١ - *فئة الرومان :*

وتأتي على رأس الهرم الاجتماعي في مصر، وتتكون من كبار الموظفين والجنود ورجال الأعمال والتجار، وهي فئة لم تكن كبيرة العدد بالنسبة لباقي السكان. وتتمتع هذه الفئة بكل الامتيازات مثل الإعفاء من الضرائب والخدمات الإلزامية، ويأتي الوالي الروماني على رأس هذه الفئة ويشغل هذا المنصب عادة لمدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام، وفي أحيان نادرة لمدة أربعة أعوام أو خمسة، ***ويتخذ من الإسكندرية هو ومعاونوه مقراً لهم باعتبارها عاصمة الولاية.***

وكان في مصر في عصر أوغسطس ما يزيد على ٢٢ ألفاً من الجنود الرومان، ولكن هذا العدد انخفض إلى نحو ١١ ألفاً في القرن الثاني الميلادي، وأفراد هذه القوات كلهم من المواطنين الرومان، بالإضافة إلى الفرق المساعدة، التي كان أفرادها من سكان الولايات، ولكن قياداتها تتألف من الضباط الرومان.

وكان من حق الجندي الذي يخدم في الفرق المساعدة، أن يحصل على المواطنة الرومانية بعد ٢٦ عاماً من الخدمة العسكرية. ولم يكن الرومان أسخياء في منح المواطنة الرومانية، رغبة منهم في الحفاظ على الفوارق بين الطبقات. ولكن في عام ٢١٢م، أقدم الإمبراطور **كركلا** على خطوة جريئة حين ألغى فجأة تلك الفوارق ومنح جميع سكان الإمبراطورية حقوق المواطنة الرومانية .

٢ - *فئة الإغريق واليهود :*

تنقسم هذه الفئة إلى شقين أساسيين ***الإغريق واليهود***. ***<u>أم فيما يخص السكان الإغريق،</u>*** فقد كانت توجد في مصر ثلاث مدن إغريقية : وهي (***<u>نقراطيس</u>***) في الدلتا، ثم مدينة (***<u>الإسكندرية</u>***) والمدينة الثالثة هي (***<u>بطلمية</u>***) في صعيد مصر. وفي عام ١٣٠م أضاف الإمبراطور (***هادريان***) مدينة رابعة هي (***<u>أنتينوبوليس</u>***) التي أقامها في مصر الوسطى.

وقد حصلت جميع هذه المدن على جميع الامتيازات، وكانت نظمها الاجتماعية في الغالب متقاربة فيما بينها وأهمها : ***تسجيل مواطنيها في قبائل وأحياء، وكذلك وجود مؤسسة (الجمنازيوم) التي كانت رمزاً من رموز المدينة الإغريقية، ووجود مجلس للشورى في كل مدينة باستثناء الإسكندرية التي لم تكن تتمتع بوجود هذا المجلس إلا في عهد الإمبراطور سيبتميوس سيفيروس.***

وقد تمتع مواطنو المدن الإغريقية ببعض الامتيازات في النشاط الاقتصادي، ***إذ أعفوا من دفع ضريبة الرأس، وكانوا يمتلكون أراضي زراعية في أنحاء متفرقة من مصر، وحق الإعفاء من الخدمات الإلزامية أينما أقاموا.***

وكان من حق المواطنين الإغريق أن يخدموا في الفرق العسكرية الرومانية، ويصبحوا بموجب هذه الخدمة مواطنين روماناً. أما غيرهم من السكان، فكان من حقهم الخدمة في الفرق المساعدة فقط، ولم يُمنح لهم حق المواطنة الرومانية إلا بعد خدمة ٢٦ عاماً كما ذكرنا سابقاً.

وبكل الأحوال، هذا يعني أن حقوق المواطنة الرومانية في المدن الإغريقية، كانت تقتصر على فئة محدودة، إذ لم يكن كل المقيمين يتمتعون بهذه المواطنة.

<u>أما فيما يخص الشق الثاني من السكان اليهود</u>، نلاحظ أن استقرار اليهود في مصر يعود إلى عصور قديمة، وقد انتشر اليهود في سائر أنحاء مصر، وكان لهم دور ملموس في كل جوانب الحياة، وخاصة في الإسكندرية، إذ شغل اليهود فيها بعض المراكز الإدارية المهمة. ويُعد الفيلسوف اليهودي (***فيلون***) من العلامات الثقافية البارزة في الإسكندرية في القرن الأول الميلادي.

وقد تزايد عدد اليهود في الإسكندرية، وأصبحوا يشغلون حيين أو أكثر من أحياء المدينة الخمسة، بعد أن كانوا يشغلون في السابق حياً واحداً هو الحي الرابع في الدلتا.

وكانت امتيازات اليهود بين أخذ ورد، وذلك بحسب الفتن التي قاموا بها في القرن الأول والثاني الميلاديين، فكانوا كثيراً ما يُحرمون من جميع امتيازاتهم، وعلى

الرغم من ذلك فقد ظل يهود مصر على ولائهم للرومان، حتى بعد تدمير الرومان لهيكل أورشليم. والمعبد اليهودي الرئيسي في مصر هو **معبد ليونتوبوليس** الذي تعرّض للنهب والتدمير، وأمر فسباسيانوس بإغلاقه نهائياً.

وقد فرضت السلطات الرومانية ضريبة سنوية على كل يهودي تُخصص للإنفاق على معبد **(جوبيتر)** كبير آلهة الرومان كعقاب لهم على تدميرهم هذا المعبد خلال إحدى ثوراتهم، وقد استمرت جباية هذه الضريبة حتى الانتهاء من إعادة بناء المعبد.

وكانت ثورات اليهود كثيرة ومتعددة، حتى اعتلاء الإمبراطور **(هادريان)** للعرش في عام ١١٧م، الذي قام بإخماد ثوراتهم، ولم يعودوا يشكلون مصدر قلق للسلطات الرومانية.

٣ - *فئة المصريين* :

تقبع هذه الفئة في قاعدة الهرم الاجتماعي، وتشكل سكان مصر من المزارعين والحرفيين وصغار الملاّك والتجار، أي أن الغالبية العظمى من الشعب التي كانت تلقى معاملة جائرة من الإدارة الرومانية، ويُطلق عليهم أجمالاً (المصريون). وكانت هذه الصفة تُطلق على سكان الريف سواء أكانوا ينحدرون من أصول مصرية أو إغريقية، بعد أن فقد الإغريق والمقدونيون وضعهم المتميز الذي كانوا يتمتعون به في عصر البطالمة وأُنزلوا إلى مرتبة المصريين في عصر الرومان بحسب ما أشار إليه المؤرخ ***ليفيوس***[١٤]. ***وهذا ما أدى إلى زوال التفرقة بين المصريين والإغريق وانعدام الفجوة بينهم، فشاع الزواج بين الطرفين، وبشكل خاص في الريف.*** وعلى الرغم من هذا التمازج وانعدام الفوارق بين الطرفين، إلا أن السلطات الرومانية كانت حريصة على إبقاء الفوارق بين الفئات، فوضعت قوانين لتنظيم العلاقة بين الطبقات، تلك القوانين التي كانت جائرة بحق المصريين. حتى أصدر الإمبراطور كركلا قراره الشهير

---

(14) ***LIVY***, HIS . 38 . 37 .

في عام ٢١٢م، الذي قضى بمنح حقوق المواطنة الرومانية لكلّ رعايا الإمبراطورية، إلا أن مثل هذا القرار لم يكن يعني شيئاً جديداً للمصريين يؤثر في تطور حياتهم المستقبلية، ***إذ لم يُعفوا من دفع ضريبة الرأس، بل زادت عليهم الأعباء، فقد تقرر أن يدفعوا ضريبة جديدة، هي ضريبة الميراث التي كانت مقررة على المواطنين الرومان.***

وخلاصة القول، أن الفوارق بين هذه الفئات كانت واسعة جداً، والحدود الفاصلة بينها كانت عريضة بحيث كان من المستحيل أن يتمكن فرد من القفز إلى طبقة أعلى، إلا في حالات استثنائية، وبإذن خاص من الإمبراطور شخصياً، وكان بعض أثرياء الإسكندرية، والشخصيات البارزة في المدينة يكافؤون بمنحهم المواطنة الرومانية لكونهم موالين للرومان[١٥].

(١٥) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٩١- ٣٢١.



البحث التاسع عشر

بلاد الشام في العصر الروماني

أولاً : بدايات التدخل الروماني في الدولة السلوقية :

حدث أول اتصال على المستوى الرسمي بين روما والدولة السلوقية عام ٢٠٠ ق.م ، إذ أرسل السناتو بعثة رومانية لزيارة كلٍ من البلاط السلوقي والبطلمي. وكان الهدف الحقيقي من هذه الزيارة، ***هو الوقوف على نوايا الدولتين في حالة نشوب الحرب بين روما وملك مقدونية فيليب الخامس، وتحذير الملك السلوقي أنطيوخس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق.م) بعد أن قام بالاستيلاء على جوف سورية وفينيقية.*** ولكن عندما نشبت الحرب بين روما وفيليب، انتهز أنطيوخس الثالث الفرصة، وانقض في عام ١٩٩ ـ١٩٨ ق.م على ممتلكات برجامة أثناء غياب ملكها ***أتاللوس*** عندما كان على رأس قواته في بلاد اليونان لمساعدة الرومان في حربهم ضد مقدونية. وقد عدّ الرومان هذه الخطوة غير المسوّغة من قبل أنطيوخس خرقاً واضحاً لمبدأ الحياد. مما دفع السلطات الرومانية إلى تقديم احتجاج ضد هذا التصرّف، فاستجاب أنطيوخس وانسحب على الفور، وربما يكون هذا الانسحاب الفوري، ***قيام القائد البطلمي سكوباس (SCOPAS) بمهاجمة القوات السلوقية في جوف سورية، ولكن أنطيوخس لم يلبث أن نجح في طرده وإعادة الأمور إلى نصابها السابق.***

وفي عـام ١٩٦ ق.م، أرسـل الرومـان بعثـة إلى أنطيـوخس لكـي يطلبـوا منـه التوقف عن معاداة مصر، ولكن أنطيوخس أجابهم بأن السلام قد تحقق بين البلـدين، ***وتم توقيع معاهدة تزوج بمقتضاها ملك مصر من كليوباترة ابنة أنطيوخس.*** ولكن من جهة أخرى خرق أنطيـوخس المعاهـدة بينه وبـين جزيـرة رودوس في آسـية الـصغرى، حيث قام بالاستيلاء على مدينة ***إفسوس*** وحاصر مـدينتي ***أزمير ولامباسكوس***، مما دفعهما إلى طلب النجدة من روما، ثـم واصـل تقدمـه واسـتولى عـلى بعـض ممتلكـات فيليب، وأعقب ذلك بعبوره مضيق البوسفور والاستيلاء على إقليم تراقيـة في بـلاد اليونـان بأكملـه، وعقـد ***مجلـس الآيتـوليين*** اجتماعـاً أكـد فيـه تأييـده لأنطيـوخس، واختياره قائداً أعلى للحلف. ***وقد فاجأت هذه الخطوة الرومان لأنه لم يكـن لـديهم قـوات في بـلاد اليونـان تـستطيع التـصدي لأنطيـوخس، فقـاموا بتوجيـه إنـذار إلى أنطيوخس وطالبوه فيه التخلي عن الممتلكات البطلمية والمقدونية التي استولى عليها، وبعدم التدخل في شؤون المدن اليونانية الحرة.***

وأصـبحت رومـا عـلى يقـين مـن أن خلافاتهـا مـع أنطيـوخس لم تحـسم إلا في ميدان القتال، وأصبحت الحرب على الأبواب، إذ بدأت عملياتهم العسكرية في ربيـع عام ١٩٠ ق.م، وأرسلوا قوات كبيرة إلى بلاد اليونان لم يتوقعهـا أنطيـوخس، وتمكّـن الأسـطول الرومـاني مـن إحكـام الـسيطرة عـلى بحـر إيجـة ممـا أدى إلى إحـراج موقـف أنطيوخس بعد أن انفضّ عنه حلفاؤه عن مساعدته وعقدوا الـصلح مـع الرومـان، ممـا دفـع أنطيـوخس إلى طلـب الـصلح، وعـرض عـلى الرومـان أن يـدفع لهـم نفقـات الحرب، فرفضوا هذا العرض بسبب نياتهم في تدمير الدولة السلوقية، ***وعرض القائد الروماني (سكبيو) شروطاً جائرة لم يكن في وسع الملك السلوقي أن يقبلـها، مثـل الانسحاب الكامل من آسية الصغرى حتى جبال طوروس.***

أدرك أنطيوخس أن الحرب واقعة لا محالة، وأخـذ يـستعد للمواجهـة الحاسـمة، وأخذت الـولايات الـسلوقية تُرسـل كـل مـا تـستطيع إرسـاله مـن رجـال وعتـاد، حتـى أصـبح جـيش أنطيـوخس مـن حيـث العـدد يبلـغ ضـعف القـوات الرومانيـة. والتقـى

الطرفان في عام ١٨٩ ق.م عند مدينة ***ماجنيسيا*** ((***MAGNESIA***، ***ولقي أنطيوخس في هذه المعركة هزيمة ثقيلة خسر فيها ٥٠ ألفاً من جنوده، وهرب إلى سارديس ثم إلى أباميا***، واضطر إلى قبول صلح مهين تم توقيعه في عام ١٨٨ ق.م ***هو صلح أباميا، تعهد فيه أنطيوخس بالتخلي عن جميع ممتلكاته في آسية الصغرى وبلاد اليونان، وبأن يدفع تكاليف الحرب، وأن يسلّم أسطوله والفيلة التي يمتلكها، وكذلك تسليم هانيبال القرطاجي، وعشرين رهينة من بينهم ابنه أنطيوخس***. وكان هانيبال يتوقع أن تكون مسألة تسليمه من أهم الأمور التي يسعى إليها الرومان، فبادر بالهرب، واستقر به المقام لاجئاً عند ملك **بيثينيا** لبعض الوقت. غير أن الرومان أخذوا في ملاحقته، فما كان منه إلا أن تجرّع السم في عام ١٨٣ ق.م حتى يُحرم الرومان من لذة القبض عليه وإذلاله[1]. ***وتنفيذاً لبنود الصلح تم تسليم الأسطول السلوقي والفيلة، مع الاحتفاظ بعشر سفن فقط، كما تسلّم الرومان الرهائن الذين نص عليهم الاتفاق، وكان من بينهم الابن الأصغر للملك السلوقي والمدعو أنطيوخس أيضاً، وكان هؤلاء الرهائن يجري تغييرهم في كل حين.***

ثانياً: العلاقات الرومانية السلوقية في عهد خلفاء أنطيوخس الثالث:

بعد وفاة أنطيوخس الثالث تولى العرش ابنه سلوقس الرابع (**فيلوباتور**)، إلا أنه اغتيل، وتولى العرش من بعده أنطيوخس الرابع (***أبيفانس***) وهو شقيق سلوقس الرابع وابن أنطيوخس الثالث.

---

(١) عندما أحس الملك السلوقي بأن الصراع بينه وبين الرومان أمر لا مفر منه، أخذ يحسّن علاقاته مع جيرانه، واستقبل في بلاطه في أفيسوس القائد القرطاجي ***هانيبال*** بعد هزيمته في موقعة زاما عام ٢٠٢ ق.م، لكي يضع خبرته في حرب الرومان تحت تصرّف أنطيوخس. وتشبه نهاية هانيبال إلى حد كبير نهاية كليوباترة السابعة ملكة مصر، التي تجرّعت السم حتى لا تقع في أيدي الرومان. ***وكان هانيبال وكليوباترة أكثر الشخصيات التي أثارت الرعب في قلوب الرومان.***

والواقع أن نشأة أنطيوخس الرابع في روما عندما كان رهينة لديهم، جعلته يرتبط بصداقات حميمة مع الكثيرين من أبناء العائلات الأرستقراطية[٢]. ***وأعلن ولاءه وصداقته للرومان من حيث الشكل، أما من حيث الموضوع فلم يكن يحمل في نياته أية مودة حب للرومان،*** وأخذ يسعى للتحالف مع **برسيوس** الذي ورث عن أبيه فيليب العرش المقدوني، والذي كان بدوره أيضاً يكنّ كرهاً واضحاً للرومان. وقد أدرك الرومان هذا التحالف، إلا أن أنطيوخس الرابع، أكّد لهم صداقته، ولكن أخذ في السر يعمل على بناء سفن جديدة، وكان ما يزال يحتفظ بعدد من الفيلة في أباميا.

وعندما تجمعت نذر الحرب بين برسيوس وروما، وبعد وفاة كليوباترة في عام ١٧٣ ق.م، وهي شقيقة أنطيوخس وتحكم مصر وصية على ابنها بطليموس السادس (**فيلوميتور**)، بعد وفاة زوجها بطليموس الخامس، سيطر على البلاط البطلمي رجال يضمرون الكراهية للدولة السلوقية وعلى رأسهم **يولايوس وليناليوس**، وكان هذا الأخير في الأصل من أبناء جوف سورية. وحاول الاثنان في عام ١٧٠ - ١٦٩ ق.م **بغزو جوف سورية**، ولكن أنطيوخس الرابع تمكن من هزيمتهم، وأصبح هو بدوره على أبواب مصر، وقبض على بطليموس السادس وأبقاه لديه، ولكنه اضطر لفك الحصار الذي ضربه حول الإسكندرية، وعاد إلى سورية محملاً بالغنائم بعد أن أرسل معظمها إلى الرومان ليؤكد صداقته لهم، وأعاد بطليموس السادس إلى الإسكندرية. وعلى الرغم من ذلك، فإن أنطيوخس لم يستطع كبح جماح رغبته في العودة إلى مصر، ***فقام بغزوها مرة أخرى في عام ١٦٨ ق.م، أثناء خوض الرومان آخر معاركهم مع برسيوس وهي معركة بيدنا (PYDNA) في العام نفسه، والتي انتصروا فيها على الملك المقدوني، وفقدت مقدونية سيادتها إلى الأبد،*** وأصبح لدى الرومان منطلقاً واسعاً للتعامل مع الأحداث في مصر، وأخرجوا أنطيوخس الرابع منها بصورة مهينة، إضافة إلى إخراجه من قبرص.

---

(2) ***POLIB*** , XXI , 16 , A PP. SYR . 36 .

وعلى الرغم من اللطمة التي وجهها الرومان إلى أنطيوخس الرابع، فإنه ظل حريصاً على إظهار الود تجاههم، ووجه إليهم الدعوة للمشاركة في مهرجانات (**دافني**) التي ذكرناها سابقاً، وقد قبل السناتو الروماني الدعوة، وأرسل وفداً رومانياً إلى إنطاكية واستقبل استقبالاً بالغاً يليق بالملوك، إضافة إلى ذلك أقام أنطيوخس الرابع معبداً للإله (**جوبيتر**) كبير آلهة الرومان في إنطاكية.

وبعد وفاة أنطيوخس الرابع في عام ١٦٣ ق.م، تولى العرش ابنه أنطيوخس الخامس (**يوباتور**) وكان ما يزال طفلاً، تولى الوصاية عليه ***لوسياس*** (***LYSIAS***). وقد انتهز الرومان حالة الضعف التي سيطرت على الدولة السلوقية، وأرسلوا بعثة تفتيشية في عام ١٦٢ ق.م للتأكد من تطبيق نصوص صلح أباميا.

وكان الهدف غير المعلن من هذه البعثة كما يقول بوليبيوس[٣]، الاطمئنان على أن تظل الدولة السلوقية ضعيفة، وألا تشكل خطراً على المصالح الرومانية، وتدمير الأسطول الذي شرع في بنائه أنطيوخس الرابع، والقضاء على الفيلة. وبينما كان أفراد البعثة في ميناء اللاذقية يستعدون للسفر إلى مصر، أو الأشراف على إحراق سفن الأسطول السلوقي، اغتيل أحد أعضاء البعثة ويدعى (***أوكتافيوس***) وذلك نتيجةً لمشاعر الغضب التي سيطرت على الشعب في سورية جرّاء التدخل الروماني في شؤون بلادهم، وهرول باقي أعضاء الوفد إلى مغادرة سورية على الفور.

ولكن القصر في إنطاكية أدرك أبعاد الموقف، وسارع **لوسياس** إلى إقامة جنازة مهيبة ***لأوكتافيوس***، وأعلن للسناتو الروماني براءته من تهمة قتل ***أوكتافيوس***، ولكن من المرجح أن السناتو، كان قد اتخذ قراراً بشأن ***لوسياس*** وحاشيته[٤].

ثالثاً: العلاقات الرومانية السلوقية في عصر ديمتريوس (المنقذ)

يُعد **ديمتريوس** الابن الأكبر لسلوقس الرابع، وكان يرى أنه الأحق بتولي العرش السلوقي، وهو الحق الذي سلبه إياه عمه أنطيوخس الرابع، وحين علم

(3) ***LIVY***. XL, 11. 6.

(4) ***POLIB***, XXX, 19. 1 f.

ديمتريوس بوفاة أنطيوخس الرابع ، تقدم إلى السناتو طالباً مساعدته في الحصول على حقه المشروع ، كون ***ديمتريوس*** رهينة لديهم في روما ، وكان آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره. وكان الرومان يرون على حد قول ***بوليبيوس***[٥] ، أن وجود طفل صغير على العرش السلوقي ، أفضل كثيراً من وجود شاب طموح على هذا العرش ، وحتى لو كان صديقاً لهم. وخلال فترة وجود ***ديمتريوس*** في روما كرهينة وترعرعه بين أبناء العائلات الأرستقراطية ، ***أتاحت له الفرصة أن يتعلم في أعظم مدرسة سياسية في العالم وهي مدينة روما*** ، إذ كان على اتصال دائم بالكثيرين في روما ، وعلى رأسهم أعضاء البعثات الدبلوماسية والمثقفين الإغريق وعلى رأسهم ***بوليبيوس*** الذي كان سياسياً إغريقياً ، وصاحب خبرة واسعة ، وكان مثله مثل ***ديمتريوس*** رهينة لدى الرومان.

وكانت مشكلة ***ديمتريوس*** في تولي العرش ، هي كيفية هروبه من روما. وقد ساعده في هذه المشكلة ***بوليبيوس*** الذي دبّر خطة محكمة لتهريب ***ديمتريوس*** الذي هرب عن طريف ميناء ***(أوستيا)*** على متن إحدى السفن القرطاجية ، ولم يشعر الرومان بهروبه إلا في اليوم الخامس. وقد توقع السناتو أن يؤدي هروب ***ديمتريوس*** إلى وقوع اضطرابات في سورية ، لذلك بادر بإرسال بعثة برئاسة ***تيبيريوس جراكوس لمراقبة الموقف***[٦].

وعند وصول ديمتريوس إلى ميناء طرابلس في فينيقية ، أعلنت القوات السلوقية في إنطاكية تأييدها له ، وألقى الجنود القبض على أبني أنطيوخس الرابع ولوسياس وتم إعدامهما ، وارتقى ديمتريوس العرش رسمياً في عام ١٦٢ ق.م.

وفي عام ١٦٠ ق.م ، حصل ديمتريوس على اعتراف الرومان به ملكاً سلوقياً ، وكهدية شكر لهم مقابل اعترافهم به ملكاً ، أرسل ديمتريوس بعثة إلى روما حملت

---

(5) ***IBID*** , XXXI , 12 .

(6) ***IBID*** , XXXI , 20 - 30 .

معها تاجاً من الذهب. وذلك في إطار رغبة ديمتريوس في استرضاء الرومان. ولم يكتف ديمتريوس بذلك، بل قام بتسليمهم قاتل المبعوث الروماني (***أوكتافيوس***)، إضافة إلى ذلك تسليمه إحدى الشخصيات العلمية البارزة وهو (***إيسوقراط***) معلم الخطابة والبلاغة، الذي كان قد أعلن تأييده وتمجيده قاتل المبعوث الروماني. ***وهذه كلها دلائل واضحة عن أن أيام استقلال الدولة السلوقية أصبحت معدودة، وأن سورية بسبيلها لأن تصبح ولاية رومانية.***

وقع ديمتريوس في صراع عنيف مع الإسكندر بالاس، وهو أحد أبناء أنطيوخس الرابع وكان حينئذ في آسية الصغرى، الذي كان يدّعي أحقيته في العرش السلوقي، وكان يكره ديمتريوس، وأخذ يعد العدة لغزو سورية، وراح يجمع القوات بدعم من روما، ونجح في الاستيلاء على مدينة (**بطوليس**) في عكا الساحلية، وأصبح في البلاد ملكان يسعى كلٍ منهما إلى الحصول على المزيد من الأنصار، وانتهى الأمر بمصرع ديمتريوس في معركة مع قوات الإسكندر في عام ١٥٠ ق.م، وذلك بعد أن قام ديمتريوس بإرسال ولديه ديمتريوس الثاني وأنطيوخس خارج البلاد إلى آسية الصغرى.

عندما بلغ ديمتريوس الثاني سن الرابعة عشرة، رأى الأوصياء عليه أنه قد آن الأوان لكي يعود إلى عرش أبيه، فقاموا بتجنيد مرتزقة من جزيرة كريت وبعض الجزر اليونانية الأخرى للزحف على سورية، واستطاع ديمتريوس الثاني أن يهبط في أرض أجداده في عام ١٤٨-١٤٧ ق.م، في حين كانت كراهية الناس للإسكندر بالاس قد وصلت إلى ذروتها، إذ لم يلبث أهل إنطاكية أن ثاروا عليه وطردوه من مدينتهم، فيمم وجهه شطر آسية الصغرى، وعرضوا على ديمتريوس الثاني بقبول العرش.

وتلا اعتلاء ديمتريوس الثاني للعرش حالة من الاضطراب، وشهدت مدينة إنطاكية أحداثاً دامية، فقد عاث المرتزقة الكريتيون في المدينة فساداً، مما أدى إلى ثورة أهل إنطاكية، واضطر ديمتريوس الثاني إلى الاستعانة باليهود لإخماد ثورة الإنطاكيين. وقد استغل بعض رجال البلاط الذين خدموا في عهد الإسكندر بالاس حالة السخط

الذي سادت الناس ضد ديمتريوس الثاني، فأرسلوا في استدعاء الطفل أنطيوخس، الذي كان أبوه الإسكندر بالاس قد تركه أمانة لدى أحد شيوخ العرب، وأعلنوا أحقيته في تولي العرش السلوقي، وانتهى الأمر بدخول أنطيوخس إلى إنطاكية وإعلانه ملكاً باسم أنطيوخس السادس، وفرار ديمتريوس الثاني إلى مدينة سلوقية على مصب العاصي، وأصبح يوجد ملكان في الدولة في آن واحد[٧].

وكان الرومان من مصلحتهم استمرار حالة الاضطراب والصراع المستمر على العرش في سورية، وهذا أمر يتفق وسياستهم التي تهدف إلى إبقاء الدولة السلوقية في حالة التفكك والضعف. وفي إنطاكية أنفرد الوزير (**تريفون**) بالسلطة، بعد مقتل الملك الصغير أنطيوخس السادس في عام ١٤٣ ـ ١٤٢ ق.م[٨]، وأعلن نفسه ملكاً بعد أن حصل على اعتراف الرومان، ***وذلك بطريقة سحرية بأن أرسل هدية وهي عبارة عن تمثال من الذهب لربة النصر، باعتقاده أن رجال السناتو تسيطر عليهم النزعة الدينية، وسوف يكون من غير اللائق بالنسبة لهم أن يرفضوا تمثال الربة، ولكن أعضاء السناتو خيبوا آمال (تريفون)، فقد قبلوا الهدية باعتبارها في الأصل هدية الملك الراحل أنطيوخس السادس***[٩].

وأمام الصراع العنيف الذي واجهه **تريفون** من قبل ديمتريوس الثاني وأنطيوخس الابن الأصغر لديمتريوس الأول، أخذ أنصار (**تريفون**) ينفضّون من حوله وانتهى به الأمر إلى الانتحار، وأصبح أنطيوخس ابن ديمتريوس الأول ملكاً على سورية، تحت اسم أنطيوخس السابع (**سيدتيس**) (١٣٨ - ١٢٩ ق.م) الذي ما لبث أن قضى نحبه على يد البارثيين.

ومنذ مقتل هذا الملك حتى احتلال الرومان سورية في عام ٦٤ ق.م سادت سورية مظاهر الضعف والتردي. ففي الفترة ما بين عامي ٩٦ ـ ٨٤ ق.م تعاقب على العرش ستة ملوك، وإزاء هذه الاضطرابات والانقلابات التي شهدتها سورية، فلا

---

(٧) انظر: مفيد العابد، ص ١٣٦.

(8) ***APP. SYR*** . 68 .

(9) ***DIOD***, XXXIII , 26 A .

عجب أن فكر أهل سورية في اللجوء إلى قوة خارجية، تكون قادرة على تحقيق الاستقرار، فشخصت أبصارهم إلى ***تيجرانيس*** ملك أرمينية (***كما ذكرنا سابقاً***) الذي أرسل جيشاً في عام ٨٣ ق.م إلى سورية ونجح في الاستيلاء على إنطاكية، إلا أنه بعد ذلك آثر الانسحاب من سورية في عام ٦٩ ق.م، عندما علم بتقدم القوات الرومانية باتجاه أرمينية بقيادة ***لوكللوس*** قنصل عام ٧٤ ق.م. وعلى إثر ذلك دفع الرومان أحد الأمراء السلوقيين لتولي العرش وهو ***أنطيوخس الثالث عشر وعُرف بالآسيوي (ASIATICOS)*** الذي انشغل في صراعات لا حد لها بعد ظهور العديد من المطالبين بالعرش السلوقي[١٠].

وفي عام ٦٤ ق.م وصل إلى سورية القائد الروماني (***بومبيوس***) لكي يضع حداً لمشاكل الصراع على العرش السلوقي، ولكي يقوم بتسوية الأحوال في الدولة السلوقية باسم روما. ***وكان الهدف الأول لبومبيوس هو إقامة حكومة قوية تكون قادرة على حماية المدن الإغريقية في سورية.*** وبناءً على ذلك قرر ***بومبيوس*** عدم إعادة الأسرة السلوقية إلى العرش استجابة لطلب أهل إنطاكية الذين ملوا من الصراعات بين أبناء الأسرة السلوقية، فاستجاب لهم ***بومبي*** وقرر في آخر المطاف تحويل سورية إلى ولاية رومانية في عام ٦٤ ق.م، ***وهكذا توارت الدولة السلوقية من على مسرح التاريخ، واختفت في زوايا النسيان***[١١].

رابعاً: بلاد الشام في العصر الروماني:

١- سورية في عهد بومبيوس (POMPEIUS) (٦٤ - ٤٩ ق.م):

يعتبر الإطار الجغرافي لبلاد الشام شاملاً لكلٍ من (***سورية، لبنان، فلسطين، الأردن***) وقد استخدم الجغرافيون العرب في العصور الوسطى اسماً موحداً لهذا

---

(10) ***APP. SYR*** . 49 .

(١١) انظر: ***أبو اليسر فرح***، ص ٢٢٣ - ٣٤٦.

الإطار الجغرافي باسم (***بلاد الشام أو سورية الكبرى***) التي تعتبر إقليماً من أقاليم الجزيرة العربية في مصادر الجغرافية العربية.

لقد حاولت روما إخضاع منطقة الشرق الهللينستي لسيطرتها بشتى الوسائل والأساليب، وخاصة بعد ***معركة ماجنيسيا*** في عام ١٨٩ ق.م، وعلى رأس هذه الأساليب سياسة ***فرّق تسد*** (***DIVIDE ET IMPERIA***) بين الدول الهللينستية بهدف منعها من تشكيل جبهة موحدة قوية ضدها، وشجعت في سبيل ذلك، الصراعات والتناقضات فيما بينها ودعَمت حركات التمرّد والانفصال في تلك الممالك بهدف إضعافها وجعلها لقمة سائغة أمام الأطماع الرومانية. وقد اعتبرت روما سورية منطقة مهمة لحماية نفوذها ومصالحها في الشرق، ولا سيما المصالح التجارية، ***فلذلك كان اهتمام بومبيوس على الشريط الساحلي الذي يمتد من خليج الإسكندرونة إلى تخوم مصر، إذ كانت تقع عليه أهم المدن التي كانت تشكّل مراكز الفعاليات البشرية والاقتصادية، إضافة إلى موقع سورية الإستراتيجي، كانا سببين أساسيين من أسباب احتلال روما لسورية، إلى جانب مشكلة القرصنة التي ظهر خطرها بشكل واضح بالنسبة لروما وسورية.*** فلذلك كان الاهتمام الأول ***لبومبيوس*** هو القضاء على القراصنة في معاقلهم في كيليكية والجزء الشمالي الغربي من سورية المحيط بإنطاكية. ***وبذلك كانت القرصنة من أسباب تدخل روما، إلا أن السبب المباشر هو ضعف السلوقيين الذي سمح لتيجرانس ملك أرمينية بالتدخل في سورية***(١٢).

باحتلال ***بومبيوس*** لسورية حلت ***ولاية سورية*** (***PROVINCIA SYRIA***) محل مملكة سورية السلوقية، وأبقى ***بومبيوس*** عاصمتها إنطاكية ومنحت حكماً ذاتياً، كما هو الحال في سلوقية بيريه. بينما ترك ***بومبيوس*** الاستقلال الذاتي لبعض الأقاليم

---

(١٢) مجموعة المدن العشر هي مجموعة من المدن الهللينستية التي تقع حول بحيرة طبرية وعلى ضفاف نهر الأردن وهي على الأغلب ***سكيتوبوليس (بيت راس حالياً)، وهيبوس (قلعة الحصن)، وجدارا (أم قيس)، وقنوات في محافظة السويداء، وجيرازا (جرش)، وديوم (الحصن)، وفيلادلفيا (عمان)، وبللا (طبقة فحل)، ودمشق.***

المتحالفة مع روما مثل ***مملكة كوماجيني (COMMAGENE) في الشمال (ما بين الفرات وجبال طوروس) وحمص (EMESA) في الوسط، ومجموعة المدن السورية المتأغرقة في الداخل التي تسمى بمجموعة المدن العشر (DECAPOLIS) وتُعرف هذه المدن بجوف سورية***[١٣]. ولكن ذلك لم يكن دون مقابل، إذ يتوّجب عليهم دفع الضرائب التي تترتب عليهم، وهي ضريبة تعادل عشر محصول الأرض (***DECUMA***) وطالب الأمراء وكبار الكهنة والملوك في البلاد التابعة أن يدفعوا جزية معينة (***STIPENDIUM***) وترك أمر جباية الضرائب في يد الملتزمين (***PUBLICANI***).

وكان أول والي روماني على سورية في عهد بومبيوس ***أولوس غابينوس (AULUS GABINUS)*** (٥٧ - ٥٥ ق.م) وهو أول قنصل سابق (***PRO CONSUL***) يتولى إدارة سورية، وأعطي صلاحيات واسعة، فقام بعدة أعمال تنظيمية، **حيث *جرّد هركانوس الكاهن الأعظم في أورشليم من لقب الملكية، وأبقى له لقب الكاهن الأعظم، وانتزع كل ما كان له من سلطة سياسية على المناطق الفلسطينية التابعة له، وحدّد نفوذه على النواحي الدينية فقط.*** وكانت ***لغابينوس انتصارات عسكرية على اليهود والأنباط، وإصلاحات اقتصادية*** من حيث وقوفه في وجه جباة الضرائب، وإعادة الحقوق لأصحابها المحرومين منها، وأعفى مدناً كاملة من الضرائب مثل صور، وإعادة بناء بعض المدن الهللينستية التي هدّمها اليهود المكابيون، واهتم ببعض المدن مثل (***قنوات***) التي ازدهرت وتوسعت في عهده وشملت أراضيها جزءاً كبيراً من جبل العرب، وعرفاناً باهتمامه بها حملت لقب ***غابينا (GABINA)*** خلال فترة قصيرة، واهتم أيضاً بالقضاء على القرصنة التي نشطت في عهده، وذلك بسبب غيابه عن سورية عندما ذهب إلى مصر لمساعدة بطليموس الزمار للعودة إلى عرشه في العام ٥٥ ق.م. وعند عودته وجهت إليه تهمة الخيانة العظمى لتركه ولايته ودخوله مصر بقوات عسكرية من دون استئذان السلطات الرومانية، فاستدعي إلى روما لكنه بريء من تهمة الخيانة، إلا أنه تعرّض لتهمة الابتزاز التي حكم عليه بموجبها بغرامة

---

(١٣) انظر : ***عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني***، دار النهضة، بيروت ١٩٧٣، ص ٨٩.

كبيرة لم يستطع دفعها مما أدى إلى نفيه، حيث يُذكر أن سخّر أعماله لمصلحته الشخصية، ولعل ما ساعده على ذلك منحه صلاحيات واسعة أو الظروف التي أحاطت به.

وخلف ***غابينوس*** في حكم سورية ***ليكينيوس كراسوس (LICINIUS CRASSUS)*** (٥٤-٥٣ق.م)، وكان ***كراسوس*** عضواً في التحالف الثلاثي مع كلٍ من ***بومبيوس ويوليوس قيصر***، وحصل في عام ٥٥ ق.م على ولاية سورية لمدة خمسة أعوام. تصدى كراسوس للبارثيين، وذلك لكي يدعم مركزه في روما ويضمن لنفسه مكاناً مساوياً ولو بشكل نسبي مع بومبيوس وقيصر في المعركة التي خاضها مع البارثيين في ***حرّان*** (***GARRHAE***) وهو موقع في شمالي سورية عند منابع نهر الخابور جنوب مملكة الرها (***أورفة حالياً في تركيا***)، ولكنه أخفق فيها وقُتل مع ابنه، ووقع معظم أفراد جيشه في الأسر، وهذا مما شجع البارثيين على مهاجمة إنطاكية في العام ٥١ ق.م، إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها على يد ***كاسيوس لونغينوس*** (٥٣ - ٥١ق.م) خليفة كراسوس الذي أوقف محاولات البارثيين لاجتياز الفرات، وأخمد نار الفتنة التي أوقدها اليهود في أورشليم بسبب هزيمة كراسوس، وتحصّن في إنطاكية حيث عجز البارثيون عن الاستيلاء على المدينة.

وبموت ***كراسوس*** اتضح العداء السافر بين ***يوليوس قيصر وبومبيوس***، حيث نشبت الحرب الأهلية في روما، ***وانقسم سكان سورية إلى قسمين بين مؤيد لقيصر، وآخر لبومبيوس.*** ولكن بعد خسارة بومبيوس في معركة ***فرسالوس*** (***PHARSALUS***) عام ٤٨ ق.م أمام قيصر، أعلنت إنطاكية تأييدها لقيصر بعد فرار بومبيوس من بلاد اليونان إلى مصر، إلا أنه قُتل بمجرّد وصوله إليها، واكتسبت إنطاكية على إثر ذلك بعض الامتيازات بعد انتصار يوليوس قيصر، وقدّم العرب الأنباط فرقة من الفرسان إلى يوليوس قيصر لتساعده في حملته على الإسكندرية في العام ٤٧ ق.م عندما وصل مصر لملاحقة خصمه بومبيوس.

٢ - سورية في عهد يوليوس قيصر *(IULIUS GAESAR)* (٤٨-٤٤ق.م) :

أصبحت **سورية** بعد معركة (***فرسالوس***) تابعة لقيصر الذي قام بتنظيمات إدارية ومالية عامة في الشرق وخاصة في سورية، وقد أصدر عدة قوانين في هذه المجالات أهمها : ***تخفيض الضرائب في الولايات الشرقية التي أثقلت كاهلها مطالب بومبيوس، ونقل حق جباية الضرائب من يد الملتزمين الرومان إلى الحكومات المحلية، وشدّد على الولاة بمنع التعسف بحق الأهالي، واستبدل ضريبة العشر بضريبة ثابتة على الأراضي.*** واقتصرت ضرائب قيصر على الضرائب العادية التي كان يحصل عليها من الامتيازات المعطاة للمدن والممالك الدائرة في فلك الإمبراطورية الرومانية، وتوّج أعماله في مجال الإدارة المالية بإعلانه بدء تاريخ قيصر الجديد الذي أخذت به مدن عديدة.

أما فيما يخص سورية فقد قام قيصر بتوزيع الهبات والامتيازات على المدن التي ناصرته في حربه ضد بومبيوس، ما عدا صور التي ناصبته العداء، خلافاً لإنطاكية التي ناصرته، فكان لها النصيب الأكبر من الامتيازات، حيث وضع فيها حجر الأساس لمجموعة من الأبنية التي تحمل الطابع الروماني ومنحها الحرية، واتخذت إنطاكية التقويم القيصري بدل التقويم السلوقي الذي كانت تتبعه، وأبقى الممالك الجنوبية خاضعة لحكامها بما يشبه الاستقلال، وأطلق عليها اسم الممالك التابعة كأورشليم حيث أعلن **هيركانوس** الكاهن الأعظم نفسه حليف روما، وأعفيت المناطق الخاضعة له من تأدية الخدمة العسكرية، ووسعت سلطته التي فقدها في عهد سلفه غابينيوس حيث أعيدت له (***يافا***) وعدد من القرى في مرج ابن عامر، ***واعترف قيصر بكل المناطق الموالية له في حربه ضد بومبيوس كالأنباط، وحمص، والرستن، وعنجر، وبعلبك.***

ولكن الوضع في سورية كان لا يزال مضطرباً ومتوتراً، وتحولت إلى مسرح لانتفاضات نظمها أتباع بومبيوس مثل ***باسوس (BASSUS)*** الذي استطاع أن يحتل

(***أفاميا***)، وقد استمر هذا الوضع على هذه الحال حتى مقتل قيصر في عام ٤٤ق.م الذي أدى إلى تصعيد جديد للصراع السياسي في روما(١٤).

أما بالنسبة للولاة في عهد قيصر فقد تميز بالمؤامرات، لذلك لا توجد أعمال بارزة لهم في مجال الإدارة والتنظيمات الإدارية. ***فكان جهدهم منصرفاً للاستيلاء على حكم الولاية من جهة، ومحاربة البارثيين من جهة أخرى.*** ولكن الذي ميز تنظيمات قيصر في هذه الفترة بشكل واضح كانت في مجال الضرائب وجبايتها، حيث ألغى تنظيمات بومبيوس وعدّل قانون تعيين الولاة.

٣- سورية في عهد ماركوس أنطونيوس (MARCUS ANTONIUS) (٤٤- ٣٠ ق.م):

ساد الاضطراب في الإمبراطورية الرومانية عقب مقتل قيصر، ثم ما لبثت أن آلت السلطة إلى الحكومة الثلاثية الثانية المكونة من ***انطونيوس، ولبيدوس، وأوكتافيوس.*** وتم الاتفاق على تقسيم العالم الروماني بين ***أنطونيوس وأوكتافيوس***، ***وتقرر أن يسند إلى أنطونيوس مهمة إدارة الولايات الشرقية ومنها سورية، أما الولايات الغربية فقد أسندت إلى أوكتافيوس.*** وأثناء زيارة أنطونيوس لولاياته الشرقية في آسية الصغرى في صيف ٤١ ق.م ووجوده في مصر، استغل البارثيون فرصة غيابه وانشغاله عن سورية، فقاموا في أوائل عام ٤٠ ق.م باحتلال سورية وفينيقية ما عدا صور التي احتفظت باستقلالها، وكلف أنطونيوس قائده ***فنتيديوس*** (***VENTIDIUS***) بالتصدي للبارثيين، إلا أن الحملة باءت بالفشل.

ولكن الحدث الأبرز الذي أثر على سورية في تلك الفترة هو زواج أنطونيوس من كليوباترة السابعة ملكة مصر عام ٣٧ق.م في إنطاكية عندما زارته في مدينة طرسوس بولاية كيليكية في آسية الصغرى ودعته لزيارة مصر، وكانت كليوباترة ترغب بالحصول على جنوب سورية لأنه كان سابقاً تابعاً لمملكة البطالمة، وفعلاً

(١٤) ***STRABON*** . 16 . 2 . 10 – 12 .

أهداها أنطونيوس بعض مناطق سورية وفلسطين، واعترف بأبوّته لطفليها، إضافة إلى أنه أعطاها كيليكية. وفي عام ٣٤ق.م نادى أنطونيوس بكليوباترة ملكة الملوك، ووضع كامل سورية المجوفة (**COELE SYRIA**) تحت سلطتها، وقام بسك عملة في إنطاكية وعليها صورتها.

واتهم أنطونيوس ملك الأنباط ***مالك الأول*** بالتقارب مع البارثيين خلال اجتياحهم سورية عام ٤٠ق.م، الأمر الذي أدى به إلى معاقبة ملك الأنباط بدفع غرامة كبيرة وتقديم جزء من مملكته إلى كليوباترة التي تخلى لها مالك الأول في عام ٣٦ق.م عن الأراضي الممتدة من جنوب دمشق إلى شرقي الأردن، وأضاف أنطونيوس إلى هذه الأراضي جميع المدن الفينيقية الواقعة في جنوب النهر الكبير الشمالي ما عدا مدينتي صور وصيدا اللتين تمتعتا بأهمية كبيرة حالت دون إعطائهما لكليوباترة. وقد كلف أنطونيوس عامله اليهودي على فلسطين ***هيرودوس*** بإرغام مالك الأول على تأدية الغرامة لكليوباترة، وعندما رفض مالك الأول ملك الأنباط دفع الجزية إلى كليوباترة، أوعز أنطونيوس إلى **هيرودوس** بشن حرب على الأنباط، وجرت معارك متعددة بين الطرفين، أضطر الأنباط في نهايتها إلى دفع جزية إلى ***هيرودوس*** حاكم الولاية اليهودية.

وقد انعكست هذه الأحداث على سورية بشكل سلبي من خلال الضرائب الباهظة التي فرضها أنطونيوس لتغطية نفقات الرواتب والحرب. ولم يتوقف عند هذا الأمر بل قام بإرسال حملة لنهب أغنياء تدمر، وكان هذا أول صدام يُذكر بين روما وتدمر عام ٤١ق.م حَسب رأي المؤرخ ***أبيانوس*** (***APPIANUS***).

كل هذه الأحداث التي تعرّض لها أنطونيوس كزواجه من كليوباترة ومنحها بعض الأقاليم في الشرق الأدنى، وفشله في حملته ضد البارثيين، وفرض الضرائب العالية. كل ذلك مما أثار حفيظة الرومان ضده، وإلحاق المزيد من العار باسم روما في الشرق. وهذا ما أدى إلى توتر العلاقة بينه وبين أوكتافيوس، وانتهى الأمر بوقوع معركة (**أكتيوم**) في عام ٣١ق.م، والتي انتهت بهزيمة انطونيوس وانتصار أوكتافيوس.

٤ - سورية في عهد أوكتافيوس (أوغسطس)(AUGUSTUS)
(٣١ ق.م - ١٤م) :

يُعد عصر ***أوكتافيوس*** الملقب (***بأوغسطس***) عصر انتهاء الحروب الأهلية، وبدء عهد ***السلام الأوغسطي*** (***PAX AUGUSTO***) الذي ابتدأ بإصلاحات سياسية وإدارية منذ عام ٢٧ق.م، وتمكن ***أوغسطس*** من تنصيب نفسه حاكماً منفرداً على الإمبراطورية الرومانية. وتم في عهده تقسيم ولايات الإمبراطورية إلى قسمين : ***سناتورية التي يشرف عليها (السناتو) وإمبراطورية التي يشرف عليها الإمبراطور مباشرة.*** ونظراً للأهمية الإستراتيجية التي تتمتع بها سورية، فقد وضعت كمصر تحت إشراف الإمبراطور الروماني مباشرة(١٥). وذلك بمقتضى الاتفاق الذي تم بينه وبين السناتو في عام ٢٧ق.م، وظلت سورية تحت الإشراف الإمبراطوري المباشر حتى العام ١٩٤م(١٦). وأصبح يتولى إدارتها بعد قيام النظام الإمبراطوري في العام ٢٧ق.م مبعوث يدعى (***LEGATUS AUGUSTI PROPRAETORE***) في مرتبة قنصل سابق، ومساعد (***PROCURATOR***) من طبقة الفرسان يشرف على الشؤون المالية ويقوم الإمبراطور بتعيينه ويكون مسؤولاً أمامه ومقره العاصمة إنطاكية. وقد زاد ***أوغسطس*** عدد الفيالق في سورية من ثلاثة إلى أربعة فيالق، وذلك بسبب تهديدات البارثيين الدائمة للمنطقة، ومراقبة الممالك المستقلة ذاتياً، ***فرابطت أولاها بالقرب من كوماجيني، والثانية بالقرب من اللاذقية، والثالثة في وادي نهر العاصي بالقرب من إنطاكية.*** كما تم وضع كتائب في المناطق المهمة جداً كدورا أوروبوس وتدمر(١٧). وقام

---

(١٥) انظر : **روستوفتزف، م :** تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاقتصادي والاجتماعي، ترجمة زكي علي - محمد سليم سالم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٨٠ - ٨٥.

(16) ***EDWARD DABROWA*** : THE GOVERNORS OF ROMAN SIRIA FROM AUGUSTU TO SEPTIMIUS SEVERUS , BONN , 1998 , P 13 .

(17) ***REY COQUAIS , J , P*** : SYRIE ROMAINE DE POMPEE A DIOCLETIEN, JOURNAL OF ROMAN STUDIEUS 68 , LONDON , 1978 PP . 67 .

بزيارة سورية وشيّد فيها مباني ضخمة، خاصة في إنطاكية واللاذقية، ويُعد شارع إنطاكية الرئيسي من أهم الإنجازات التي تمت في عهده، إضافة لإنشاء حفل الألعاب (*KOINON*) عُرف فيما بعد باسم (*KOINON SYRIA*) حاول أوغسطس من خلاله ربط الولايات بروما عبر شخصه حيث شجع على عبادة الإمبراطور[١٨].

وتذكر الروايات، أن ***أوغسطس*** حرم كلاً من أفاميا وحمص من استقلالهما بسبب وقوفهما إلى جانب خصمه أنطونيوس، وأعدم ألكسندروس أمير إمارة حمص التي عزلها ***أوغسطس*** لمدة عشر سنوات، ثم أعادها للحكم بعد اقتناعه بأنه لا بد من وجود إمارة محلية في هذه المنطقة، وكان ذلك في العام ٢٠ ق.م، حيث أعادها هذه المرة إلى الأمير ***يامبليكوس الثاني*** (*IAMBLICHUS II*) الذي حكم ما بين (٢٠ -١٤ ق.م) وعدّت فترته عصراً ذهبياً للإمارة.

وأنشأ ***أوغسطس*** في سورية مستعمرتين هامتين وهما ***مستعمرة بيروت ومستعمرة بعلبك.*** وحملت **بيروت** في عهده لقب **جوليا فيلكس** (***JULIA FELIX BERYTUS***)[١٩]، واستدعى إليها أوغسطس في عام ١٥ ق.م فيالق عسكرية من المحاربين القدماء الرومان، وسكت نقودها باللغة اللاتينية، وكان لها دستور وساحة كبيرة (***FORUM***) ومجلس للمنطقة (***ORDO***) وحاكمون (***DUMVIRI***) إضافة إلى إنها تمتعت بالاستقلال الذاتي[٢٠]، وأعفاها من ضريبتي الأرض والرأس، وكان هذا أكبر امتياز يمنح أيام الإمبراطورية لحكومة محلية في ولاية رومانية.

ويعود سبب إنشاء ***أوغسطس*** لمستعمرة بيروت واهتمامه الكبير بها كما يرى المؤرخون، ***إما لأنها تمثل محور الاختراق المتوسط لسورية الداخلية، قاطعاً بلاد***

---

(١٨) انظر : ***محمد الزين، دراسات في تاريخ الرومان***، الجزء الثاني، دمشق ١٩٨٨- ١٩٨٩، ص ٦٦.

(١٩) انظر : ***شيفمان، آ، ش : المجتمع السوري القديم***، ترجمة حسان إسحق، منشورات مؤسسة الوحدة، دمشق، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢٠) انظر : ***لويس شيخو، بيروت تاريخها وآثارها***، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٩٣، ص ٥٢.

الأيتوريين [٢١] ***، الذين كانوا يمثلون خطراً حقيقياً على الرومان، وإما أن هذا المكان هو الأكثر ملاءمة للرومان لتأمين الاتصال بأهم مراكز العبادات المحلية وتحولهم من غرباء إلى جزء عضوي من سكان سورية.***

وفي حين بقيت بعض الممالك على استقلالها الذاتي في عهد ***أوغسطس***، إلا أن تدمر (***وهي عبارة عن واحة تقع في الصحراء وتمتد ما بين سورية وبلاد ما بين النهرين***) قد تمتعت بما يشبه الاستقلال الذاتي عن الإمبراطورية الرومانية في ظل حكم أسرة (***أذينة***)، ولكن الرومان مارسوا ضغوطاً كبيرة على هذه المملكة نظراً لموقعها الهام على الحدود بينهم وبين أعدائهم البارثيين.

أما ***مملكة الأنباط*** التي توجد في المناطق الجنوبية لولاية سورية، وامتد سلطانها إلى السواحل الشمالية للبحر الأحمر وعاصمتها (***البتراء***) فقد خضعت للرومان واضطرت لدفع الجزية لهم في عهد ملكها (***الحارث الثالث***). إلا أن ***أوغسطس*** أقام عليها ملكاً آخر هو (***الحارث الرابع***) الذي دام حكمه من (٩ق.م ـ ٤١م) وتُعد فترته من أكثر الفترات النبطية ازدهاراً، وتشهد على ذلك الصروح العمرانية التي أشادها.

وفي عهد أوغسطس كان يحكم المملكة اليهودية ***هيرودوس*** (٣٧ - ٤ق.م) وكانت مملكته تغطي كامل فلسطين وأجزاء من لبنان وجنوب سورية، إضافة لما أخذه من ممتلكات كليوباترة في غور الأردن الجنوبي، وما أعطاه له أوغسطس بعض المناطق الأخرى. وكل ذلك بهدف خدمة الرومان، ***باعتبار أن هيرودوس كان يعمل على إحلال الأمن والسلام في المنطقة المضطربة، التي سببها بقاء اللصوصية مزدهرة في عهده، حيث كان اللصوص يفرضون (الخوة) على القوافل المتجهة نحو دمشق، إضافة إلى بعض الاضطرابات الداخلية كثورة حوران ضد الرومان عام ١٢ ق.م،***

---

(٢١) تضم إمارة ***الأيتوريين*** لبنان ولبنان الشرقي وعنجر وعرقة لبنان ووادي بردى، وقد ورد ذكر هذه الإمارة في إنجيل لوقا تحت اسم ***إيطورية*** (***الاصحاح الثالث، الآية الأولى***) وكان يحكمها ليزانياس. وهناك كتابات منقوشة في وادي بردى تشير إلى ذلك انظر :

REY COQUAIS, OP, CIT, P 48.

وسـببها المباشـر إقامـة الرومـان لمـستعمرة رومانيـة عـسكرية زراعيـة في بـاثيرا (BATHYRA) (بصير حالياً) فيما بين (٩ - ٦ ق.م). ولكن ما لبث أوغسطس بسبب الاضطرابات والشكاوى التي أثارها اليهود، أن ضم المملكة اليهودية إلى الرومان وأصبحت ولاية رومانية وذلك في العام ٦ ق.م. وتمتع الوالي الروماني في المملكة اليهودية بسلطة تعيين الكاهن الأكبر في أورشليم وخلعه، ونظر اليهود إلى أن خضوعهم للنظم الرومانية يشكّل نوعاً من العبودية، وثاروا على الحكم الروماني، إلا أن الحاكم الروماني تمكن من قمع تمرّد اليهود، وقرر إجراء تعداد لهم في عام ٦م وفرض الضرائب عليهم[٢٢].

ولكن لا بد من التنويه عن أهم خطر واجه الرومان وشغلهم جدياً عن أمور الحكم، ألا وهو ***خطر البارثيين*** الذي شغل الأباطرة والولاة على حد سواء. لكن ***أوغسطس*** تفادى هذا الخطر بأن عقد معاهدة سلام مع ملكهم (***فرآتس الرابع***) (٣٧ - ٢ق.م) وثبّت نهر الفرات حدوداً بين الإمبراطوريتين فحل السلام[٢٣]، ولكن ما لبث أن عاد التوتر من جديد واستمر من بعد ذلك فترة طويلة.

٥ - سورية في عهد تيبيريوس (TIBERIUS) (١٤ - ٣٧م) :

تولى ***تيبيريوس*** الحكم بعد أوغسطس، وقام خلال فترة حكمه بزيارة إلى سورية، وتابع سياسة سلفه أوغسطس في إقامة المنشآت العمرانية، فأقام الشارع العظيم في إنطاكية بأروقته الضخمة، وأنشأ أربع مصلبات (***TETRAPYLAE***) عند تقاطع هذا الشارع، وتحسين حي أبيفانية (***EPIPHANIA***) الذي أنشأه أنطيوخس الرابع (***أبيفانس***)، كما ينسب إليه إنشاء أو إعادة بناء ثلاثة معابد فضلاً عن توسيع المسرح مرة ثانية، إضافة للبرنامج الذي نفذه من أجل صرف مياه الأمطار. ومن أبرز

---

(22) ***JOSEPHUS***, BELL, IUD VII. 8. 1 (252 – 255).

(٢٣) انظر: ***شتوكي رولف (الموسم الثاني للتنقيب في تل الحاج، حوض الفرات***) الحوليات الأثرية العربية السورية، ترجمة قاسم طوير، مجلد ٢٥، دمشق ١٩٧٥م، ص ٢٥٠.

المشروعات المهمة التي نفّذت في عهده البوابة الشرقية لإنطاكية، وتشييده حماماً كبيراً. واعترافاً من مجلس الشيوخ الإنطاكي بحسن جميل **تيبيريوس** ومكرماته تجاه إنطاكية تقرر إقامة تمثال له من البرونز، وهكذا أخذت العاصمة السورية إنطاكية تتجه نحو الرومنة، بعد أن كانت هللينية فأصبحت مدينة إغريقية رومانية(٢٤).

وتابع **تيبيريوس** سياسة الضم التي بدأها سلفه أوغسطس، فبدأ في عام ١٧م بضم مملكة كوماجيني بعد موت ملكها أنطيوخس الثالث، ويقول **استرابون** الذي كان معاصراً لهذه الأحداث، أنه تم تحويل كوماجيني إلى ولاية رومانية وخضعت لسلطة حاكم سورية(٢٥). وكذلك ضمت تدمر إلى الولاية السورية عام ١٩م، ولكن السيطرة عليها كانت إدارية وليست عسكرية. ***وبهذا كان تيبيريوس أول من أخضع تدمر للرومان، وذلك كان نتيجة طبيعية لتشابك مصالح روما الاقتصادية بمصالح تدمر التي كانت تسيطر على أهم الطرق التجارية في المنطقة***(٢٦).

واجه **تيبيريوس** بعض المشاكل مع الحكومات المحلية، فقد شكّل ***الأنباط*** قوة كبيرة استطاعوا بواسطتها ضم دمشق في عام ٣٧م أيام ***الحارث الرابع ملك الأنباط*** (٩ـ٤٠م)، وكانوا على خلاف مع الملك اليهودي ***هيرودوس أنتيباس***. وكانت نتيجة الحرب هزيمة ثقيلة لحقت بالملك اليهودي الذي لجأ إلى **تيبيريوس** طالباً النجدة. فأمر **تيبيريوس** بدوره قائده **فيتيليوس** (***VITELLIUS***) والي سورية بالانتقام من الحارث الرابع، وبدأ **فيتيليوس** الزحف باتجاه مملكة الأنباط، ولكن في أثناء طريقه وهو في المملكة اليهودية جاءته الأنباء بوفاة الإمبراطور **تيبيريوس**، فقرر العدول عن الحملة والعودة إلى إنطاكية، وعلى إثر ذلك تم إنقاذ الحارث الرابع الذي بقي في دمشق من هزيمة مؤكدة.

---

(24) ***MALALAS*** : 10 . 8 – 10 (PP 121 – 122)

(25) ***STRABON*** : 16 . 2 . 10 – 12 .

(٢٦) انظر : ***موريس سارتر، تدمر مدينة ذات طابع يوناني***، الحوليات الأثرية العربية السورية، ترجمة عدنان البني، مجلد ٤٢، دمشق ١٩٩٦، ص ٢٩٤ـ ٣٠١.

وكان من أهم الأحداث التاريخية في عهد ***تيبيريوس***، حدث تاريخي بالغ الأهمية، وكما أشار إليه المؤرخ ***تاكيتوس***[٢٧]، إلى أن حاكم ولاية اليهودية الروماني ***بيلاطس البنطي***، والذي يحمل لقب ***البروكيوراتور (PROCURATOR)*** أي مساعد الوالي، أمر بإعدام شخص يدعى ***خريستوس (CHRISTOS) (المسيح عليه السلام***) بسبب الاضطرابات التي أثارها غوغاء اليهود بشأن السيد المسيح وألصقوا به مختلف الذرائع والتهم : ***كانتهاكه لحرمة يوم السبت ، وعدم التزامه بفريضة الصوم ، واستهتاره بمحرّمات التلمود وفريضة الحج ، وانتهاكه للشريعة اليهودية وعدم الالتزام بها ، وادعائه بأنه ابن الله ، وملك اليهود.*** وأحيل إلى المحاكمة مرات عديدة، وحكم عليه بالموت، إلا أن مثل هذا الحكم كان من صلاحيات الحاكم الروماني ***بيلاطس البنطي*** الذي تردد كثيراً في إصدار حكم الإعدام، باعتباره أنه لم يجد في الشخص المذكور ما هو مذنب ويستحق الإعدام، فقام بتبرئته من كل التهم الموجهة إليه، إلا أن غوغاء اليهود من رؤساء الكهنة أصروا على ***بيلاطس*** بإصدار حكم الإعدام وصاحوا مع الدهماء قائلين : ***(إن أطلقته فلست صديقاً لقيصر)*** بعد تهديده بالخيانة العظمى للإمبراطور، وأخيراً رمى بيلاطس أسلحته خوفاً على مستقبله الوظيفي، وربما حفاظاً على حياته، وخرج من اللعبة كلها. فأمر بأن يأتوه بماء وغسل يديه أمام الحشد قائلاً (***لست مذنباً في سفك هذا الشخص، فانظروا أنتم)*** فأجابه غوغاء اليهود بعويل (***دمه علينا وعلى أبنائنا***) وهكذا استسلم بيلاطس وأرسل السيد المسيح ليصلب[٢٨].

ويجب أن ننوه إلى أن الوالي الروماني على سورية في هذه الفترة كان ***بوموبونيوس فلاكوس (POMPONIUS FLACCUS)*** (٣٢ - ٣٣م) ***وكان برتبة قنصل سابق (PROPRAETOR) (أي الوالي) (على حد ما جاء في نص تاكيتوس***

---

(27) ***TACITUS*** , ANN , XV, 44 .

(٢٨) حول اتهام السيد المسيح وتفاصيل محاكمته وإجراءات صلبه بالتفصيل انظر : ***ميغوليفسكي أ. س ، أسرار الآلهة والديانات*** ، ترجمة حسان أسحق ، إصدار دار علاء الدين ، الطبعة الأولى ، دمشق ٢٠٠٥ ، ص ٤٢١ ـ ٤٣٨.

TAC, ANN. 6. 27 .3) حيث يتحدث النص عن وفاة بومبونيوس فلاكوس في سورية أثناء حكمه. وتدل النقوش الأثرية على أنه شغل المنصب لفترة قصيرة نسبياً وتوفي أثناء توليه المنصب في العام نفسi. وبعد وفاة بومبونيوس فلاكوس بقيت سورية من دون وال على مدى عام، كانت الولاية خلالها تُحكم من قبل قائد أحد الفيالق العسكرية. وبعد ذلك عهد تيبيريوس إلى ***فيتيليوس*** بتسلم ولاية سورية (٣٥ - ٣٩م) فألقى على عاتقه كماً كبيراً من الأعباء العسكرية، وهو الذي قام بتنحية ***بيلاطس البنطي*** حاكم ولاية اليهودية من منصبه كحاكم لها، وذلك بسبب شكاوى اليهود ضده. وربما يعود سبب هذه الشكاوى إلى المشاجرات العنيفة التي حدثت بين **بيلاطس** وغوغاء اليهود، بسبب رفض **بيلاطس** القاطع والمتكرر بإصدار حكم الإعدام بالسيد المسيح، وتهديده بالخيانة العظمى لدى الإمبراطور، وتهديد حياته بإخطار محدقة، وإجباره على إصدار حكم الموت بالسيد المسيح على الرغم من عدم قناعته بذلك وفي ظروف غير عادية، مما جعل **بيلاطس** يحمل حقداً دفيناً على اليهود. ومن هنا قد تكون الخلافات نشبت بينه وبين اليهود في كل جوانب الحياة الخاصة باليهود في مملكتهم اليهودية.

٦ - *سورية في عهد غايوس (GAIUS) (٣٧ - ٤١م)* :

تقلصت في عهد الإمبراطور ***غايوس*** قبضة الإمبراطورية الرومانية، ***وشهدت إنطاكية أثناء حكمه زلزالاً***، فقدّم مساعدة لها، وأرسل من روما موفدين ليتولوا أعمال البناء فيها، فأنشؤوا مجموعة من الأبنية من أموالهم الخاصة، كما قدّم **غايوس** مساعدة لكوماجيني وأعاد إليها استقلالها وأعاد ملكها أنطيوخس الرابع عام ٣٧م، لكنه ما لبث أن عزله بعد فترة قصيرة، وأعاد إلى الأنباط دمشق وعفا عن ملكهم الحارث الرابع الذي خلفه مالك الأول واعترف به **غايوس** ملكاً. أما في جنوب سورية عادت فتن اليهود تطل برأسها من جديد، ***ونشبت صراعات بين فرق اليهود المتنافرة منها ما هو مؤيد للرومان، ومنها ما كان يدعو إلى التشدد والاستقلال***. وإزاء هذين

الفريقين اضطرت السلطات الرومانية إلى التدخل من جديد وتشديد قبضتها على اليهود. ولم تقتصر هذه الصراعات على اليهود بين أنفسهم المتنافرة فقط، بل امتدت لتشمل صراعاتهم مع الإغريق الذين قاموا ببناء معبد للإمبراطور ***غايوس*** الذي كان يؤمن بأنه إله. ولكن اليهود قاموا بتدمير هذا المعبد، مما أدى إلى إثارة حفيظة الإمبراطور ضد اليهود، وأصدر أمراً إلى ***بترونيوس*** والي سورية في عام ٤٠ م بوضع تمثال الإمبراطور في المعبد اليهودي في أورشليم. ***وكان يهدف من وراء ذلك إلى إجبار اليهود على الاشتراك في عبادة الإمبراطور (اعتمد الأباطرة سياسة نشر عبادتهم لأنها كانت تخدمهم في توحيد البلاد وجعلها تحت سلطتهم وكانوا في ذلك على شاكلة الإسكندر الكبير).*** كانت مهمة ***بترونيوس*** شاقة وتوجب عليه تنفيذ الأمر بغض النظر عن النتائج والعواقب الناجمة عنه، ولكنه في النهاية وبفضل تصميم اليهود، وتدخل الملك اليهودي أغريبا صديق غايوس، وعدم رغبة بترونيوس بتنفيذ المهمة، تخلى ***غايوس*** عن خطته، إلا أنه غضب وانزعج من ضعف حماس بترونيوس الذي وجه إليه طلباً بالانتحار، ولحسن المصادفة توفي ***غايوس*** قبل وصول الرسالة إلى بترونيوس فأنقذت حياته.

٧ - سورية في عهد كلاوديوس (CLAUDIUS) (٤١-٥٤م):

تميز هذا الإمبراطور باهتمامه بمدن الشرق مثل أفاميا وبتولمايس (***عكا حالياً***) وبانياس، كما رفع مدناً إلى مرتبة مستعمرات، لكن دون إرسال محاربين قدماء إليها. وشهدت العاصمة إنطاكية في عهده اهتماماً في تنظيم حفل الألعاب الأولمبية، وأعطى ***كلاوديوس*** امتيازات ليهود إنطاكية وسواها وتساهله في منح حقوق المواطنة الرومانية، كما استمر الأنباط برئاسة ملكهم مالك الثاني (٤٠ - ٧٠ م) وكانت جرش دليلاً رئيسياً للنفوذ النبطي القوي، وتطورت تدمر وتطورت تجارتها وتمت حمايتها والاهتمام بها. وأسوّة بالأباطرة السابقين واجه ***كلاوديوس*** مشكلة البارثيين، ***وكان له عمل مميز في هذا المجال وهو تقوية حدود نهر الفرات للتصدي لهم.***

٨ - سورية في عهد نيرون (NERON) (٥٤ - ٦٨م) :

تميز عهد ***نيرون*** بثورات اليهود المتكررة، على الرغم من كل الامتيازات التي حصلوا عليها في عهده، حيث رفضوا عبادة الإمبراطور، وأعفوا من الخدمة الإلزامية. إلا أن هذا لم يقف حائلاً دون حدوث فتنة كبيرة بين صفوفهم، فاستدعى ***نيرون*** قائده فسباسيانوس لإخماد هذه الثورة عام ٦٦م، وتمكن من الاستيلاء على كل بلاد اليهود في عام ٦٨م بما عدا أورشليم، إلا أن مقتل الإمبراطور ***نيرون*** من ذلك العام، حال دون أن يتمكن فسباسيانوس من قمع الثورة من جذورها، حيث تولى العرش الإمبراطوري ***فيتيليوس***، ***إلا أن حاكم سورية ووالي مصر أعلنا تأييدهما لاعتلاء فسباسيانوس عرش الإمبراطورية الذي عاد إلى مصر، واستطاع أن يتولى مقاليد السلطة في روما***، وترك أمر متابعة الحرب ضد اليهود في يد ابنه ***تيتوس***، يساعده في ذلك الممالك التابعة لروما مثل : ***مملكة الأنباط، وكوماجيني، وحمص***. وقد استغرق حصار أورشليم ستة أشهر وسقطت المدينة في العام ٧٠ م، واحتفل ***تيتوس*** بهذا الانتصار وطاف بالمدن السورية حيث لقي استقبالاً حاراً، وخاصة في إنطاكية حيث قُدمت إليه شكاوى بحق اليهود تطالبه بطردهم من مدينتهم.

٩ - سورية في عهد فلافيوس فسباسيانوس (VESPASIANUS) (٦٩ - ٧٩م) :

قام ***فسباسيانوس*** بعدة إصلاحات مالية منها، ***التقشف وتعديل نظام الضرائب كله***. فألقيت أعباء جديدة على الأفراد والمجتمعات وارتفعت الضرائب التي كانت تدفعها الولايات. وتابع سياسة الضم، فضم الولاية اليهودية عام ٧٠م، وأمر بتحويل المبلغ الذي كان يدفعه اليهود لهيكلهم في اليهودية قبل تدميره إلى هيكل (**جوبيتر**) في روما، وألحقت كوماجيني في عهده بإدارة ولاية سورية عام ٧٢م، ويعود سبب هذا الضم إلى ميل ملك كوماجيني للبارثيين ضد روما، ووضع نهاية

لحكم السلالة الحمصية ما بين عامي (٧٢ - ٧٨م) بسبب موقع حمص الحيوي على طريق تدمر باتجاه البحر. أما عن الأنباط فقد تركهم وشأنهم إذ استمر نفوذهم على سورية الجنوبية في عهد ملكهم ***مالك الثاني***، وكانت العلاقات النبطية الرومانية جيدة، إذ قاموا بمساعدة الرومان في حملتهم على المملكة اليهودية قي عهد الملك النبطي ***رابل الثاني*** (٧١ - ١٠٦م) والذي ظهر اسمه على النقوش الأثرية كآخر الملوك النبطيين ولقّب بعبارة (***الذي جلب المياه والخلاص لشعبه***). وبلغت المملكة النبطية ذروة نشاطها في عهد ***فسباسيانوس***، فأقيمت الأنصبة الرومانية التي تثير الإعجاب، واهتم بإنشاء الطرق التي تعتبر شرايين المنطقة والمؤشر الصادق على حيويتها، وأنشأ أسطول سورية، وأقام بعض الأبنية في إنطاكية.

ومن أشهر ولاة الرومان على سورية في عهد فسباسيانوس ***ماركوس إلبيوس ترايانوس*** (٧٣ - ٧٨م) ويعود ذلك إلى فترته الطويلة التي ساعدته على إنجاز أعمال عسكرية باهرة ***كحملته ضد البارثيين، وكان أباً للإمبراطور المقبل (ترايانوس)***، وتجلت أعماله الإدارية في إنشاء الطريق الإستراتيجي الذي يصل تدمر بسورا (***SURA***) على الفرات وهي مدينة قديمة تقع قرب الرصافة، وشهدت تدمر تطوراً ونمواً ملحوظاً، وإنشاء المعالم الطرقية كالمعلم الذي وجد قرب تقاطع الطرق من أفامية إلى تدمر ومن عنجر إلى حمص. وإلى جانب هذه المعالم الطرقية قام ***ترايانوس*** بإنشاء قناة بطول ثلاثة أميال رومانية (الميل الروماني = ١٨٤٢م) مع جسرين لتأمين طريق ملائم للتنقل بين ضفتي نهر العاصي، وتقع القناة إلى الشمال من إنطاكية، ***وكان الهدف منها، تسهيل الشحن وحماية المدينة من خطر الفيضان وخدمة القوات الرومانية المتمركزة في إنطاكية.*** فقد كان ***ترايانوس*** هو الشخص المسيطر في عهد ***فسباسيانوس***، وكان يقوم بإدارة كامل الجبهة ودفاعاتها في سورية انطلاقاً من الجبال الأرمينية وحتى الصحراء العربية. ***فلذلك شهدت سورية في عهده عصرها الذهبي بفضل إنجازاته وتأمين السلام والرخاء للولاية.***

١٠ - سورية في عهد دوميتيانوس *(DOMITIANNUS)* (٨١ - ٩٦م):

لا توجد معلومات كثيرة في سورية في عهد هذا الإمبراطور باستثناء معلومات متفرقة معظمها عن الحكومات المحلية، وأهمها عنجر التي ضُمت في عهده إلى سورية في عام ٩٢م، حملت فيه اسم ***فلافيا كالسيس (FLAVIA CHALCIS)*** ويظهر ذلك من خلال النقود الأثرية التي أصدرتها عنجر. أما عن الأنباط فقد استمروا في حكم بلادهم، إذ كُشف عن نقش نبطي يعود لعام ٩٤م في دمر قرب دمشق يؤكد على بقائهم في الحكم، إضافة إلى بعض أعماله في إنطاكية كإنشائه أبنية متعددة واهتمامه بألعاب الكونيون (***KOINON***) في سورية.

خامساً: سورية في عصر الأباطرة الصالحين:

١ ـ سورية في عهد نيرفا *(NERVA)* (٩٦ ـ ٩٨م):

لُقب عصر الأباطرة الصالحين، لأن سورية شهدت في عهدهم أفضل وأزهى العهود بدءاً من عهد الإمبراطور ***نيرفا*** وانتهاء بعهد الإمبراطور ***ماركوس أوريليوس أنطونينوس***. وتميز عصر نيرفا بالاستقرار السياسي وعدم وجود تنظيمات إدارية واضحة ومميزة.

٢ ـ سورية في عهد ترايانوس *(TRAIANUS)* (٩٨ - ١١٧م):

هو ابن ***ماركوس إلبيو ترايانوس*** والي سورية سابقاً، تميز عهده بإصلاح الطرق والموانئ والمنشآت العامة، إلا أنه لم يلجأ إلى ابتزاز الأموال. ***ولقد اهتم ترايانوس بسورية اهتماماً كبيراً كونه قد شغل فيها منصباً عسكرياً أثناء حكم والده،*** وزار ترايانوس سلوقية بيريه وإنطاكية التي أدّت دوراً هاماً في حربه مع البارثيين التي حقق فيها انتصارات باهرة، ***إذ استولى على مدينة طيسفون عاصمة بارثيا في عام***

١١٦م[٢٩]. كما قام ببعض الأعمال في إنطاكية، ومنها إنشاء قناة إضافية مرفوعة على قناطر لجلب الماء إليها من دافني، كما وسّع دار المسرح وهذا مما يشهد على ازدياد السكان في المدينة، وأنشأ البوابة الوسطى في إنطاكية، والطريق الواصل منها وإليها.

ويورد المؤرخ ***كاسيوس ديون***، أن والي سورية الروماني ***كورنيليوس بالما*** (١٠٤ ـ ١٠٨م) في عهد ترايانوس[٣٠]، قام بإخضاع المملكة النبطية وجعلها ولاية قائمة بذاتها وسماها ولاية ***بلاد العرب*** (***PROVENCIA ARABIA***) وأصبحت عاصمتها ***بصرى*** ولقبت (***ببصرى الجديدة الترايانية***) وتم سك عملة رومانية بهذه المناسبة في عام ١٠٨ م، فلقد كانت المملكة النبطية من السعة بحيث يصعب ضمها إلى أي ولاية، ***لذلك جعلت منها روما ولاية قائمة بذاتها***، وكُلف والي سورية ***بالما*** بمهمة فرض النظام الروماني في تلك الولاية، وأنشأ ترايانوس في هذه الولاية الطريق الجديدة (***VIA NOVA***) الذي بدأ بشقه من بصرى حتى العقبة، كما بدأ بشق طرق فرعية أخرى في جميع أنحاء البلاد. فاعتبر إنشاء الطرق من أهم أعمال ترايانوس، ***وكان الدافع الرئيسي لدى الرومان من هذه الخطوة هو تأمين طرق التجارة، وهي السياسة القائمة على التوسع وفرض الهيمنة المباشرة.*** فلذلك ألحق ترايانوس القوات النبطية بالجيش الروماني كفرق مساعدة (***AUXILIA***) وضم عدد من المدن التي

---

(٢٩) نشأت مملكة البارثيين في جنوب غربي آسية الوسطى (***أراضي تركمانيا الحالية ضمن الأراضي السوفيتية سابقاً***) ويمتد تاريخ مملكة البارثيين حوالي خمسمائة عام (٢٥٠ق٠م ـ ٢٢٧ م) وكان حكامها من سلالة الأرشاكونيين الفارسية الشرقية. وسرعان ما تحولت هذه المملكة إلى دولة قوية، حيث أخذت منذ القرن الأول ق.م، تنافس روما في الصراع من أجل السلطة في غربي آسية، وتقاتل بنجاح الدولة السلوقية في الغرب. وكان القدماء الإغريق يعرفون جيداً جبروت البارثيين حتى اعتبروهم منافسين لروما. ويقول ***استرابون (إنهم يمتلكون بلداً شاسعاً ولديهم قبائل كثيرة، حتى أن دولتهم تعتبر من حيث الاتساع منافسة لروما بقدر ما***). حول موطن البارثيين (تاريخهم وحضارتهم) انظر : ***الجديد حول الشرق القديم، تأليف مجموعة من المؤلفين السوفيت***، إصدار دار التقدم، موسكو ١٩٨٨، ص ٣٩٩ـ ٤٤٤.

(30) ***CASSIUS DIO*** : LVXIII, 14 . 5 .

كانت تابعة لتجمع المدن العشر إلى ولاية بلاد العرب الجديدة مثل مدينة فيلادلفيا (**عمّان**) ومدينة (**جرش**)، كما قام بضم دمشق وتدمر لولاية سورية، ووضع في تدمر أول حامية رومانية وعيّن ممثلاً عسكرياً يتخذ القرارات الهامة.

وكان آخر الولاة الرومان على سورية في عهد ترايانوس ***إيليوس هادريانوس*** في العام ١١٧م، وحكم ***هادريانوس*** الولاية لبضعة أشهر فقط[٣١]، ومن أهم أعماله في هذه الفترة الوجيزة هي الإشراف على أعمال البناء في إنطاكية، وذلك بأمر من الإمبراطور ترايانوس. وغداة وفاة ترايانوس تولى ***هادريانوس*** السلطة كإمبراطور، وعيّن بدلاً منه والياً جديداً على ولاية سورية قبل مغادرته إنطاكية.

٣ - سورية في عهد هادريانوس (*HADRIANUS*) (١١٧ - ١٣٨م):

تولى ***هادريانوس*** العرش وكان يشغل آنذاك وظيفة والي سورية الروماني، ***وكان على عكس سلفه لم يؤمن بسياسة التوسع، بل كان يرى أنه من الأفضل الاكتفاء بالحدود القائمة والدفاع عنها بشكل جيد،*** حيث أمر بالتخلي عن ولايتي آشور وما بين النهرين. ولم يشارك الجيش الروماني في عصر ***هادريانوس*** في أية معارك تذكر باستثناء الحرب ضد اليهود المتمردين في فلسطين فيما بين عامي ١٣٢ - ١٣٥ م في عهد الوالي ***ماركيلوس*** (***MARCELLUS***) الذي أدّى دوراً مهماً في قمع ثورة بار ـ كوخيا اليهودية واجتثاثها من جذورها لدرجة أن ***هادريانوس*** قام بتكريمه نظراً لمآثره في الانتصارات العسكرية ضد اليهود.

اهتم ***هادريانوس*** بزيارة ولايات الإمبراطورية، فزار إنطاكية ثلاث مرات وأقام فيها العديد من المنشآت وأعطاها المزيد من المنح، وقام بإصلاح موارد المياه والمرافق العامة فيها، واهتم بالشؤون المالية، وخفض الضرائب، وأعفى المتأخر عنها المتوجب دفعه لخزينة الإمبراطورية، كما منح الامتيازات والحريات لمجموعة من المدن أهمها اللاذقية، وصور، وطرابلس، وجبيل، ومنح مرتبة (***METROPOLIS***) المدينة الأم لمدن دمشق وصور وساموساط. كما اهتم ***هادريانوس*** في الغابات الحراجية

---

(31) ***IBID*** : 8 , 33 , 1 – 69 . 2 .

لأنها تشكّل مصدراً رئيسياً للأخشاب في سورية عامة، ولذلك منع الاستيطان العشوائي للمنطقة ونهب ثرواتها.

وشكّلت الطرق العامة وإنشاؤها حيزاً كبيراً من اهتمام ***هادريانوس*** باعتبارها الشريان الرئيسي للتجارة والتحركات العسكرية، فرصفت الطرق الواصلة بين دمشق والبتراء وأعاد إليها مركز الثقل التجاري، وبالتالي تغيّر اسمها إلى ***بترا هادريان*** (***PETRA HADRIANA***) وحصلت على لقب المدينة الأم، كما أعاد ***هادريانوس*** إحياء الطرق الجنوبية التي كان قد أهملها النبطيون، وأعاد تنظيم الولاية العربية، وقام بزيارة تدمر وأطلق عليها اسمه ***بالميرا هادريان*** (***PALMYRA HADRIANA***) ومنحها الحرية والاستقلال الذاتي والمزيد من الامتيازات السياسية والإدارية الأخرى.

٤- *سورية في عهد أنطونينوس بيوس (ANTONINUS PIUS) (١٣٨ - ١٦١م)*

قام ***أنطونينوس*** بعدة إنجازات في إنطاكية التي تمتعت في عهده بالازدهار والأمان كرصف الشارع الرئيسي وشوارع أخرى[٣٢]، وتصحيح لحدود إنطاكية. وفي مجال البناء أكمل ***أنطونيوس*** بناء هيكل بعلبك، وحملت اسمه مجموعة من الآثار كما هو الحال في النقش الموجود في السويداء، والنقش الآخر على طريق تدمر[٣٣]، وأنشأ قاعدة للأسطول الروماني في مدينة سلوقية بيريه.

وكانت من أخطر المشاكل التي واجهها ***أنطونينوس مهاجمة البارثيين على سورية بقيادة ملكهم فولوجيز الرابع في عام ١٦١م، في عهد الوالي الروماني على سورية أتيديوس كورنيليانوس ١٥٧ - ١٦٢م، وانتهت المعركة بهزيمة القوات الرومانية وهروبها من ميدان المعركة.*** وتشير المصادر القديمة إلى أن الوالي الروماني

---

(32) ***MALALAS*** : 11 , 24 (P 149) .

(٣٣) انظر : ***يوسف الدبس، من تاريخ سورية الديني والدنيوي***، المجلد الثالث والرابع ١٨٩٣، مجلد ٣، ص ٥٦٣.

كان مسؤولاً إلى حد كبير عن الهزيمة التي نجمت عن ضعف وهبوط في المعنويات، وفقدان الانضباط والتدريب العسكري الهزيل للقوات الرومانية التي كانت تحت إمرته، إلا أنه وبعد هزيمته شرع بتقوية التحصينات الرومانية في الولاية. وهذا ما يؤكد عليه النقش الأثري الذي وجد في ***أدميديرا*** (***ADMEDERA***) الضمير الواقعة إلى الشرق من دمشق، ويشير النقش إلى أن استمرار هذه الأنشطة استمرت معظم عام ١٦٢م، وبكل الأحوال فإن المشاكل العسكرية في عهد ***أنطونينوس*** في الحرب مع البارثيين انعكست سلباً على الوضع الاجتماعي في سورية.

٥- سورية في عهد ماركوس أوريليوس أنطونينوس (١٦١ - ١٨٠م):

قام هذا الإمبراطور بإصلاح مالي عام في الإمبراطورية، وقد طال هذا الإصلاح سورية بوصفها إحدى ولايات الإمبراطورية. ومن أبرز الأحداث في عهده هو صد هجوم البارثيين تحت قيادة أمرة قائد عسكري كبير هو ***أفيديوس كاسيوس***، وبعد تولي ***كاسيوس*** الحكم في سورية عام ١٦٦ ـ ١٧٥م، أعلن نفسه إمبراطوراً بعد أن وصلته أنباء كاذبة بموت الإمبراطور ***ماركوس***[٣٤]. وكان مركز الثورة مدينة ***كيروس*** (***CYRRUS***) تل النبي هوري وإنطاكية التي عاقبها ***ماركوس*** بإبطال حفل الألعاب الأولمبية فيها، وحظّر كل الاجتماعات العامة، ومنع الوظائف الكبرى في الولاية إلا للغرباء وذلك درءاً لاستفحال التآمر.

ويذكر نقش أثري وجد في جنوب جسر المعاملتين في بيروت، بأنه تم في عهد ***ماركوس*** بناء معبد على بعد ١٥كم جنوب بعلبك عُرف باسمه (***MARCERUS***)، ولقيت ***حوران*** اهتماماً واضحاً منه، فهناك نقوش كثيرة تحمل اسمه، إضافة إلى نصب المسافات التي وجدت في بصرى والتي تحمل لقب ***ماركوس أوريليوس***[٣٥]،

---

(34) ***CASSIUS DIO*** . 72 . 23 . 2 .

(٣٥) انظر : ***جان بول ري كوكية ، الكتابات اليونانية واللاتينية في بصرى*** ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، ترجمة سليمان مقداد ، مجلد ١٥ ، دمشق ١٩٦٥ ، ص ١١٦.

كما بني في عهده أيضاً الطريق الذي يصل بين درعا وبصرى[٣٦].

ومن أهم إنجازات **ماركوس**، إنشاء مصلحة الأحوال الشخصية التي تلزم الأفراد على التصريح بمواليدهم، وذلك من أجل دفع الضرائب[٣٧].

اختتم ماركوس أوريليوس عهد الأباطرة الصالحين الذين حققوا لسورية الازدهار والتطور، فلقيت منهم ومن ولاتهم عناية كبيرة في مجالات عديدة، كالحركة العمرانية، وترسيم الحدود بين المدن، وذلك من أجل الحصول على الضرائب مما يعكس اهتمامهم الواضح بالناحية المالية، إضافة إلى نواح أخرى كإمداد المياه الذي يُعد من الخدمات المهمة الأساسية للمدن والقرى، وذلك حرصاً على تطوير الزراعة والاقتصاد، واهتموا بإنشاء الطرق ورصفها، وإقامة الجسور على الأنهار خدمة للنواحي العسكرية والاقتصادية والمدنية. وتُعد الشبكة الممتازة من الطرق التي تقود إلى حمص حالياً هي استمرار للطرق الرومانية القديمة نفسها التي لا تزال آثارها واضحة للعيان بسبب حجارة الرصف الكبيرة التي كان الرومان يستخدمونها والمسماة (VIA STRATA PLASTOR)[٣٨].

سادساً : سورية في القرن الثالث الروماني :

عاشت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي، ***عصر اضطراب بسبب تدخل الجيش في أمور الحكم، وارتقاء قادته العرش الإمبراطوري، ونشوب الكثير من الأزمات الداخلية، ومحاولات بعض القوى المحلية الانفصال عن روما***

---

(٣٦) انظر : ***دانترز ج. م ، سورية الجنوبية*** ، ترجمة أحمد عبد الكريم ، ميشيل العيسى ، سالم العيسى ، الجزء الأول ، دمشق ١٩٨٨ ، ص ١١٣ م.٠

(٣٧) انظر : ***آندرية إيمار ، جانين بواية ، تاريخ الحضارات العام*** ، ترجمة أسعد يوسف داغر ، فريد داغر ، مجلد ٢ ن بيروت ١٩٦٤م ، ص ٣٣٠.

(٣٨) انظر : ***عبد الحميد عز الدين ، مدينة حمص في العهد الروماني*** ، مجلة دراسات تاريخية ، الجزء ٢٩ - ٣٠ ، دمشق ١٩٨٨ ، ص ٩٧ ـ ٩٨.

وتأسيس ممالك مستقلة. وقد تأثرت سورية بذلك القرن تأثراً كبيراً بسبب كونها إحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية. وخاصة أن هذا القرن شهد اعتلاء شخصيات ذات أصول عربية العرش الروماني وكانوا على التوالي :

١ـ سورية في عهد سبتيميوس سيفيروس (١٩٤ - ٢١١م) :

تولى ***سبتيميوس سيفيروس*** الذي ولد في ***ليبتيس مغنا (لبدة حالياً في ليبيا)*** كما ذكرنا سابقاً العرش الإمبراطوري بعد صراع عنيف مع خصمه **بسكينيوس نيجر** الذي أعلن نفسه إمبراطوراً وأيدته إنطاكية في ذلك. أما ***سبتيميوس سيفيروس*** فقد أيدته مدينتا اللاذقية وصور، والتقى الجيشان في ***إسوس*** قرب خليج الإسكندرونة عام ١٩٤م[٣٩]، حيث هزم ***بسكينيوس نيجر*** وقُتل في نهاية المطاف، واستسلمت إنطاكية للإمبراطور ***سيفيروس*** الذي قام بتقسيم سورية إلى ولايتين اثنتين : ***هما سورية المجوفة (COELE SYRIA) وسورية الفينيقية (SYRIA PHOENICE)***[٤٠]، وتضم سورية المجوفة القسم الشمالي من كوماجيني إلى ما وراء أفامية وكانت عاصمتها إنطاكية، أما القسم الثاني من سورية الفينيقية فتقع في جنوبي سورية وشرقي لبنان وبعلبك وحمص وتدمر ودمشق والقلمون وكانت عاصمتها صور. ***وكان الهدف الأساسي لهذا التقسيم هو إضعاف ولاة سورية، وذلك للحد من أية محاولة لتنصيب أنفسهم أباطرة على الإمبراطورية، ورغبة سيفيروس بالانتقام من إنطاكية لمضايقته له عندما كان يخدم فيها كقائد لإحدى الفيالق الرومانية.***

دعم ***سيفيروس*** المدن التي ساندته في صراعه مع ***نيجر***، فحوّل كثيراً منها إلى مستعمرات رومانية ومنحها المزيد من الامتيازات ***كاللاذقية وصور***، أما ***إنطاكية*** التي انحازت إلى **نيجر** فعاقبها بأن حوّلها إلى قرية (***KOME***) تابعة لمدينة اللاذقية حتى عام

---

(39) ***CASSIUS DIO*** , 75 . 7 . 1 .

(٤٠) المقصود بسورية المجوّفة هنا ليست هي التي كانت في العصر الهللينستي الواقعة بين لبنان ولبنان الداخلي. أما في عهد ***سيفيروس*** فلقد فقدت اسمها لصالح النصف الشمالي من سورية.

٢٠٢م، وبذلك حط من مكانتها الإدارية حيث جرّدها من لقب العاصمة وأعطى هذه الصفة لمدينة اللاذقية، وفي هذه الحالة توّجب على إنطاكية دفع الضرائب للاذقية التي حملت لقب (***المدينة الأم***)، ونقل الألعاب الأولمبية من إنطاكية إلى ***إيسوس*** تخليداً لانتصاره فيها. وتشير المصادر الأثرية التي وجدت في اللاذقية إلى أن ***سيفيروس*** أعاد بناxها وتجميلها، إذ دعاها (***سبتيميا سيفيرا***) ومنح أهلها شرف الانتساب إليه فصاروا يدّعون ***سبتيميين***(٤١).

ومن أهم المشاكل التي واجهت ***سيفيروس*** الحملة العسكرية التي قام بها ضد البارثيين عام ١٩٦م، إذ أن ***سيفيروس*** بعد هذه الحملة صفح عن إنطاكية وزارها وأهداها حمامين سماهما على اسمه (***سيفيريانوم***) (***SEVERIANUM***) وقامت بإعادة سكّ عملتها، ويكون بذلك أعاد ***سيفيروس*** الاعتبار لمدينة إنطاكية. وفي فلسطين واجه ***سيفيروس*** ظرفاً استثنائياً عام ١٩٩م، حيث قامت فيها ثورة اليهود التي أخمدها بقوة ولم يتغاض عن النظر عن أية مخالفة للنظام.

تميز عهد ***سيفيروس بإصلاحات إدارية وعسكرية***، فاتبع سياسة تقسيم الولايات إلى وحدات أصغر، وأنقص الفضة في الدينار ٦٠٪ (٤٢)، إضافة إلى عنايته بالطرق وإنشائها، وتأسيسه لمدرسة الحقوق في بيروت أثناء إقامته في سورية. ***أما بالنسبة لإصلاحاته العسكرية***، فكانت عامة ولكنها خصّت سورية بشكل أو بآخر لأنها ولاية من ولايات الإمبراطورية، إضافة إلى كونها متاخمة للحدود مع ***البارثيين*** العدو اللدود للرومان، إضافة إلى التعديل الذي أجراه بالنسبة للخدمة في الجيش، فكان على الجندي أن يقضي عشرين عاماً في الخدمة لكي ينال حق المواطنة الرومانية، لكنه عدّله بأن جعل مجرد الانضمام للجيش كافياً لأن يعطي الجندي حق

---

(41) ***MALALAS*** . 12 . 21 (P 156) .

(٤٢) انظر : ***وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم***، ترجمة محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة، ص ٣١١. ثم انظر : خليل مقداد، حوران عبر التاريخ، دار حوران للنشر، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٩٦، ص ٦٨.

المواطنة الرومانية، وبذلك شجع الكثيرين على الانضمام للجيش. كما أنه أمّن متراساً مهماً لحماية سورية، وذلك بإيجاده ولاية جديدة وهي ولاية نصيبين (***NISIBIS***)، وبهذه الأعمال وضع **سيفيروس** نهاية لفترة الضعف في الولاية.

٢- سورية في عهد كراكلا (*CARACALLA*) (٢١١- ٢١٧م):

كراكلا هو ابن ***سبتيميوس سيفيروس***، ***وينحدر من أصول سورية عن طريق والدته جوليا دومنا التي تنتمي إلى أسرة حمصية ملكية محلية.*** واشتهر **كراكلا** بدستوره (***CONSTITUTIS ANTONINIANA***) الذي منح بموجبه حق المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الأحرار باستثناء فئة محددة. ***ولم يكن الهدف من إصدار هذا الدستور الاحترام المبجّل لجميع رعايا الإمبراطورية، بقدر ما كان نتيجة سياسة مدروسة تهدف إلى زيادة دافعي الضرائب، إذ لم يكن يترتب على المواطنين الأجانب (غير الرومان) دفع معظم الضرائب، وبذلك يسهمون في زيادة دخل الإمبراطورية.*** وهذا ما أشار إليه **كراكلا** في افتتاحية دستوره بقوله: (***أن الألهة الرومانية خليقة بأن تبتهج بذبائح الشكر التي يقدمها حشد من المواطنين الجدد***)[٤٣].

وبموجب هذا الدستور زادت الضرائب في عهد **كراكلا** إلى ثلاثة أضعاف، إذ جمع أموالاً من خلال فرض (***ضريبة الميراث***) ومقدارها ١٠٪ (***وهي لا تفرض أصلاً على غير المواطنين الرومان***). وأضاف ضرائب جديدة، وألغى حق الإعفاء الذي كان يعطى في بعض الظروف الاستثنائية. وكانت هذه الإجراءات من أجل تغطية إسرافه في زيادة مرتبات الجند، ولم تتوقف أهمية إصدار هذا الدستور على الأمور المالية، بل توّج هذا الدستور عملية تحويل كل الأراضي التابعة للإمبراطورية الرومانية إلى أرض رومانية (***ORBIS ROMANUS***) كما جعل من مواطنيها مواطنين روماناً، بعد أن كانوا تابعين للإمبراطورية، وبذلك توسعت القاعدة الاجتماعية للسلطة الإمبراطورية

---

(٤٣) انظر: ***تشارلز وورث م. ب، الإمبراطورية الرومانية***، إشراف إدارة الثقافة العامة، الإقليم الجنوبي ن ١٩٥٠م، ص ١٨٤.

الرومانية إلى أقصى حد ممكن لها، ***مع العلم أن المواطنة الرومانية لم تلغ المواطنة المحلية، لكنها جعلت من سكان الإمبراطورية كتلة واحدة تابعة للإمبراطور،*** ورفع ***كراكلا*** باقي العقوبات على إنطاكية التي فرضها عليها والده وحررها من إشراف اللاذقية عليها، إضافة إلى أنه أعاد إليها الألعاب الأولمبية ورفعها إلى مرتبة مستعمرة (***COLONIA***).

وكانت من أبرز اهتمامات كراكلا اهتمامه بمدينة حمص، إذ أنها كانت منشأ والدته ***جوليا دومنا***، ومنحها لقب مستعمرة مع جميع الامتيازات، وحصل أهل تدمر في عهده على حقوق المواطنة الرومانية، وأعفاها من الضرائب والرسوم الجمركية، كما قام ***كراكلا*** بالقضاء على الأسرة المحلية التي تحكم الرها، وبذلك تكون الحكومات المحلية قد شارفت على الانتهاء في عهده. واهتم ***كراكلا*** بإنشاء الطرقات كالطريق الواصل بين دمشق وطبرية في فلسطين، والطريق الذي يربط بين بصرى والسويداء ودمشق، وأولى طرق الولاية العربية اهتماماً كبيراً.

أخذ ***كراكلا*** يتحرّش بالدولة البارثية، وأراد أن يوجد ذريعة لشن الحرب عليها، ***فطلب يد ابنة الملك البارثي أرتابانوس، محاولاً تقليد الإسكندر الكبير في الزواج من امرأة شرقية،*** وحين رفض الملك البارثي الاستجابة لهذا الطلب، وجد ***كراكلا*** أن الفرصة قد سنحت لتنفيذ مخططاته، فقام بغزو المناطق التي تقع عبر نهر دجلة في عام ٢١٦م، وأخذ يعد العدة للقيام بحملة كبرى على ***بارثيا***، وأخذ يهيئ مدينة ***دورا أوروبوس،*** حيث أعاد مخطط تنظيمها العسكري لهذا الغرض، وقام بتحويل القسم الشمالي من المدينة إلى ثكنة عسكرية. إلا أن طموح ***كراكلا*** لم يكتمل ولم ير النور، لأنه لقي حتفه، حيث قام أحد أفراد حاشيته باغتياله.

٣ - سورية في عهد ماكرينوس (MACRINUS) (٢١٧ - ٢١٨م):

بعد مقتل ***كراكلا*** نودي ***بماكرينوس*** رئيس الحرس الإمبراطوري إمبراطوراً، وقضى معظم فترة حكمه القصيرة في سورية. فبدلاً من الذهاب إلى روما لتولي

العرش بقي في إنطاكية للإشراف على الحرب البارثية. إذ قام في العام ٢١٧م بحملة إلى بلاد ما بين النهرين، انتهت بدفع مبلغ من المال لملك البارثيين لشراء السلام، واعتبر مثل هذا الموقف إهانة للجيش الروماني، مما جرّ عليه كراهية الجنود. ***ومن ناحية أخرى أساء ماكرينوس أفراد عائلة الإمبراطور السابق سيفيروس ومنهم جوليا مايسة(JULIA MAESA) شقيقة زوجة الإمبراطور سيفيروس، وخالة الإمبراطور القتيل كراكلا، فأمر بإبعادها من روما، وإعادتها إلى موطنها الأصلي في حمص، وكانت هذه السيدة ذات ثراء واسع ونفوذ كبير.***

استغلت ***جوليا مايسة*** حالة السخط التي عمّت الجيش الروماني ضد سياسة الإمبراطور ***ماكرينوس***، فادعت أن حفيدها هو ابن غير شرعي للإمبراطور ***كراكلا***، وأنه الأحق بتولي العرش، وراحت تحرّض على الثورة ضد ***ماكرينوس***، وثارت القوات المرابطة قرب حمص على إثر هذا التحريض، **وانتهى الأمر بمقتل ماكرينوس وابنه بالقرب من إنطاكية ونادى الجنود بحفيد جوليا مايسة إلاجابالوس إمبراطوراً.**

٤- سورية في عهد إيلاجابالوس (ELAGABALUS) (٢١٨ - ٢٢٢م):

أعلنت القوات الرومانية المرابطة بالقرب من مصياف ***أفيتيوس (AVITIUS)*** إمبراطوراً، وكان غلاماً عمره ١٤ عاماً، ***واتخذ اسم إيلاجابالوس المشتق من اسم الإله الحمصي إيلاجابال الذي كان كاهناً لإله الشمس الفينيقي في حمص،*** وهو بالتالي حفيد ***جوليا مايسة*** التي تركزت في يدها جميع السلطات الإدارية، ودخل ***إيلاجابالوس*** مدينة إنطاكية وبقي فيها بضعة أشهر قبل أن يتوجه إلى روما في عام ٢١٩م. ***وفي روما بذل الإمبراطور الجديد جل اهتمامه لنشر عبادة الإله الفينيقي إيلاجابال،*** وانشغل بهذا الأمر تاركاً مقاليد الحكم في يد ***جوليا مايسة***، إلا أنه اغتيل في عام ٢٢٢م على يد جنود الحرس الإمبراطوري بسبب سياسته الاقتصادية الفاشلة، وربما يعود الأمر إلى عدم معرفته بشؤون الحكم نظراً لصغر سنه وحداثة عمره.

٥- سورية في عهد سيفيروس ألكسندر (SEVERUS ALEXADER) (٢٢٢ - ٢٣٥م) :

تولى الحكم بعد ابن خالته ***إيلاباجالوس***، وتولت أمه ***جوليا مايسة*** الوصاية عليه، واتخذت لقب (***أوغستا***) وشرع ***سيفيروس*** خلال حكمه إلى إصلاح ما أفسده ***إيلاباجالوس***، فأصدر التشريع الذي يوسع حق المواطنة الرومانية، ***وأقام المساواة بين المواطنين من حيث حرية التفكير والاعتقاد حيث أذن للمسيحيين باجتماعات علنية، وإقامة شعائر عبادتهم بحرية، وهكذا ظهرت المعابد الأولى للمسيحية.*** وأخضع الإمبراطور نفسه إلى القانون، واتخذ لقب الكاهن الأعظم لمدينة حمص، وأعاد آلهتها إليها.

وفي عهد سيفيروس ألكسندر شهد الشرق الأدنى تطوراً مهماً يتمثل في سقوط الدولة البارثية، وقيام الأسرة الساسانية التي ظهرت في بلاد فارس عام ٢٢٦م بالسيطرة على الحكم في فارس. وقد ازدادت في ظل هذه الأسرة النعرة القومية الفارسية، وأخذوا يحلمون بإعادة إمبراطوريتهم القديمة، وإعادة بلاد ما بين النهرين إلى سيطرتهم. وفي عام (٢٣١ - ٢٣٣م) قام الملك الفارسي ***أردشير*** (***ARDASHIRE***) بغزو بلاد ما بين النهرين، وإزاء هذا الخطر قام الإمبراطور ***سيفيروس ألكسندر بقيادة القوات الرومانية، وهاجم القوات الفارسية، وتمكن من إلحاق الهزيمة فيها***، وعاد إلى روما في عام ٢٣٣م حيث احتفل بانتصاره. وعقب ذلك ثار الجيش على ***سيفيروس الكسندر*** وقام بقتله في عام ٢٣٥م ليبدأ بذلك عصر من الاضطراب في تاريخ الإمبراطورية الرومانية استمر لما يقارب من خمسين عاماً.

سابعاً: سورية في عهد الأزمة والاضطراب العسكري (٢٣٥ - ٢٨٤م):

تميزت هذه الفترة بأزمة القرن الثالث الميلادي، حيث كان دخول الساسانيين على المسرح إيذاناً لسورية بحقبة جديدة من الحروب والغزوات أسهمت في تفاقم

الفوضى العسكرية التي دبت في الإمبراطورية. ففي عهد الإمبراطور ***جورديانوس الثالث*** (***GURDIANNNUS III***) (٢٣٨ - ٢٤٤م) غزا الساسانيون بقيادة ملكهم ***شابور الكبير*** درورا أوروبوس، وقاموا بتهديد إنطاكية في عام ٢٤١م، ولكن القوات الرومانية تمكنت من طرد الفرس في العام التالي، ثم توغلت في بلاد الفرس، وكانت على وشك الاستيلاء على طيسفون (***المدائن***)، غير أن قائد القوات الرومانية لقي حتفه.

وفي تلك الآونة ارتبط الإمبراطور ***جورديانوس الثالث*** بعلاقة وطيدة مع أحد شيوخ العرب الأقوياء في وادي الأردن ويدعى ***فيليب العربي (PHILIPPUS ARABIANUS) الذي ولد في شهبا جنوب دمشق وسميت باسمه (HILIPPOPOLIS)*** وأخذت مكانة هذا الشيخ تزداد لدى الإمبراطور، فعينه قائداً للحرس البريتوري، ولم يلبث أن أشركه معه في الحكم، ولكن فيليب لم يقنع بهذه المكانة فدبّر مؤامرة أودت بحياة الإمبراطور، وتمكن من اعتلاء العرش في الفترة التالية (٢٤٤ - ٢٤٩م)، وكان العمل الأول الذي أقدم عليه الإمبراطور الجديد هو توقيع الصلح مع الفرس قبل أن يتوجه إلى روما. ولقد اهتم فيليب بالمدن في سورية وخاصة الطرق، إذ اهتم بالطريق الصحراوي الذي يربط بين الولاية العربية وتدمر والفرات، وبنيت في عهده على جوانب الطرقات في أماكن مرتفعة أبراج المراقبة حفاظاً على الأمن وسلامة السير على هذه الطرقات، وأيضاً وجدت مصادر للمياه على الطرقات التجارية ومراكز للاستراحة والنوم. وقد عثر في حوران على مجموعة من النقوش التي تكرّم فيليب العربي نظراً لاهتمامه فيها. ومن نشاطات هذا الإمبراطور قيامه بزيارة إنطاكية عام ٢٤٤م، وتعيين أخيه قائداً للقوات الرومانية المرابطة في سورية، وأعطى (***شهبا***) مسقط رأسه لقب مستعمرة، وأصدرت في عهد نقداً، كما كان لها تقويمها الخاص، وكذلك الأمر في بصرى.

وهكذا استطاعت إصلاحات فيليب الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية والدينية، إيقاف تدهور الإمبراطورية، نتيجة لتحوله لسياسة الإصلاح

والتفاهم التي تخدم الشعب ولا سيما مع الساسانيين، إذ قام بعقد صلح مع ***شابور الأول***، وبذلك جنب الإمبراطورية ولا سيما سورية خسائر فادحة. ***ولكن محاولات فيليب لإرساء الاستقرار بشكل عام لم تكن ناجحة دائماً، وذلك بسبب قيام ثورة داخلية في سورية في أوائل عام ٢٤٨، واغتيل على أثرها في العام ٢٤٩م.***

وفي عهد الإمبراطور ***جاللوس*** (*GALLUS*) (٢٥١ - ٢٥٣م) قام الساسانيون بغزو إنطاكية في عام ٢٥٣م واحتلوا عدن مناطق في سورية مثل ***قنسرين وأفامية وشيزر وحماة والرستن، إلا أنهم هزموا في مدينة حمص***، وتراجع الساسانيون إلى الفرات واستمرت الحرب وهدمت دورا أوروبوس بعد احتلالها لفترة عام ٢٥٣م، وتوقف إصدار العملة في إنطاكية. ***وتعزى هزيمة الساسانيين في حمص إلى أن أورانيوس أنطونيوس الذي كان ينتمي إلى عائلة الأمراء الكهنة والإمبراطورات السوريات قد تولى السلطة في حمص في ظروف استثنائية بسبب خطورة الأوضاع وضعف السلطات الرومانية، وسك نقوداً في حمص من الذهب والفضة والبرونز.***

أما في عهد الإمبراطور ***فاليريانوس*** (***VALERIANUS***) (٢٥٣ - ٢٦٠م) فقد برزت في تدمر أسرة (***أذينة***) الذي استطاع وقف الغزو الساساني، وأدّى دوراً مهماً في عهد الإمبراطور ***فاليريانوس*** الذي قام بعدة أعمال في ولاية سورية فأعاد بناء إنطاكية، وأنشأ دار سك للنقود فيها، وذلك من أجل الدفع للجنود، ووصل ***فاليريانوس*** إلى إنطاكية في أواخر عام ٢٥٤م أو مطلع ٢٥٥م. وفي عهده قام ***الساسانيون*** بالهجوم على إنطاكية عام ٢٥٦م، وكذلك على دورا أوروبوس في عام ٢٥٧م وانتصر ***فاليريانوس*** عليهم بمساعدة حاكم تدمر (***أذينة***)، ولذلك أنعم عليه فاليريانوس بعدة ألقاب أهمها لقب (**قنصل**) ومُنح المزيد من السلطات والتكريم. وعلى الرغم من الحالة السيئة للقوات الرومانية، فإن الإمبراطور ***فاليريانوس*** أصر على الدخول في مواجهة مع الساسانيين، وكانت النتيجة المتوقعة هي هزيمة الرومان في معركة قرب حمص عام ٢٦٠م واستيلاءهم على إنطاكية، ***حيث وقع فاليريانوس في الأسر، وسيق أسيراً إلى بلاد الفرس بعد أن تكبد خسائر فادحة في الأرواح والمعدات.***

انتهز الأعراب فرصة الكارثة التي حلت بالرومان، وأخذوا يهاجمون الخطوط الدفاعية الرومانية ومدنها، مما جعل من الأباطرة ممن جاء بعد ***فاليريانوس*** يقوم بتقوية الحصون وإعادة ترميم استحكاماتها. ومن هذه المدن التي تعرضت لغارات الأعراب ***درعا*** (***ADRAHA***) التي تكاثرت عليها الغارات[٤٤]. واستمر الغزو الساساني في عهد الإمبراطور ***جالينيوس*** (***GALLLINUS***) (٢٥٩ - ٢٦٨م) فعرض عليه (***أذينة***) أن يساعد في حربه ضد الساسانيين، وكان (***أذينة***) ***يقصد من وراء ذلك توسيع نفوذه،*** فرحب ***جالينيوس*** بهذه المساعدة، وفعلاً استطاع جنود تدمر أن يردوا الساسانيين على أعقابهم إلى نهر الفرات. ونتيجة لجهود (***أذينة***) أنعم عليه ***جالينيوس*** بلقب ***قائد الشرق*** (***DUX ORIENTIS***) وعينه قائداً على القوات الرومانية في الشرق، ويُعتقد أن ***جالينيوس*** أعطاه لقب (***إمبراطور***) عام ٢٦٢م. وبدأ (***أذينة***) ***يحكم سيطرته على المدن الواحدة تلو الأخرى، واستطاع القضاء على الثورة التي قامت ضده في إنطاكية عام ٢٦٢م، وأصبح (أذينة) يعتبر أهم شخصية في سورية والحاكم الفعلي فيها إلى حين فترة اغتياله في عام ٢٦٧م.***

خلف (***أذينة***) على العرش ابنه (***وهب اللات***)، وكان طفلاً صغيراً تولت الوصاية عليه أمه (***زنوبيا ـ الزبّاء***)، وكانت امرأة شديدة الطموح والذكاء. ***واستغلت زنوبيا حالة الضعف التي كانت تعاني منها الإمبراطورية الرومانية كهزيمتهم أمام الفرس، وخسارتهم بعض مقاطعاتهم في آسية الصغرى وشمالي سورية، بالإضافة إلى مشاكل عديدة واجهتهم في بلاد الإغريق وشمالي إيطالية، وفي ولاياتهم الغربية وفي شمالي إفريقية.*** وبدأت ***زنوبيا*** تنتقل من نصر إلى نصر بدءاً من عام (٢٦٨ - ٢٧١م) ***وانتزعت من الرومان أهم منطقة في سورية وهي العاصمة إنطاكية، وامتدت في توسعها حتى مصر وشمال الجزيرة العربية،*** وسار ابنها إلى مصر عام ٢٧٠م على رأس جيش كبير لتأمين طريق التجارة إلى الهند بعدما أغلق الساسانيون طريق الخليج

---

(٤٤) انظر : ***جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الأسلام ،*** الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٦٨.

العربي. ***وبسيطرة زنوبيا على سورية ومصر تحكّمت بأعظم مصدر للقمح بالنسبة للإمبراطورية الرومانية.*** ولم تكتف ***زنوبيا*** بذلك، بل تابعت توسعها في عهد الإمبراطور ***أورليانوس*** (***AURELIANUS***) (٢٧٠ - ٢٧٥م) حتى أصبح ملكها أشبه بالإمبراطورية. وسكت داراً للنقود في إنطاكية تحمل على أحد وجهيها رأس ***أورليانوس*** وعلى الوجه الآخر ***وهب اللات***، ومن ثم حذفت منها رأس ***أورليانوس*** مستغلة انشغاله في أمور الإمبراطورية الأخرى. ***وأعلنت عام ٢٧١م استقلال تدمر استقلالاً تاماً واتخذ ابنها وهب اللات لقب (أوغسطس) ووجه أمراً إلى دور السكة في كلٍ من إنطاكية والإسكندرية أن تسكا عملتهما مشفوعة بهذا اللقب***[٤٥]، ومنحته القطع النقدية عدة ألقاب شرفية منها ***رئيس القناصل، إمبراطور الرومان، إستراتيجي الرومان.*** أما والدته ***زنوبيا*** فلقبت نفسها بلقب (***أوغستا***) وأقيم لها تمثال على عمود عال في شارع الأعمدة في تدمر عام ٢٧١م، وسكّت نقوداً باسم ***زنوبيا أوغستا***. ولم تكتف ***زنوبيا*** بكل ذلك، بل أخذت تطالب بالسلطة الإمبراطورية، وعندها أدرك ***أورليانوس*** أنه لا بد من القضاء عليها، وخاصة بعد أن حلّ مشاكل الإمبراطورية في الغرب، وقرر أن يتوجه إلى الشرق لوضع حداً لطموحات ***زنوبيا***، وعندما وصل إلى ولاية سورية حارب الجيش التدمري واستطاع أن يهزمه في إنطاكية، ثم تقدم بعد ذلك إلى حمص وهزم جيشاً تدمرياً آخر في عام ٢٧٣م، ثم توجه نحو تدمر وحاصرها، وقاومت المدينة ببسالة، وحين أستبد اليأس بالملكة ***زنوبيا***، حاولت الفرار إلى بلاد الفرس، ولكن القوات الرومانية تمكنت من إلقاء القبض عليها وأسرها عند نهر الفرات، وقدمت للمحاكمة في حمص، وكان الإمبراطور حريصاً على الإبقاء على حياتها لكي يزيّن بها موكب انتصاره في روما. وبعد أن غادر ***أوريليانوس*** المنطقة أضطر إلى العودة مرة أخرى، حين بلغه نبأ ثورة أهل تدمر، فاقتحم المدينة، ونكّل بأهلها، وانتهت تدمر من ذلك الحين وتحولت إلى قرية صغيرة الشأن، ***وذلك بعد أن شكلت إمبراطورية لمدة خمس سنوات***. وعلى الرغم من قصر

(٤٥) انظر: ***عدنان البني تدمر والتدمريون***، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨، ص ٨١-٨٢.

الفترة التي حكم بها ***أورليانوس*** ، استطاع أن يعيد للإمبراطورية الوحدة السياسية والاستقرار المالي إلى حد ما وخاصة إنطاكية في السنين الأولى من حكمه ، فأعاد إليها الهدوء بعد معاناة ثلاثين عاماً من الغزو الساساني والنهب والتدمير ، ومن الاضطرابات الدينية والمدنية ، وبانهيار تدمر عادت التبادلات التجارية مع فارس عن طريق نصيبين ، وجاءت بعد ***أورليانوس*** مجموعة من الأباطرة (٢٧٥ ـ ٢٨٤م) حكموا فترات قصيرة ، لم يتسنّ لهم خلالها القيام بأية أعمال تستحق الذكر[٤٦].

ثامناً : حضارة سورية في عهد الرومان :

أهم ما ميّز الرومان بشكل واضح هو اهتمامهم بالطرق في سورية من إصلاح ورصف ، ويعكس هذا الاهتمام رغبتهم في تلبية مصالحهم العسكرية ، ***وذلك لصد الخطر البارثي ومن ثم الساساني ،*** وبمقارنة بسيطة بين مصوّر للطرق الرومانية القديمة مع مصوّر للطرق الحالية ، يتضح أن معظم الطرق الحالية توضّعت بجانب الطرق الرومانية القديمة أو قامت على آثارها ، وبما أن هذه الطرق ترتبط بتضاريس المنطقة لم يطرأ عليها إلا تغيير طفيف ، وهذا يدل على مدى أهمية المناطق الإستراتيجية التي أقيمت عليها هذه الطرق. كما أدّت الناحية الاقتصادية دوراً رئيسياً في إنشاء الطرق ، إذ أن حركة القوافل كانت العامل الأول في ثراء سورية ، وبالتالي مصدر ثراء كبير للأفراد ولمدن القوافل الشهيرة مثل دمشق وتدمر التي أدّت دوراً رئيسياً في القرنين الأولين من الميلاد ، إذ بلغت من الثراء حداً جعلها تصبح في القرن الثالث الميلادي عاصمة جزء مستقل من الإمبراطورية ، وذلك بدليل النقوش الأثرية التي عثر عليها في تدمر والتي تذكّر بالتعرفة الجمركية في عهد هادريانوس. ***وكانت من أهم طرق القوافل التجارية تلك التي تبدأ من إنطاكية في الغرب وتصل إلى سلوقية دجلة في***

---

(٤٦) حول الإمبراطورية الرومانية وتنظيماتها الإدارية في سورية بالتفصيل انظر : ***جورية كسواني ، الإدارة والتنظيمات الإدارية الرومانية في سورية (٦٤ ق٠م ـ ٣٠٥ م)*** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة دمشق ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ م.

الشرق عن طريق حلب، وتلك التي تبدأ من دمشق حتى دورا أوروبوس عن طريق تدمر، وهناك طريق ثالثة كانت تصل ما بين شمال غربي شبه الجزيرة العربية وتدمر عن طريق البتراء وبصرى، والطرق المختلفة التي كانت تربط مدينة حمص في وسط سورية. وكانت حركة المرور على طول هذه الطرق تتبع نظاماً غاية في الإحكام والمراقبة وتخضع لدوريات الحراسة وتأمين المياه على مسافات منتظمة، وتقوم على طولها الفنادق والاستراحات العامة. وقد ساعدت هذه الطرق على تطور ونمو المبادلات التجارية الداخلية والخارجية مما انعكس ذلك على توسع تجارة روما مع دول البحر الأبيض المتوسط وازدهار ولاية سورية الرومانية.

وقد اهتم الرومان بالإطار العمراني حيث تم ابتداع أنماط جديدة في فن العمارة كان لها تأثير على طرز البناء في العصور الرومانية والبيزنطية المتأخرة، وهو ما يمكن أن نشهده اليوم في مدن بعلبك وتدمر والبتراء، وهذا مما يدل على قوة الإدارة الرومانية في إنشاء الأبنية في كل مدينة وقرية من **آغورا، ومسارح، وشوارع، وحمامات عامة، وهياكل دينية، وملاعب رياضية، ووسائل تصريف مياه الأمطار، وإنشاء قنوات الري والإسقاء.** وقد ازدهرت الزراعة في عهد الرومان إلى حد كبير مما انعكس ذلك على تطور الصناعة والتجارة.

وأما الآثار التي خلّفها الرومان فتشهد على عظمتهم، كما تشهد على أهمية الثقافات المحلية التي استطاعت أن تحافظ على ذاتها وهي تستقبل المؤثرات الرومانية، وما آثار تدمر وآفامية وبصرى والكثير من المدن السورية الأخرى، إلا دليل على مدى التنوع الحضاري للثقافات السورية المحلية، ***إذ تُعد المقابر التدمرية من عجائب الآثار في الشرق الأدنى، إلى جانب المقابر الصخرية التي كانت لغريمتها البتراء، والتي أثار اكتشافها في القرن التاسع عشر صدى كبيراً في جميع أنحاء العالم،*** ويشير مثل هذا التنوّع الحضاري إلى مدى المرونة في الإدارة الرومانية التي أعطت اهتمامها للمدينة في المرتبة الأولى ثم تليها في المرتبة الثانية المستعمرة التي أسهمت في ترسيخ الوجود الروماني في الولاية.

ويلاحظ في الإدارة الرومانية غياب التوحيد الإداري لولاية سورية ، لأن ذلك يعبر عن موقف عام لدى السلطات الرومانية المتمثل بمراعاة الثقافات واللغات والممارسات القائمة ، لأن تغييرها لن يفيد الرومان ، بل على العكس قد يضر بمصالحهم ناهيك عن صعوبة تغيير هذه النظم في فترة قصيرة ، حيث أثبتت هذه النظم نجاحها واستمراريتها وثبات جذورها ، وخاصة أن الشعب اعتاد العيش تحت ظلال هذه النظم لفترات طويلة تمتد عبر مئات السنين. فلذلك نجد أن الرومان قد تركوا في البداية الاستقلال الذاتي للحكومات المحلية كما هي عليه.

بلغ عدد سكان سورية في العصر الروماني نحو عشرة ملايين نسمة ، وبلغ عدد سكان العاصمة السورية إنطاكية ما يقدّر بستمائة ألف نسمة ، وبذلك كانت تُعد ثالث مدينة في العالم الروماني. وهنا يجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند أول حدث تاريخي هام في العالم حدث في إنطاكية ***وهو إنشاء أول كنيسة مسيحية في العالم بمبادرة من القدّيس بولس الرسول أو (شاؤل) الذي ولد في كيليكية في مدينة طرسوس في حوالي العام ١٠ أو ١٢ م في عهد الإمبراطور بومبيوس،*** وكان من أصل يهودي خالص. وقد كان والده مواطناً رومانياً وتنتمي عائلته إلى حزب الفريسيين[٤٧] ، وحصل **بولس**

---

(٤٧) كان ***الفريسيّون*** اليهود هم أول من حرّفوا تعاليم شريعة موسى والتلمود وأدخلوا عليها محرّمات لا تدخل في عقل إنسان سليم. فلذلك كانوا من أشد أعداء المسيح ويلاحقونه في كل مكان لكي يكتشفوا تناقض تعاليمه مع شريعة موسى والتلمود. وهو ما كان يعطيهم الحجة الضرورية لتقديمه للمحاكمة ، خاصة أنهم كانوا قد قرروا التخلص منه بأي طريقة كانت ، ولم يكفّوا عن نصب المكائد للإيقاع به. وزادت حدة المواجهة بين الطرفين وبلغت ذروتها بعد أن أشفى المسيح يوم السبت مريضاً أقعده الشلل في إحدى ضواحي أورشليم. وكان ***المسيح*** قد قال أثناء ذلك للمريض الذي أبرأه : ***قم واحمل فراشك وامش*** ، فوقعت التهمة على ***المسيح*** نفسه ، لأنه هو الذي كان السبب في أن يحمل المعافى فراشه ويمضي إلى منزله في يوم السبت. وقد نظر الفريسيّون إلى ذلك الأمر ، باعتباره جريمة نكراء ارتكبها المسيح لقيامه بهذا العمل وانتهاكه لحرمة يوم السبت. ولم ينظروا أو يفكروا في تلك المعجزة الإلهية الإنسانية في شفاء المشلول منذ سنين طويلة وكأن شيئاً من هذا لم يكن. لقد فكّروا في محرّماتهم الزائفة وشريعتهم دون أن يفكروا في الإنسان وروحه. وجاء في الإنجيل (***يوحنا ٥ : ١٦***) (***وأخذ اليهود يلاحقون المسيح ساعين إلى قتله ، لأنه عمل هذه الأعمال يوم السبت***). انظر : ***ميغوليفسكي ، آ ، س*** ، ص ٤١٢.

علـى درجـة عاليـة مـن التعلـيم والثقافـة، وكانـت لغتـه في المحادثـة والكتابـة اللغـة الإغريقية، أما مهنته فهي صناعة السجاد والمنسوجات والخيام، وغدا **بولس** قائد حزب الفريسيين المتطرف في ماضيه حتى أقصى حدود التطرف. وكان لبولس إذن رسمي بالتنكيل بالمسيحيين فكان يلقي بهم في غياهب السجون ويأمر بجلدهم. ولمتابعة عمله هذا توجه إلى دمشق بصلاحيات خاصة لملاحقة المسيحيين وتوثيقهم إلى أورشليم. ***وفي دمشق تراءى له نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له : شاؤل شاؤل لماذا تضطهدني، فسأله شاؤل من أنت يا سيد ؟ فقال الرب : أنا يسوع الذي تضطهده، فسأل وهو مرتعد ومتحيّر ؟ يارب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال الرب : قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل. وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت، ولكن لا يرون أحداً، فنهض شاؤل من الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً(المكان تل كوكب مقام القديس بولس في جديدة عرطوز حالياً) وأدخلوه إلى دمشق (كنيسة حنانيا بالقرب من قوس باب شرقي في باب توما حالياً) وظل ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب (أعمال الرسل ٩ : ١ ـ ٩). ومن تلك اللحظة تحوّل شاؤل من اليهودية إلى المسيحية وأصبح تلميذاً للسيد المسيح وبدأ يبشّر بتعاليمه منطلقاً من دمشق ولما عرف أعداؤه بما فعله بولس أرادوا قتله فقام مرافقوه بتهريبه من دمشق عبر سور باب شرقي بواسطة دلو أقاموه لهذا الغرض (المكان نفسه الآن مقام القديس بولس على سور باب شرقي حالياً) ومن هناك هرب إلى حوران وظل فيها طوال ثلاث سنوات.*** وإضافة إلى إنشائه كنيسة إنطاكية، وبعد الزلزال الذي وقع في إنطاكية في ٢٣ آذار / مارس من العام ٣٧م الذي تسبب بأذى كبير للمدينة في عهد الإمبراطور **غايوس** الذي قدّم مساعدات ضخمة لإعادة بناء إنطاكية، ***نشأت أول طائفة مسيحية متعددة الأعراق أسسها عدد من المؤمنين بالمسيحية جاؤوا من قورينة وقبرص، وكانت تلك الطائفة أول طائفة مسيحية في إنطاكية، وكانت تختلف عن طائفة أورشليم المسيحية بأنها شديدة الحيوية ومتجددة دائمة التطور.***

لم يكن سكان إنطاكية من الإغريق فقط، ***بل كان فيها أيضاً سوريون وكثرة كثيرة من الأجانب،*** وقد عاش هؤلاء كلهم في الضواحي والقرى المجاورة. وحسب القانون كان كل غريب يستقر للعيش في المدينة يصبح مواطناً فيها له كل الحقوق، ولذلك عاش جميعهم بيسر وهناء، وأصبحت إنطاكية مركزاً من مراكز العالم القديم، تقطنها كثرة كثيرة من مختلف الأعراق، بما فيها مستعمرة يهودية كان لسكانها حسب القانون الحقوق الأخرى كلها التي كان يحظى بها السكان الآخرون.

وكانت كنيسة إنطاكية فوق قمة عالية لا تطال وتقع خارج حدود المملكة اليهودية، ***فلذلك كانت إنطاكية المهد الثاني بعد أورشليم، ومن حيث الأهمية المهد الأول للمسيحية لا تقارن بها الإسكندرية والقسطنطينية وروما بالذات،*** حتى تسمية (**مسيحيين**) ظهرت في إنطاكية. وهكذا أصبحت إنطاكية واحداً من المراكز العالمية التي لا تتوقف فيها حركة الشعوب، حيث كانت في تلك المراكز تُحسم أهم المسائل الدينية والاجتماعية في أزمنة الاستعمار الروماني. ***وكان سلّم توالي انتشار المسيحية بعد فلسطين، سورية، ثم قبرص، فآسية الصغرى، ومقدونية، واليونان، وإيطالية. وهكذا خضع ساحل المتوسط كله تقريباً في ذلك العهد للمسيحية***[٤٨].

وشكلت بيروت ميناءً رئيسياً ومركزاً ثقافياً كبيراً إذ كانت تضم بين أحضانها أشهر المدارس الشهيرة في القانون الروماني، وذاع صيت مدينة **صور** في جميع أنحاء العالم، وذلك بسبب الصبغة القرمزية (***الأرجوان***) التي كانت تقوم بصناعتها، واشتهرت ***صيدا بصناعة الزجاج*** التي كانت تصدّره إلى مصر وروسيا وإيطالية، وفي عهد **هيرودوس** (أواخر القرن الأول الميلادي) كانت ***أورشليم القدس*** تضم عدداً من السكان ما يقارب مائة ألف نسمة.

كان معظم هؤلاء السكان يتكلم ***اللغة السريانية***، وهي لهجة آرامية. وأما ***اللغة الإغريقية*** التي بقيت طوال العهدين السلوقي والروماني، فقد انحصر استخدامها في المدن السلوقية التي سكنتها غالبية إغريقية، وكانت معظم النقوش الأثرية تُكتب

---

(٤٨) انظر: المرجع السابق، ص ٤٥٧ ـ ٤٦٢.

بالإغريقية ، وكانت هي لغة الثقافة والأدب والفن ، وكانت مدينة **سلوقية دجلة** بالقرب من بغداد المركز الرئيسي للثقافة الإغريقية في بلاد ما بين النهرين. وأما ***اللغة اللاتينية*** فكانت لغة الإدارة الرسمية والقرارات الصادرة عن الحكومة الرومانية. أما أهالي القرى والحكومات والممالك المحلية فاعتمدوا ***لغتهم المحلية***، الأمر الذي أبطأ دخول سورية في البوتقة الرومانية.

أما بالنسبة إلى التقويم الروماني لم يُستخدم بشكل واضح إلا في المدن الكبرى ، إضافة إلى تلك التقاويم اعتمدت الممالك والسلالات المحلية تقاويم خاصة بها ، ***ويدل هذا أيضاً على عدم تقبّلها النظم الإدارية الرومانية ، على عكس أهالي المدن الذين أخذوا بها وانخرطوا في الجيش الروماني. ويعود عدم استطاعة روما على فرض نظم إدارية موحدة في كل أرجاء سورية إلى أتساعها وتعدد الوحدات الإدارية فيها.***

وعلى الصعيد الديني فقد خرجت من سورية ديانة جديدة لم تكن تُعرف سابقاً وهي ***الديانة المسيحية*** ، التي بدأت بالانتشار في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول الميلادي على الرغم من مقاومة الرومان لها وملاحقة أتباعها في الإمبراطورية. ***ومما سهّل عملية انتشار المسيحية وحدة اللغة ، وطرق المواصلات ، وسلامة التنقل. فوحدة الإمبراطورية كانت العامل الحاسم في انتشار المسيحية ،*** إذ كانت هذه تستولي بسرعة قياسية على كل مقاطعة من مقاطعاتها. لكن ذلك العمل استغرق عشرات السنين ، وما إن انقضى القرن الثالث الميلادي حتى تبين أنَّ ثمة في الدولة الرومانية ديانة قادرة على بث دم جديد ، وروح جديدة في جسد الدولة ، ***ولذلك باتت الكنيسة المسيحية الديانة الرسمية في الإمبراطورية وكان ذلك في زمن الإمبراطور ثيودوسيوس في العام ٣٩١م.***

وأخيراً يمكننا القول ، إنّ انعكاسات الإدارة على كل الأصعدة فتحت آفاقاً جديدة ، أكان ذلك على الصعيد الاجتماعي كتزايد عدد السكان ، أم على الصعيد الاقتصادي كإنشاء الطرق ودورها في تطور الاقتصاد ، أم على صعيد الفن كتطور الحركة العمرانية كالمسارح ودور التمثيل.





المصطلحـات العلميـة

أولاً : مصطلحات علمية عربية - إنكليزية

التسلسل	عربي	إنكليزي
١	الائتمان المصرفي	CREDIT BANK
٢	تحديد أوقات الأحداث	CHRONOGRAPHY
٣	تقسيم العمل المهني	DIVISION OF OCCUPATINAL LABOUR
٤	تقسيم العمل	DIVISION OF LABOUR
٥	الاقتصاد العيني	ECONOMY BARTER
٦	الاقتصاد النقدي	ECONOMY MONETARY
٧	الهيللينية	HELLENIC
٨	الهيللينستية	HELLENISTIC
٩	الهللينة	HELLENIZATION
١٠	اسم شعب (الاللوريون)	ILLYRIANS
١١	التجارة الدولية	INTERNATIONAL TRADE
١٢	لقب	NIKATORION
١٣	تنظيم	ORGANIZATION
١٤	ظواهر طبيعية	PHAINOMENA
١٥	اسم شعب (البايونيون)	PAEONIANS
١٦	ملعب رياضي	STADIUM
١٧	مكان عبادة يهودي	SYNAGOGUE

ثانياً: مصطلحات علمية عربية - يونانية لاتينية:

التسلسل	عربي	يوناني - لاتيني
١	**فرقة عسكرية خاصة**	AGIMA
٢	ضريبة تجارة الرقيق	ANDRAPODIKON
٣	موظف كبير	ARCHIDIKASTES
٤	الزمار (لقب)	AULETES
٥	بلاد العرب الصخرية	ARABIA PETREA
٦	قصر	AYLE
٧	سوق عامة	AGORA
٨	حاكم	ARCHON
٩	هبة	APHESIS
١٠	ظاهرة هروب	ANACHORESIS
١١	أرض الإسكندريين	ALEXANDREON CHORA
١٢	مزارعو الملك	BASILIKOI GEOAGOI
١٣	كاتب ملكي	BASILIKOS GRAMMATEUS
١٤	منطقة قصور ملكية	BRUCHEION
١٥	مجلس شورى	BOULE
١٦	أرض ملك	GE BASILIKE
١٧	أرض عطاء	GE ENAPHESEI
١٨	**أرض معبد**	GE HIERA
١٩	إقطاعات موظفين	GE EN DOREAI
٢٠	إقطاعات عسكرية	GE KLEROUCHIA

التسلسل	عربي	يوناني - لاتيني
٢١	أراضٍ ملكية شخصية	GE KTEMATA
٢٢	أراضي مدن	GE POLITIKE
٢٣	ناد رياضي - ثقافي	GYMNASIOM
٢٤	خزانة مالية ملكية	GAZOPHOLAKION
٢٥	خلفاء الإسكندر	DIADOCHI
٢٦	قطعة قماش	DIADEMA
٢٧	وزير مالية	DIOIKITIS
٢٨	اسم شهر	DIOS
٢٩	المدن العشر	DECAPOLIS
٣٠	اسم إله	ELAGABALOS
٣١	ضريبة بيع وشراء	EPONION
٣٢	رسم الاستيراد	EISAGOGIS
٣٣	رئيس حسابات	EKLOGSISTES
٣٤	كاتب رسائل	EPISTOLOGRAPHUS
٣٥	مشرف مالي	EPIMELETES
٣٦	مشروع استصلاح زراعي	EMPHYTEUSIS
٣٧	فرقة عسكرية	EVAKAI
٣٨	ما بعد خلفاء الإسكندر	EPIGONAI
٣٩	مراقب	EPISTATES
٤٠	جمعية شعبية	EKKLESIA
٤١	محافظ مدينة	EXEGETES
٤٢	رجال القصر	HOI PERI TENAULEN
٤٣	حلبة سباق خيل	HIPPODROMOS
٤٤	اسم إله	HELIOS

التسلسل	عربي	يوناني - لاتيني
٤٥	مساعد وزير مالية	HYPODIOEKTES
٤٦	سكرتير ملك	HYPOMVEMATOGRPHOS
٤٧	مقاطعة	HESEPU _ NOMOS
٤٨	رئيس إدارة ملكية	HO EPI TONPROSODON
٤٩	القطع الزائد	HYPORBOLA
٥٠	مساحة من الأرض	KLEROI
٥١	اسم قلعة	KAPHRENA
٥٢	سكرتير قرية	KOMOGRAMMATEUS
٥٣	إقطاع	KLEROS
٥٤	صاحب إقطاع	KLEROUCHOS
٥٥	قرية	KOME
٥٦	مندوب	LEGATUS
٥٧	قضاة مصريون	LAOKRITAE
٥٨	رسم المرفأ	LIMIN
٥٩	رسم الباب	LIMENOS
٦٠	دار علم (بات الفنون)	MOUSION
٦١	معبد	MUSAE
٦٢	سائق فيل	MAHOUT
٦٣	اتباع من اليهود	MAKKABAEOS
٦٤	آلهة النصر	NIKE
٦٥	مشرف ديني	NEOKROS
٦٦	مدافن	NICROPOLIS
٦٧	أعلى نهر العاصي	ORONTOS
٦٨	مدير مالي	OECONOMOS

التسلسل	عربي	يوناني - لاتيني
٦٩	الفيلق	PHALANX
٧٠	فرقة الرفاق المشاة	PEZETAIROI
٧١	اسم مستعمرة	POSIDIUM
٧١	جالية قومية	POLITEUMATA
٧٢	جزية	PHOROS
٧٣	رسم انتقال مائي	PIOION EUPHRATOU
٧٤	اسم تمثال	PSYCHE
٧٥	القطع المكافئ	PARBOLA
٧٦	فهرس مكتبة	PINAKES
٧٧	قنصل سابق	PRO CONSUL
٧٨	موظف كبير	PROCURATOR
٧٩	حاكم روماني	PROPRATOR
٨٠	بلاد العرب	PRVENCIA ARABIA
٨١	اسم خطبة	PANEGYRICUS
٨٢	دولة المدينة اليونانية	POLIS
٨٣	اسم معبد	PTAH
٨٤	عادة السجود	PROSKYNESIS
٨٥	الأصدقاء	PHILOI
٨٦	الأصدقاء الأول	PRINCEPS AMICORUM
٨٧	مهرجان ديني	PTOLEMAEA
٨٨	حق المواطنة	POLITEIA
٨٩	رماح	SARISSA
٩٠	قائد	STRATEGOS
٩١	اسم إله	SARAPIS

يوناني - لاتيني	عربي	التسلسل
SOLOI	اسم قلعة	٩٢
SERAPEUM	معبد	٩٣
SEPTUAGINT	ترجمة سبعينية	٩٤
SYRIA PHALESTINA	ولاية سورية الفلسطينية	٩٥
SOTER	لقب	٩٦
SOMATOPHOPHYLAKES	مجلس مشورة	٩٧
SYNEDRION	مجلس ملك	٩٨
TIMOMENON PHILON	الأصدقاء المشرفون	٩٩
TOPOS – TOPARCHIA	منطقة	١٠٠
TOPOGRAMMATEUS	سكرتير منطقة	١٠١
TO BASILEION	قصر	١٠٢
TYCHE OF ANTOCH	اسم تمثال	١٠٣
TO BSILIKON	إدارة مالية	١٠٤
YAHWA	اسم إله	١٠٥

ثبت مسلسل الأحداث التاريخية

ق.م :

- ٧٥٣ - ٥٠٩، نشوء روما الأسطوري، إعلان العهد الملكي في روما.
- ٦١٦ - ٥٠٩، حكم الملوك الأتروسكيين.
- ٥٠٩، خلع آخر ملك أتروسكي.
- ٥٠٨ - ٣٠ إعلان النظام الجمهوري في روما.
- ٣٥٨، زواج فيليب من أولمبياس والدة الإسكندر.
- ٣٥٦ - ٣٢٣، عصر الإسكندر.
- ٣٤٩، استيلاء فيليب على بلدة (ستاجيرا) مسقط رأس أرسطو.
- ٣٤٣ - ٣٤٠،، أرسطو أستاذ الإسكندر.
- ٣٣٨، موقعة (خايرونية)، وهي الموقعة التي انتصر فيها فيليب المقدوني وخضع بنتيجتها كل بلاد اليونان لسيطرته.
- ٣٣٧، مؤتمر كورنثة، وهو المؤتمر الذي دعا إليه فيليب جميع المدن اليونانية، لأجل إقامة حلف هلليني تحت زعامته.
- ٣٣٦، اغتيال فيليب المقدوني، ارتقاء الإسكندر ودارا الثالث عرش بلادهما.
- ٣٣٥، الإسكندر يحرق طيبة ويبدأ الحملة الفارسية.
- ٣٣٤، بداية زحف الإسكندر للشرق، موقعة كرانيكوس قرب الدردنيل التي مهدت للإسكندر الاستيلاء على آسية الصغرى.
- ٣٣٣، موقعة إيسوس قرب الإسكندرونة، التي مهدت للإسكندر السيطرة على سواحل سورية وفينيقية وفلسطين ومكّنته من فتح مصر، إعدام بارمينيون من قبل الإسكندر.

- ٣٣١، موقعة جاوجميلا قرب الموصل التي مهدت للإسكندر الاستيلاء على الإمبراطورية الفارسية، الإسكندر في بابل وسوسة.
- ٣٣٠، إعدام فيلوتاس ابن بارمينيون من قبل الإسكندر.
- ٣٢٩ - ٣٢٨، الإسكندر يغزو آسية الوسطى، إعدام كليتوس شقيق مرضعة الإسكندر من قبل الإسكندر.
- ٣٢٧ - ٣٢٥، الإسكندر في الهند، زواج الإسكندر من (روكسانا) ابنة أحد زعماء البدو البكتريين أوكسو آرتس، ولادة هرقول ابن الإسكندر من زوجته الثانية (بارسيني) لم يخلف الإسكندر لأنه من زواج غير شرعي، إعدام (كاليسيثنيس) ابن أخت أرسطو من قبل الإسكندر لأنه تزعم حركة المعارضة ضد تصرفات الإسكندر المتمشرقة.
- ٣٢٤، إقامة الإسكندر أول حفل زواج جماعي في التاريخ، وزواج الإسكندر من (ستاتيرا) و (باريزاتيس)، زواج سلوقس الأول من (أباما) الفارسية، انتفاضة التمرد والعصيان ضد الإسكندر.
- ٣٢٣، وفاة الإسكندر، وولادة ابنه الإسكندر الرابع، بداية الحضارة الهللينستية.
- ٣٢٣ - ٢٨٥، بطليموس الأول (سوتير) يؤسس أسرة البطالمة في مصر.
- ٣٢٣، بلاد اليهود تصبح ولاية سورية.
- ٣٢١، تقسيم إمبراطورية الإسكندر، مؤتمر (تريباراديسوس) الذي أعاد تنظيم الإمبراطورية المقدونية.
- ٣٢٠، بطليموس الأول يستولي على أورشليم، نقل العاصمة المصرية من (منف) إلى (الإسكندرية).
- ٣١٨ - ١٩٨ خضوع فلسطين لسلطان البطالمة.
- ٣١٧ - ٣٠٧، ديمتريوس الفاليري يتولى السلطة في أثينة.
- ٣١٦، كاسندر ملك مقدونية.
- ٣١٥ - ٣٠١، أنتيجونس الأول ملك مقدونية.

- ٣١٤، أنتيجونس الأول يعلن حرية بلاد اليونان، قدوم زينون إلى أثينة.
- ٣١٣، موقعة (غزة) بين سلوقس الأول وحلفائه ضد ديمتريوس ابن أنتيجونس.
- ٣١٢ - ١٩٨، بلاد اليونان تخضع للبطالمة.
- ٣١٢ - ٢٨٠، سلوقس الأول (نيكاتور) يؤسس الإمبراطورية السلوقية.
- ٣١٢، عودة سلوقس من مصر إلى بابل، بدء التقويم السلوقي الجديد.
- ٣٠٧، ديمتريوس ابن أنتيجونس يقوم باحتلال أثينة.
- ٣٠٦، أبيقور يفتتح مدرسته في أثينة.
- ٣٠٥، بطليموس ملكاً على مصر، بطليموس الإله.
- ٣٠١، سلوقس الأول يؤسس مدينة إنطاكية، موقعة (إيسوس) بين سلوقس الأول وحلفائه ضد ديمتريوس ابن أنتيجونس.
- ٣٠٠، يوتوخيدس يقوم بنحت تمثال (توخي إنطاكية) بتكليف من سلوقس الأول.
- ٢٩٠، مدرسة النحت الرودوسية.
- ٢٨٠، مصرع سلوقس الأول.
- ٢٨٨ - ٢٧٠، استرابون رئيس اللوقيون.
- ٢٧٨، تمثال رودوس الضخم.
- ٢٦٣ - ٢٤١، الحرب البونية الأولى بين قرطاجة وروما.
- ٢٣٩ - ٢٢٩، ديمتريوس الثاني ملك مقدونية.
- ٢٢٥، زلزال يدمر رودوس.
- ٢٢٣ - ١٨٧، استيلاء أنطيوخس الثالث على جوف سورية.
- ٢٢١، تولي هانيبال قيادة قرطاجة.
- ٢١٩ - ٢٠٢، الحرب البونية الثانية بين قرطاجة وروما.
- ٢١٧، موقعة (رفح)، بين الملك المصري بطليموس الرابع والملك السلوقي أنطيوخس الثالث انتصر فيها البطالمة.
- ٢١٥ - ١٦٣، ازدهار إنطاكية في عهد الملك أنطيوخس الرابع.

- ٢٠٠، أول اتصال بين روما والدولة السلوقية.
- ١٩٦، زواج ملك مصر من كليوباترة ابنة أنطيوخي الثالث بموجب معاهدة.
- ١٨٩، معركة ماجنيسيا بين الرومان والدولة السلوقية، لقي فيها أنطيوخس الثالث هزيمة مثقلة.
- ١٨٨، صلح (أباما) بين الرومان والدولة السلوقية، وهو صلح مهين بحق أنطيوخس الثالث.
- ١٨٣، انتحر هانيبال بتجرّع السم.
- ١٧٥ - ١٣٨، ميتراداتس الأول ملك بارثيا.
- ١٧٣، وفاة كليوباترة شقيقة أنطيوخس، وكانت تحكم مصر وصية على ابنها بطليموس السادس.
- ١٦٨، معركة (بيدنا) بين الرومان وبرسيوس ملك مقدونية.
- ١٦٧، احتفال (دافني) الضخم في إنطاكية.
- ١٦٥، جوداس مكابي يعيد الصلوات في المعبد.
- ١٦٣، وفاة أنطيوخس الرابع.
- ١٦٠، حصول ديمتريوس على اعتراف الرومان ملكاً سلوقياُ.
- ١٦١، جوداس مكابي يعقد معاهدة مع روما.
- ١٦٠، هزيمة جوداس مكابي ووفاته.
- ١٥٠ - ١٤٦، الحرب البونية الثالثة بين قرطاجة وروما.
- ١٤٦، سقوط قرطاجة بيد الرومان.
- ١٤٣، مقتل أنطيوخس السادس.
- ١٣٨ - ١٢٩، الملك السلوقي أنطيوخس السابع .
- ٨٣، تيجرانس ملك أرمينية يستولي على إنطاكية.
- ٧٠ - ١٩، الشاعر الروماني فرجيليوس.
- ٦٥ - ٨، الشاعر الروماني هوراتيوس.

- ٦٤، سقوط سورية بيد الرومان.
- ٦٤ - ٤٩، عهد الإمبراطور الروماني بومبيوس.
- ٥١ - ٣٠، كليوباترة السابعة في مصر.
- ٥١، وفاة بطليموس الزمار والد كليوباترة السابعة.
- ٤٨ - ٤٤، عهد الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر.
- ٤٣ - ٣٠، عهد الإمبراطور الروماني ماركوس أنطونينوس.
- ٣٧، زواج أنطونينوس من كليوباترة السابعة .
- ٣٧ - ٤، هيرودوس حاكم الولاية اليهودية.
- ٣٤، وضع سورية المجوّفة تحت سيطرة كليوباترة السابعة
- ٣١، موقعة (أكتيوم) بين أوكتافيوس وأنطونينوس، انتصر فيها أوكتافيوس .
- ٣١ ق.م - ١٤م، عهد الإمبراطور أوكتافيوس (أوغسطس) .
- ٣٠، سقوط مصر بيد الرومان.
- ٩ ق.م - ٤١م، الحارث الرابع ملكاً على الأنباط.
- ٦، ضم المملكة اليهودية إلى الرومان.

ب.م :

- ١٤ - ٣٤، عهد الإمبراطور تيبيريوس .
- ١٧، ضم مملكة كوماجيني إلى الرومان.
- ١٩، ضم مملكة تدمر إلى الرومان.
- ٣٧، ضم دمشق لمملكة الأنباط أيام الحارث الرابع ملك الأنباط.
- ٣٧ - ٤١، عهد الإمبراطور غايوس كاليغولا.
- ٤١ - ٥٤، عهد الإمبراطور كلاوديوس.
- ٤٤، وفاة (أغريبا) الملك اليهودي.
- ٥٤ - ٦٨، عهد الإمبراطور نيرون، إحراق روما الشهير.

- ٦٦، قمع نيرون لثورة اليهود واستيلائه على كل بلاد اليهود ما عدا أورشليم.
- ٦٩ - ٧٩، عهد الإمبراطور فلافيوس فسباسيانوس.
- ٧٠، سقوط أورشليم في يد تيتوس الوالي الروماني.
- ٧١ - ١٠٦، عهد الملك النبطي رابل الثاني.
- ٨١ - ٩٦، عهد الإمبراطور دوميتيانوس.
- ٩٦ - ٩٨، عهد الإمبراطور نيرفا.
- ٩٨ - ١١٧، عهد الإمبراطور ترايانوس.
- ١٠٤ - ١٠٨، الوالي الروماني كورنيليوس بالما يخضع المملكة النبطية للرومان، وأعطاها تسمية بلاد العرب.
- ١١٥، ثورة اليهود الكبرى في قورينة.
- ١١٦، استيلاء ترايانوس على مدينة طيسفون عاصمة بارثيا.
- ١١٧ - ١٣٨، عهد الإمبراطور هادريانوس.
- ١٣٢ - ١٣٥، الوالي الروماني ماركيلوس يقمع ثورة بار - كوخيا اليهودية.
- ١٣٨ - ١٦١، عهد الإمبراطور أنطونينوس بيوس.
- ١٦١، البارثيون يهاجمون سورية بقيادة ملكهم فولوجيز الرابع وهزيمة القوات الرومانية.
- ١٦١ - ١٨٠، عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونينوس.
- ١٩٤ - ٢١١، عهد الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس.
- ١٩٤، معركة إيسوس بين سبتيميوس سيفيروس وبسكينيوس نيجر انتهت بهزيمة نيجر.
- ١٩٦، حملة سيفيروس العسكرية ضد البارثيين.
- ٢٠٢، تحويل مدينة إنطاكية إلى مرتبة قرية بسبب انحيازها إلى نيجر.
- ٢١١ - ٢١٧، عهد الإمبراطور كراكلا، دستوره الشهير في حق المواطنة الرومانية، والدته جوليا دومنا.

- ٢١٧ - ٢١٨، عهد الإمبراطور ماكرينوس.
- ٢١٧، حملة ماكرينوس العسكرية إلى بلاد ما بين النهرين، انتهت بمعاهدة مهينة بماكرينوس.
- ٢١٨ - ٢٢٢، عهد الإمبراطور إيلاباجالوس، ونشر عبادة الإله الفينيقي إيلاباجال في روما.
- ٢٢٢ - ٢٣٥، عهد الإمبراطور سيفيروس الكسندر، ووالدته جوليا مايسة.
- ٢٢٦، سقوط الدولة البارثية وقيام الأسرة الساسانية.
- ٢٣١، الملك الفارسي أردشير الثاني يغزو بلاد ما بين النهرين انتهت بانتصار سيفيروس الكسندر.
- ٢٣٥، مقتل سيفيروس الكسندر.
- ٢٣٨ - ٢٤٤، عهد الإمبراطور جورديانوس الثالث.
- ٢٤١، الساسانيون يهاجمون دورا أوروبوس بقيادو ملكهم شابور الكبير.
- ٢٤٤ - ٢٤٩، عهد الإمبراطور فيليب العربي.
- ٢٤٩، اغتيال الإمبراطور فيليب العربي.
- ٢٥١ - ٢٥٣، عهد الإمبراطور جاللوس.
- ٢٥٣، غزو الساسانيين لإنطاكية واحتلالهم عدة مدن وهزيمتهم في مدينة حمص.
- ٢٥٣ - ٢٦٠ عهد الإمبراطور فاليريانوس.
- ٢٥٦، الساسانيون يهاجمون إنطاكية.
- ٢٦٠، هزيمة الرومان في موقعة عسكرية مع الساسانيين ووقوع الإمبراطور فاليريانوس في الأسر.
- ٢٥٩ - ٢٦٨، عهد الإمبراطور جالينيوس.
- ٢٦٢ - ٢٦٧، فترة حكم أذينة ملك تدمر.
- ٢٦٨ - ٢٧١، انتصارات زنوبيا وانتزاعها إنطاكية العاصمة السورية من يد الرومان.

- ٢٧٠ - ٢٧٥ ،عهد الإمبراطور أورليانوس.
- ٢٧١، إعلان زنوبيا ملكة تدمر استقلالها عن الرومان.
- ٢٧٣، مملكة تدمر تسقط بيد الرومان وأسر زنوبيا.
- ٢٩٦، اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس المسيحيين في الإسكندرية.
- ٣٧٩ - ٣٩٥، عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، اضطهاد الوثنية ومعابدها، الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة رسمية في الإمبراطورية الرومانية.

ثبت المراجع والمصادر المستخدمة في البحث

أولاً: المراجع العربية والمعرّبة:

١ - العبادي، مصطفى: مصر في العصر الهللينستي، بيروت ١٩٨٨م.

٢ - العبادي، مصطفى: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، القاهرة ١٩٨٥م.

٣ - العابد، مفيد رائف: الإسكندر الكبير، دراسة في فكره السياسي والعسكري، مجلة الفكر العسكري، العدد٢، دمشق ١٩٧٨م.

٤ - العابد، مفيد رائف: سورية في عصر السلوقيين، دمشق ١٩٩٣م، دار شمأل للطباعة والنشر.

٥ - العابد، مفيد رائف: الجيش السوري في العصر الهللينسني، مجلة الفكر العسكري، دمشق ١٩٧٥م، العدد الثاني.

٦ - الناصري، سيد: تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى في العصر الهللينستي، القاهرة ١٩٩٢م.

٧ - الناصري، سيد: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، القاهرة ١٩٧٥م.

٨ - الروبي، آمال: مصر في عصر الرومان، القاهرة ١٩٨٠ م.

٩ - أحمد علي، عبد اللطيف: مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، القاهرة ١٩٦٥م.

١٠ - إبراهيم، محمد حمدي: الأدب الإسكندري، القاهرة ١٩٨٥م.

١١ - آيدرس، بل. هـ: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، بيروت ١٩٨٨م.

١٢ - الزين، محمد : دراسات في تاريخ الرومان، الجزء الثاني، دمشق ١٩٨٨ - ١٩٨٩ م.
١٣ - الدبس، يوسف : من تاريخ سورية الديني والدنيوي، المجلد الثالث والرابع ١٨٩٣ م، مجلد ٣.
١٤ - إيمار، آندرية، وبواية، جانين : تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد داغر، مجلد ٢، بيروت ١٩٦٤م.
١٥ - البني، عدنان، تدمر والتدمريون، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨م.
١٦ - بن فاتك، أبو الوفاء المبشّر : مختار الحكم ومحاسن الكلم، أخبار الإسكندر، تحقيق عبد الرحمن بدوي، إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠م.
١٧ - برستد، ه- : فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦م
١٨ - بدوي، عبد الرحمن : دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٥م.
١٩ - بيكرمان، ي : الدولة السلوقية (ملوك سورية السلوقيين)، ترجمة حسان إسحق، مطابع ألف باء، دمشق ١٩٩٣م.
٢٠ - تارن، وو الإسكندر الكبير، قصته وتاريخه، ترجمة زكي علي، مراجعة محمد سليم سالم، القاهرة ١٩٦٣م.
٢١ - جنتر، جون : الإسكندر الكبير، ترجمة فاروق حافظ القاضي، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود، مكتبة الآنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.
٢٢ - جلانفيل، داوني : إنطاكية القديمة، ترجمة إبراهيم نصحي، القاهرة ١٩٦٧م.
٢٣ - دانترز. ج. م : سورية الجنوبية، ترجمة أحمد عبد الكريم، ميشيل العيسى، سالم العيسى، الجزء الأول، دمشق ١٩٨٨ م.
٢٤ - ديورانت، ول : قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الثاني، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٥٣م.

٢٥ - ديورانت، ول : قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد الثاني، الكتاب الثــامن، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٥٤م.
٢٦ - رستم، أسد : تاريخ اليونان من فيليبوس المقدوني إلى الفتح الروماني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩م.
٢٧ - رومين، باترسون : دراسة للإيكندر بوصفه بطلاً من أبطال العالم، ترجمة عبــد الفتاح صدقي في كتاب : السير جون. آ. هامرتن، تاريخ العالم، المجلد الثالث، نشر مكتبة النهضة المصرية، دون تاريخ.
٢٨ - رستوفتزف، م : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاقتصادي والاجتماعي، ترجمــة زكي علي، محمد سليم سالم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٧م
٢٩ - راديس، بيتي : فتح بلاد الغال (يوليوس قيصر)، ترجمة علي زيتون، إصــدار دار علاء الدين، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م.
٣٠ - رولف، شتوكي : (الموسم الثاني للتنقيب في تل الحــاج، حــوض الفــرات) الحوليات الأثرية العربية السورية، ترجمة قاســم طــوير، مجلــد ٢٥، دمــشق ١٩٧٥م.
٣١ - زهيراتي، متوديوس : الإسكندر الكبير (فنوحاته وريــادة الفكــر اليونــاني في الشرق)، دمشق، دار طلاس، ١٩٩٩م.
٣٢ - سارتر، موريس : تدمر مدينة ذات طابع روماني، الحوليات الأثريــة العربيــة السورية، ترجمة عدنان البني، مجلّد ٤٢، دمشق ١٩٩٦م.
٣٣ - شيفمان. أ. ش : المجتمع السوري القديم، ترجمة حسان إســحق، منــشورات مؤسسة الوحدة، دمشق.
٣٤ - شيخو، لويس : بيروت تاريخها وآثارها، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.
٣٥ - سعيد مرعي، عيد : موجز في تاريخ الــشرق الأدنى في العــصرين الهللينــستي والروماني، بيشة، مكتبة الخبتي الثقافية، السعودية ٢٠٠٦ م.
٣٦ - صفا، محمد أسد الله : الإسكندر المقدوني الكبير، بيروت، دار النفائس ١٩٨٥ م.

٣٧ - عبد العليم، مصطفى كمال : اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨م.
٣٨ - علي، زكي : كليوباترة، سيرتها وحكم التاريخ عليها، القاهرة، دون تاريخ.
٣٩ - علي، جواد : المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٠م.
٤٠ - عبد الغني، محمد السيد : لمحات من تاريخ مصر تحت الحكم الروماني، الإسكندرية ١٩٩٩م.
٤١ - عبد الباقي، محمد فهمي : ضريبة الرأس في مصر الرومانية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٧٩م .
٤٢ - عز الدين، عبد الحميد : مدينة حمص في العهد الروماني، مجلة دراسات تاريخية، الجزء ٢٩ - ٣٠، دمشق ١٩٨٨م.
٤٣ - عياد، محمد كامل : تاريخ اليونان، دمشق ١٩٦٩م.
٤٤ - فرح، أبو اليسر : الشرق الأدنى في العصرين الهللينستي والروماني، القاهرة ٢٠٠٢م.
٤٥ - فرح، أبو اليسر : حملات الإسكندر وتطور المعلومات الجغرافية عند الإغريق، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد ٢٧، الجزء الثاني، ١٩٩٩م.
٤٦ - فرح، أبو اليسر : النيل في المصادر الإغريقية، القاهرة ١٩٩٥م.
٤٧ - فرح، أبو اليسر: الدولة والفرد في مصر في عصر الرومان، القاهرة ١٩٩٥م
٤٨ - فرح، نعيم : تاريخ بيزنطة، القرن الرابع حتى القرن الثامن م، الأمالي الجامعية، ١٩٧٦ - ١٩٧٧م.
٤٩ - كسواني، جورية : الإدارة والتنظيمات الإدارية الرومانية في سورية (٦٤ ق.م - ٣٠٥م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق ٢٠٠٤ -٢٠٠٥م.
٥٠ - كوكية، جان بول ري :، الكتابات اليونانية واللاتينية في بصرى، الحوليات الأثرية العربية السورية، ترجمة سليمان مقداد، مجلّد ١٥، دمشق ١٩٦٥م.

٥١ - مايرهوف، ماكس : (بحث في تاريخ التعليم الفلسفي والعلمي عند العرب) في كتاب : التراث اليوناني في الحضارة العربية الإسلامية، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥م.

٥٢ - محفّل، محمد : تاريخ الرومان، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٧٤ م.

٥٣ - مقداد، خليل : حوران عبر التاريخ، دار حوران للنشر، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٩٦م.

٥٤ - مجموعة من المؤلفين السوفييت، الجديد حول الشرق القديم، إصدار دار التقدم، موسكو ١٩٨٨م.

٥٥ - ميغوليفسكي. آ. س : أسرار الآلهة والديانات، ترجمة حسان إسحق، إصدار دار علاء الدين، الطبعة الأولى، دمشق ٢٠٠٥م.

٥٦ - نصحي، إبراهيم : تاريخ مصر في عصر البطالمة، أربعة أجزاء، القاهرة، الجزء الأول، ١٩٨٠م.

٥٧ - وليم، لانجر : موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة.

٥٨ - وورث، تشارلز :، الإمبراطورية الرومانية، إشراف إدارة الثقافة العامة، الإقليم الجنوبي ١٩٥٠م.

٥٩ - يحيى، لطفي عبد الوهاب، تاريخ العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٧٩م.

٦٠ - يحيى، لطفي عبد الوهاب : دراسات في العصر الهللينستي، بيروت ١٩٨٨م.

ثانياً: المراجع باللغة الأجنبية:

1- ARNOLD TOYNBEE: L HISTOIR ENCYCLLOP ELSEVIER 1975.

2 – A, HEITZ: FRAGMENTA ARISTOTELES, PARIS.

3 -A, K: BOWMAN: EGYPT AFTER THE OHARAOHS, LONDON 1986.

4 - BEVAN. E: A HISTORY OF EGYPT UNDRE THE PTOLEMAIC, DINASTY, 1927.

5 - ELLIS, WALTER: PTOLIMY OF EGYPT, LONDON 1994.

6 - E. A. PARSON: THE ALEXANDRIA LIBRARY, LONDON 1952.

7 - E, DEPLACES: LA RELIGION GRECQUE, PICARD 1969.

8 - F, CUMONT: LES RELIGIONS ORIENTALES DAN LE PAGANISME ROMAIN 1936.

9 - CRIFFITH. G. I: THE MEREENARIES OF THE HELLENISTIC WORLD, CAMBRIDGE 1936.

10 - G, RADET: ALEXANDRE LE GRAND ARTISAN DU LIVRE 8 ED.

11 - G. GROTE: HISTORY OF GREECE 12 V. EVERMANLIBRARY.

12 - GRANGER.J. D: THE CITIES OF SELEUKID SYRIA, OXFORD, 1990.

13 - GLOTZ. G: ANCIENT GRECE AT WORK. N. Y 1926.

14 - GRANT, M: FROM ALEXANER TO CLEOPATRA THE HELLENISTIC WORLD, LONDON 1982.

15 - JOUGUET, P: MACEDONIAN IMPERIALIZM AND THE HELLENIZATION OF THE EAST, LONDON 1929.

16 - JARDE, A: LES CEREALES AND L ENTIQUITE GREQUE, PARIS 1925.

17 - MILLAR, FERGUS: THE ROMAN NEAR EAST, 31 B. C – A. D 337, ED, HARVARD 1994.

18 - PIERRE ROUSSEAU: DE LA SCIENCE, FAYARD.

19 - ROSTOVTZEFF, M: SOCIAL AND ECONOMIC HISTORY OF THE ROMAN EMPIRE, OXFORD 1926.

20 - ROSTOVTZEFF, M: THE SOCIAL AND ECONOMIC HISTORY OF THE HELLENSTIC WORLD, OXFORD 1941.

21 - WALBANK F. W: THE HELLENISTIC WORLD, LONDON 1992.



ثالثاً: المصادر الأدبية:

1 - A MMIANUS MARCELLINUS: TR, JOHN C. ROLF L. C. L. 1972.

2 - APPIANUS. SYR: APPIAN, ROMAN HISTORY. SYRIN WARS TR. HORTAS WHITE L. C. L, 1972.

3 - DIO CASSIUS: ROMAN HISTORY L. C. L 1970.

4 - DIODOROS OF SICILY: TR C. E. FRANCIS R. WALTER L. C. L.

5 - HORATIUS, ODES: TR C. E BENETT L. C. L 1968.

6 - HERODUTUS. THE HISTORIES: TR A. R BURN 1972.

7 - LIBANIUS, ANTIOCHIKOS: SELECTED WORKS: TR: A. F NORMAN. L. C. L 1969.

8 - LIVY: TR B. O FOSTER L. C. L 1967.

9 - O. C. I. S: ORIENTIS GRAECI INSCRIPITIONES SELECTAE ED. W. DITTENBERGER. LEIPZIG 1903 – 1905.

10 - P, LOND: GREEK PAPYRI IN THE BRITISH MEUSUM I – IV, ED KENYON, BELL. LONDON 1917 – 1938.

11 - PLINY: NATURAL HISTORY: TR H. RACKHAM L. C. L 1969.

12 - PLUTARCHUS: CAESAR. TR: BERNADO TTE PERRIN L. C. L 1967.

13 - POLYBIUS: THE HISTORIES. TR: W. R PATON L. C. L 1968.

14 - S. E. G: SUPPLEMENTUM EPIGRAPHICUM. LEIDEN 1922 – 1938.

15 - STRABON: GEOGRAPHY. TR: H. L JONES L. C. L 1966.

16 - TACITUS, HISTORY.

17 - JOSEPHUS: JEWISH ANTIQITIES: TR. LOUIS H FEIDMAN L. C. L 1969.



ملحق الصـور






























وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University


Damascus University






وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University














وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University






وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University




وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University




Damascus University




Damascus University




Damascus University

المدقق اللغوي:

الأستاذ الدكتور شوقي المعري